التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الزمر

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق
الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقا)

الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزمر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد التاسع والعشرون - سورة الزمر/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٩٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٩٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة الزمر - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٩٥٥٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩٥٥٤

ردمك: ٣-٩٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزمر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوي بن عبد القَادِر السَّقَّاف

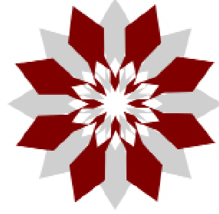
المجلد التاسع والعشرون

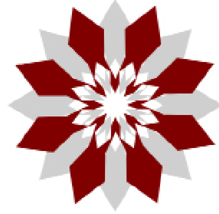
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

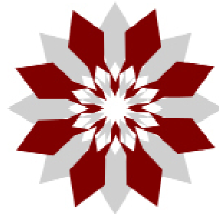
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الزُّمَرِ







سورةُ الزُّمَرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّمَرِ)(١).

فعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا ينامُ على فِراشِه حتَّى يَقرأَ كُلَّ لَيلةٍ ببَني إسرائيلَ والزُّمَرِ))(٢).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

كما جاء في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها السَّابقِ.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ(٣)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٤).

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لاشتمالِها على الآيةِ الَّتي ذُكِرَ فيها زُمَرُ الفَريقَينِ، ولِوقوعِ هذا اللَّفظِ فيها دونَ غَيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٠) واللفظ له، وأحمد (٢٤٣٨٨)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٤).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٧٥)، وحسَّنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦٥)، وجوَّد إسنادَه ووثَّقَ رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (١٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٢٠).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَينِ نزَلَتا بالمدينةِ؛ إحداهما قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ...﴾ [الزمر: ٢٣]، والأُخرى قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ...﴾ [الزمر: ٥٣]. وقيل: إلَّا سَبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ...﴾ [الزمر: ٥٣] إلى آخِرِ السَّبعِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٩).

(٤) ممَّن حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨٧).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إثباتُ تفَرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ[١].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ، والثَّناءُ على اللهِ تعالى الَّذي أنزَلَه على نَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالحَقِّ.

٢- الأمرُ بإخلاصِ العبادةِ لله، وبَيانُ شُبهةِ الَّذين عَبَدوا غَيرَه وإبطالُها، وذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّته؛ مِن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وتَسخيره الشَّمسَ والقَمَرَ، وخَلقِ الإنسانِ... إلى غيرِ ذلك.

٣- مُقارَنةٌ بيْنَ أحوالِ الكافِرينَ وأحوالِ المؤمِنينَ، وبَيانُ عاقِبةِ الصَّابِرينَ.

٤- ذِكرُ بَعضِ التَّوجيهاتِ للمُؤمِنينَ، وبَيانُ حُسنِ عاقِبتِهم؛ ووَعيدُ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ، وبَيانُ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ.

٥- بَيانُ بَعضِ دَلائِلِ وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه.

٦- ذِكرُ إنزالِ اللهِ تعالى للقُرآنِ، ومَدحُه وبيانُ حالِ المؤمِنينَ معه.

٧- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ومُحاجَّةِ المُشرِكينَ، وبَيانُ ما هم عليه مِن ضَلالٍ، وما لَهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

٨- ذِكرُ حالِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٢).

٩- ذِكرُ ما يدُلُّ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ سُبحانَه بعِبادِه، ودَعوتُهم إلى الإنابةِ إليه قبْلَ نُزولِ العَذابِ، والنَّدَمِ على التَّفريطِ حيثُ لا يَنفَعُ النَّدَمُ.

١٠- عَرضُ بَعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ وأهوالِها، وأحوالِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ، وما أُعِدَّ لكُلٍّ منهما، وتَسبيحُ الملائِكةِ الحافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ بحَمدِ رَبِّهم، وخَتْمُ السُّورةِ بحَمدِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.



الآيات (١-٤)

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ
اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْلِيَاءَ﴾: أي: أصنامًا يَتولَّونَهم بعبادتِهم ودعائِهم، وأصْلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ[(١)].

﴿زُلْفَىٰ﴾: أي: قُربةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[(٢)].

﴿لَّاصْطَفَىٰ﴾: أي: لَاختار، ولَاجتبَى، وأصلُ (صفو): خُلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن هذا القُرآنِ الكَريمِ أنَّه تَنزيلٌ مِن عِندِه سُبحانَه، وهو العزيزُ الغالِبُ، المُمتَنِعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا له: إنَّا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ بالحَقِّ، فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عِباداتِك. ألَا للهِ وحْدَه الطَّاعةُ الخالِصةُ مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

ثمَّ يذكرُ سُبحانَه ما عليه المُشرِكونَ مِن ضَلالٍ، فيقولُ: والمُشرِكونَ الَّذين اتَّخَذوا مَعبوداتٍ باطِلةً يَعبُدونها مِن دونِ اللهِ يَقولونَ: ما نَعبُدُ هذه المعبوداتِ إلَّا لِتُقَرِّبَنا إلى اللهِ قُرْبى! إنَّ اللهَ يَفصِلُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما هم فيه مُختَلِفونَ في الدُّنيا، إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذِبٌ شديدُ الكُفرِ.

ثُمَّ يُبَيِّنُ الله سبحانَه أنَّه لا وَلَدَ له؛ ردًّا على مَن زعَم ذلك، فيقولُ: لو أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى أن يتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لَاختار ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم! تَنزَّهَ اللهُ عن الولَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، هو الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصفاتِه وأفعالِه؛ القهَّارُ الَّذي ذلَّ له وخضَع كُلُّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ شديدِ القوَّةِ، الغالِبِ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، والمُمتَنِع عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمِ في شَرعِه وخَلقِه وقَدَرِه، فيَضَعُ كُلَّ

شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ المُشتَمِلَ على الحقِّ؛ فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ، ومِن ذلك الإخبارُ بألوهيَّةِ اللهِ، والأمرُ بعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[٢].

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ هذا الكِتابَ مُشتَمِلٌ على الحَقِّ والصِّدقِ؛ أردَفَه ببَيانِ بَعضِ ما فيه مِن الحَقِّ والصِّدقِ[٣].

وأيضًا لَمَّا امتَنَّ تعالى على رَسولِه بإنزالِ الكِتابِ عليه بالحَقِّ، وكان الحَقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣-١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).
والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ قيل: للملابَسة، أي: أنزَلْنا إليكَ القرآنَ مُلابسًا للحقِّ. وقيل: للسَّببيَّة، أي: أنزَلْناه بسببِ الحقِّ، أي: إثباتِه وإظهارِه. وقيل: للتَّعديةِ، أي: أنَّ ما اشتَمَل عليه القرآنُ فهو حقٌّ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣١).

إخلاصَ العبادةِ لله؛ أمَرَه تعالى بعبادتِه[١].

وأيضًا لَمَّا كان الكِتابُ نازِلًا مِنَ الحَقِّ، مُشتَمِلًا على الحَقِّ لِهدايةِ الخَلقِ، على أشرَفِ الخَلقِ؛ عَظُمَت فيه النِّعمةُ وجَلَّت، ووجَبَ القِيامُ بشُكرِها، وذلك بإخلاصِ الدِّينِ لله؛ فلهذا قال[٢]:

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عباداتِك الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، ولا تُشرِكْ به شَيئًا، ولا تَقصِدْ بعِبادتِك حَظًّا دُنيويًّا[٣].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانَه رسولَه بهذا الأمرِ نادى باستِحقاقِه لذلك، وأنَّه لم يَطلُبْ غَيرَ حَقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصَوَّرُ أن يكونَ لِغَيرِه سُبحانَه[٤].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾.

أي: ألَا للهِ وَحْدَه الطَّاعةُ والعِبادةُ النَّقيَّةُ مِن شوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤١).

المُستَحِقُّ وحْدَه لإفرادِه بالعبادةِ؛ فلا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان خالِصًا له وحْدَه دونَ ما سِواه(١).

عن أبي أُمامةَ الباهِليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أرأيْتَ رَجُلًا غَزا يَلتَمِسُ الأجرَ والذِّكرَ، ما لَه؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا شَيءَ له! فأعادها ثلاثَ مَرَّاتٍ، يقولُ له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا شَيءَ له! ثمَّ قال: إنَّ اللهَ لا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان له خالِصًا، وابتُغِيَ به وَجهُه))(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه أنَّ رأسَ العباداتِ ورَئيسَها الإخلاصُ في التَّوحيدِ؛ أردفَه بذَمِّ طَريقةِ المُشرِكينَ(٣)، وبيَّن شُبهتَهم الَّتي احتجُّوا بها للإشراكِ به تعالى(٤) الَّذي هو مُخالِفٌ للإخلاصِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧، ٣١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه من طُرقٍ: النَّسائيُّ (٣١٤٠) واللَّفظُ له، والطبرانيُّ (٨/ ١٦٥) (٧٦٢٨).

جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٤٠)، وابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٨١)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٣٥)، والصنعاني في ((سبل السلام)) (٤/ ٦٨)، وحسَّن إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ١١٢)، وقال الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١٤٠): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

أي: والمُشرِكونَ الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتولَّونَهم ويَعبُدونَهم يقولونَ: ما نَعبُدُهم إلَّا لِيُقرِّبونا إلى اللهِ قُربةً منه ومَنزِلةً في الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَفصِلُ بَيْنَهم[2] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٩-٣١).

قال السعدي: (أي: لِتَرفعَ حوائِجَنا لله، وتَشفَعَ لنا عندَه، وإلَّا فنحن نعلَمُ أنَّها لا تَخلُقُ، ولا تَرزُقُ، ولا تَملِكُ مِن الأمرِ شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤).

وقال الشوكاني: (والموصولُ [أي: قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾]: عبارةٌ عن المشركين، ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ، وخبرُه قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وجملةُ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ بتقديرِ القولِ، والاستثناءُ مُفَرَّغٌ مِن أعمِّ العللِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٢) اختلَف المفسِّرونَ في عَودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ فقيل: أي: بيْنَ أهلِ الأديانِ. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥).

وقيل: بيْنَ الكفرةِ والمشركين، ومُقابِليهم مِن المُسلِمينَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨). =

يومَ القيامةِ فيما هم فيه يَختَلِفونَ في الدُّنيا[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ إلى الحَقِّ كُلَّ مَن هو كاذِبٌ على اللهِ، شَديدُ الكُفرِ به، فيَصِفُه بما لا يَليقُ به، ويتَّخِذُ مِن دُونِه أولياءَ، ويَدَّعي أنَّ عِبادتَهم تُقرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى[(٢)]!

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

= وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الَّذين اتَّخَذوا أولياءَ. والمرادُ بـ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: اختِلافُ طرائِقِهم في العبادةِ، وفي أنواعِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢).

قال ابن عاشور: (ومعنى الحُكمِ بيْنَهم أنَّه يُبَيِّنُ لهم ضلالَهم جميعًا يومَ القيامةِ؛ إذ ليس معنى الحُكمِ بيْنَهم مُقتضيًا الحُكمَ لفريقٍ منهم على فريقٍ آخَرَ، بل قد يكونُ الحُكمُ بيْنَ المُتخاصِمَينِ بإبطالِ دَعوى جميعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

وقال الواحدي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بيْنَ أهلِ الأديانِ، وهم الَّذين اتَّخذوا مِن دونِه أولياءَ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٧٠).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الَّذين اتَّخَذوا أولياءَ مِن دون الله، وأوليائِهم، أي: بيْنَ المُتَّخِذينَ والمُتَّخَذينَ، والمعنى: إنَّ الله يَحكُمُ بيْنَهم بأنَّه يُدخِلُ الملائكةَ وعيسى عليهم السَّلامُ الجنَّةَ، ويُدخِلُهم النَّارَ مع الحجارةِ الَّتي نَحَتوها وعبَدوها مِن دون الله تعالى. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والرسعني، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٣).

وقال العُلَيمي: (بيْنَ العابدِ والمعبودِ، والمسلمِ والكافرِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣، ٣٤).

ﭐﻟۡﻘَﻬَّﺎﺭُ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه بالحُكمِ بيْنَهم، فكان ذلك -مع تضَمُّنِه التَّهديدَ- وافيًا بنَفيِ الشَّريكِ، كافيًا في ذلك؛ لأنَّ المحكومَ فيه لا يجوزُ أن يكونَ قَسيمًا للحاكِمِ، فلم يَبْقَ في شَيءٍ مِن ذلك شُبهةٌ إلَّا عندَ ادِّعاءِ الوَلَديَّةِ: قال نافيًا لها على سَبيلِ الاستِئنافِ، جوابًا لِمَن يقولُ: فما حالُ مَن يتولَّى الولَدَ[١]:

﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾.

أي: لو أراد اللهُ أن يَتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لاختارَ ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم[٢]!

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ عن الوَلَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[٣].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾.

أي: هو اللهُ الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، لا شَبيهَ له مِن خَلْقِه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

قال ابن كثير: (هذا شَرطٌ لا يَلزَمُ وُقوعُه ولا جوازُه، بل هو مُحالٌ، وإنَّما قَصَد تَجهيلَهم فيما ادَّعَوه وزَعَموه... ويجوزُ تعليقُ الشَّرطِ على المُستحيلِ؛ لِقَصدِ المتكَلِّمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

ولا نِدَّ له ولا شَريكَ ولا نَظيرَ؛ وهو القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغَلَبه بقُدرتِه، فذَلَّ له وخَضَع(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في وَصفِ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ القرآنَ بالحِكمةِ ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وفي هذا إرشادٌ إلى وُجوبِ التَّدبُّرِ في معاني هذا الكِتابِ؛ لِيُتوصَّلَ بذلك التَّدبُّرِ إلى العِلمِ بأنَّه حَقٌّ من عندِ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٢) [فصلت: ٥٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ العِبادةَ دِينٌ يَدينُ به الإنسانُ، ومعنى كَونِه دِينًا: أنَّه يَعمَلُ لِيُثابَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه ينبغي للإنسانِ حينَ العبادةِ أن يُلاحِظَ هذا المعنى -وهو أنَّه يَعمَلُ لِيُثابَ- لأنَّه إذا شَعَر بهذا الشُّعورِ فسوف يُتقِنُ العَمَلَ؛ إذ إنَّ العَقلَ يَهدي الإنسانَ إلى أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العَمَلِ؛ إنْ أحسنْتَ العمَلَ حَسُنَ الثَّوابُ، وإنْ قَصَّرْتَ فالثَّوابُ يَنقُصُ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ التَّحذيرُ من الكَذِبِ وخِصالِ الكُفرِ، وأنَّ الكَذِبَ سببٌ لِمَنعِ الهدايةِ، والقاعِدةُ في ذلك: «أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ وُجِدَ بوُجودِه»، وانتفَى بانتفائِه، ويدُلُّ لهذا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧).

وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ))[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أنَّ الصِّدقَ سَبَبٌ للهِدايةِ. وَجْهُه: أنَّه إذا كان الكذِبُ سَبَبًا للغَوايةِ، فضِدُّه سببٌ لضِدِّه؛ فيَكونُ الصِّدقُ سَبَبًا للهدايةِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: التَّرغيبُ في الصِّدقِ، والصِّدقُ يَكونُ مع اللهِ، ومع رَسولِ اللهِ، ومع عِبادِ اللهِ؛ فالصِّدْقُ مع اللهِ هو بالإخلاصِ له، ومع الرَّسولِ هو باتِّباعِه، ومعَ عِبادِ اللهِ هو بحُسنِ المعاملةِ؛ فعليك بالصِّدقِ: ((فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا))[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ دَلَّ استِقراءُ القُرآنِ العَظيمِ على أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا إذا ذكَرَ تَنزيلَه لكِتابِه، أتْبَعَ ذلك ببَعضِ أسمائِه الحُسنى المُتضَمِّنةِ صِفاتِه العُليا؛ ففي أوَّلِ هذه السُّورةِ الكريمةِ لَمَّا ذكَرَ تَنزيلَه كِتابَه، بيَّن أنَّ مَبدأَ تَنزيلِه كائِنٌ منه جَلَّ وعلا، وذكَرَ اسمَه (اللهَ)، واسمَه (العزيزَ) و(الحَكيمَ)، ولا يخفَى أنَّ ذِكرَه جَلَّ وعلا هذه الأسماءَ الحُسنى العَظيمةَ بعدَ ذِكرِه تَنزيلَ هذا القُرآنِ العَظيمِ: يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمةِ القُرآنِ العَظيمِ، وجَلالةِ شَأنِه، وأهمِّيَّةِ نُزولِه[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ غيرُ مَخلوقٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧).
والحديثُ جزءٌ من حديثِ ابنِ مسعودٍ الذي تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥١).

ووجْهُ كَونه مُنَزَّلًا ظاهِرٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ووجْهُ كَونه غيرَ مخلوقٍ: أنَّ الإنزالَ إذا أُضِيفَ إلى عَينٍ قائمةٍ بنَفْسِها فهذه العَينُ مَخلوقةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وإذا أُضِيفَ إلى وَصفٍ كان هذا الوَصفُ حسَبَ الموصوفِ، والكلامُ وَصفٌ؛ فإذا كان اللهُ أنزَلَ القرآنَ -وهو كَلامٌ- وأضافه إلى نَفْسِه، فهو عزَّ وجَلَّ -هو بصِفاتِه- أزَلِيٌّ أبَدِيٌّ ليس بمَخلوقٍ، واجبُ الوجودِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ ممَّن هذا وَصْفُه -والكلامُ وَصفٌ للمُتكَلِّم، والوَصفُ يَتْبَعُ الموصوفَ- فكما أنَّ الله تعالى هو الكامِلُ مِن كلِّ وَجهٍ، الَّذي لا مَثِيلَ له؛ فكذلك كلامُه كامِلٌ مِن كُلِّ وَجهٍ، لا مَثِيلَ له؛ فهذا وَحْدَه كافٍ في وَصفِ القُرآنِ، دالٌّ على مَرتبتِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ على عُلُوِّ اللهِ؛ وَجْهُه: أنَّه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ومِن: للابتداءِ؛ فإذا كان ابتِداءُ الكتابِ مِن عندِ اللهِ -وهو مُنَزَّلٌ- دَلَّ على عُلُوِّ مَن كان مِن عِندِه، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ سؤالٌ: لَفظُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزمر: ١] يُشعِرُ بأنَّه تعالى أنزَلَه منَجَّمًا على سبيلِ التَّدريجِ، ولفظُ «الإنزالِ» يُشعِرُ بأنَّه تعالى أنزَلَه دَفعةً واحِدةً؟

الجوابُ: أنَّ طَريقَ الجَمعِ أن يُقالَ: إنَّا حكَمْنا حُكمًا كُلِّيًّا بأن نُوصِلَ إليك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥-١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨).

هذا الكِتابَ، وهذا هو الإنزالُ، ثمَّ أوصَلْناه إليك نَجمًا نَجمًا على وَفقِ المصالحِ، وهذا هو التَّنزيلُ[(١)].

أو: أنَّه نزَل جملةً واحدةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ أُنزِل بعدَ ذلك مُفرَّقًا[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ أنَّ مَن لم يَبْلُغْه القُرآنُ لم تَلزَمْه العِبادةُ، ووَجهُ ذلك: أنَّ الفاءَ للتَّفريعِ -وعَلامةُ فاءِ التَّفريعِ أنَّ ما بعدَها يكونُ مُرَتَّبًا على ما قبْلَها- فالمعنى: «فلِإنزالِنا إليك الكتابَ اعبُدِ اللهَ مخلِصًا له الدِّينَ»، ويدُلُّ لهذا آياتٌ أُخرَى، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[(٣)] [الإسراء: ١٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الكِتابِ عليه نِعمةٌ كُبرى، تَقتَضي أنْ يُقابِلَها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالشُّكرِ بإفرادِ الله تعالى بالعِبادةِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إشراكَ المُشرِكينَ باللهِ غَيرَه في العِبادةِ كُفرٌ لنِعَمِه الَّتي أنعَمَ بها؛ فإنَّ الشُّكرَ صَرفُ العَبدِ جَميعَ ما أنعَمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ لِأجْلِه، وفي العِبادةِ تَحقيقُ هذا المَعنى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[(٤)] [الذاريات: ٥٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يَقبَلُ إلَّا دِينًا خالِصًا، وأمَّا ما سِواه فليس لله، حتَّى وإنْ أشرَكْتَ به مع الله؛ لأنَّ الدِّينَ لله: هو الخالِصُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤،٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦).

النَّقيُّ مِن شوائِبِ الشِّركِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ في العبادةِ، والإخلاصُ: تَنقيةُ الشَّيءِ مِمَّا يَشُوبُه؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: أنَّ اللهَ تعالى قال: ((أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ غِنَى اللهِ عزَّ وجلَّ الغِنى التَّامَّ، ووَجهُ ذلك: أنَّه إذا كان اللهُ لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا، دلَّ على غِناه عن عَمَلِ العِبادِ؛ لأنَّه -وحاشاه مِن ذلك- لو كان فَقيرًا مُحتاجًا لِذلك لَاكتفَى بما يأتيه منهم، ولو على سَبيلِ المُشارَكةِ، كالإنسانِ المُحتاجِ يَقبَلُ منك ما كان خاصًّا له، وما كان مُشتَرَكًا، فلمَّا كان اللهُ لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا عُلِمَ بهذا غِناه عن العِبادِ، وإلى هذا يُشيرُ قولُه تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ: ((أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ))[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ مَفطورًا على الخُضوعِ للمَلِكِ الدَّيَّانِ، ولا يَلتَفِتُ إلى غيرِه إلَّا بمُعالَجةِ النَّفْسِ بما لَها مِنَ الهوى والطُّغيانِ؛ عبَّرَ بصيغةِ الافتِعالِ، فقال: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أي: عالَجوا عُقولَهم حتَّى صَرَفوها عن اللهِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥).

والحديثُ تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تَنبيهٌ على خَطَئِهم في رِضاهم بالأدْنى عن الأعلَى، ومَعلومٌ أنَّ كُلَّ شَيءٍ دُونَه(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أنَّ المُشرِكينَ في عَهدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقِرُّون بوُجودِ اللهِ تعالى، وأنَّه أعظَمُ مِن كلِّ عَظيمٍ، فهم مُعترِفونَ باللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه أعظَمُ مِن أصنامِهم؛ ولهذا جَعَلوها وسيلةً للتَّقرُّبِ إليه(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الوَسائِطِ مِن دُونِ اللهِ هو مِن أصولِ كُفرِ الكُفَّارِ(٣).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ هذه الشُّبهةُ هي الَّتي اعتَمَدها المُشرِكونَ في قديمِ الدَّهرِ وحَديثِه، وجاءَتْهم الرُّسُلُ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم أجمعينَ- برَدِّها والنَّهيِ عنها، والدَّعوةِ إلى إفرادِ العبادةِ لله وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّ هذا شَيءٌ اختَرَعه المُشرِكونَ مِن عندِ أنفُسِهم، لم يأذَنِ اللهُ فيه، ولا رَضِيَ به، بل أبغَضَه ونهَى عنه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وأخبَرَ أنَّ الملائِكةَ الَّتي في السَّمَواتِ -مِن المقَرَّبينَ وغَيرِهم- كُلُّهم عَبيدٌ خاضِعونَ لله، لا يَشفَعونَ عِندَه إلَّا بإذنِه لِمَنِ ارتَضَى، وليسوا عندَه كالأُمراءِ عندَ مُلوكِهم، يَشفَعونَ عِندَهم بغيرِ إذنِهم فيما أحَبَّه الملوكُ وأبَوْه، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠٣).

ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. تعالى اللهُ عن ذلك(١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أنَّ هؤلاء قاسُوا الَّذي ليس كمِثلِه شَيءٌ، المَلِكَ العَظيمَ: بالملوكِ، وزَعَموا بعُقولِهم الفاسِدةِ ورأيِهم السَّقيمِ أنَّ الملوكَ كما أنَّه لا يُوصَلُ إليهم إلَّا بوُجَهاءَ وشُفَعاءَ ووُزراءَ يَرفَعونَ إليهم حوائِجَ رعاياهم، ويَستَعطِفونَهم عليهم، ويُمهِّدون لهم الأمرَ في ذلك؛ أنَّ الله تعالى كذلك! وهذا القياسُ مِن أفسَدِ الأقيسةِ، وهو يَتضَمَّنُ التَّسويةَ بيْنَ الخالِقِ والمخلوقِ، مع ثُبوتِ الفَرقِ العظيمِ عقلًا ونَقلًا وفِطرةً؛ فإنَّ الملوكَ إنَّما احتاجوا للوَساطةِ بيْنَهم وبيْنَ رعاياهم لأنَّهم لا يَعلَمونَ أحوالَهم، فيَحتاجُون مَن يُعلِمُهم بأحوالِهم، ورُبَّما لا يكونُ في قُلوبِهم رَحمةٌ لصاحِبِ الحاجةِ، فيَحتاجُون مَن يُعَطِّفُهم عليه، ويَسترحِمُه لهم، ويحتاجونَ إلى الشُّفَعاءِ والوُزَراءِ، ويخافونَ مِنهم؛ فيَقضُونَ حوائِجَ مَن توسَّطوا لهم؛ مُراعاةً لهم، ومُداراةً لخواطِرِهم، وهم أيضًا فُقَراءُ؛ قد يَمنَعونَ لِما يَخشَونَ مِن الفَقرِ، وأمَّا الرَّبُّ تعالى فهو الَّذي أحاط عِلمُه بظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، الَّذي لا يَحتاجُ مَن يُخبِرُه بأحوالِ رعيَّتِه وعبادِه، وهو تعالى أرحَمُ الرَّاحِمينَ، وأجوَدُ الأجوَدِينَ، لا يَحتاجُ إلى أحَدٍ مِن خَلْقِه يَجعَلُه راحِمًا لعبادِه، بل هو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالدِيهم، وهو الَّذي يَحُثُّهم ويَدْعوهم إلى الأسبابِ الَّتي يَنالُونَ بها رَحمتَه، وهو يريدُ مِن مَصالِحِهم ما لا يُريدونَه لأنفُسِهم، وهو الغَنيُّ الَّذي له الغِنى التَّامُّ المُطلَقُ، الَّذي لو اجتمَعَ الخَلقُ مِن أوَّلِهم وآخِرِهم في صَعيدٍ واحدٍ فسَألوه، فأعطَى كلًّا منهم ما سَأل وتمنَّى: لم يَنقُصوا مِن غِناه شيئًا، ولم يَنقُصوا ممَّا عندَه إلَّا كما يَنقُصُ البَحرُ إذا غُمِسَ فيه المِخْيَطُ! وجميعُ الشُّفَعاءِ يَخافونَه؛ فلا يَشفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥).

منهم أحَدٌ إلَّا بإذْنِه، وله الشَّفاعةُ كُلُّها. فبهذه الفُروقِ يُعلَمُ جَهلُ المُشرِكينَ به، وسَفَهُهم العَظيمُ، وشِدَّةُ جَراءتِهم عليه، ويُعلَمُ أيضًا الحِكمةُ في كَونِ الشِّركِ لا يَغفِرُه اللهُ تعالى؛ لأنَّه يَتضَمَّنُ القَدْحَ في الله تعالى؛ ولهذا قال حاكِمًا بيْنَ الفريقَينِ: المُخلِصينَ والمُشرِكينَ -على قولٍ في التَّفسيرِ- وفي ضِمنِه التَّهديدُ للمُشرِكينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[١]!

١٧- لَمَّا حكَى الله تعالى مَذهبَ المشركينَ اقتَصَر في الجوابِ على مجرَّدِ التَّهديدِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّجُلَ المُبطِلَ إذا ذَكَر مَذهَبًا باطِلًا، وكان مُصِرًّا عليه؛ فالطَّريقُ في علاجِه أن يُحتالَ بحِيلةٍ تُوجِبُ زَوالَ ذلك الإصرارِ عن قَلبِه، فإذا زال الإصرارُ عن قَلبِه فبعدَ ذلك يُسمِعُه الدَّليلَ الدَّالَّ على بُطلانِه؛ فيَكونُ هذا الطَّريقُ أفضَى إلى المقصودِ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أنَّهم ليس لهم أصلٌ يَضبِطُهم؛ فهم لا يَرجِعونَ إلَّا إلى الخَلفِ كيفَما تقلَّبوا؛ لأنَّهم مَظروفون لذلك العمَلِ الَّذي مبناه الهوى الَّذي هو مَنشَأُ الاختِلافِ، فكيف إذا انضَمَّ إلى ذلك خِلافُ المُخلِصينَ وإنكارُهم عليهم، الَّذي أرشَدَ إليه اعتِذارُهم؟! فظهَرَ مِن هذا أنَّ اختِلافَ الأئمَّةِ في فَهمِ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لقواعِدَ مُعتبَرةٍ استَنبطوها مِن ذلك لا يَخرُجونَ عنها: ليس مِن الخِلافِ المذمومِ؛ لِوَحدةِ ما يَرجِعونَ إليه مِنَ الأصلِ الصَّحيحِ الثَّابتِ عن اللهِ[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أنَّ الكُفرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٦).

سَبَبٌ للغَوايةِ، ويُؤَيِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥][١]، وأنَّ مَن أصَرَّ على الكَذِبِ والكُفرِ بَقِيَ مَحرومًا مِن الهِدايةِ[٢].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: دائِمٌ على كُفرِه وكَذِبِه، أو لا يَهديه إلى حُجَّةٍ يُلزِمُ بها المؤمِنينَ[٣]، أو يكونُ المعنى: إنَّ اللهَ لا يَهدي الكاذبَ الكفَّارَ في حالِ كذبِه وكفرِه، أو يَكونُ لفظُها العمومَ ومعناها الخصوصَ فيمَن ختَم الله عليه بالكفرِ، وقضَى في الأزلِ أنَّه لا يؤمنُ أبدًا، وإلَّا فقد وُجِد الكاذبُ الكَفَّارُ وقد هُدِيَ كثيرًا[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المؤمِنَ هداه اللهُ إلى إيمانِه، وهو حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ في أشياءَ؛ فمِنها: ما يَزعُمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ليس له في فِعلِ العبدِ صُنعٌ بمَعونةٍ ولا غَيرِها! وقد أخبَرَ نصًّا هاهنا أنَّ الكافرَ مُحتاجٌ إلى هدايةِ اللهِ إيَّاه، وأنَّ المؤمِنَ به اهتدى. ومنها: ما يَلزَمُهم في ادِّعاءِ العَدْلِ الَّذي لا يَعقِلونَه، مِن مُطالَبةِ الكافِرِ بالإيمانِ، وعُقوبتِه على الكُفرِ، وليس يَقدِرُ على ما أُمِرَ به إلَّا بهدايةِ آمرِه[٥]!

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ إبطالُ إلهيَّةِ أصنامِ المشركينَ، وقد بُنِيَ الدَّليلُ على قاعِدةِ استِحالةِ الوَلَدِ على اللهِ تَعالى؛ إذْ بُنِيَ القياسُ الشَّرطيُّ[٦] على فَرضِ اتِّخاذِ الوَلَدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩١، ٤٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٨).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣).
(٦) يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ١٦٣)، ((الموافقات)) للشاطبي (٥/ ٤٢١).

لا على فَرضِ التَّوَلُّدِ، فاقتَضى أنَّ المُرادَ باتِّخاذِ الوَلَدِ التَّبَنِّي؛ لِأنَّ إبطالَ التَّبَنِّي بهذا الاستِدلالِ يَستَلزِمُ إبطالَ تَوَلُّدِ الابنِ بالأَوْلى، وعَزَّزَ المَقصودَ مِن ذِكرِ فِعلِ الاتِّخاذِ بتَعقيبِه بفِعلِ الاصطِفاءِ على طَريقةِ مُجاراةِ الخَصمِ المُخطِئِ؛ لِيُغيرَ في مَهواةِ خَطَئِه، أيْ: لو كان لِأحَدٍ مِنَ اللهِ نِسبةُ بُنوَّةٍ لَكانت تلك النِّسبةُ التَّبَنِّيَ، لا غيرُ؛ إذْ لا تُعقَلُ بُنوَّةٌ للهِ غيرُ التَّبَنِّي، ولو كان اللهُ مُتبَنِّيًا لَاختارَ ما هو الأليَقُ بالتَّبَنِّي مِن مَخلوقاتِه دُونَ الحِجارةِ الَّتي زَعَمتُموها بَناتٍ للهِ. وإذا بَطَلتْ بُنوَّةُ تلك الأصنامِ الثَّلاثةِ المَزعومةِ، بَطَلتْ إلَهيَّةُ سائرِ الأصنامِ الأُخرى الَّتي اعترَفوا بأنَّها في مَرتَبةٍ دونَ مَرتَبةِ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ بطَريقِ الأَوْلى، واتِّفاقِ الخَصمَيْنِ؛ فقدِ اقتَضى الكَلامُ دَليلَيْنِ، طُويَ أحَدُهما، وهو دَليلُ استِحالةِ الوَلَدِ بالمَعنى الحَقيقيِّ عن اللهِ تعالى، وذُكِرَ دَليلُ إبطالِ التَّبَنِّي لِمَا لا يَليقُ أنْ يَتبَنَّاه الحَكيمُ[١].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه بيانُ كمالِ سُلطانِ اللهِ سُبحانه وتعالى، وأنَّه لو أراد شَيئًا لم يَمتنِعْ عليه، ومِن وَجهٍ آخَرَ: أنَّ فيه رَدًّا لِدَعواهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، أو المسيحَ ابنُ اللهِ، أو عُزَيرًا، فيَقولُ: لو أراد اللهُ أنْ يَتَّخِذَ ولدًا لَاصطفى ما يَشاءُ دون أنْ يَتَّخِذَ ما ادَّعَوه[٢]!

٢٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجَلَّ. والأفعالُ الاختياريَّةُ للهِ ثابتةٌ بالسَّمعِ والعَقلِ؛ أمَّا السَّمعُ فما أكثَرَ الأفعالَ الَّتي يُضيفُها اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نَفْسِه، وأمَّا العَقلُ فلِأنَّ الفاعِلَ بالاختيارِ أكمَلُ ممَّن لا يَفعَلُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣).

٢٥- قَولُه تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: الواحِدُ في ذاتِه، وفي أسمائِه، وفي صِفاتِه، وفي أفعالِه؛ فلا شَبيهَ له في شَيءٍ من ذلك، ولا مُماثِلَ؛ فلو كان له ولَدٌ لاقتَضى أن يَكونَ شَبيهًا له في وَحدته؛ لأنَّه بَعضُه وجُزءٌ منه، ووَحدتُه تعالى وقَهرُه مُتلازِمانِ؛ فالواحِدُ لا يكونُ إلَّا قهَّارًا، والقهَّارُ لا يكونُ إلَّا واحِدًا، وذلك يَنفي الشَّرِكةَ له مِن كُلِّ وَجهٍ[1]، وكَونُه قَهَّارًا يَمنَعُ مِن ثُبوتِ الولَدِ له؛ لأنَّ المُحتاجَ إلى الولَدِ هو الَّذي يَموتُ فيَحتاجُ إلى ولَدٍ يَقومُ مَقامَه؛ فالمُحتاجُ إلى الولَدِ هو الَّذي يكونُ مَقهورًا بالموتِ، أمَّا الَّذي يكونُ قاهِرًا ولا يَقهَرُه غَيرُه فيكونُ الولَدُ في حَقِّه مُحالًا؛ فثَبَت أنَّ في قَولِه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ألفاظًا مُشتَمِلةً على دلائِلَ قاطِعةٍ في نَفيِ الولَدِ عنِ اللهِ تعالى[2].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿الْوَاحِدُ﴾ أنَّ الولَدَ لا يَحصُلُ إلَّا مِن الزَّوجِ والزَّوجةِ، والزَّوجانِ لا بُدَّ أن يكونَا مِن جِنسٍ واحِدٍ؛ فلو كان له -تعالى- ولَدٌ لَما كان واحِدًا، بل كانت زَوجتُه مِن جِنسِه[3]!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿الْوَاحِدُ﴾ إثباتُ الوَحدانيَّةِ له سبحانَه، وهذا يُبطِلُ الشَّريكَ في الإلهيَّةِ على تفاوُتِ مَراتبِه، وإثباتُ ﴿الْقَهَّارُ﴾ يُبطِلُ ما زَعَموه مِن أنَّ أولياءَهم تُقَرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى وتَشفَعُ لهم[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فاتِحةٌ أنيقةٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ، جُعِلَت مُقدِّمةً لهذه السُّورةِ؛ لأنَّ القُرآنَ جامِعٌ لِمَا حَوَتْه وغيرِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

أُصولِ الدِّينِ(١).

- و﴿تَنزِيلُ﴾ خَبَرٌ لِمُبتَدَأٍ مَحذوفٍ هو اسمُ إشارةٍ، أُشيرَ به إلى السُّورةِ تَنزيلًا لها مَنزِلةَ الحاضِرِ المُشارِ إليه؛ لِكَونِها على شَرَفِ الذِّكرِ والحُضورِ. وقيلَ: إنَّه خَبَرٌ، والمُبتَدأُ (هو)؛ لِيَعودَ على قَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، كأنَّه قيلَ: وهذا الذِّكرُ ما هو؟ فقيلَ: هو تَنزيلُ الكِتابِ(٢).

- وأيضًا ﴿تَنزِيلُ﴾: مَصدرُ (نَزَّلَ) المضاعَفِ، وهو مُشعِرٌ بأنَّه أنزَلَه مُنجَّمًا. واختيارُ هذه الصِّيغةِ هنا للرَّدِّ على الطَّاعنينَ؛ لأنَّ مِن جُملةِ ما تَعلَّلوا به قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(٣) [الفرقان: ٣٢].

- وأُجْرِيَ على اسمِ الجَلالةِ الوَصفُ بـ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ ما يَنزِلُ منه يأْتي على ما يُناسِبُ الصِّفتَينِ؛ فيكونُ عَزيزًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، أي: القرآنُ عزيزٌ غالِبٌ بالحُجَّةِ لِمَن كذَّبَ به، وغالِبٌ بالفَضْلِ لِما سِواهُ مِن الكُتبِ، مِن حيثُ إنَّ الغَلَبةَ تَستلزِمُ التَّفضُّلَ والتَّفوُّقَ، وغالِبٌ لِبُلغاءِ العرَبِ؛ إذ أعجَزَهم عن مُعارَضةِ سُورةٍ منه، ويكونُ حَكيمًا مِثلَ صِفةِ مُنزِّلِه(٤).

- والحَكيمُ: إمَّا بمعنى الحاكمِ؛ فالقرآنُ أيضًا حاكمٌ على مُعارِضيه بالحُجَّةِ، وحاكمٌ على غَيرِه مِن الكُتبِ السَّماويَّةِ بما فيه مِن التَّفصيلِ والبيانِ؛ قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وإمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

بمعنى: المُحكِم المُتقِنِ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على البَيانِ الَّذي لا يَحتمِلُ الخطَأَ، وإمَّا بمعنى الموصوفِ بالحِكمةِ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على الحِكمةِ كاتِّصافِ مُنزِّلِه بها. على أنَّ في هذَينِ الوَصفَينِ إيماءً إلى أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ ببَلاغةِ لَفظِه، وبإعجازِه العِلميِّ؛ إذِ اشتَمَلَ على عُلومٍ لم يَكُنْ لِلنَّاسِ عِلْمٌ بها[1].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلعَهدِ، وهو القُرآنُ المَعهودُ بَيْنَهم عِندَ كُلِّ تَذكيرٍ، وكُلِّ مُجادَلةٍ[2]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ لَفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اسمًا عامًّا لِجَميعِ ما تَنَزَّلَ مِن عِندِ اللهِ مِنَ الكُتُبِ، وكأنَّه أخبَرَ إخبارًا مُجرَّدًا أنَّ الكُتُبَ الهاديةَ الشَّارعةَ إنَّما تَنزيلُها مِنَ اللهِ، وجَعَل هذا الإخبارَ تَقدِمةً وتَوطِئةً لِقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[3] [الزمر: ٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ استِئنافٌ وشُروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه، وما يَجِبُ عليه، إثْرَ بَيانِ شَأنِ المُنزَّلِ، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ تَعالى[4].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ (إنَّ) مُراعًى فيه ما استُعمِلَ فيه الخَبَرُ مِنَ الامتِنانِ؛ فيُحمَلُ حَرفُ (إنَّ) على الاهتِمامِ بالخَبَرِ. وما أُريدَ به مِنَ التَّعريضِ بالَّذين أنكَروا أنْ يَكونَ مُنَزَّلًا مِنَ اللهِ، فيُحمَلُ حَرفُ (إنَّ) على التَّأكيدِ؛ استِعمالًا لِلمُشتَرَكِ في مَعنَيَيْه، ولِمَا أنَّ ما في هذه الآيةِ مِن زيادةِ الإعلانِ بصِدقِ النَّبيِّ المُنَزَّلِ عليه الكِتابُ جَديرٌ بالتَّأكيدِ؛ لِأنَّ دَليلَ صِدقِه ليس في ذاتِه، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤، ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٨).

هو قائِمٌ بالإعجازِ الَّذي في القُرآنِ، وبغَيرِه مِنَ المُعجِزاتِ؛ فكان مُقتَضى التَّأكيدِ مَوجودًا، بخِلافِ مُقتَضى الحالِ في قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]؛ فجُملةُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ تتنَزَّلُ مَنزِلةَ البَيانِ لِجُملةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1] [الزمر: ١].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لتَعظيمِه، ولِمَزيدِ الاعتناءِ بشأنِه؛ جَريًا على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ. فهو تكريرٌ على جِهةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ أُبرِز في جُملةٍ أخرَى مَلحوظًا فيه إسنادُ إنزالِه إلى ضَميرِ العَظَمةِ، وتَشريفُ مَن أُنزِلَ إليه بالخِطابِ، وتَخصيصُه بالحَقِّ[2].

- والباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لِلمُلابَسةِ، وهي ظَرفٌ مُستَقَرٌّ[3] هو حالٌ مِنَ الكِتابِ، أيْ: أنزَلْنا إليكَ القُرآنَ مُلابِسًا لِلحَقِّ في جَميعِ مَعانيه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، أو بسَبَبِ إثباتِ الحَقِّ وإظهارِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٣) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتح القاف-: سُمِّي بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

وتَفصيلِه، وإمَّا مُتعَلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن نُونِ العَظَمةِ[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لِترتيبِ الأمْرِ بالعِبادةِ على إنزالِ الكِتابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالحَقِّ؛ فأُمِرَ بأنْ يَعبُدَ اللهَ مُخلِصًا له العِبادةَ، مُمَحِّضًا له الدِّينَ مِن شَوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، حَسبَما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما أُنزِلَ إليكَ. وفي هذا التَّفريعِ تَعريضٌ بما يُناسِبُ المَعنى التَّعريضيَّ في المُفَرَّعِ عليه، وهو أنَّ المُعرَّضَ بهم أنْ يَعبُدوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ، عليهم أنْ يَدَّبَّروا في المَعنى المُعَرَّضِ به[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ المَقصودُ مِنَ الأمْرِ بالعِبادةِ التَّوطِئةُ إلى تَقييدِ العِبادةِ بحالةِ الإخلاصِ مِن قَولِه: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، فالمَأمورُ به عِبادةٌ خاصَّةٌ؛ ولذلك لم يَكُنِ الأمْرُ بالعِبادةِ مُستَعمَلًا في مَعنى الأمْرِ بالدَّوامِ عليها، ولذلك أيضًا لم يُؤتَ في هذا التَّركيبِ بصِيغةِ قَصرٍ، خِلافَ قَولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر: ٦٦]؛ لأنَّ المَقصودَ هنا زِيادةُ التَّصريحِ بالإخلاصِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُنَزَّهٌ عن أنْ يَعبُدَ غيرَ اللهِ[٣].

- قَولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الإخلاصُ: الإمحاضُ وعَدَمُ الشَّوبِ بمُغايِرٍ، وهو يَشملُ الإفرادَ، وسُمِّيَتِ السُّورةُ الَّتي فيها تَوحيدُ اللهِ (سُورةَ الإخلاصِ)، أيْ: إفرادُ اللهِ بالإلَهيَّةِ، وأُوثِرَ الإخلاصُ هنا لإفادةِ التَّوحيدِ، وأخَصَّ منه؛ وهو أنْ تَكونَ عِبادةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَبَّه غيرَ مَشوبةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥، ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥، ٣١٦).

بحظٍّ دُنيويٍّ[(١)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، بلَفظِ ﴿إِلَيۡكَ﴾، وقال فيما بعْدُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ [الزمر: ٤١]، بلَفظِ ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ ووَجْهُه: أنَّ ﴿إِلَيۡكَ﴾ و﴿عَلَيۡكَ﴾ هنا مُترادِفَتانِ على معنًى واحدٍ مِن معنى الخِطابِ؛ فتارةً يُراعى وُصولُ المنزَّلِ بواسطةِ المَلَكِ، وتارةً يُراعى وُصولُه مِن عندِ اللهِ سُبحانه مِن غيرِ واسطةٍ، فإذا رُوعِيَ هذا قيل: (عليك)، وإذا رُوعِي الأوَّلُ قِيل: (إليك)، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، والأوَّلُ أكثَرُ، فبُدِئَ هنا به. ثمَّ إنَّه ورَدَ في الآيةِ الثَّانيةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾، واللَّامُ الجارَّةُ في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ تُفيدُ الاختصاصَ، وتُرادِفُ كثيرًا لفظةَ (إلى)، فلو ورَدَتِ الآيةُ الثَّانيةُ بـ (إلى)، فقِيل: (إنَّا أنزَلْنا إليك الكتابَ للنَّاسِ)، لَكان ذلك كالمُرادِفِ لِقولِه: (إنَّا أنزَلْنا إليك الكتابَ إلى النَّاسِ)، وكان يكونُ فيه إيصالُ الفِعلِ إلى مَجرورينِ بحرْفٍ واحدٍ، وليس أحدُهما مَعطوفًا على الآخَرِ! فجِيءَ بالآيتَينِ على ما يُناسِبُ ويُلائمُ، واللهُ أعلَمُ[(٢)]. وقيل: إنَّ (على) تَتضمَّنُ معنَى (فوق)، وأنْ يكون الوحيُ جاءه مِن تلك الجهةِ، وإنَّ (إلى) للنِّهايةِ، فلا تَختَصُّ بجهةٍ دونَ جِهةٍ؛ ولذلك كان أكثرُ المواضعِ الَّتي ذُكِرَ فيها إنزالُ القرآنِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُدِّيَ بـ (على)، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقولِه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقولِه: ﴿وَنَزَّلۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٤).

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وأكثَرُ ما ذُكِرَ إنزالُه على النَّاسِ جاء مُعدًّى بـ (إلى)، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1] [النساء: ١٧٤].

وقيل: إنَّ كلَّ مَوضعٍ خاطَبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ففيه تكليفٌ، وإذا خاطَبَه بقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ففيه تَخفيفٌ؛ فالَّذي في أوَّلِ السُّورةِ (إليك)؛ فكلَّفَه الإخلاصَ في العبادةِ، والَّذي في آخِرِها (عليك)، فختَمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، أي: لستَ بمسؤولٍ عنهم؛ فخفَّفَ عنه ذلك[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ استِئنافٌ؛ لِلتَّخلُّصِ إلى استِحقاقِه تعالى الإفرادَ بالعِبادةِ، وهو غَرَضُ السُّورةِ، وأفادَ التَّعليلَ لِلأمرِ بالعِبادةِ الخالِصةِ للهِ؛ لأنَّه إذا كان الدِّينُ الخالِصُ مُستَحَقًّا للهِ وخاصًّا به، كان الأمْرُ بالإخلاصِ له مُصيبًا مَحَزَّه[3]؛ فصارَ أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإخلاصِ العِبادةِ له مُسَبَّبًا عن نِعمةِ إنزالِ الكِتابِ إليه، ومُقتَضًى لِكَونِه مُستَحِقَّ الإخلاصِ في العِبادةِ اقتِضاءَ الكُلِّيَّةِ لِجُزئيَّاتِها، وبهذا العُمومِ أفادَتِ الجُملةُ مَعنى التَّذييلِ،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٠٥-١١٠٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٧).

(٣) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ: أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

فتحمَّلتْ ثَلاثةَ مَواقِعَ، كُلُّها تَقتَضي الفَصلَ[١].

- وأيضًا افتُتِحتِ هذه الجُملةُ بأداةِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ تَنويهًا بمَضمونِها لِتَتلَقَّاه النَّفْسُ بشَراشِرِها -أي: بجُملتِها أو بكُلِّيتِها-، وذلك هو ما رَجَّحَ اعتِبارَ الاستِئنافِ فيها، وجَعَل مَعنى التَّعليلِ حاصِلًا تَبَعًا مِنْ ذِكرِ إخلاصٍ عامٍّ بَعدَ إخلاصٍ خاصٍّ، ومَورِدُهما واحِدٌ[٢].

- واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ لامُ المِلْكِ، الَّذي هو بمَعنى الاستِحقاقِ، أيْ: لا يَحِقُّ الدِّينُ الخالِصُ -أيْ: الطَّاعةُ غَيرُ المَشوبةِ- إلَّا له[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ في قَولِه: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ فأفادَ قولُه: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أنَّه مُستحِقُّه، وأنَّه مُختَصٌّ به[٤].

- وفي إبرازِ اسمِ (اللَّه) الجامِعِ: شأنٌ عَظيمٌ، وخَطبٌ جَليلٌ؛ لإفادةِ إيجابِ اختِصاصِه بأنْ تُخلَصَ له العِبادةُ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾؛ لِزيادةِ تَحقيقِ مَعنى الإخلاصِ للهِ في العِبادةِ، وأنَّه خُلوصٌ كامِلٌ لا يَشوبُه شَيءٌ مِنَ الإشراكِ، ولا إشراكُ الَّذين زَعَموا أنَّهُم اتَّخَذوا أولياءَ وعَبَدوهم حِرصًا على القُربِ مِنَ اللهِ، يَزعُمونَه عُذرًا لهم، فقَولُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦).

مِن فَسادِ الوَضعِ، وقَلبِ حَقيقةِ العِبادةِ؛ بأنْ جَعَلوا عِبادةَ غَيرِ اللهِ وَسيلةً إلى القُربِ مِنَ اللهِ، فنَقَضوا بهذه الوَسيلةِ مَقصدَها، وتَطَلَّبوا القُربةَ بما أبْعَدَها، والوَسيلةُ إذا أفضَتْ إلى إبطالِ المَقصدِ كان التَّوسُّلُ بها ضَربًا مِنَ العَبَثِ(١).

- والاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ استِثناءٌ مِن عِلَلٍ مَحذوفةٍ، أيْ: ما نَعبُدُهم لِشَيءٍ إلَّا لِعلَّةِ أنْ يُقَرِّبونا إلى اللهِ؛ فيُفيدُ قَصرًا على هذه العِلَّةِ قَصرَ قَلبٍ إضافيًّا(٢)، أيْ: دُونَ ما شَنَّعتُم علينا مِن أنَّنا كَفَرْنا نِعمةَ خالِقِنا إذْ عَبَدْنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١).

(٢) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا من قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ من احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

غَيرَه[١]!

- وقَولُهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فيه احتِباكٌ[٢]: فذَكَر فِعلَ التَّقريبِ أوَّلًا؛ دَليلًا على فِعلِ الزَّلَفِ ثانيًا، واسمَ الزَّلَفِ ثانيًا؛ دَليلًا على الاسمِ مِن التَّقريبِ أوَّلًا[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وَعيدٌ وتَهديدٌ لهم على قَولِهم ذلك؛ فعُلِمَ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لِأنَّ الواقِعَ أنَّهم عَبَدوا الأصنامَ أكثَرَ مِن عِبادَتِهم للهِ[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أيْ: بَيْنَهم وبيْنَ خُصَمائِهمُ الَّذين همُ المُخلِصونَ لِلدِّينِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقد حُذِفَ لِدَلالةِ الحالِ عليه[٥].

- وعلى القولِ بأنَّ ضَميرَ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى الَّذينَ اتَّخذوا أولياءَ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ اختلافُ طرائِقِهم في عبادةِ الأصنامِ وفي أنواعِها- فنَظمُ قولِه: ﴿هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يفيدُ أمْرَينِ: أنَّ الاختِلافَ ثابتٌ لهم، وأنَّه مُتكَرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فالأوَّلُ مِن تَقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، والآخَرُ مِن كَونِ المُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرًا ثانيًا عن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، وهو كِنايةٌ عن كَونِهم كاذِبينَ في قَولِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وعن كَونِهم كَفَّارينَ بسَبَبِ ذلك، وكِنايةٌ عن كَونِهم ضالِّينَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن مَصيرِ حالِهم في الدُّنيا مِن جَرَّاءِ اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دُونِه، فيُجابُ بأنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذِبٌ كَفَّارٌ، أيْ: يَذَرُهم في ضَلالِهم، ويُمهِلُهم إلى يَومِ الجَزاءِ، بعدَ أنْ بَيَّنَ لهمُ الدِّينَ فخالَفوه[1].

- وقيل: الجُملةُ تَعليلٌ لِمَا ذُكِرَ مِن حُكمِه تَعالى، واعتِراضٌ لِلتَّأكيدِ، ودفْعِ ذلك التَّأويلِ[2].

- وعُلِمَ مِن مُقارَنةِ وَصفِهم بالكَذِبِ بوَصفِهم بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ أنَّهم مُتبالِغونَ في الكَذِبِ أيضًا؛ لِأنَّ كَذِبَهمُ المَذمومَ إنَّما هو كَذِبُهم في كُفريَّاتِهم؛ فلَزِمَ مِن مُبالَغةِ الكُفرِ مُبالَغةُ الكَذِبِ فيه[3].

- والمُرادُ بـ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الَّذين اتَّخَذوا من دونِه أولياءَ، أيْ: المُشرِكونَ، فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ الإتيانَ بضَميرِهم، وعُدِلَ عنه إلى الإضمارِ، والتَّعبيرِ عنهم بطَريقِ المَوصوليَّةِ؛ لِمَا في المَوصولِ مِنَ الصَّلاحيةِ لإفادةِ الإيماءِ إلى عِلَّةِ الفِعلِ؛ لِيُفيدَ أنَّ سَبَبَ حِرمانِهمُ التَّوفيقَ هو كَذِبُهم وشِدَّةُ كُفرِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٢٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ موقِعُ هذه الآيةِ موقِعُ الاحتِجاجِ على أنَّ المُشرِكينَ كاذِبونَ وكَفَّارونَ في اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللهِ، وفي قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وأنَّ اللهَ حَرَمَهمُ الهُدى، وذلك ما تَضَمَّنَه قَولُه قَبْلَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، فقَصَد إبطالَ شِركِهم بإبطالِ أقْواه، وهو عَدُّهم في جُملةِ شُرَكائِهم شُرَكاءَ زَعَموا لهم بُنُوَّةً لله تعالى، حيثُ قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ [البقرة: ١١٦]؛ فإنَّ المُشرِكينَ يَزعُمونَ أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بَناتُ لله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾[1] [النجم: ١٩- ٢١].

- وقَولُه: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ قيل: إنَّه استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَحقيقِ الحَقِّ، وإبطالِ القَولِ بأنَّ المَلائكةَ بَناتُ اللهِ، وأنَّ عيسى ابنُه -تَعالى عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا-؛ ببَيانِ استِحالةِ اتِّخاذِ الوَلَدِ في حَقِّه تعالى على الإطلاقِ؛ لِيَندَرِجَ فيه استِحالةُ ما قيل اندِراجًا أوَّليًّا[2].

- في قولِه: ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ عَبَّر بـ «ما» دونَ «مَن»؛ وذلك لأنَّ «ما» أعَمُّ مِن «مَن»، وأيضًا لأنَّه إذا أُريدَ ملاحظةُ الصِّفةِ فإنه يُعَبَّرُ بـ «ما» عن «مَن»، وهنا يُرادُ ملاحظةُ الصِّفةِ، وهي: العبادةُ[3].

- وجُملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تَقريرٌ لِمَا ذُكِرَ مِن استِحالةِ اتِّخاذِ الشُّرَكاءِ والأولياءِ والوَلَدِ في حَقِّه تَعالى، وتأكيدٌ له ببَيانِ تَنَزُّهِه تَعالى عنه، أيْ: تَنَزَّهَ بالذَّاتِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١، ٢٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨، ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠).

ذلك تَنَزُّهَه الخاصَّ به(١).

- وقولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِتَنَزُّهِه تعالى بحَسَبِ الصِّفاتِ إثْرَ بَيانِ تَنَزُّهِه تعالى عنه بحَسَبِ الذَّاتِ؛ فإنَّ صِفةَ الأُلوهيَّةِ المُستَتبِعةَ لِسائرِ صِفاتِ الكَمالِ، النَّافيةَ لِسِماتِ النُّقصانِ، والوَحدةَ الذَّاتيَّةَ المُوجِبةَ لِامتِناعِ المُماثَلةِ والمُشارَكةِ بَيْنَه تعالى وبيْنَ غَيرِه على الإطلاقِ، مِمَّا يَقضي بتَنَزُّهِه تعالى عمَّا قالوا قضاءً مُتقَنًا. وكذا وَصفُ القَهَّاريَّةِ؛ لِمَا أنَّ اتِّخاذَ الوَلَدِ شَأنُ مَن يكونُ تَحتَ مَلَكوتِ الغَيرِ عُرضةً لِلفَناءِ؛ لِيَقومَ وَلَدُه مَقامَه عِندَ فَنائِه، ومَن هو مُستَحيلُ الفَناءِ قَهَّارٌ لِكُلِّ الكائِناتِ، كيف يُتَصوَّرُ أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الأشياءِ الفانيةِ ما يَقومُ مَقامَه(٢)؟!

- وأيضًا جُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دَليلٌ لِتَنزيهِ اللهِ المُستَفادِ من ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ فجُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تَمهيدٌ لِلوَصفَينِ، وذِكرُ اسمِه العَلَمِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختَصِّ به؛ فلِذلك لم يَقُلْ: هو الواحِدُ القَهَّارُ، كما قال بَعدُ: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وإثباتُ الوَحدانيَّةِ له يُبطِلُ الشَّريكَ في الإلهيَّةِ على تَفاوُتِ مَراتِبِه، وإثباتُ القَهَّارِ يُبطِلُ ما زَعَموه مِن أنَّ أولياءَهم يُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى ويَشفَعونَ لهم(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

الآيتان (٥-٦)

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُكَوِّرُ﴾: تكويرُ اللَّيلِ على النَّهارِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ضَوءَه، وتكويرُ النَّهارِ على اللَّيلِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ظُلمَتَه، والتَّكويرُ في اللُّغةِ: طَرحُ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ، يُقالُ: كَوَّرَ المتاعَ، أي: ألقى بعضَه على بعضٍ. وأصلُ (كور): يدُلُّ على لَفٍّ وجَمعٍ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قَهْرًا، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ سُبحانَه مظاهِرَ وَحدانيَّتِه وقدرتِه، فيُخبرُ أنَّه خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ بالحِكمةِ والصَّوابِ، ولم يَخلُقْهما عَبَثًا ولا باطِلًا، سُبحانَه وتعالى، وأنَّه يُديرُ اللَّيلَ على النَّهارِ حتَّى يَذهَبَ ضَوؤُه، ويُديرُ النَّهارَ على اللَّيلِ حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

وسَخَّر سُبحانَه الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلُّ واحدٍ منهما يَسيرُ سَريعًا لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ. ألَا إنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لِعبادِه هو العزيزُ الغالِبُ، الغَفَّارُ ذُنوبَ عِبادِه.

ثمَّ يقولُ تعالى: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ خَلَق اللهُ مِن آدَمَ زَوجَتَه، وأنزل لكم مِن الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبِلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ. يَخلُقُكم اللهُ في بُطونِ أمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ: ظُلمةِ بَطنِ الأُمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ، ذلكم الَّذي فعَلَ كُلَّ ما تقدَّمَ هو اللهُ رَبُّكم له وَحْدَه المُلْكُ كُلُّه، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، فكيف تَميلونَ عن الحَقِّ؟!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نزَّه تعالى نفْسَه ووصَف ذاتَه بالوَحدةِ والقَهرِ؛ ذكَر ما دلَّ على ذلك مِن اختراعِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ بالحقِّ، وتكويرِ اللَّيلِ والنهارِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقَمرِ، وجَريِهما على نِظامٍ واحدٍ، واتِّساقِ أمرِهما على ما أرادَ إلى أجَلٍ مُسمًّى(١).

وأيضًا لَمَّا طَعَن تعالى في إلهيَّةِ الأصنامِ؛ ذكَرَ عَقيبَها الصِّفاتِ الَّتي باعتبارِها تَحصُلُ الإلهيَّةُ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: خَلَق اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ السَّمَواتِ والأرضَ بالأمرِ الثَّابتِ، وبالحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ؛ خَلقًا تامًّا مُتقنًا، لا خيالَ فيه ولا سِحرَ، ولا اختِلالَ ولا عَيبَ ولا نَقصَ؛ خَلقًا دالًّا على وَحدانيَّتِه وقَهْرِه لكُلِّ شَيءٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾.

أي: يُغشي اللَّيلَ النَّهارَ ويُديرُه عليه حتَّى يَذهبَ ضوؤُه، ويُغشِي النَّهارَ اللَّيلَ ويُديرُه عليه حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه، وسَخَّرهما يَجريانِ مُتَعاقِبَيْنِ[2].

كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥-٤٧).

قال القرطبي: (أي: هو القادرُ على الكَمالِ، المُستغني عن الصَّاحِبةِ والوَلَدِ، ومَن كان هكذا فحَقُّه أن يُفرَدَ بالعبادةِ لا أنَّه يُشرَكُ به، ونبَّه بهذا على أنَّ له أنْ يتَعَبَّدَ العِبادَ بما شاءَ، وقد فعَلَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧، ٤٨).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ، كلَّ واحِدٍ منهما يَسيرُ سَريعًا في مَنازِله لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالى[(١)].

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

أي: أَلَا إنَّ اللهَ الَّذي خَلَق هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لعبادِه: هو شديدُ القوَّة، الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[(٢)].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

قيل: المرادُ بالأجَلِ المُسمَّى: يومُ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

قال ابن الجوزي: (﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى الأجَلِ الَّذي وقَّت اللهُ للدُّنيا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨).

وقيل: الأجَلُ المُسمَّى هو: الوَقتُ الَّذي ينتهي فيه سَيرُ الشَّمسِ والقَمَرِ إلى المنازِلِ المُرتَّبةِ لِغُروبِها وطُلوعِها. وممَّن ذهب إلى ذلك: الكَلْبيُّ، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩، ٥٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أتْبَعَ اللهُ تعالى ذِكرَ الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ بذِكرِ الدَّلائِلِ المأخوذةِ مِن هذا العالَمِ الأسفَلِ؛ فبدأ بذِكرِ الإنسانِ(١)، فقال تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

أي: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ(٢)- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: ثمَّ خَلَق اللهُ مِن آدَمَ زَوجتَه(٤).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ هنا للنَّاسِ: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره ابنُ عثيمين.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٤).
وقيل: الخِطابُ للَّذين يَدْعونَ آلهةً غيرَ اللهِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٤-٥٦).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((استَوصوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَت مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهَبْتَ تُقيمُه كسَرْتَه، وإنْ تركْتَه لم يَزَلْ أعوَجَ؛ فاستَوصوا بالنِّساءِ))[(١)].

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الاستِدلالَ بخَلْقِه الإنسانَ على وُجودِ الصَّانعِ؛ ذكر عَقِيبَه الاستِدلالَ بوُجودِ الحَيوانِ عليه[(٢)].

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾.

أي: وأنزَلَ اللهُ لكم مِنَ الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبِلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ خَلْقَ أبينا وأُمِّنا؛ ذكَرَ ابتِداءَ خَلْقِنا[(٤)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٣١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[١]- في بُطونِ أُمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك))[٣].

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ في ظُلمةِ بَطنِ الأمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ[٤] الَّتي

---

(١) قيل: المرادُ: خَلقُ النَّاسِ. وممَّن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

وقيل: المرادُ: خَلْقُ النَّاسِ والأنعامِ. وممَّن ذهب إليه: البيضاوي، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٣).

وقال النيسابوري: (والمقصودُ ذِكرُ تَخليقِ الحيوانِ على الإطلاقِ بعدَ ذِكرِ تخليقِ الإنسانِ والأنعامِ، إلَّا أنَّه غَلَّب أُولِي العَقلِ؛ لِشَرَفِهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٣، ١٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

(٤) قال ابن عاشور: (هي غِشاءٌ مِن جِلدٍ يُخلَقُ مع الجنينِ مُحيطًا به؛ لِيَقيَه ولِيَكونَ به استِقلالُه =

تكونُ على الجَنينِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ * هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

أي: ذلكم العَليُّ العَظيمُ الَّذي فَعَل كُلَّ ما تقَدَّم ذِكرُه: اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ، رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ المدَبِّرُ، له وَحْدَه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفُ وحْدَه في كُلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ سُبحانَه[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه لا شَريكَ له، ولا تَنبغي العبادةُ لِغَيرِه[3].

= مِمَّا يَنجَرُّ إليه مِن الأغذيةِ في دَورتِه الدَّمَويَّةِ الخاصَّةِ به دونَ أمِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير =

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

أي: فمِن أيِّ جِهةٍ تَضِلُّونَ عن الحَقِّ؟! وكيف يَصرِفُكم صارِفٌ عنه بعدَ هذا البيانِ وتلك الدَّلائِلِ الوَاضِحة[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ بعدَ ذِكرِ الأنواعِ الثَّلاثةِ مِن الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ: أنَّ خَلْقَ هذه الأجرامِ العَظيمةِ وإن دَلَّ على كَونِه عَزيزًا -أي: كامِلَ القُدرةِ- إلَّا أنَّه غَفَّارٌ عَظيمُ الرَّحمةِ والفَضلِ والإحسانِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الإخبارُ عن كَونِه عَظيمَ القُدرةِ يُوجِبُ الخَوفَ والرَّهبةَ، فكَونُه غَفَّارًا يُوجِبُ كَثرةَ الرَّحمةِ، وكَثرةُ الرَّحمةِ تُوجِبُ الرَّجاءَ والرَّغبةَ[2].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في وَصفِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ مُناسَبةٌ لذِكرِ الأجَلِ؛ لأنَّ المَغفِرةَ يَظهَرُ أثَرُها بعدَ البَعثِ الَّذي يكونُ بعدَ الموتِ وانتِهاءِ الأجَلِ؛ تحريضًا على البِدارِ

= السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩-٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

بالتَّوبةِ قبْلَ الموتِ حينَ يَفوتُ التَّدارُكُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إثباتُ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذه الفائدةُ يَترتَّبُ عليها: الرَّدُّ على الطَّبائِعيِّينَ والفلاسِفةِ الَّذين يَقولونَ بِقِدَمِ العالَمِ، وأنَّ العالَمَ أزَليٌّ، وأنَّ هذه السَّمَواتِ ليس لها أوَّلُ، بل هي مَوجودةٌ في الأزَلِ! فهذه الآيةَ تَرُدُّ عليهم؛ لأنَّه تعالى يَقولُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أوجَدَها بعدَ العَدَمِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ فيه إثباتُ كُرَويَّةِ الأرضِ، ومَعلومٌ أنَّ الليلَ والنَّهارَ يَتعاقَبانِ على الأرضِ؛ فإذا كان سَيرُهما تَكويرًا دلَّ على أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ إثباتُ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بتَكويرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وقد أشار اللهُ إلى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ حزم: (إنَّ أحدًا مِن أئمَّةِ المُسلمينَ المُستَحِقِّينَ لاسمِ الإمامةِ بالعِلمِ رَضِيَ اللهُ عنهم: لم يُنكِروا تكويرَ الأرضِ، ولا يُحفَظُ لأحَدٍ منهم في دَفْعِه كَلِمةٌ، بل البراهينُ مِن القُرآنِ والسُّنَّةِ قد جاءت بتكويرِها؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا أوضَحُ بَيانٍ في تكويرِ بَعضِها على بَعضٍ، مأخوذٌ مِن كَورِ العِمامةِ، وهو: إدارتُها، وهذا نَصٌّ على تكويرِ الأرضِ ودَورانِ الشَّمسِ كذلك). ((الفِصَل في المِلَل والأهواءِ والنِّحَل)) (٢/ ٧٨).

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، ولو اجتمعَ الخَلقُ كُلُّهم على أنْ يأتوا باللَّيلِ في مَوضعِ النَّهارِ أو بالنَّهارِ في مَوضِعِ اللَّيلِ، ما استَطاعوا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ دَليلٌ على أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ جَريًا حِسِّيًّا مَكانيًّا؛ لأنَّ تَسخيرَ المتحرِّكِ بحَرَكتِه أظهرُ مِن تَسخيرِ الثَّابتِ الَّذي لا يَتحرَّكُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ سُؤالٌ: كيف عَطَف بـ «ثُمَّ» مع أنَّ خَلْقَ حوَّاءَ مِن آدمَ سابِقٌ على خَلْقِنا منه؟!

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتَّرتيبِ في الإخبارِ لا في الإيجادِ.

الثَّاني: أنَّ المعطوفَ مُتعَلِّقٌ بمعنى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةٌ عليه لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمعناه: «خلقَكم مِن نَفْسٍ واحدةٍ أُفرِدَت بالإيجادِ، ثمَّ شُفِعَت بزَوجٍ».

الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾، لكِنَّ المرادَ بخَلْقِهم خَلْقُهم يومَ أخذِ الميثاقِ، لا هذا الخَلقُ الَّذي هم فيه الآنَ بالتَّوالُدِ والتَّناسُلِ؛ وذلك أنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ أخرَجَ أولادَه مِن ظَهرِه كالذَّرِّ، وأخَذَ عليهم الميثاقَ، ثمَّ رَدَّهم إلى ظَهْرِه[٣]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٧٤).

(٣) يُنظَر ما أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٩١)، وأحمد (٢٤٥٥) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما. =

ثمَّ خَلَق منه حوَّاءَ[١].

الرَّابعُ: أنَّها للتَّرتيبِ في الأحوالِ والرُّتَبِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أنَّ أصلَ البشريةِ مِن آدمَ؛ وفيه ردٌّ على الفكرةِ الملحدةِ: أنَّ أصلَ الإنسانِ قِرْدٌ، وأنَّ النَّاسَ تطوَّروا مِن القرودِ إلى البشريَّةِ! ولا شكَّ أنَّ اعتقادَ ذلك كفرٌ؛ لأنَّه تكذيبٌ للقرآنِ، وقد بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى كيف خَلَق الإنسانَ في مواضعَ مِن القرآنِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الإشارةُ إلى أنَّ تكوينَ هذه الخليقةِ مِن زَوجَينِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فكلُّ شَيءٍ مِن الخليقةِ فلا بُدَّ لتركيبه مِن زوجَينِ؛ كالمياهِ، والهواءِ، وغيرِهما[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ

= والحديث جوَّد إسنادَه وقوَّاه على شرطِ مسلمٍ ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (١/ ٨٣)، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٨): (رجالُه رجالُ الصَّحيح)، وقال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧٠): (إسناده لا مطعنَ فيه)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٥١)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٧٠١)، ووثَّق رجالَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤٥٥).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٣).
واختار هذا القولَ ابنُ جرير، وقال: (وبذلك جاءَت الرِّوايةُ عن جماعةٍ مِن أصحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٢). واختاره أيضًا: القَصَّابُ. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٢).

الأنعامَ مَخلوقةٌ في الأرضِ لا مُنَزَّلةٌ مِن السَّماءِ؟!

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الأنعامَ لَمَّا كانت لا تَعيشُ إلَّا بالنَّباتِ، والنَّباتُ لا يَعيشُ إلَّا بالمطَرِ، والمطَرُ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّماءِ؛ وَصَفَها بالإنزالِ، مِن تَسميةِ المسَبَّبِ باسمِ سَبَبِ سَبَبِه.

الثَّاني: أنَّ مَعناه: «وقَضَى لكم»؛ لأنَّ قَضاءَه مُنَزَّلٌ مِن السَّماءِ مِن حيثُ كُتِبَ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

الثَّالثُ: أنَّ المعنى «خلَقَها في الجنَّةِ، ثمَّ أنزَلَها على آدَمَ عليه السَّلامُ بعدَ إنزالِه إلى الأرضِ»[١]، فمِنَ الممكنِ نزولُ أصلِ هذا الحيوانِ؛ كنُزولِ أصلِ الإنسانِ والجِنِّ[٢].

الرَّابعُ: أنَّ إطلاقَ الإنزالِ هنا بمعنى التَّذليلِ والتَّمكينِ.

الخامسُ: أن يكونَ إنزالُ الأنعامِ إنزالَها الحَقيقيَّ، أي: إنزالَ أُصولِها مِن سَفينةِ نوحٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فيكونُ الإنزالُ هو الإهباطَ، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[٣] [هود: ٤٨].

السَّادسُ: أنَّ الإنزالَ هنا بمعنى الخَلْقِ؛ لأنَّها أُضيفَتْ إلى أعْيانٍ، وهي الأنعامُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٦).

السَّابعُ: أنَّ اللهَ تعالى يُنزِلُ الماءَ مِن أصلابِ الذُّكورِ إلى بُطونِ الإناثِ، ثمَّ يُنزلُ الأجِنَّةَ مِن بطونِ الإناثِ إلى الأرضِ، ومِن المشهورِ في اللُّغةِ أنَّه يُقالُ عن ابنِ آدَمَ: أنزَلَ الماءَ أو المَنيَّ، فالأنعامُ يَعلو بعضُها بعضًا وهي قائمةٌ أو قاعدةٌ، وتَلِدُ وهي كذلك قائمة، فيُنزِلُ اللهُ تعالى منها أولادَها، وتسميةُ ذلك إنزالًا ليس بدُونِ تسميةِ إخراجِ المَنيِّ إنزالًا، بل أبلَغُ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ إذا نَظَرْتَ هذه العِبارةَ مع العِبارةِ عن خَلقِ الإنسانِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾؛ فَهِمْتَ أنَّ الأنعامَ خُلِقَ كُلُّ ذَكَرِها وأُنثاها على انفرادِه، لا أنَّ أحدًا منها مِن صاحِبِه، وذلك أدَلُّ على إطلاقِ التَّصَرُّفِ وتَنويعِه مِمَّا لو جُعِلَ خَلْقُها مِثلَ خَلْقِ الآدَميِّ[٢].

١٠- في ذِكرِ هذه الظُّلُماتِ في قَولِه تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ تَنبيهٌ على إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بالأشياءِ، ونُفوذِ قُدرتِه إليها في أشَدِّ ما تكونُ فيه مِن الخَفاءِ[٣]، فقد ركَّب تعالى عِظامَ الإنسانِ بعضَها ببعضٍ، وكساها اللَّحمَ، وجعَل فيها العُروقَ والعصَبَ، وفتَح مجاريَ البَولِ والغائطِ، وفتَح العيونَ والآذانَ والأفواهَ، وفرَّق الأصابعَ، وشَدَّ رُؤوسَها بالأظفارِ، إلى غيرِ ذلك مِن غرائبِ صُنعِه وعجائبِه، وكلُّ هذا في تلك الظُّلُماتِ الثَّلاثِ -ظُلمةِ البطنِ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ-، لم يَحتَجْ إلى شقِّ بطنِ أمِّه وإزالةِ تلك الظُّلُماتِ، أو أن يُسَلِّطَ عليها أشعةً كهربائيةً! العِلمُ والبصرُ نافذٌ لهذا الصُّنعِ الغريبِ العجيبِ في بطنِ أمِّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤).

يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]؛ ولذا لَمَّا قال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

١١- ذِكْرُ الرُّبوبيَّةِ بعدَ الأُلوهيَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّربيةِ الخاصَّةِ في حالِ الحَملِ، وإلى العنايةِ التَّامَّةِ؛ لأنَّ الحَملَ في بَطنِ أُمِّه لا يُمكِنُ لأحَدٍ أنْ يَصِلَ إليه، لا بِجَلبِ مَنفَعةٍ، ولا بِدَفعِ مَضَرَّةٍ، ولكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الَّذي يَتولَّى العنايةَ به[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ...﴾ هذه الجُملةُ بيانٌ لِجُملةِ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وتَفصيلٌ لِبَعضِ أفعالِه تعالى الدَّالَّةِ على تَفرُّدِه بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفاتِ الجَليلةِ؛ فإنَّ خَلْقَ هذه العَوالِمِ والتَّصرُّفَ فيها -على شِدَّتِها وعَظَمَتِها- يُبيِّنُ معنى الوَحدانيَّةِ ومَعنى القَهَّاريَّةِ؛ فتَكونُ جُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] ذاتَ اتِّصالَينِ: اتِّصالٍ بجُملةِ ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ [الزمر: ٤] كاتِّصالِ التَّذييلِ، واتِّصالٍ بجُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ اتِّصالَ التَّمهيدِ؛ فالقَهَّاريَّةُ المُطلَقةُ تُنافي قَبولَ الزَّوالِ المُحوِجِ إلى الولدِ، ثمَّ استدلَّ على ذلك بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩).

وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يُغشي كلَّ واحدٍ منهما الآخَرَ كأنَّه يَلُفُّه عليه لَفَّ اللِّباسِ باللابِسِ، أو يُغيِّبُه به كما يُغيَّبُ الملفوفُ باللِّفافةِ، أو يَجعلُه كارًّا عليه كُرورًا مُتتابِعًا تَتابُعَ أكوارِ العِمامةِ. وقد انتُقِلَ منَ الاستِدلالِ باقتِضاءِ حَقيقةِ الإلَهيَّةِ نَفْيَ الشَّريك، إلى الاستِدلالِ بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ على أنَّه المُنفرِدُ بالخَلقِ، وأنَّه واحِدٌ لا يُشارَكُ، قَهَّارٌ لا يُغالَبُ؛ إذْ لا يَستَطيعُ شُركاؤُهم خَلْقَ العَوالِمِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ بيانٌ لِكَيفيَّةِ تَصرُّفِه تَعالى فيهما بَعدَ بَيانِ خَلقِهما[٢].

- واستِعمالُ التَّكويرِ هنا في قولِه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ مِن محاسِنِ البَلاغةِ؛ فالتَّكويرُ حَقيقَتُه: اللَّفُّ واللَّيُّ، ومُثِّلَتْ به هنا هَيئةُ غِشيانِ اللَّيلِ على النَّهارِ في جُزءٍ مِن سَطحِ الأرضِ وعَكسُ ذلك على التَّعاقُبِ بهَيئةِ كَوْرِ العِمامةِ؛ إذْ تَغشى اللَّيَّةُ اللَّيَّةَ الَّتي قَبْلَها، وهو تَمثيلٌ بَديعٌ قابِلٌ لِلتَّجزئةِ بأنْ تُشَبَّهَ الأرضُ بالرَّأسِ، ويُشَبَّهَ تَعاوُرُ اللَّيلِ والنَّهارِ عليها بلَفِّ طَيَّاتِ العِمامةِ. قيل: ومِمَّا يَزيدُه إبداعًا إيثارُ مادَّةِ التَّكويرِ الَّذي هو مُعجِزةٌ عِلْميَّةٌ مِن مُعجِزاتِ القرآنِ؛ فإنَّ مادَّةَ التَّكويرِ جائيةٌ مِن اسمِ الكُرَةِ، وهي الجسمُ المستديرُ مِن جَميعِ جِهاتِه على التَّساوي، والأرضُ كُرَويَّةُ الشَّكلِ في الواقِعِ، وذلك كان يَجهَلُه العَرَبُ وجُمهورُ البَشَرِ يومَئِذٍ، فأوْمَأَ القُرآنُ إليه بوَصفِ العَرَضَينِ اللَّذَيْنِ يَعتَريانِ الأرضَ على التَّعاقُبِ، وهُما النُّورُ والظُّلمةُ، أو اللَّيلُ والنَّهارُ؛ إذْ جَعَلَ تَعاوُرَهما تَكويرًا؛ لِأنَّ عَرَضَ الكُرةِ يَكونُ كُرَويًّا تَبَعًا لِذاتِها، فلَمَّا كان

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

سِياقُ هذه الآيةِ لِلاستِدلالِ على الإلَهيَّةِ الحقَّةِ بإنشاءِ السَّمَواتِ والأرضِ، اختيرَ لِلاستِدلالِ على ما يَتبَعُ ذلك الإنشاءَ مِن خَلْقِ العَرَضَيْنِ العَظيمَينِ لِلأرضِ مادَّةُ التَّكويرِ دُونَ غَيرِها؛ لِأنَّ تلك الآيةَ مَسوقةٌ لِلدَّلالةِ على سَعةِ التَّصرُّفِ في المَخلوقاتِ، فكان تَصويرُ ذلك بإغشاءِ اللَّيلِ والنَّهارِ خاصَّةً؛ لِأنَّه دَلَّ على قُوَّةِ التَّمكُّنِ مِن تَغييرِه أعراضَ مَخلوقاتِه؛ ولِذلك اقتُصِرَ على تَغييرِ أعظَمِ عَرَضٍ -وهو النُّورُ- بتَسليطِ الظُّلْمةِ عليه؛ لِتَكونَ هاتِه الآيةُ لِمَن يَأتي مِنَ المُسلِمينَ الَّذين يَطَّلِعونَ على عِلْمِ الهَيئةِ؛ فتَكونَ مُعجِزةً عِندَهم[1].

- وكذلك قولُه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يَحتَمِلُ ثَلاثةَ أوْجُهٍ مِنَ التَّشبيهِ؛ أحَدُها: أنْ يَكونَ مِن تَشبيهِ المَحسوسِ بالمَحسوسِ، ووَجهُ الشَّبَهِ أُمورٌ، ولكنْ في حُكمٍ واحِدٍ، وهو تَشبيهُ الهَيئةِ الحاصِلةِ مِن اختِلاطِ اللَّيلِ بالنَّهارِ عِندَ طُلوعِ الفَجرَيْنِ وظُهورِ الخَيطَينِ في قَولِه: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]؛ بالهَيئةِ الحاصِلةِ مِن لَفِّ اللِّباسِ على اللَّابِسِ، بحيثُ لا يَطَّرِدُ اللِّباسُ في التَّستُّرِ. وثانيها: تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ، والوَجهُ واحِدٌ حَقيقةً؛ شَبَّهَ غِشيانَ كُلِّ واحِدٍ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ الآخَرَ في قَولِه تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقَولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، بشَيءٍ ظاهِرٍ لَفَّ ما غَيَّبَه عن مَطامِحِ الأبصارِ. وثالِثُها: يَحتمِلُ أنْ يَكونَ تَمثيلًا؛ بأنْ يُشَبَّهَ حالةُ كُرورِ اللَّيلِ والنِّهارِ، ومَجيءِ أحَدِهما في أثَرِ بَعضٍ، وما يَتَّصِلُ بها مِنَ المَنافِعِ -كقَولِه: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢]- بحالةِ تَتابُعِ أكوارِ العِمامةِ بَعضِها عَقيبَ بَعضٍ، وما يَتَّصِلُ بها مِنَ الحُسنِ؛ فإنَّها كالتِّيجانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

لِلعَرَبِ، وما يَحصُلُ مِنَ التَّغييرِ وتَبديلِ الأحوالِ[١].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ في هذه الجُملةِ ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك وتَكَرُّرِه، أو لِاستِحضارِ حالةِ التَّكويرِ تَبَعًا لِاستِحضارِ آثارِها؛ فإنَّ حالةَ تَكويرِ اللهِ اللَّيلَ على النَّهارِ غَيرُ مُشاهَدةٍ، وإنَّما المُشاهَدُ أثَرُها، وتَجَدُّدُ الأثَرِ يدُلُّ على تَجَدُّدِ التَّأثيرِ[٢].

- وعُطِفتْ جُملةُ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ على جُملةِ ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِأنَّ ذلك التَّسخيرَ مُناسِبٌ لِتَكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وعَكسِه؛ فإنَّ ذلك التَّكويرَ مِن آثارِ ذلك التَّسخيرِ؛ فتلك المُناسَبةُ اقتَضَتْ عَطفَ الجُملةِ الَّتي تَضَمَّنَتْه على الجُملةِ الَّتي قَبْلَها[٣].

- قولُه: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ بَيانٌ لِكَيفيَّةِ تَسخيرِهما، أيْ: كُلٌّ منهما يَجري لِمُنتَهى دورَتِه، أو مُنقَطَعِ حَرَكَتِه[٤].

- وقد جاء في آياتٍ أُخرى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: ٢٩]، بحرْفِ انتهاءِ الغايةِ (إلى)، ولامُ العِلَّةِ وحرْفُ الغايةِ مُتقارِبانِ في المعنى الأصليِّ، واختِلافُ التَّعبيرِ بهما تَفنُّنٌ في الكلامِ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، وهو في مَعنى الوَعيدِ والوَعدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

فإنَّ وَصْفَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ كِنايةٌ عن أنَّه يَفعَلُ ما يَشاءُ، لا غالِبَ له، فلا تُجْدي المُشرِكينَ عِبادةُ أوليائِهم، ووَصْفَ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مُؤْذِنٌ باستِدعائِهم إلى التَّوبةِ باتِّباعِ الإسلامِ. وفي افتِتاحِ الجُملةِ بحَرفِ التَّنبيهِ إيذانٌ بأهَمِّيَّةِ مَدلولِها الصَّريحِ والكِنائيِّ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ بيانٌ لِبَعضٍ آخَرَ مِن أفعالِ اللهِ الدَّالَّةِ على ما ذُكِرَ، وانتِقالٌ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ النَّاسِ، وهو الخَلْقُ العَجيبُ، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ بخَلقِ أصلِهم، وهو نَفْسٌ واحِدةٌ تَشعَّبَ منها عَدَدٌ عَظيمٌ، وبخَلقِ زَوجِ آدَمَ لِيَتقَوَّمَ ناموسُ التَّناسُلِ. والجُملةُ يجوزُ أنْ تكونَ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ الجلالةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا؛ تَكريرًا للاستِدلالِ[(٢)].

- وتُركَ عَطْفُ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ على خَلقِ السَّمَواتِ؛ لِلإيذانِ باستِقلالِه في الدَّلالةِ، ولِتَعلُّقِه بالعالَمِ السُّفليِّ. والبُداءةُ بخَلقِ الإنسانِ؛ لِعَراقَتِه في الدَّلالةِ؛ لِمَا فيه مِن تَعاجيبِ آثارِ القُدرةِ، وأسرارِ الحِكمةِ، وأصالَتِه في المَعرِفةِ؛ فإنَّ الإنسانَ بحالِ نَفْسِه أعرَفُ[(٣)].

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ في قَولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾ لِلمُشرِكينَ؛ بدَليلِ قَولِه بَعدَه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، فهو التِفاتٌ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ونُكتَتُه: أنَّه لَمَّا أخبَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ، أقْبَلَ على خِطابِهم؛ لِيَجمَعَ في تَوجيهِ الاستِدلالِ إليهم بيْن طَريقَيِ التَّعريضِ والتَّصريحِ(١).

- وقدْ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الجُملةِ في سُورةِ (الأعرافِ)، إلَّا أنَّ في هذه الجُملةِ عُطِفَ قولُه: ﴿جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مَساقَها الاستِدلالُ على الوَحدانيَّةِ وإبطالِ الشَّريكِ بمَراتبِه؛ فكان خَلْقُ آدَمَ دليلًا على عَظيمِ قُدْرتِه تعالى، وخلْقُ زَوجِه مِن نفْسِه دَليلًا آخَرَ مُستقِلَّ الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرتِه. فعُطِفَ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ في عطْفِ الجُمَلِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ إشارةً إلى استِقلالِ الجُملةِ المعطوفةِ بها بالدَّلالةِ مِثلَ الجُملةِ المعطوفةِ هي عليها، فكان خلْقُ زَوجِ آدَمَ منه أدَلَّ على عَظيمِ القُدْرةِ مِن خلْقِ النَّاسِ مِن تلك النَّفْسِ الواحدةِ ومِن زَوجِها؛ لأنَّه خلْقٌ لم تَجْرِ به عادةٌ؛ فكان ذلك الخلْقُ أجلَبَ لِعَجَبِ السَّامعِ مِن خلْقِ الناسِ، فجيءَ له بحرْفِ التَّراخي المُستعمَلِ في تَراخي المنزلةِ لا في تَراخي الزَّمنِ؛ لأنَّ زمَنَ خلْقِ زَوجِ آدَمَ سابقٌ على خلْقِ النَّاسِ. فأمَّا آيةُ (الأعرافِ) -﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]- فمَساقُها مَساقُ الامتِنانِ على النَّاسِ بنِعمةِ الإيجادِ؛ فذُكِرَ الأصْلانِ لِلنَّاسِ، مَعطوفًا أحَدُهما على الآخَرِ بحَرفِ التَّشريكِ في الحُكمِ الَّذي هو الكَونُ أصلًا لِخَلقِ النَّاسِ. وقيلَ: المَعطوفُ مُتعَلِّقٌ بمَعنى ﴿وَٰحِدَةٖ﴾؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةٌ عليه، لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمَعناه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أُفرِدَتْ بالإيجادِ، ثمَّ شُفِعتْ بزَوجٍ، فكانت هاهنا على بابِها؛ لِتَراخي الوُجودِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٣، ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((حاشية =

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بيانٌ واستدلالٌ آخَرُ بما خلَقه اللهُ تعالى مِنَ الأنعامِ، عُطِفَ على الاستدلالِ بخَلقِ الإنسانِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ يومَئذٍ قِوامُ حَياتِهم بالأنعامِ، ولا تَخلو الأُمَمُ يومَئذٍ مِنَ الحاجةِ إلى الأنعامِ، ولم تَزَلِ الحاجةُ إلى الأنعامِ حافَّةً بالبَشَرِ في قِوامِ حياتِهم، وهذا اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وبيْن ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ لِمُناسَبةِ أزواجِ الأنعامِ لِزَوجِ النَّفْسِ الواحدةِ. وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ بما فيها مِنَ المَنافِعِ لِلنَّاسِ؛ لِمَا دلَّ عليه قولُه: ﴿لَكُم﴾؛ لأنَّ في الأنعامِ مَوادَّ عظيمةً لِبَقاءِ الإنسانِ، وهي الَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥- ٧]، وقولِه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] [النحل: ٨٠].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ تَقديمُ الظَّرفَيْنِ ﴿لَكُم﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ لِلاعتِناءِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ؛ فإنَّ كَوْنَ الإنزالِ لِمَنافِعِهم وكَوْنَه مِنَ الجِهةِ العاليةِ، مِنَ الأُمورِ المُهمَّةِ المُشوِّقةِ إلى ما أُنزِلَ لا مَحالةَ[2].

- وخَصَّها سُبحانَه بالذِّكرِ -مع أنَّه أنزَلَ لِمَصالحِ عِبادِه مِنَ البَهائِمِ غيرَها-

= الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

لِكَثرةِ نَفعِها، وعُمومِ مَصالِحِها، ولِشَرَفِها، ولاختِصاصِها بأشياءَ لا يَصلُحُ غَيرُها؛ كالأُضحِيَّةِ، والهَدْيِ، والعَقيقةِ، ووُجوبِ الزَّكاةِ فيها، واختِصاصِها بالدِّيَةِ(١).

- وقولُه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ خَلقِهم وأطوارِه المُختَلِفةِ الدَّالَّةِ على القُدرةِ الباهِرةِ، واستِدلالٌ بتَطَوُّرِ خَلْقِ الإنسانِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وحِكمَتِه ودَقائِقِ صُنعِه(٢). وقيل: هو بَيانٌ لِكَيفيَّةِ خَلقِ ما ذُكِرَ مِنَ الأناسيِّ والأنعامِ؛ إظهارًا لِمَا فيها من عَجائِبِ القُدرةِ، غَيرَ أنَّه غَلَّبَ أُولي العَقلِ، أو خَصَّهم بالخِطابِ؛ لِأنَّهمُ المَقصودونَ(٣).

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ الخَلقِ وتَدَرُّجِه وتَكَرُّرِه، مع استِحضارِ صُورةِ هذا التَّطوُّرِ العَجيبِ استِحضارًا بالوَجهِ والإجمالِ الحاصِلِ لِلأذهانِ على حَسَبِ اختِلافِ مَراتِبِ إدراكِها(٤).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إليه تعالى باعتِبارِ أفعالِه المَذكورةِ، وما فيه من مَعْنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه تعالى في العَظَمةِ والكِبرياءِ(٥). وبَعدَ أنْ أُجرِيَ على اسمِ اللهِ تعالى مِنَ الأخبارِ والصِّفاتِ القاضيةِ بأنَّه المُتصَرِّفُ في الأكْوانِ كُلِّها: جَواهِرِها وأعراضِها، ظاهِرِها وخَفيِّها، ما يُرشِدُ العاقِلَ إلى أنَّه المُنفَرِدُ بالتَّصرُّفِ، المُستَحِقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

العِبادةَ، المُنفَرِدُ بالإلَهيَّةِ؛ أعقَبَ ذلك باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لِلتَّنبيه على أنَّ اللهَ حَقيقٌ بما يَرِدُ بَعْدَه؛ مِن أجْلِ تلك التَّصرُّفاتِ والصِّفاتِ. والجُملةُ فَذلَكةٌ[1]، ونَتيجةٌ أنتَجَتْها الأدِلَّةُ السَّابِقةُ عليها مِن قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٥]؛ ولِذلك فُصِلتْ. واسمُ الإشارةِ لِتَمييزِ صاحِبِ تلك الصِّفاتِ عن غَيرِه تَمييزًا يُفْضي إلى ما يَرِدُ بَعدَ اسمِ الإشارةِ، والمَعنى: ذلكمُ الَّذي خَلَقَ وسَخَّرَ، وأنشَأَ النَّاسَ والأنعامَ، وخَلَقَ الإنسانَ أطوارًا؛ هو اللهُ؛ فلا تُشرِكوا معه غَيرَه؛ إذْ لم تَبقَ شُبهةٌ تَعذِرُ أهلَ الشِّركِ بشِركِهم[2].

- والإتيانُ باسمِه تعالى العَلَمِ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لِإحضارِ المُسَمَّى في الأذهانِ باسمٍ مُختَصٍّ؛ زيادةً في البَيانِ؛ لِأنَّ حالَ المُخاطَبينَ نُزِّلَ مَنزلةَ حالِ مَن لم يَعلَمْ أنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ العَظيمةِ هو اللهُ تَعالى[3].

- ووَصْفُه بالرُّبوبيَّةِ في قَولِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾ تَذكيرٌ لهم بنِعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وهو معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَوطِئةٌ لِلتَّسجيلِ عليهم بكُفرانِ نِعمَتِه الآتي في قَولِه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[4] [الزمر: ٧].

---

(١) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ ﴿لَهُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ الادِّعائيِّ[١]، أي: المُلْكُ للهِ، لا لِغَيرِه، فالإلَهيَّةُ هي المُلْكُ الحَقُّ؛ ولذلك كان ادِّعاؤُهم شُركاءَ لِلإلهِ الحَقِّ خَطَأً، فكان الحَصرُ الادِّعائيُّ لإبطالِ ادِّعاءِ المُشرِكينَ. وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ الحَصرِ في قَولِه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ مُفَرَّعٌ على ما قَبْلَه، وهو استِفهامٌ إنكاريٌّ عن انصِرافِهم عن تَوحيدِ اللهِ تعالى، ولَمَّا كان الانصِرافُ حالةً، استُفهِمَ عنها بكَلِمةِ (أَنَّى)، الَّتي هي هنا بمَعنى (كيف)[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ جعَلَهم مَصروفينَ عن التَّوحيدِ، ولم يَذكُرْ لهم صارِفًا؛ فجاءَ بالفِعلِ المَبنيِّ لِلمَجهولِ ﴿تُصْرَفُونَ﴾، ولم يَقُلْ لهم: فأنَّى تَنصَرِفونَ؛ نَعيًا عليهم بأنَّهم كالمَقودينَ إلى الكُفرِ غَيرِ المُستَقِلِّينَ بأُمورِهم، يَصرِفُهمُ الصَّارِفونَ، يَعني أئِمَّةَ الكُفرِ، أو الشَّياطينَ المُوَسوِسينَ لهم، وذلك إلْهابٌ لِأنْفُسِهم؛ لِيَكُفُّوا عن امتِثالِ أئِمَّتِهم الَّذين يَقولونَ لهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ عسَى أنْ يَنظُروا بأنْفُسِهم في دَلائِلِ الوَحدانيَّةِ المَذكورةِ لهم[٤].



(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

الآيتان (٧-٨)

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾: أي: لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرَى، ولا تُؤخَذُ نَفْسٌ بذَنْبِ غيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[١].

﴿خَوَّلَهُۥ﴾: أي: أعطاه ومَلَّكه، وأصلُ (خول): يدُلُّ على تَعهُّدِ شَيءٍ[٢].

﴿أَندَادٗا﴾: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: ندَّ: إذا نفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا أنَّه غنيٌّ عن خَلقِه، وأنَّهم هم الفقراءُ إليه: إنْ تَكفُروا -أيُّها النَّاسُ- باللهِ تعالى، فإنَّه سُبحانَه غَنيٌّ عنكم وعن عبادتِكم إيَّاه، وهو سُبحانَه لا يَرضى لِعبادِه الكُفرَ، وإنْ تَشكُروا رَبَّكم يَرْضَ شُكْرَكم ويُثِبْكم عليه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه كمالَ عدلِه، فيقولُ: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غيرِه، ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن أسرارٍ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى طبيعةَ الإنسانِ في حالَتَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فيقولُ: وإذا أصابَ الإنسانَ ضُرٌّ وشِدَّةٌ دعا رَبَّه لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، ورجَعَ إليه وَحْدَه، ثمَّ إذا كشَفَ اللهُ ضُرَّه، وأعطاه نعمةً منه، نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه مِن قَبْلُ، وجعَلَ لله شُرَكاءَ ونَظائِرَ يَعبُدُها؛ لِيُضِلَّ النَّاسَ بذلك الفِعلِ عن سَبيلِ اللهِ وعن دينِه الَّذي ارتضاه لِعبادِه!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي جعَلَ لله شُرَكاءَ في العبادةِ: تمتَّعْ بكُفرِك زَمانًا قليلًا، إنَّك مِن أصحابِ النَّارِ المُلازِمينَ لها، والخالِدينَ فيها.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾.

أي: إنْ تَكفُروا باللهِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن إيمانِكم به، وعبادتِكم إيَّاه، فلا يَنفَعُه إيمانُكم وطاعتُكم، ولا يَضُرُّه كُفرُكم ومَعصيتُكم؛ فهو الغَنيُّ عن كُلِّ ما سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَص ذلك مِن مُلْكي شَيئًا))[٢].

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾.

أي: ولا يَرضَى اللهُ لِعبادِه أن يَكفُروا به، ولا يُحِبُّ ذلك[٣].

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

أي: وإن تَشكُروا ربَّكم بالإيمانِ به وتوحيدِه وطاعتِه، يَرْضَ شُكرَكم له، ويُحِبَّه منكم، ويُثِبْكم عليه[٤].

كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ قَبْلَها أنَّ في المُخاطَبينَ كافِرًا وشاكِرًا، وهم في بَلَدٍ واحِدٍ، بَيْنَهم وشائِجُ القَرابةِ والوَلاءِ؛ فرُبَّما تحرَّجَ المُؤمِنونَ من أنْ يَمَسَّهم إثْمٌ مِن جَرَّاءِ كُفرِ أقرِبائِهم وأوليائِهم، أو أنَّهم خَشُوا أنْ يُصيبَ اللهُ الكافِرينَ بعَذابٍ في الدُّنيا، فيَلحَقَ منه القاطِنينَ معهم بمَكَّةَ؛ فأنْبَأهُم اللهُ بأنَّ كُفرَ أولئك لا يَنقُصُ إيمانَ هؤلاء، وأرادَ اطمِئنانَهم على أنْفُسِهم[(١)].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثمةٌ[(٢)] إثمَ نَفْسٍ غَيرِها؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غَيرِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٢) قال ابن عاشور: (وتأنيثُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿أُخْرَىٰ﴾ باعتِبارِ إرادةِ معنَى النَّفْسِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: ٤٨]. والمعنَى: لا تحمِلُ نفْسٌ وِزرَ نفْسٍ أخرَى، أي: لا تُغْني نفْسٌ عن نفْسٍ شيئًا مِن إثمِها، فلا تَطمَعُ نفْسٌ بإعانةِ ذَويها وأقربائِها، وكذلك لا تَخشى نفْسٌ صالحةٌ أنْ تُؤاخَذَ بتَبِعةِ نفْسٍ أُخرى مِن ذَويها أو قرابتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الوازرةَ هنا تَشملُ الوازرةَ حُكمًا -وهي الَّتي يمكِنُ أن تتحمَّلَ الإثمَ وإن لم تعمَلْه، وهي النَّفْسُ المكلَّفةُ- والوازرةَ فعلًا، وهي الَّتي فعَلَتِ الإثمَ حقيقةً. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٩، ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٩، ٧٠).

وعن عمرِو بنِ الأحوَصِ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ في حجَّةِ الوَداعِ: ((ألا لا يجني جانٍ إلَّا على نفسِه[١]، لا يجني والدٌ على ولدِه، ولا مولودٌ على والدِه))[٢].

وعن أبي رِمْثةَ رضي الله عنه، قال: ((انطلقتُ مع أبي نحوَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأبي: ابنُكَ هذا؟ قال: إي وربِّ الكعبةِ،... ثمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: أما إنَّه لا يَجني عليكَ ولا تَجني عليه[٣]. وقرَأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾...))[٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) الجناية: الذَّنْبُ والجُرْمُ وما يفعلُه الإنسانُ ممَّا يُوجِبُ عليه العذابَ أو القِصاصَ في الدُّنيا والآخرةِ. والمعنَى: أنَّه لا يُطالَبُ بجنايةِ غيرِه من أقاربِه وأباعِدِه، فإذا جنَى أحدُهما جنايةً لا يُعاقَبُ بها الآخَرُ، كقولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧) مطولًا، وابن ماجه (٢٦٦٩)، وأحمد (١٦٠٦٤).
قال الترمذي: (حسن صحيح)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١٧٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٦٦٩)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٠٦٤)، وحسَّن إسناده ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٦٦٣).

(٣) أي: إنْ جَنَى لم تُؤْخَذْ بجنايتِه، وإنْ جَنيْتَ لم يُؤخَذْ بجنايتِك. يُنظر: ((المسائل والأجوبة)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٤٩٥) واللفظ له، وأحمد (٧١٠٩)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥٩٩٥) وأخرجه النسائي (٤٨٣٢) مختصرًا.
صحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٢٣)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٧)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٨/ ٤٧٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٩٥)، وصحَّح إسنادَه: الحاكم في ((المستدرك)) (٣٥٩٠)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٢/ ٧٥)، وشعيب الأرناؤوط -على شرط مسلم- في تخريج ((مسند أحمد)) (٧١٠٩).

أي: ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[١].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه صُدورُ العبادِ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك[٢].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن فَسادَ القَولِ بالشِّركِ، وبَيَّن أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يجِبُ أن يُعبَدَ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ طَريقةَ هؤلاء الكُفَّارِ الَّذين يَعبُدونَ الأصنامَ: مُتناقِضةٌ؛ وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

قال ابن عاشور: (وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّث «ذو» بمعنى صاحب، صِفةٌ لِمَحذوفٍ تقديرُه الأعمالُ، أي: بالأعمالِ صاحبةِ الصُّدورِ، أي: المُستقِرَّةِ في النَّوايا، فعَبَّر بالصُّدورِ عما يَحِلُّ بها، والصُّدورُ مُرادٌ بها القلوبُ المُعَبَّرُ بها عمَّا به الإدراكُ والعزمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٢).

وقال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

لأنَّهم إذا مَسَّهم نَوعٌ مِن أنواعِ الضُّرِّ لم يَرجِعوا في طَلَبِ دَفعِه إلَّا إلى الله، وإذا زال ذلك الضُّرُّ عنهم رجَعوا إلى عبادةِ الأصنامِ! ومعلومٌ أنَّهم إنَّما رَجَعوا إلى اللهِ تعالى عندَ حُصولِ الضُّرِّ؛ لأنَّه هو القادِرُ على إيصالِ الخَيرِ ودَفعِ الضُّرِّ، وإذا عَرَفوا أنَّ الأمرَ كذلك في بَعضِ الأحوالِ كان الواجِبُ عليهم أن يَعترِفوا به في كُلِّ الأحوالِ؛ فثبَت أنَّ طَريقتَهم في هذا البابِ مُتناقِضةٌ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه أنَّه المُختَصُّ بالمُلْك وَحْدَه، وأَتْبَعَه بما يُرضيه وما يُسخِطُه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك الاختِصاصِ -مع أنَّه أوضَحُ مِن الشَّمسِ- بدَليلٍ وِجدانيٍّ لكُلِّ أحَدٍ، على وجْهٍ ذمَّهم فيه بالتَّناقُضِ الَّذي هم أعظَمُ النَّاسِ ذَمًّا له، ونُفرةً منه، وذَمًّا به، فقال[٢]:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ[٣] كَربٌ وشِدَّةٌ دعا رَبَّه؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، راجعًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢).

(٣) قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطية، والرسعني، والقرطبي، وابن عادل، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالإنسانِ كلُّ مُشرِكٍ، فالتَّعريفُ تعريفُ الجنسِ، والمرادُ جماعةٌ مِن النَّاسِ وهم أهلُ الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

وقيلَ: المرادُ بالإنسانِ أقوامٌ مُعَيَّنونَ، مِثلُ عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وغيرِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٧).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: المؤمِنُ والكافِرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢).

إليه وَحْدَه، مُعرِضًا عمَّا سِواه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ثمَّ إذا منَحه اللهُ نِعمةً مِنه نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه، واستمَرَّ على شِركِه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٢، ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٧٠) و (٢٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وممَّن قال بأنَّ النِّسيانَ يعودُ على الضُّرِّ، أي: نَسِيَ ما مَسَّه مِن ضُرٍّ كان يَدْعو اللهَ لدَفْعِه عنه: الرسعنيُّ، وابنُ تيميَّة، والبِقاعي، والعُلَيمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٧٠) و(٢٢/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وقيل: النِّسيانُ يعودُ على الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ لِرَبِّه لكَشفِ الضُّرِّ عنه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن كثير. وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، (تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وقيل: المعنى: نَسِيَ اللهَ تعالى الَّذي دعاه وتضَرَّع إليه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيَضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ على معنى: أنَّه يَضِلُّ بنَفْسِه(١).

٢- قِراءةُ: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ على معنى: أنَّه يُضِلُّ غيرَه(٢).

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: وجعَلَ شُركاءَ للهِ مِن الأصنامِ أو غَيرِها، فيَعبُدُهم؛ ليُضِلَّ غيرَه عن طريقِ اللهِ، الموصِلِ إليه وإلى رِضوانِه(٣).

---

(١) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عَمرو، ورُوَيسٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
واختُلِف عن رُوَيس؛ فروى التَّمَّارُ مِن كلِّ طُرُقِه إلَّا طريقَ أبي الطَّيِّبِ بفتحِ الياءِ، ومِن طريقِ أبي الطَّيِّبِ بضَمِّ الياءِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣).
قال ابن عثيمين: (وهاتانِ القِراءتانِ كِلْتاهما صحيحةٌ، وكلُّ واحدةٍ تُفيدُ معنًى يُكملُ معنَى الأخرى؛ فهو يَضِلُّ بنفْسِه، ويُضِلُّ غيرَه أيضًا... فمجموعُ القِراءتَينِ فيهما فائدةٌ لا تحصُلُ بانفرادِ إحداهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٤-٨٧).
قال السعدي: (﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: لِيَضِلَّ بنفْسِه، ويُضِلَّ غيرَه؛ لأنَّ الإضلالَ فرعٌ عن الضَّلالِ، فأتى بالملزومِ لِيَدُلَّ على اللَّازمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠). =

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عنهم هذا الفِعلَ المُتناقِضَ؛ هَدَّدَهم، فقال[1]:

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي تلك حالُه وطريقتُه: عِشْ مُتمَتِّعًا بكُفرِك يَسيرًا مُدَّةَ حياتِك الفانيةِ، إنَّك في الآخرةِ من أهلِ النَّارِ المُلازِمينَ لها أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ مَوعِظةٌ عَظيمةٌ في أن يَعلَمَ الإنسانُ أنَّ حَرَكاتِه في الدُّنيا وسَكَناتِه؛ أنَّ ما فيها مِن نَفعٍ فهو عائِدٌ إلى خُصوصِ نَفْسِه، وما فيها مِن ضُرٍّ فهو عائِدٌ إلى خُصوصِ نَفْسِه؛ فلْيَجتهِدِ الإنسانُ وَقتَ إمكانِ الفُرصةِ أن يُسلِّمَ نَفْسَه مِن البَلايا، وأن يَكسِبَها الخَيراتِ؛ فحَرَكاتُ الإنسانِ في دارِ الدُّنيا إنَّما يَبني بها بَيتَه الَّذي إليه مَصيرُه الأخيرُ، وهو إمَّا غُرفةٌ مِن غُرَفِ الجنَّةِ، أو سِجنٌ مِن سُجونِ النَّارِ؛ فعلى كُلِّ مُكَلَّفٍ أن يَتأمَّلَ في نورِ القُرآنِ في الحياةِ الدُّنيا، في صِحَّتِه وفراغِه، ويَعلَمَ أنَّ حَرَكاتِه مِن أقوالِه، وأفعالِه،

= وقال ابن عاشور: (وقَرَأ الجمهورُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضمِّ الياءِ، أيْ: لِيُضِلَّ النَّاسَ بعدَ أنْ أضلَّ نفْسَه؛ إذْ لا يُضِلُّ النَّاسَ إلَّا ضالٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

ونيَّاتِه، وقُصودِه: إنَّما يَبني بها مَقَرَّه الأخيرَ النِّهائيَّ: إمَّا غُرفةٌ مِن غُرَفِ الجنَّةِ، وإمَّا سِجنٌ مِن سُجونِ النَّارِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: وُجوبُ الاستعدادِ لهذا اللِّقاءِ وهذا المرجِعِ، والاستِعدادُ له يكون بتركِ المعاصي وفِعلِ الطَّاعاتِ، فما دام المرجِعُ إلى اللهِ فلا يمكنُ أن تَرجِعَ إلى غيرِه؛ ومهما كان فإنَّ مَرجِعَكم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو منه المُبتدَأُ، وإليه المُنتهَى(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّما ذَكَر اللهُ هذه الجُملةَ بعدَ قَولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحِسابَ يَكونُ على ما في القَلبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، فالمدارُ يومَ القيامةِ على ما في القَلبِ، أمَّا في الدُّنيا فالمدارُ على الأعمالِ الظَّاهِرةِ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعامِلُ المُنافِقينَ مُعاملةَ المُسلِمينَ؛ لأنَّهم كانوا يَتظاهَرونَ بالإسلامِ، ونحن نحاسِبُ النَّاسَ في الدُّنيا على ما يَظهَرُ مِن أعمالِهم، ونَكِلُ سرائِرَهم إلى اللهِ، أمَّا في الآخرةِ فإنَّ الحِسابَ على ما في القَلبِ؛ ولهذا يجِبُ على الإنسانِ أن يَعتنيَ بصَلاحِ قَلبِه قبْلَ صلاحِ جِسمِه؛ لأنَّ صَلاحَ الجِسمِ واجِهةٌ أمامَ الخَلقِ، لكِنْ صَلاحُ القَلبِ هو الَّذي يكونُ بيْنَ الإنسانِ وبيْنَ رَبِّه عزَّ وجَلَّ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ تَقريعٌ لِمَن يُهمِلُ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ، ويَفزَعُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

إليه في الشِّدَّةِ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وليس ذلك مِن أخلاقِ المؤمِنينَ؛ إذ مِن أخلاقِهم إكثارُ الدُّعاءِ في الرَّخاءِ عُدَّةً للشِّدَّةِ؛ فقد ورَد أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لابنِ عبَّاسٍ: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْك في الشِّدَّةِ))[1]؛ فلا ينبغي للمُؤمنِ أن يَستَنَّ بالكافرِ ولا يَفزَعَ إلى الدُّعاءِ إلَّا عندَ الشَّدائِدِ[2]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أنَّه كما يكونُ الاقتداءُ بالقولِ يكونُ الاقتداءُ بالفعلِ؛ لأنَّ هذا الكافرَ جَعَل لله أندادًا؛ وكان جعلُه للأندادِ سببًا لضلالِ غيرِه، لذا قال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ولم يَقُلْ: ودعا النَّاسَ لِيَضِلُّوا عن سبيلِ اللهِ! بل جَعَل فِعلَه سببًا لضلالِ النَّاسِ، ويَتفرَّعُ على هذا فائدةٌ، وهي: تحذيرُ الإنسانِ -ولا سيَّما القدوةُ- مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ النَّاسَ سوف يَقتدونَ به، ويَحتجُّون بفعلِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾

(١) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣) باختلافٍ يسير، والطبرانيُّ (١١/ ٢٢٣) (١١٥٦٠)، والحاكمُ (٦٣٠٣) واللفظ لهما من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما.
صَحَّحه عبدُ الحَقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبي في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٩٦١)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨٠٣)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨). وحسَّن إسنادَه الصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٦٧)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٤).

إخبارٌ عن عدَمِ محبَّتِه سبحانه لهذا الأمرِ، وعدَمِ رِضاهُ به بعدَ وُقوعِه؛ فهذا صريحٌ في إبطالِ قَولِ مَن تأوَّلَ هذا النصَّ وغيرَه على أنَّه لا يُحِبُّه ممَّن لم يقَعْ منه، ويُحِبُّه إذا وقَعَ، وهذا مِن أعظَمِ الباطِلِ والكَذِبِ على اللهِ، بل هو سُبحانَه يَكرَهُه ويُبغِضُه قبْلَ وُقوعِه، وحالَ وقوعِه، وبعدَ وُقوعِه؛ فإنَّه من القبائحِ والخبائِثِ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن مَحبَّةِ القَبيحِ والخَبيثِ، بل هو أَكْرَهُ شَيءٍ إليه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾، فالله تعالى يكرهُ بعضَ الأعيانِ والأفعالِ والصِّفاتِ، وإنْ كانت واقعةً بمشيئتِه، فهو يبغِضُها ويمقُتُها كما يُبغِضُ ذاتَ إبليسَ وذواتَ جنودِه، ويبغضُ أعمالَهم، ولا يحِبُّ ذلك، وإنْ وُجِد بمشيئتِه[1] [الإسراء: ٣٨].

٢- أنَّه لا تَلازُمَ بيْنَ الرِّضا والإرادةِ؛ وَجْهُه: أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ مع أنَّه أخبَرَ في آياتٍ كثيرةٍ أنَّ الكُفرَ واقِعٌ بإرادتِه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فإذا جمَعْنا بيْن هذا وهذا عرَفْنا بأنَّه لا تَلازُمَ بيْن الرِّضا والإرادةِ؛ فقد يُريدُ ما لا يَرضاه، وقد يَرضى ما لا يُريدُه؛ فهو -مثلًا- يَرضى مِن كلِّ واحدٍ مِن النَّاسِ أن يَشكُرَ للهِ، لكنَّه ما أراد ذلك[2]، وفي ذلك تكذيبٌ لِدعوى الكُفَّارِ: «أنَّه لَمَّا كان كُفرُهم وعِصيانُهم بمَشيئةِ اللهِ، وأنَّه لو شاء لَمَنَعَهم مِن ذلك؛ فعَدَمُ مَنعِه لهم دليلٌ على رضاه بفعلِهم!». فالكُفَّارُ زَعَموا أنَّ الإرادةَ الكَونيَّةَ يَلزَمُها الرِّضا، وهو زَعمٌ باطِلٌ، بل اللهُ يريدُ بإرادتِه الكَونيَّةِ ما لا يَرضاه، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧] مع قَولِه: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾، والَّذي يُلازِمُ الرِّضا حقًّا إنَّما هو الإرادةُ الشَّرعيَّةُ[3].

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٩٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الآيةَ دَلَّت على أنَّه لا يَحمِلُ أحَدٌ وِزرَ غَيرِه، فما الجَمعُ مع قَولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ حيث تدُلُّ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ يَحمِلونَ أوزارَهم كامِلةً، ويَحمِلونَ أيضًا مِن أوزارِ الأتْباعِ الَّذين أضَلُّوهم؟

الجوابُ: أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ ما حَمَلوا إلَّا أوزارَ أنفُسِهم؛ لأنَّهم تحَمَّلوا وِزرَ الضَّلالِ ووِزرَ الإضلالِ؛ ((ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه، مِن غَيْرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ))[١]؛ لأنَّ تشريعَه السَّيِّئةَ لِغَيرِه ذنْبٌ مِن ذُنوبِه؛ فأُخِذَ به، وبهذا يَزولُ الإشكالُ أيضًا في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٢] [العنكبوت: ١٣].

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٢).

قال الشنقيطي: (في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ نَصَّ فيه أنَّه لا يُؤاخِذُ أحَدًا بفِعلِ أحَدٍ آخَرَ، وقد جاءت مسألَتانِ وَقَعَت فيهما المؤاخَذةُ بفِعلِ الغَيرِ؛ الأُولى: تحمُّلُ العاقِلةِ للدِّيَةِ... الثَّانيةُ: ما ثبَتَ في الصَّحيحِ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما أنَّه قال: «إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببُكاءِ أهلِه عليه». [البخاري «١٣٠٤» - مسلم «٩٢٨»]، وهذا كأنَّه عُذِّبَ بفِعلِ غَيرِه!

الجوابُ: أجاب العُلماءُ عن هذا بأجوِبةٍ، فقالوا: أمَّا العاقلةُ فإنَّ الإنسانَ القاتِلَ خطأً لا ذنبَ عليه؛ لأنَّه لا يَقصِدُ شَيئًا، ولا مُؤاخَذةَ عليه عندَ الله إجماعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ويقولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]، والكَفَّارةُ الَّتي وَجَبَت عليه قال بَعضُ العُلماءِ: إنَّما هي مُؤاخَذةٌ لعَدَمِ شِدَّةِ التَّحفُّظِ والتَّحرُّزِ أوَّلًا، والتَّسبُّبِ في عدَمِ وُقوعِ الخطأِ، أمَّا بعدَ وُقوعِ الخطَأِ فلا إثمَ فيه قطعًا. قالوا: هذا رجُلٌ مُسلِمٌ لَزِمَتْه دِيَةٌ، وهو لم يَقصِدْ سُوءًا، ولم يَقصِدْ بها ذَنْبًا ولا جريمةً، فالله جَلَّ وعلا أمَرَ عاقِلَتَه مِن أهلِ ديوانِه -ممَّن يقولُ بالدِّيوانِ- أو مِن عَصَبتِه -ممَّن =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ آثامَ غَيرِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: ثبوتُ كمالِ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث لا يَحمِلُ أحدٌ وِزرَ أحَدٍ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه بيانُ شُمولِ عِلْمِ اللهِ تعالى، فقولُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالَّذي كنتُم تَعمَلونَ كلِّه؛ صَغيرِه وكَبيرِه، والخِطابُ لجَميعِ النَّاسِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ القلبَ هو الَّذي عليه مَدارُ الصَّلاحِ؛ لأنَّه إذا كان الحسابُ على ما في القلبِ فيكونُ مدارُ الصلاحِ عليه، ويؤيِّدُه قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدتْ فَسَد الجسدُ كلُّه؛ ألَا وهي

= يَقصُرُها على العَصَبةِ-؛ أمَرَهم أن يُساعِدوه، وخالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ يُدَبِّرُ على البَعضِ من البَعضِ، ويأمُرُ البَعضَ بمُساعدةِ البَعضِ؛ إكرامًا وجريًا على مكارِمِ الأخلاقِ، كما أمَرَ بأن تُؤخَذَ الزَّكاةُ مِن أغنيائِنا وتُرَدَّ على فُقَرائِنا، فهذه إعانةٌ مَحضٌ، ومكارِمُ أخلاقٍ جاء القرآنُ بها؛ مُعاوَنةً لذلك الإنسانِ، كما أوجبَ الزَّكاةَ مُساعدةً للفَقيرِ، وما جرى مجرى ذلك.

أمَّا حديثُ ابنِ عُمَرَ فلِلعُلماءِ عنه أجوبةٌ كثيرةٌ، منها: أنَّهم حَمَلوه على الميِّتِ الَّذي أوصاهم أن يَبكُوا عليه، أو: عَرَفَ أنَّه إذا مات يَبكُون عليه ولم يَنْهَهم...[فالأوَّلُ:] لأنَّه أمَرَ بها في الدُّنيا وهو مِن فِعْلِه، ...[والثَّاني: لأنَّه] عَلِمَ أنَّه إذا مات يَفعَلونَه ولم يَنْهَهم؛ فهو مُتَسَبِّبٌ بعَدَمِ نَهْيِهم. وقال بعضُ العُلَماءِ: تَعذيبُه ببُكاءِ أهلِه: أنَّ أهلَه إذا بَكَوا عليه: أنَّ اللهَ يُطلِعُه على ذلك، ويأسَفُ ويَحزَنُ مِن حُزنِ أهْلِه، إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ، وأظهَرُها الأوَّلُ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢-٦٣٤).

واختار ابنُ عُثيمين أنَّ المرادَ بالعَذابِ في هذا الحديثِ: التَّألُّمُ النَّفْسيُّ، لا العذابُ البَدَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة فاطر)) لابن عثيمين (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٠).

القلبُ))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ أنَّ عبادةَ الضَّرورةِ لا تنفَعُ غالبًا، أي أنَّ الإنسانَ إذا عَرَف ربَّه عندَ الضَّرورةِ فقطْ فالغالبُ أنَّه لا يَنتفِعُ بهذه العبادةِ؛ لأنَّها ليست عبادةً عن رغبةٍ، ولكنَّها عبادةٌ مِن أجْلِ إنجاءِ الإنسانِ مِن الهَلَكَةِ، وإنْ كان أحيانًا يَنتفِعُ، فرُبَّما يكونُ هذا سببًا لفَتْحِ اللهِ عليه، كما يُوجَدُ الآنَ مِن النَّاسِ مثلًا مَن يُصابُ بمرضٍ شديدٍ، ويَخافُ منه الهلاكَ؛ فيُنيبُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويدعو اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ ثم يَمُنُّ اللهُ عليه بالاستمرارِ، لكنَّ الغالبَ أنَّ التَّعَبُّدَ ضرورةً لا يُفيدُ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ أنَّ الكافرَ يُؤمِنُ برُبوبيَّةِ اللهِ، وأنَّ إيمانَه هذا باللهِ لا يُخرِجُه مِن الكُفرِ؛ فالإيمانُ باللهِ وبرُبوبيَّتِه لا يكفي، ولا يُخرِجُ الإنسانَ مِن الكُفرِ، ودليلُ ذلك: أنَّ المُشرِكينَ الَّذين بُعِثَ فيهم رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا يُقِرُّون باللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، يعني: يُقِرُّونَ بأنَّ الَّذي خَلَقَهم هو اللهُ، ويَصِفُونه بالصِّفاتِ الكاملةِ، ومع ذلك فهم كفَّارٌ استباحَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم دماءَهم ونِساءَهم وأموالَهم وذُرِّيَّتَهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨١).
والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ التَّعبيرُ بـ «خوَّل»، وفيه أنَّ عَطاءَه سُبحانَه ابتِداءً فَضلٌ منه، لا يَستَحِقُّ أحَدٌ عليه شيئًا؛ لأنَّ التَّخويلَ لا يكونُ جَزاءً، بل ابتِداءً[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُجيبُ دعوةَ المُضْطَرِّ ولو كان كافرًا[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا نِدَّ له؛ لأنَّ اللهَ أنْكَر على مَن جَعَلوا له أندادًا؛ فيكونُ في هذا رَدٌّ على أهلِ التَّمثيلِ الَّذين أَثْبَتوا للهِ الصِّفاتِ مع التَّمثيلِ؛ فقالوا: إنَّ اللهَ تعالى له وجْهٌ كوُجوهِنا! ويَدٌ كأيدينا! وعينٌ كأعيُنِنا! وساقٌ كسُوقِنا! وهكذا[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾ إشارةٌ إلى قِلَّةِ زَمَنِ الدُّنيا وما فيها في جَنبِ الآخِرةِ[4].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أنَّهم لا يُفارِقونَها؛ فإنَّ الصُّحبةَ تُشعِرُ بالمُلازَمةِ، فأصحابُ النَّارِ: المُخَلَّدونَ فيها[5].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥).

تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ ﴾ أُتْبِعَ إنكارُ انصِرافِهم عن تَوحيدِ اللهِ بَعدَ ما ظَهَر على ثُبوتِه مِنَ الأدِلَّةِ، بأنْ أُعلِموا بأنَّ كُفرَهم إنْ أصَرُّوا عليه لا يَضُرُّ اللهَ، وإنَّما يَضُرُّ أنْفُسَهم، وهذا شُروعٌ في الإنذارِ والتَّهديدِ لِلكافِرينَ، ومُقابَلَتِه بالتَّرغيبِ والبِشارةِ لِلمُؤمِنينَ؛ فالجُملةُ مُستَأنَفةٌ واقِعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ لِمَا سَبَقَ مِن إثباتِ تَوحيدِ اللهِ بالإلَهيَّةِ؛ فجُملةُ ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ ﴾ مُبيِّنةٌ لِإنكارِ انصِرافِهم عنِ التَّوحيدِ، أيْ: إنْ كَفَرتُم بَعدَ هذا الزَّمَنِ، فاعلَموا أنَّ اللهَ غَنيٌّ عنكم، ومَعناه: غَنيٌّ عن إقرارِكم له بالوَحدانيَّةِ، أيْ: غَيرُ مُفتَقِرٍ له، وهذا كِنايةٌ عن كَونِ طَلَبِ التَّوحيدِ منهم لِنَفعِهم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنهم، لا لِنَفعِ اللهِ، ولتَذكيرِهم بهذا، والخَبرُ مُستَعمَلٌ كِنايةً في تَنبيه المُخاطَبِ على الخَطَأِ مِن فِعلِه[1].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ جُملةٌ مُستَطرَدةٌ كالتَّتميم لِلشَّرطِ الأوَّلِ، تَعريضًا بهم وبكُفرِهم، وهو مع الشَّرطِ كالمُقابِلِ لِلشَّرطِ الثَّاني، والمَعنى: أنَّهم ليسوا مِن جُملةِ عِبادِه المُرتَضَيْنَ، بلْ هم مِنَ الَّذين سَخِطَ اللهُ عليهم[2].

أو اعتِراضٌ بيْنَ الشَّرطَينِ؛ لِقَصدِ الاحتِراسِ مِن أنْ يَتوهَّمَ السَّامِعونَ أنَّ اللهَ لا يَكتَرِثُ بكُفرِهم ولا يَعبأُ به، فيَتوهَّموا أنَّه والشُّكرَ سَواءٌ عِندَه؛ لِيَتأكَّدَ بذلك مَعنى استِعمالِ الخَبَرِ في تَنبيه المُخاطَبِ على الخَطَأِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧).

قولُه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ قال: ﴿لِعِبَادِهِ﴾، ولم يَقُل: «مِن عبادِه»، أو: «عن عِبادِه»؛ لأنَّ اللَّامَ أبلَغُ في كَونِ هذا الشَّيءِ لا يليقُ بهم(١).

- قَولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيه تَعريضٌ بالمُتارَكةِ، وقَطْعِ اللَّجاجِ مع المُشرِكينَ، وأنَّ قُصارَى المُؤمِنينَ أنْ يُرشِدوا الضُّلَّالَ، لا أنْ يُلجِئوهم إلى الإيمانِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرتيبَينِ: الرُّتبيِّ والتَّراخي، أيْ: وأعظَمُ مِن كَونِ اللهِ غَنيًّا عنكم أنَّه أعَدَّ لكمُ الجَزاءَ على كُفرِكم، وستَرجِعونَ إليه(٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُه في آخِرِ سُورةِ (الأنعام)، وإنَّما جاءَ في آيةِ (الأنعام): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لِأنَّها وَقَعَتْ إثْرَ آياتٍ كَثيرةٍ تَضَمَّنَتْ الاختِلافَ بيْنَ أحوالِ المُؤمِنينَ وأحوالِ المُشرِكينَ، ولم يَجِئْ مِثلُ ذلك هنا؛ فلذلك قيلَ هنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أيْ: مِن كُفرِ مَن كَفَر، وشُكرِ مَن شَكَر(٤).

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه تَعريضٌ بالوَعدِ والوَعيدِ(٥)؛ ففيها تهديدٌ للعاصي، وبِشارةٌ للمُطيعِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٠، ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لِأنَّ العَليمَ بذاتِ الصُّدورِ لا يُغادِرُ شَيئًا إلَّا عَلِمَه، فإذا أنبأَ بأعمالِهم كان إنباؤُه كامِلًا[١].

- وقيل: إنَّ قولَه: (يُنَبِّئُكُمْ) فيه إشارةٌ إلى اللُّطفِ والإحسانِ، حيثُ لم يقُلْ: يُؤاخِذُكم؛ لأنَّه ثبَتَ في الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه[٢] ويَسترُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذنْبَ كذا؟ أتَعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيقولُ: نعمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قَرَّره بذُنوبِه ورَأَى في نفْسِه أنَّه هَلَكَ قال: ستَرْتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ))[٣]؛ فهذا إنباءٌ بدونِ مؤاخَذةٍ؛ ولهذا قال هنا: (يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). ثمَّ إنَّ المؤاخَذةَ إليه، والإنباءَ وَعْدٌ عليه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ ولهذا كان الكفَّارُ لا يُنَبَّؤونَ بعمَلِهم كما يُنبَّأُ المؤمنُ، يعني أنَّ اللهَ يَخْلو به ويَستُرُ عليه، ويُقرِّرُه بذُنوبِه معه وحْدَه، أمَّا الكفَّارُ -والعياذُ باللهِ- فيُنادَى على رُؤوسِ الأشهادِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، واللهُ أعلَمُ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١، ٣٤٢).
(٢) كَنَفَه: أي: سِتْرَه وعَفْوَه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما.
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٣).

نَسِىَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ هذا مِثالٌ لِتَقلُّبِ المُشرِكينَ بيْنَ إشراكِهم مع اللهِ غَيرَه في العِبادةِ، وبيْنَ إظهارِ احتياجِهم إليه، فذلك عُنوانٌ على مَبلَغِ كُفرِهم وأقْصاه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾ [الزمر: ٦] الآيةَ؛ لاشتراكِ الجُملتَينِ في الدَّلالةِ على أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالتَّصرُّفِ، مُستوجِبٌ للشُّكرِ، وعلى أنَّ الكُفرَ به قَبيحٌ، وتَتضَمَّنُ الاستِدلالَ على وحدانيَّةِ إلهيَّتِه، بدَليلٍ مِن أحوالِ المُشرِكينَ به؛ فإنَّهم إذا مَسَّهمُ الضُّرُّ لَجَؤوا إليه وَحْدَه، وإذا أصابَتْهم نِعمةٌ أعرَضوا عن شُكرِه، وجَعَلوا له شُركاءَ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تعريفُ الجِنسِ، ولكِنَّ عُمومَه هنا عُمومٌ عُرفيٌّ لِفَريقٍ مِنَ الإنسانِ، وهم أهلُ الشِّركِ خاصَّةً؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ لا يَتَّفِقُ مع حالِ المُؤمِنينَ[1].

- وذِكرُ (الإنسانِ) في ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِأنَّ المَقصودَ به المُخاطَبونَ بقَولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الزمر: ٦]، إلى قَولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧]، فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإذا مَسَّكمُ الضُّرُّ دَعَوْتُم رَبَّكم... إلخ، فعُدِلَ إلى الإظهارِ؛ لِمَا في مَعنى (الإنسانِ) مِن مُراعاةِ ما في الإنسانيَّةِ مِنَ التَّقلُّبِ والاضطِرابِ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ بالتَّوفيقِ، ولِأنَّ في اسمِ (الإنسانِ) مُناسَبةً مع النِّسيانِ الآتي في قَولِه: ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٤٢، ٣٤٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لامُ العاقِبةِ؛ لِأنَّ الإضلالَ لَمَّا كان نَتيجةَ الجَعلِ جازَ تَعليلُ الجَعلِ به، كأنَّه هو العِلَّةُ لِلجاعِلِ(١).

- قولُه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ حالةِ الإنسانِ الكافرِ المُعرِضِ عن شُكرِ ربِّه، يُثِيرُ وَصْفُها سُؤالَ السَّامعِ عن عاقِبةِ هذا الكافرِ(٢).

- وصِيغةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿تَمَتَّعْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإمهالِ المرادِ منه الإنذارُ والوعيدُ(٣). وهو أمْرُ تَهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكُفرَ نَوعُ تَشَهٍّ لا سَنَدَ له، وإقناطٌ للكافِرينَ مِنَ التَّمتُّعِ في الآخرةِ؛ ولذلك علَّله بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سَبيلِ الاستِئنافِ للمُبالَغةِ(٤).

- ومُتعلَّقُ التَّمتُّعِ في قولِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه سِياقُ التَّهديدِ، والتَّقديرُ: تَمَتَّعْ بالسَّلامةِ مِنَ العَذابِ في زَمَنِ كُفرِكَ، أو مُتكَسِّبًا بكُفرِكَ تَمَتُّعًا قَليلًا؛ فأنتَ آيِلٌ إلى العَذابِ؛ لِأنَّكَ مِن أصحابِ النارِ(٥).

- ووَصْفُ التَّمتُّعِ بالقَليلِ؛ لِأنَّ مُدَّةَ الحَياةِ الدُّنيا قَليلةٌ بالنِّسبةِ إلى العَذابِ في الآخِرةِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

قَلِيلٌ ﴾(١) [التوبة: ٣٨].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ بيانٌ لِلمَقصودِ مِن جُملةِ ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾، وهو الإنذارُ بالمَصيرِ إلى النَّارِ بَعدَ مُدَّةِ الحَياةِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٩-١٠)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿قَٰنِتٌ﴾: أي: دائِمُ الطَّاعةِ، أو: مُصَلٍّ، أو: قائِمٌ في صلاتِه، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ(١).

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: ساعاتِ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على ساعةٍ مِن الزَّمانِ(٢).

﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: أصحابُ العقولِ الزَّكيَّةِ، ومفردُ ألبابٍ: لُبٌّ، وأصلُ اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١).
قال ابن القيِّم: (القنوت... هو الطَّاعةُ الدَّائمةُ؛ فيَدخُلُ فيه القيامُ، والذِّكرُ، والدُّعاءُ، وأنواعُ الطَّاعةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).
وآناء جمْعٌ، مُفْردُه: إِنْيٌ وإِنًى وأَنا وإنو. يُنظر: ((التبيان في آداب حملة القرآن)) للنووي (ص: ٢٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى نافيًا المُساواةَ بيْنَ الإنسانِ المُشرِكِ وبيْنَ الإنسانِ الملازِمِ لطاعةِ رَبِّه: آلَّذي هو مُطيعٌ لِرَبِّه قائِمٌ ساعاتِ اللَّيلِ لعبادتِه ساجِدًا وقائِمًا، يَحْذَرُ عذابَ الآخِرةِ، ويَرجو رحمةَ رَبِّه: كمَنْ هو جاعِلٌ لله تعالى شُرَكاءَ في العبادةِ؟!

ثمَّ يَنفي اللهُ تعالى أيضًا المساواةَ بيْنَ العالِمِ والجاهلِ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل يَستوي العُلَماءُ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتونَ لله؛ والجُهَّالُ الَّذين لا يَعلَمونَ ولا يَعمَلونَ؟ كلَّا، لا يَستَوونَ؛ إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ!

ثمَّ يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لعِبادِيَ المؤمنينَ: اتَّقوا رَبَّكم، لِلَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ، وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ، وبلادُه كَثيرةٌ، فإذا عجَزْتُم عن عِبادتي في أرضٍ فتحَوَّلوا إلى أرضٍ أُخرَى تَتَمكَّنونَ فيها مِنَ العبادةِ؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَركِ الهِجرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى عاقبةَ الصَّبرِ، فيقولُ: إنَّما يُوفَّى الصَّابِرونَ أجْرَهم تامًّا كثيرًا بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح تَعالى شَيئًا مِن أحوالِ الظَّالِمينَ الضَّالِّينَ المُشرِكينَ؛ أردَفَه بشَرحِ أحوالِ المُهتَدينَ المُوَحِّدينَ، فقال[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿أَمَنْ﴾ بتخفيفِ الميمِ. وهي همزةُ الاستِفهامِ دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى (الَّذي)، والاستِفهامُ للتَّقريرِ، ومُقابِلُه مَحذوفٌ تقديرُه: أمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعَلَ للهِ أندادًا؟ أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه؟ وقيل: الهَمزةُ للنِّداءِ، و(مَنْ) مُنادى، أي: يا مَن هو قانتٌ، قُلْ كَيْتَ وكَيْتَ، أو أبشِرْ؛ إنَّك مِن أهلِ الجنَّةِ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿ أَمَّنْ﴾ بتَشديدِ الميمِ، على إدخالِ (أم) على (مَن) الموصولةِ، وإدغامِ الميمِ. وفي (أم) قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُتَّصِلةٌ، ومُعادِلُها محذوفٌ تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أمِ الَّذي هو قانِتٌ؟ وقيل: (أم) في ﴿ أَمَّنْ﴾ مُنقَطِعةٌ، فتتقَدَّرُ بـ (بل والهمزةِ) أي: بل أمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو كالكافِرِ المَقولِ له: تمتَّعْ بكُفْرِك[٢]؟

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

أي: أذَلِكَ الكافِرُ الَّذي يَتمتَّعُ بكُفرِه قَليلًا وهو مِن أصحابِ النَّارِ خَيرٌ أمِ المُطيعُ للهِ، المُصَلِّي ساعاتِ اللَّيلِ ساجِدًا وقائِمًا، وهو على حَذَرٍ وخَوفٍ مِن الآخرةِ، ورَجاءٍ وطَمَعٍ في نَيلِ رَحمةِ اللهِ تعالى[٣]؟

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير، ونافعٌ، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٨، ٣٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٨، ٣٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠، ٦٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٥-١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أفضَلُ الصَّلاةِ طُولُ القُنوتِ))[١].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخل على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: كيفَ تَجِدُك؟ قال: واللهِ يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أرجو اللهَ، وإنِّي أخافُ ذُنوبي! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يَجتَمِعانِ في قَلبِ عَبدٍ في مِثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاه اللهُ ما يَرجو، وآمَنَه ممَّا يَخافُ))[٢].

= القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قال القرطبي: (وفي ﴿قَٰنِتٌ﴾ أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّه المطيعُ. قاله ابنُ مسعودٍ. الثَّاني: أنَّه الخاشِعُ في صلاتِه. قاله ابنُ شِهابٍ. الثَّالثُ: أنَّه القائِمُ في صلاتِه. قاله يحيى بنُ سلام. الرَّابعُ: أنَّه الدَّاعي لرَبِّه. وقولُ ابنِ مَسعودٍ يَجمَعُ ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٩).

وممَّن قال بأنَّ القنوتَ هو الطَّاعةُ: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

وقيل: القنوتُ هو دوامُ الطَّاعةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ تيميَّة، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٧)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٨).

وقيل: هو دوامُ الإخلاصِ لله تعالى في العبادةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٦).

(١) رواه مسلم (٧٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللَّفظ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٩٠١)، وابنُ ماجه (٤٢٦١). =

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر العَمَلَ؛ ذكَر العِلمَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان الحامِلُ على الخَوفِ والرَّجاءِ والعَمَلِ إنَّما هو العِلمُ النَّافِعُ، وكان العِلمُ الَّذي لا يَنفَعُ كالجَهلِ، أو الجَهلُ خَيرٌ- كان جوابُ ما تقدَّم مِن الاستفهامِ: لا يَستويانِ؛ لأنَّ المُخلِصَ عالِمٌ، والمُشرِكَ جاهِلٌ؛ فأمَرَه بالجَوابِ بقَولِه(٢):

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل يَستوي العُلَماءُ بدِينِ اللهِ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتون لِرَبِّهم، مع الجُهَّالِ الَّذين لا يَعلَمونَ ذلك، ولا يَعمَلونَ به؟ كلَّا، لا يَستَوونَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

= حسَّنه ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٢/ ٣٧٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٩٨٣)، وجوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ٩٠٢)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((تحفة المحتاج)) (١/ ٥٨٢)، والصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٢/ ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مدارُ السَّدادِ التَّذَكُّرَ، وكان مدارُ التَّذَكُّرِ الَّذي به الصَّلاحُ والفَسادُ هو القَلبَ؛ لأنَّه مركَزُ العَقلِ الَّذي هو آلةُ العِلمِ، وكان القَلبُ الَّذي لا يَحمِلُ على الصَّلاحِ عَدَمًا، بل العَدَمُ خَيرٌ منه- قال(١):

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ، فيَتَّبِعونَ الحَقَّ، ويُؤْثِرونَ العِلمَ على الجَهلِ، وطاعةَ اللهِ على مَعصيتِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

قال الشوكاني: (هذه الجملةُ ليست مِن جملةِ الكلامِ المأمورِ به، بل مِن جِهةِ اللهِ سُبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠).

وقال الألوسي: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلامٌ مُستقِلٌّ، غيرُ داخلٍ عندَ الكافَّةِ في الكلامِ المأمورِ، واردٌ مِن جِهتِه تعالى). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٧).

وقيل: ليس قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلامًا مُستقِلًّا، إنَّما هو واقعٌ مَوقعَ التَّعليلِ لنَفيِ الاستواءِ بيْنَ العالِمِ وغيرِه. وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُجرِيَ الثَّناءُ على المُؤمِنينَ بإقبالِهم على عبادةِ اللهِ في أشَدِّ الآناءِ، وبشِدَّةِ مُراقبتِهم إيَّاه بالخَوفِ والرَّجاءِ، وبتَمييزِهم بصِفةِ العِلمِ والعَقلِ والتَّذَكُّرِ، بخِلافِ حالِ المُشرِكينَ في ذلك كُلِّه؛ أَتْبَعَ ذلك بأمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإقبالِ على خِطابِهم؛ للاستِزادةِ مِن ثباتِهم، ورِباطةِ جَأْشِهم[١].

وأيضًا بعدَ أنْ نفَى المساواةَ بيْنَ مَن يَعلَمُ ومَن لا يَعلَمُ- أردَفَه أمْرَ رسولِه أن يَنصَحَ المؤمنينَ بجُملةِ نصائِحَ[٢]، فقال:

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِعباديَ المؤمِنينَ: اتَّقوا ربَّكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[٣].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه المُؤمِنينَ بالاتِّقاءِ؛ بَيَّنَ لهم ما في هذا الاتِّقاءِ مِن الفوائِدِ، فقال تعالى[٤]:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١١، ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٠).

أي: لِلَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٣-١١٥).

وقيل: المعنى: لِلَّذين أحسَنوا في الدُّنيا حَسَنةٌ في الآخرةِ، وهي الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، وابن جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠).

قال الماتُريدي: (قال عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: لِلَّذينَ أحسَنوا في هذه الدُّنيا حسَنةٌ لهم في الآخرةِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٦٦).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: معناه: لِلَّذين أحسَنوا في هذه الدُّنيا حَسَنةٌ في الآخِرةِ، وهي الجنَّةُ. الثَّاني: لِلَّذين أحسَنوا في الدُّنيا حَسَنةٌ في الدُّنيا، فيكونُ ذلك زائدًا على ثَوابِ الآخِرةِ. وفيما أُريدَ بالحَسَنةِ الَّتي لهم في الدُّنيا أربعةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: العافيةُ والصِّحَّةُ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ما رزَقَهم اللهُ من خيرِ الدُّنيا. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّالثُ: ما أعطاهم مِن طاعتِه في الدُّنيا وجَنَّته في الآخِرةِ. قاله الحَسَنُ. الرَّابعُ: الظَّفَرُ والغنائِمُ. حكاه النَّقَّاشُ. ويحتمِلُ خامسًا: أنَّ الحَسَنةَ في الدُّنيا الثَّناءُ، وفي الآخرةِ الجزاءُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٨).

وفسَّر السعديُّ الحسنةَ بأنَّها رزقٌ واسعٌ، وعِيشةٌ هنيَّةٌ، وطُمَأنينةُ قلبٍ، وأمْنٌ وسرورٌ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالَّذين أحسَنوا: الَّذين اتَّقَوُا اللهَ، وهم المؤمنونَ المَوصوفونَ بما تقدَّمَ من قَولِه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ؛ لأنَّ تلك الخِصالَ تدُلُّ على الإحسانِ المفسَّرِ بقَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» [البخاري «٥٠» ومسلم «٩»]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أنس بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً؛ يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخِرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتَّى إذا أفضَى إلى الآخِرةِ لم تكُنْ له حَسَنةٌ يُجزَى بها))[١].

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مناسَبةٌ مع قولِه سُبحانَه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، وهي أنَّ مِن جملةِ الإحسانِ في الدُّنيا الهجرةَ لا شَكَّ؛ لأنَّ الهجرةَ مِن أكبَرِ ما يدُلُّ على صِدْقِ العامِلِ؛ إذْ إنَّ المُهاجِرَ يَدَعُ أهلَه ووطنَه وعشيرتَه ومالَه لله[٢].

وأيضًا لَمَّا كان رُبَّما عَرَض للإنسانِ في أرضٍ مَن يَمنَعُه الإحسانَ، ويَحمِلُه على العِصيانِ؛ حَثَّ سُبحانَه على الهِجرةِ إلى حيثُ يَزولُ عنه ذلك المانِعُ؛ تنبيهًا على أنَّ مِثلَ هذا ليس عُذرًا في التَّقصيرِ[٣].

وأيضًا لَمَّا قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كان لبَعضِ النُّفوسِ

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧١).

مَجالٌ في هذا الموضِعِ، وهو أنَّ النَّصَّ عامٌّ: أنَّه كُلُّ مَن أحسَنَ فله في الدُّنيا حَسَنةٌ، فما بالُ مَن آمَنَ في أرضٍ يُضطَهَدُ فيها ويُمتَهَنُ، لا يحصُلُ له ذلك؟! دفَعَ هذا الظَّنَّ بقَولِه[1]:

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

أي: وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ، فمَن لم يَستَطِعْ أن يَعبُدَ اللهَ في أرضٍ فلْيُهاجِرْ إلى أُخرى يَتمَكَّنُ فيها مِن إقامةِ دينِه؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَرْكِ الهِجرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الصَّبرُ على هِجرةِ الوَطَنِ -ولا سيَّما إن كان ثَمَّ أهلٌ وعَشيرةٌ- شَديدًا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٥).

وذَكَر الماوَرْديُّ احتِمالًا مال إليه، وهو أنَّ المرادَ بسَعةِ الأرضِ: سَعةُ الرِّزقِ؛ لأنَّه يَرزُقُهم من الأرضِ، فيَكونُ معناه: ورِزقُ اللهِ واسِعٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٩).

قال القُرطبيُّ بعدَ أن ذكَرَ كلامَ الماوَرْديِّ: (فتكونُ الآيةُ دليلًا على الانتِقالِ مِن الأرضِ الغاليةِ، إلى الأرضِ الرَّاخيةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤١).

وقيل: المرادُ بالأرضِ: أرضُ الجنَّةِ، رغَّبَهم في سَعَتِها، وسَعةِ نعيمِها. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠).

جِدًّا؛ ذَكَر ما للصَّابِرِ على ذلك[١].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّما يُعطَى الصَّابِرونَ على البَلاءِ، وعلى طاعةِ اللهِ وعن مَعصيتِه: ثَوابًا تامًّا كَثيرًا، بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ...﴾ أنَّه تعالى نبَّه على أنَّ الانتِفاعَ بالعَمَلِ إنَّما يَحصُلُ إذا كان الإنسانُ مُواظِبًا عليه؛ فإنَّ القُنوتَ عِبارةٌ عن كَونِ الرَّجُلِ قائِمًا بما يجِبُ عليه مِنَ الطَّاعاتِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ العمَلَ إنَّما يُفيدُ إذا واظَبَ عليه الإنسانُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ...﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ يَفْتَحُ للإنسانِ الاستِدلالَ العقليَّ، يعني أنَّه يَعرِضُ الأشياءَ عَرضًا عقليًّا؛ وذلك بطلب

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٦-١١٨).

قال ابن عطية: (هذا يَحتمِلُ مَعنيَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ الصَّابِرَ يُوفَّى أجْرَه، ثمَّ لا يُحاسَبُ عن نَعيمٍ، ولا يُتابَعُ بذُنوبٍ... والمعنى الثَّاني: أنَّ أُجورَ الصَّابرينَ تُوفَّى بغيرِ حَصرٍ ولا عَدٍّ، بل جُزافًا، وهذه استِعارةٌ للكثرةِ الَّتي لا تُحصى... وإلى هذا التَّأويلِ ذهب جُمهورُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٢).

ممَّن ذهب مِن السَّلَفِ إلى نحوِ المعنى الثَّاني: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، وابنُ عَونٍ، وسُلَيمانُ بنُ القاسمِ، ومحمَّدُ بنُ مَيمونٍ. يُنظر: ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

التَّدَبُّرِ والتَّفَهُّمِ، فمثلًا: إذا عَرَضْتَ حالَ القانتِ وحالَ العاصي على العقلِ؛ سيقولُ: لا يَسْتَويان؛ مَن هو قانتٌ آناءَ اللَّيلِ ليس كمَن هو عاصٍ! وهذه مِن الطُّرُقِ الَّتي يَنبغي لطالبِ العلمِ أنْ يَتَّخِذَها عندَ المُناظَرةِ سبيلًا إلى إفحامِ الخَصمِ؛ لأنَّ كثيرًا مِن الخصومِ قد لا يَقتنِعون بمُجرَّدِ الدَّليلِ الأثَريِّ؛ فنَسوقُ إليهم الدَّليلَ النَّظريَّ، ولا سيَّما في الوقتِ الحاضرِ؛ حيثُ اتَّخَذَ كثيرٌ مِن النَّاسِ -إنْ لم يكُنْ: أكثرُهم- طريقَ إبليسَ سبيلًا؛ وهو مُعارَضةُ السَّمعِ بما يَظُنُّه عقلًا! يعني: مُعارَضةَ النُّصوصِ بما يَظُنُّونَ أنَّه عقلٌ، ونحن نَعْلَمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه ليس في النُّصوصِ ما يُخالِفُ العقلَ الصَّريحَ أبدًا، بل في النُّصوصِ ما يُؤيِّدُه العقلُ الصَّريحُ، ويكونُ هذا شاهدًا لهذا؛ كلٌّ منهما يَقوَى بالآخَرِ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ في سَيرِه إلى اللهِ جامعًا بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فَضيلةُ العِلمِ، ولكنْ يجِبُ أن نَعلمَ أنَّ العِلمَ يَشرُفُ بشَرَفِ مَوضوعِه، وعلى هذا فأفضَلُ العُلومِ العِلمُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّ هذا أشرَفُ مَوضوعاتِ العِلمِ؛ ثمَّ العِلمُ بأحكامِه: ((مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ))(٣).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فيه أنَّ مِن الدَّعوةِ إلى اللهِ، ومِن حُسْنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٩).

والحديث أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاويةَ بنِ أبي سُفْيانَ رضي الله عنهما.

الدَّعوةِ: إقامةَ الحُجَّةِ؛ فإنَّه لا عُذْرَ لأحدٍ أنْ يقولَ: لا أَجِدُ مَلجأً، أو لا أجِدُ مُهاجَرًا[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيه فضيلةُ الصَّبرِ[٢]، عن عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أنَّه خَطَب النَّاسَ فقال: (ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً فانتَزَعها منه، فعاضَه مكانَ ما انتَزَع منه الصَّبرَ: إلَّا كان ما عوَّضه اللهُ خيرًا مِمَّا انتَزَع منه)، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] أنَّ كلَّ مَن خَشِيَ اللهَ سُبحانَه وتعالى وأطاعَه وتَرَكَ مَعصيتَه: فهو عالِمٌ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: أنَّه بدأ فيها بذِكرِ العَمَلِ، وخَتَمها بذِكرِ العِلمِ؛ أمَّا العَمَلُ فكَونُه قانِتًا ساجِدًا قائِمًا، وأمَّا العِلمُ فقولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلَمَّا ذَكَر العملَ ذكَر العِلمَ، وهذا يدُلُّ على أنَّ كَمالَ الإنسانِ مَحصورٌ في هذَينِ المَقصودَينِ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ تَنبيهٌ على فَضلِ قيامِ اللَّيلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٥٣).

والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الصبر والثواب عليه)) (٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٩).

وأنَّه أرجَحُ مِن قيامِ النَّهارِ، ويُؤكِّدُه وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ عِبادةَ اللَّيلِ أستَرُ عن العُيونِ؛ فتَكونُ أبْعَدَ عن الرِّياءِ.

الثَّاني: أنَّ الظُّلمةَ تمنَعُ مِن الإبصارِ، ونَومَ الخَلقِ يَمنَعُ مِن السَّماعِ؛ فإذا صار القَلبُ فارِغًا عن الاشتِغالِ بالأحوالِ الخارجيَّةِ عاد إلى المطلوبِ الأصليِّ، وهو مَعرِفةُ اللهِ وعبادتُه.

الثَّالثُ: أنَّ اللَّيلَ وَقتُ النَّومِ، فتَركُه يكونُ أشَقَّ؛ فيكونُ الثَّوابُ أكثَرَ.

الرَّابعُ: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[1] [المزمل: ٦].

الخامسُ: قَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللَّيلِ))[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ فَضيلةُ القيامِ والسُّجودِ مِن بيْنِ أركانِ الصَّلاةِ؛ وذلك أنَّ القيامَ شَريفٌ بذِكرِه، والسُّجودَ شَريفٌ بهَيئتِه[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ الرَّدُّ على مَن ذَمَّ العباداتِ خَوفًا مِن النَّارِ، أو رَجاءَ الجنَّةِ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حَوْلَها نُدَنْدِنُ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٧).

والحديث أخرجه مسلم (١١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٤).

والحديث أخرجه أبو داود (٧٩٢)، وأحمدُ (١٥٨٩٨) عن بعض أصحاب النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.
=

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أنَّه قال في مَقامِ الخَوفِ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فما أضاف الحَذَرَ إلى نَفْسِه، وفي مَقامِ الرَّجاءِ أضافه إلى نَفْسِه، وهذا يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الرَّجاءِ أكمَلُ وأليَقُ بحَضرةِ اللهِ تعالى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ لِمَن قال: العالِمُ -وإنْ لم يَعمَلْ بعِلمِه- أفضَلُ مِن جاهلٍ لا يَعمَلُ: بالخَبرِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وتعالى فَرَضَ العِلمَ والعملَ معًا؛ فمَن أطاعَه في العِلْمِ فقد جاء بشَطْرِ الأمرِ، وبَقِيَ عليه الشَّطْرُ، ويُوشِكُ الشَّطْرُ الَّذي أطاع فيه أنْ يُلْحِقَه بالشَّطْرِ الآخَرِ، والجاهِلُ مُضَيِّعٌ لجَميعِه، وغيرُ آخِذٍ عُدَّةَ العَمَلِ، ودَليلَ النجاةِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مَدحُ العِلمِ ورِفعةُ قَدْرِه، وذَمُّ الجَهلِ ونَقصُه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إنَّما وَصَفَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بأنَّهم لا يَعلَمونَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وإن أعطاهم آلةَ العِلمِ فإنَّهم أعرَضوا عن تَحصيلِ العِلمِ؛ فلِهذا جعَلَهم اللهُ تعالى كأنَّهم لَيسُوا مِن أُولي الألبابِ؛ مِن حيثُ إنَّهم لم يَنتَفِعوا بعُقولِهم وقُلوبِهم، وفي هذا تَنبيهٌ على فَضيلةِ العِلمِ[٤].

= صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٧٩٢)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (٣/ ٤٧١)، و((الأذكار)) (ص: ٦٨)، وصحَّحه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥٨٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٦).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه الثَّناءُ على ذوي العقولِ؛ حيثُ جَعَلهم هم المُتذكِّرينَ المُتَّعِظينَ المُنتفِعينَ بما يَسمعونَ، وأنَّ مَن لا يَتذكَّرُ فهو ناقِصُ العقلِ؛ لأنَّه إذا كان لا يَتذكَّرُ إلَّا أصحابُ العقولِ؛ فمَن لا يَتذكَّرُ يكونُ ناقِصَ العقلِ ولا شكَّ، ونقصانُ عقْلِه بحسَبِ نَقْصِه من التَّذكُّرِ، ووجْهُ ذلك مِن الناحيةِ العقليَّةِ النَّظريَّةِ: أنَّ الإنسانَ العاقِلَ لا يمكِنُ أنْ يَختارَ لنفْسِه إلَّا ما فيه النجاةُ، ولا نجاةَ مِن عذابِ اللهِ إلَّا بالتَّذكُّرِ والاتِّعاظِ؛ فلهذا كان العقلُ السَّليمُ يَستلزِمُ أنْ يَتذكَّرَ الإنسانُ ويَتَّعِظَ مِن أجْلِ طَلَبِ ما هو أحَظُّ للنَّفْسِ وأنفعُ ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾(١) [الضحى: ٤].

١١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ مع الإيمانِ مِن التَّقْوى(٢).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ هناك بِشارةٌ نَصَّ عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ((لا يَزالُ مِن أمَّتي أُمَّةٌ قائمةٌ بأمرِ اللهِ، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خالَفَهم، حتَّى يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم على ذلك))(٣)، تُشيرُ إليه هذه الآيةُ، وتَرمي إليه مِن قَريبٍ، وهو أنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ أرضَه واسِعةٌ، فمهما مُنِعتُم مِن عبادتِه في مَوضِعٍ فهاجِروا إلى غَيرِها، وهذا عامٌّ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ؛ فلا بُدَّ أن يكونَ لكُلِّ مُهاجِرٍ مَلجأٌ مِن المُسلِمينَ يَلجأُ إليه، ومَوضِعٌ يَتمَكَّنُ مِن إقامةِ دينِه فيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠، ٧٢١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ حَثٌّ على الهِجرةِ مِن البَلَدِ الَّذي تَظهَرُ فيه المعاصي، ونَظيرُه قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧][(١)]. وفيه أيضًا أنَّ الإنسانَ إذا كان في محَلٍّ لا يَتمكَّنُ فيه مِن إقامةِ دِينِه على الوَجهِ المطلوبِ؛ فعليه أن يُهاجِرَ منه في مَناكِبِ أرضِ اللهِ الواسِعةِ؛ حتَّى يجِدَ محَلًّا تُمكِنُه فيه إقامةُ دينِه[(٢)].

١٤- كَرَمُ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ جَعَل الثَّوابَ بمَنزلةِ الأجرِ، كأنَّه مُعاوَضةٌ يُعاوِضُ به العامِلُ؛ لِقَولِه: ﴿أَجْرَهُم﴾[(٣)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ على قِراءةِ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ بتَشديدِ مِيمِ (مَن)، على أنَّه لَفظٌ مُركَّبٌ مِن كَلمتَينِ (أمْ) و(مَن)؛ فأُدْغِمَت مِيمُ (أمْ) في مِيمِ (مَن)؛ ففي معناهُ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ (أمْ) مُعادِلةً لِهَمزةِ استِفهامٍ مَحذوفةٍ مع جُملَتِها، دلَّت عليها (أمْ)؛ لاقتِضائِها مُعادِلًا. ودلَّ عليها تَعقيبُه بـ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ التَّسويةَ لا تكونُ إلَّا بيْن شَيئينِ؛ فالتَّقديرُ: أهذا الجاعلُ للهِ أندادًا الكافرُ خيرٌ أمَّن هو قانتٌ؟ والاستِفهامُ حقيقيٌّ، والمقصودُ لازمُه، وهو التَّنبيهُ على الخطَأِ عندَ التَّأمُّلِ. والوجهُ الثَّاني: أنْ تكونَ (أمْ) مُنقطعةً لِمُجرَّدِ الإضرابِ الانتقاليِّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٠).

و(أَمْ) تَقْتضي استِفهامًا مُقدَّرًا بعْدَها، ومعنى الكلامِ هنا: دعْ تَهديدَهم بعذابِ النَّارِ، وانتقِلْ بهم إلى هذا السُّؤالِ: الَّذي هو قانتٌ وقائمٌ، ويَحذَرُ اللهَ ويَرْجو رحمتَه. والمعنى: أذَلِكَ الإنسانُ الَّذي جعَلَ للهِ أندادًا هو قانتٌ... إلخ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لِظُهورِ أنَّه لا تَتلاقى تلك الصِّفاتُ الأربعُ -القُنوتُ، والسُّجودُ والقيامُ، والحَذَرُ، ورَجاءُ رَحمةِ اللهِ- مع صِفةِ جَعْلِه للهِ أندادًا. و(أَمْ) إمَّا مُتَّصِلةٌ قد حُذِفَ مُعادِلُها؛ ثِقةً بدَلالةِ مَساقِ الكَلامِ عليه، كأنَّه قيلَ له -تَأكيدًا لِلتَّهديدِ وتَهَكُّمًا به-: أأنتَ أحسَنُ حالًا ومَآلًا، أَمَّن هو قائِمٌ بمَواجِبِ الطَّاعاتِ، ودائمٌ على أداءِ وظائفِ العِباداتِ في ساعاتِ اللَّيلِ حالَتَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، لا عِندَ مَساسِ الضُّرِّ فقطْ كدَأبِكَ؟! وإمَّا مُنقَطِعةٌ، وما فيها مِنَ الإضْرابِ؛ لِلانتِقالِ مِنَ التَّهديدِ إلى التَّبكيتِ بتَكليفِ الجَوابِ المُلجِئِ إلى الاعتِرافِ بما بَيْنَهما مِنَ التَّبايُنِ البَيِّنِ، كأنَّه قيلَ: بلْ أَمَّن هو قانِتٌ... إلخ، أفْضَلُ أَمَّن هو كافِرٌ مِثلُكَ.

وعلى قِراءةِ ﴿أَمَنْ﴾ بتَخفيفِ الميمِ -على أنَّ الهمزةَ دخَلَت على (مَن) الموصولةِ-؛ فيجوزُ أنْ تكونَ الهمزةُ همزةَ استِفهامٍ، و(مَن) مُبتدأٌ، والخبَرُ مَحذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ قبْلَه مِن ذِكرِ الكافِرِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلى قولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والقَرينةُ على إرادةِ الإنكارِ تَعقيبُه بقولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ (هل) فيه للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وبقَرينةِ صِلَةِ الموصولِ. تَقديرُه: أمَن هو قانتٌ أفْضَلُ أمَّن هو كافرٌ؟ والاستِفهامُ حينَئذٍ تَقريريٌّ، ويُقدَّرُ له مُعادلٌ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

- وتَخصيصُ اللَّيلِ بقُنوتِ القانِتينَ؛ لِأنَّ العِبادةَ باللَّيلِ أعْوَنُ على تَمَحُّضِ القَلبِ لِذِكرِ اللهِ، وأبْعَدُ عن مُداخَلةِ الرِّياءِ، وأدَلُّ على إيثارِ عِبادةِ اللهِ على حَظِّ النَّفْسِ مِنَ الرَّاحةِ والنَّومِ؛ فإنَّ اللَّيلَ أدْعى إلى طَلَبِ الرَّاحةِ، فإذا آثَرَ المَرءُ العِبادةَ فيه، استَنارَ قَلبُه بحُبِّ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، فلا جَرَمَ كان تَخصيصُ اللَّيلِ بالذِّكرِ دالًّا على أنَّ هذا القانِتَ لا يَخلو مِنَ السُّجودِ والقِيامِ آناءَ النَّهارِ، بدَلالةِ فَحوى الخِطابِ[1]؛ قال تَعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا﴾ [المزمل: ٧]، وبذلك يَتِمُّ انطِباقُ هذه الصِّلةِ على حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- وتَقديمُ السُّجودِ على القِيامِ في قولِه: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾؛ لِكَونِه أدْخَلَ في مَعنى العِبادةِ[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالانِ مُبيِّنانِ لـ﴿قَٰنِتٌ﴾، ومُؤكِّدانِ لِمَعناه. وجُملةُ ﴿يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ حالانِ؛ فالحالُ الأوَّلُ والثَّاني لِوَصفِ عَمَلِه الظَّاهِرِ، والجُملَتانِ اللَّتانِ هما ثالِثٌ ورابِعٌ لِوَصفِ عَمَلِ قَلبِه، وهو أنَّه بيْنَ الخَوفِ من سَيِّئاتِه وفَلَتاتِه، وبيْنَ الرَّجاءِ لِرَحمةِ رَبِّه أنْ يُثيبَه على حَسَناتِه. وفي هذا تَمامُ المُقابَلةِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ الجاريةِ على وَفْقِ حالِ

---

(١) فَحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نوعانِ:
الأوَّلُ: تنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نَبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيْنَ حالِ أهلِ الشِّركِ الَّذين لا يَدْعونَ اللهَ إلَّا في نادِرِ الأوقاتِ، وهي أوقاتُ الاضطِرارِ، ثمَّ يُشرِكونَ به بعدَ ذلك؛ فلا اهتِمامَ لهم إلَّا بعاجِلِ الدُّنيا، لا يَحذَرونَ الآخِرةَ ولا يَرجونَ ثَوابَها(١)!

- وقَولُه: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فيه احتِباكٌ(٢)؛ فذكَرَ السُّجودَ دَليلًا على الرُّكوعِ، والقيامَ دَليلًا على القُعودِ، والسِّرُّ في ذِكرِ ما ذُكِرَ، وتَركِ ما تُرِكَ: أنَّ السُّجودَ يدُلُّ على العِبادةِ، وقَرْنُ القيامِ به دالٌّ على أنَّه قيامٌ منه، فهو عِبادةٌ، وذلك مع الإيذانِ بأنَّهما أعظَمُ الأركانِ؛ فهو نَدبٌ إلى تطويلِهما على الرُّكنَينِ الآخَرَينِ(٣).

- وقولُه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ قيل: هو استِئنافٌ لِلتَّعليلِ، وَقَع جَوابًا عَمَّا نَشَأَ مِن حِكايةِ حالِه مِنَ القُنوتِ والسُّجودِ والقِيامِ، كأنَّه قيلَ: ما بالُه يَفعَلُ ذلك؟ فقيلَ: يَحذَرُ عَذابَ الآخِرةِ ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، فيَنجُو بذلك مِمَّا يَحذَرُه، ويَفوزُ بما يَرجوه، كما يُنبِئُ عنه التَّعَرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئةِ عنِ التَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّاجي، لا أنَّه يَحذَرُ ضُرَّ الدُّنيا ويَرجُو خَيرَها فَقطْ(٤).

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ مَوقِعُه كمَوقِعِ قَولِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨]، أثارَه وَصْفُ المُؤمِنِ الطَّائِعِ، والمَعنى: أعلِمْهم -يا أيُّها الرَّسولُ- بأنَّ هذا المُؤمِنَ العالِمَ بحَقِّ رَبِّه ليس سَواءً لِلكافِرِ الجاهِلِ برَبِّه. وإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لِلاهتِمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

بهذا المَقولِ، ولِاسترعاءِ الأسماعِ إليه[(١)].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ، والمَقصودُ: إثباتُ عَدَمِ المُساواةِ بيْن الفَريقَينِ، وعَدَمُ المُساواةِ يُكنَّى به عن التَّفضيلِ، والمُرادُ: تَفضيلُ الَّذين يَعلَمونَ على الَّذين لا يَعلَمونَ، كقولِه تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآيةَ، فيُعرَفُ المُفضَّلُ بالتَّصريحِ، كما في آيةِ ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]، أو بالقَرينةِ، كما في قولِه هنا: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ إلخ؛ لِظُهورِ أنَّ العِلمَ كَمالٌ، ولِتَعْقيبِه بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(٢)]. أو الاستِفهامُ للتَّنبيهِ على أنَّ كَوْنَ الأوَّلينَ في أعلَى مَعارجِ الخَيرِ، وكَوْنَ الآخَرينَ في أقْصَى مَدارجِ الشَّرِّ، مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَخْفَى على أحدٍ؛ مِن مُنصِفٍ ومُكابِرٍ. وقيل: واردٌ على سَبيلِ التَّشبيهِ، أيْ: كما لا يَستَوي العالِمونَ والجاهِلونَ، كذلك لا يَستَوي القانِتونَ والعاصونَ[(٣)].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿يَسۡتَوِي﴾ في حَيِّزِ النَّفيِ يَكسِبُه عُمومَ النَّفيِ لِجَميعِ جِهاتِ الاستِواءِ، وإذْ قد كان نَفْيُ الاستِواءِ كِنايةً عنِ الفَضلِ، آلَ إلى إثباتِ الفَضلِ لِلَّذين يَعلَمونَ على وَجهِ العُمومِ[(٤)].

- وأرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ العامِلينَ مِن عُلَماءِ الدِّيانةِ، كأنَّه جَعَلَ مَن لا يَعمَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٩).

غَيرَ عالِمٍ، وفيه ازدِراءٌ عَظيمٌ بالَّذين يَقتَنونَ العُلومَ ثم لا يَقنُتونَ، ويَفْتَنُّون فيها ثم يُفتَنونَ بالدُّنيا؛ فهم عِندَ اللهِ جَهَلةٌ، حيثُ جَعَلَ القانِتينَ همُ العُلماءَ باعتِبارِ القُوَّةِ العِلميَّةِ، بَعدَ نَفيِه باعتِبارِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ على وَجهٍ أبلَغَ؛ لِمَزيدِ فَضلِ العِلْمِ[١].

- وفِعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في المَوضِعَينِ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازِمِ؛ فلم يُذكَرْ له مَفعولٌ، والمَعنى: الَّذين اتَّصَفوا بصِفةِ العِلْمِ، وليس المَقصودُ الَّذين عَلِموا شَيئًا مُعَيَّنًا حتَّى يَكونَ مِن حَذفِ المَفعولَينِ اختِصارًا؛ إذْ ليس المَعنى عليه[٢].

- وعَدَل في قولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عن أنْ يَقولَ: (هل يَستَوي هذا وذاك) إلى التَّعبيرِ بالمَوصولِ؛ إدْماجًا لِلثَّناءِ على فَريقٍ، ولِذَمِّ فَريقٍ بأنَّ أهلَ الإيمانِ أهلُ عِلْمٍ، وأهلَ الشِّركِ أهلُ جَهالةٍ، فأغنَت الجُملةُ بما فيها مِن إدماجٍ[٣] عن ذِكرِ جُملتَينِ؛ فالَّذين يَعلَمونَ هم أهلُ الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والَّذين

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

لا يَعلَمونَ هم أهلُ الشِّركِ الجاهِلونُ؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ أخو العِلْم؛ لِأنَّ كِلَيْهما نُورٌ ومعرفةٌ حقٌّ، وأنَّ الكُفرَ أخو الضَّلالِ؛ لِأنَّه والضَّلالَ ظُلمةٌ وأوهامٌ باطِلةٌ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ كَلامٌ مُستقِلٌّ غيرُ داخلٍ في الكلامِ المأمورِ به، واردٌ مِن جِهَتِه تعالى بعْدَ الأمْرِ بما ذُكِرَ مِن القَوارعِ الزَّاجرةِ عن الكُفْرِ والمعاصِي؛ لِبَيانِ عدَمِ تأْثيرِها في قُلوبِ الكَفرةِ؛ لاختلالِ عُقولِهم، وهو أيضًا كالتَّوطئةِ لإفرادِ المؤمنينَ بالخِطابِ، والإعراضِ عن غيرِهم؛ أي: إنَّما يَتَّعِظُ بهذه البياناتِ الواضحةِ أصحابُ العقولِ الخالصةِ عن شوائبِ الخَللِ، وأمَّا هؤلاءِ فبِمَعزِلٍ عن ذلك[٢].

- وقيل: قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لِنَفيِ الاستِواءِ بيْنَ العالِمِ وغَيرِه، والمَقصودُ منه تَفضيلُ العالِمِ والعِلْمِ؛ فإنَّ كلمةَ (إنَّما) مُركَّبةٌ مِن حرفَينِ: (إنَّ) و(ما) الكافَّةِ، أو النَّافيةِ؛ فكانت (إنَّ) فيه مُفيدةً لِتَعليلِ ما قبْلَها، مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّعليلِ؛ إذ لا فرْقَ بيْن (إنَّ) المفرَدةِ و(إنَّ) المركَّبةِ مع (ما)، بلْ أفادَها التَّركيبُ زِيادةَ تأْكيدٍ، وهو نفْيُ الحُكمِ الَّذي أثبَتَتْه (إنَّ) عن غيرِ مَن أثبَتَتْه له. وقد أُخِذَ في تَعليلِ ذلك جانِبُ إثباتِ التَّذكُّرِ للعالِمينَ، ونَفيِه مِن غَيرِ العالِمينَ، بطَريقِ الحَصرِ؛ لِأنَّ جانِبَ التَّذكُّرِ هو جانِبُ العَمَلِ الدِّينيِّ، وهو المَقصدُ الأهَمُّ في الإسلامِ؛ لِأنَّ به تَزكيةَ النَّفْسِ والسَّعادةَ الأبَديَّةَ، والألبابُ: العُقولُ، وأُولو الألبابِ: هم أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٧).

وهم أهلُ العِلْمِ، فلَمَّا كان أهلُ العِلْمِ هم أهلَ التَّذكُّرِ دُونَ غيرِهم، أفادَ عَدَمَ استِواءِ الَّذين يَعلَمونَ والَّذين لا يَعلَمونَ، فليس قَولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كَلامًا مُستَقِلًّا(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ...﴾ أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَذكيرِ المُؤمنينَ، وحَمْلِهم على التَّقْوى والطَّاعةِ، إثْرَ تَخصيصِ التَّذكُّرِ بأُولي الألبابِ؛ إيذانًا بأنَّهم هم، كما سيُصَرَّحُ به، أيْ: قُل لهم قَولي هذا بعَينِه(٢).

- وابتِداءُ المَقولِ بالنِّداءِ وبوَصفِ العُبوديَّةِ المُضافِ إلى ضَميرِ اللهِ تَعالى فيه تَشريفٌ لهم، ومَزيدُ اعتِناءٍ بشَأنِ المَأمورِ به؛ فإنَّ نَقْلَ عَينِ أمْرِ اللهِ أدخَلُ في إيجابِ الامتِثالِ به، وهذا وضْعٌ لهم في مَقامِ المُخاطَبةِ مِنَ اللهِ، وهي دَرَجةٌ عَظيمةٌ(٣).

- وقولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قرَأه العَشَرةُ بدُونِ ياءٍ في الوصْلِ والوقْفِ(٤)، بخِلافِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآتي في هذه السُّورةِ؛ فالمُخالَفةُ بيْنَهما مُجرَّدُ تَفنُّنٍ. وقد يُوجَّهُ هذا التَّخالُفُ بأنَّ المخاطَبينَ في هذه الآيةِ همْ عِبادُ اللهِ المتَّقون؛ فانتِسابُهم إلى اللهِ مُقرَّرٌ، فاستُغْنِيَ عن إظهارِ ضَميرِ الجَلالةِ في إضافتِهم إليه، بخِلافِ الآيةِ الآتيةِ، فليس في كَلمةِ ﴿يَٰعِبَادِ﴾ من هذه الآيةِ إلَّا وَجهٌ واحدٌ باتِّفاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٣٨).

العشَرةِ؛ ولذلك كتبَها كُتَّابُ المصحَفِ بدُونِ ياءٍ بعْدَ الدَّالِ[١].

- وفي استِحضارِ عِبادِ اللهِ بالمَوصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: إيماءٌ إلى أنَّ تَقرُّرَ إيمانِهم مِمَّا يَقتَضي التَّقْوى والامتِثالَ لِلمُهاجَرةِ[٢].

- والأمْرُ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على المَأمورِ به؛ لِأنَّهم مُتَّقونَ مِن قبْلُ، وهو يُشعِرُ بأنَّهم قد نَزَل بهم مِنَ الأذَى في الدِّينِ ما يُخشَى عليهم معه أنْ يُقصِّروا في تَقْواهم، وهذا الأمْرُ تَمهيدٌ لِمَا سَيُوجَّهُ إليهم مِن أمْرِهم بالهِجرةِ؛ لِلسَّلامةِ مِنَ الأذى في دِينِهم، وهو ما عَرَّضَ به في قَولِه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾[٣].

- وجُملةُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وما عُطِفَ عليها: استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ إيرادَ الأمْرِ بالتَّقوى للمتَّصفينَ بها يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن المقصودِ مِن ذلك الأمْرِ، فأُريدَ بيانُه بقولِه: (أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)، ولكن جُعِلَ قَولُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ تَمهيدًا؛ لِقَصدِ تَعجيلِ التَّكَفُّلِ لهم بمُوافَقةِ الحُسْنى في هِجرَتِهم. ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مَسوقةً مَساقَ التَّعليلِ لِلأمْرِ بالتَّقْوى الواقِعِ بَعدَها[٤]، أو لِوُجوبِ الامتِثالِ به، وإيرادُ الإحسانِ في حَيِّزِ الصِّلةِ دُونَ التَّقْوى؛ لِلإيذانِ بأنَّه مِن بابِ الإحسانِ، وأنَّهما مُتَلازِمانِ، والمُرادُ بـ(الَّذين أحسَنوا): الَّذين اتَّقَوُا اللهَ، وهمُ المُؤمِنونَ الموصوفون بما تقدَّم مِن قولِه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ، فعَدَلَ عن التَّعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ بأنْ يُقالَ: لَكم في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٣).

حَسَنةٌ، إلى الإتيانِ باسمِ المَوصولِ الظَّاهِرِ، وهو (الَّذين أحسَنوا)؛ لِيَشملَ المُخاطَبينَ وغَيرَهم مِمَّن ثَبَتتْ له هذه الصِّلةُ، وذلك في مَعنى: اتَّقوا رَبَّكم لِتَكونوا مُحسِنينَ؛ فإنَّ لِلَّذين أحسَنوا حَسَنةً عَظيمةً؛ فكونوا منهم. وتَقديمُ المُسنَدِ في ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ لِلاهتِمامِ بالمُحسَنِ إليهم، وأنَّهم أحْرياءُ بالإحسانِ(١).

- وتَوسيطُ قولِه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيْن ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ وبيْن ﴿حَسَنَةٌ﴾ نَظْمٌ بليغٌ حسَنٌ ممَّا اختُصَّ به القُرآنُ في مَواقعِ الكَلِمِ؛ لإكثارِ المعاني الَّتي يَسمَحُ بها النَّظْمُ، وهذا مِن طُرُقِ إعجازِ القرآنِ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ حالًا مِن ﴿حَسَنَةٌ﴾ قُدِّمَ على صاحِبِ الحالِ؛ لِلتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الكَلامِ على أنَّها جَزاؤُهم في الدُّنيا؛ لِقِلَّةِ خُطورِ ذلك في بالِهم، ضَمِنَ اللهُ لهم تَعجيلَ الجَزاءِ الحَسَنِ في الدُّنيا قبْلَ ثَوابِ الآخِرةِ، على نحوِ ما أثْنى على مَن يقولُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ مُتعَلِّقًا بفعلِ ﴿أَحْسَنُواْ﴾ على أنَّه ظرفٌ لُغَويٌّ(٢)، أي: فَعَلوا الحسناتِ في الدُّنيا، فيكونُ المقصودُ التَّنبيهَ على المبادرةِ بالحسناتِ في الحياةِ الدُّنيا قبلَ الفواتِ، والتَّنبيهَ على عدمِ التَّقصيرِ في ذلك(٣).

- وفي قولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ جاء في نَظيرِ هذه الجُملةِ في سُورةِ (النَّحلِ) قولُه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣).

(٢) الظَّرْفُ اللُّغويُّ: هو ما كان العاملُ فيه مذكورًا، نحو: زيدٌ حصَل في الدَّارِ. ينظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣، ٣٥٤).

٣٠]، أي: خيرٌ مِن أُمورِ الدُّنيا، ويكونَ الاقتِصارُ على حَسَنةِ الدُّنيا في آيةِ (الزُّمَر) هنا؛ لِأنَّها مَسوقةٌ لِتَثبيتِ المُسلِمينَ على ما يُلاقونَه مِنَ الأذى، ولِأمْرِهم بالهِجرةِ عن دارِ الشِّركِ والفِتنةِ في الدِّينِ، فأمَّا ثَوابُ الآخِرةِ فأمْرٌ مُقرَّرٌ عِندَهم مِن قبْلُ، ومُوماٌ إليه بقَولِه بَعدَه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أيْ: يُوَفَّوْنَ أجرَهم في الآخِرةِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه نُكتةٌ، وهي أنَّ اسمَ الإشارةِ لِلإشعارِ بأنَّ الدَّارَ الدُّنيا نِعْمَ الدَّارُ إنْ جُعِلَتْ مَكانًا لِلعَمَلِ، وحَرثًا لِلآخِرةِ[2].

- وتَنوينُ ﴿حَسَنَةٌ﴾ لِلتَّعظيم، وهو بالنِّسبةِ لِحَسَنةِ الآخِرةِ لِلتَّعظيم الذَّاتيِّ، وبالنِّسبةِ لِحَسَنةِ الدُّنيا تَعظيمٌ وَصْفيٌّ، أيْ: حَسَنةٌ أعظَمُ مِنَ المُتعارَفِ، وأيًّا ما كان فاسْمُ الإشارةِ في قَولِه: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ لِتَمييزِ المُشارِ إليه، وإحضارِه في الأذهانِ، وعليه فالمُرادُ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ يَحتمِلُ حَسَنةَ الآخِرةِ، ويَحتمِلُ حَسَنةَ الدُّنيا[3].

- وقولُه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، مُستأنَفٌ لِتَعليلِ الأمْرِ بالتَّقْوى، وإنَّما قُيِّدَ الفِعلُ بالظَّرفِ -وهو ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾- لِلإشعارِ بأنَّ الدُّنيا مَكانُ الإحسانِ، ومَزرَعةٌ لِحَرثِ الآخِرةِ، فأُريدَ تَتميمُ ذلك المَعنى، فقيلَ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾؛ لِئلَّا يَعتذِرَ العامِلُ لِتَفريطِه في الأعمالِ بالاعتِلالِ بالأوطانِ، وأنَّه لم يَكُنْ مُتَمكِّنًا مِنَ الإحسانِ في أرضِه، كأنَّه قيلَ لهم: اتَّقوا رَبَّكم فيما تأتونَ به وتَذَرونَ، وتَيَقَّنوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤).

بحُصولِ أمْرَيْنِ: جَزاءِ الإحسانِ، وفُسحةِ المَكانِ، فهاجِروا وتَحَوَّلوا إنْ لم تَتمكَّنوا مِنَ التَّقْوى في أرضِكم، ثمَّ اتَّجه لهم أنْ يَسألوا ويَقولوا: فماذا يَكونُ بَعدَ تلك الحَسَنةِ لنا مِنَ الأجْرِ حِينَئِذٍ؟ فأُجيبوا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعني أنَّ اللهَ تعالى وَفَّي أجْرَ مَن سَبَق عليكم مِنَ الأنبياءِ والصَّالِحينَ بصَبرِهم على مُهاجَرَتِهم إلى غَيرِ بِلادِهم؛ لِيَزدادوا إحسانًا إلى إحسانِهم، وطاعةً إلى طاعَتِهم، فلَكُمُ الأجْرُ وتَوفيَتُه إذا اقتَفَيتُم أثَرَهم، واقتَدَيتُم بهُداهم[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ عَطفٌ على قَولِه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ عَطفَ المَقصودِ على التَّوطِئةِ، وهو خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالحَثِّ على الهِجرةِ في الأرضِ؛ فِرارًا بدِينِهم مِنَ الفِتَنِ، بقَرينةِ أنَّ كَونَ الأرضِ واسِعةً أمْرٌ مَعلومٌ، لا يَتعَلَّقُ الغَرَضُ بإفادَتِه، وإنَّما كُنِّيَ به عن لازِمِ مَعناه، والوَجهُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مُعتَرِضةً، والواوُ اعتِراضيَّةٌ؛ لأنَّ تلك الجُملةَ جَرَتْ مَجرى المَثَلِ، ونُكتةُ الكِنايةِ هنا: إلقاءُ الإشارةِ إليهم بلُطفٍ وتَأنيسٍ دُونَ صَريحِ الأمْرِ؛ لِمَا في مُفارَقةِ الأوطانِ مِنَ الغَمِّ على النَّفْسِ، وأمَّا الآيةُ الَّتي في سُورةِ (النِّساءِ): ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]؛ فإنَّها حِكايةُ تَوبيخِ المَلائِكةِ لِمَن لم يُهاجِروا[2].

- ومَوقِعُ جُملةِ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مَوقِعُ التَّذييلِ لِجُملةِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ وما عُطِفَ عليها؛ لأنَّ مُفارَقةَ الوَطَنِ والتَّغرُّبَ والسَّفَرَ مَشاقٌّ لا يَستطيعُها إلَّا صابِرٌ؛ فذَيَّلَ الأمْرَ به بتَعظيمِ أجْرِ الصَّابرينَ لِيَكونَ إعلامًا للمُخاطَبينَ بأنَّ أجرَهم على ذلك عَظيمٌ؛ لِأنَّهم حِينَئذٍ مِنَ الصَّابرينَ الَّذين أجْرُهم بغَيرِ حِسابٍ. وصِيغةُ العُمومِ في قَولِه: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ تَشمَلُ كُلَّ مَن صَبَرَ على مَشَقَّةٍ في القِيامِ بواجِباتِ الدِّينِ، وامتِثالِ المَأمورات، واجتِنابِ المَنهيَّاتِ، ومَراتِبُ هذا الصَّبرِ مُتفاوِتةٌ، وبقَدْرِها يَتفاوَتُ الأجْرُ[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تَرغيبٌ في التَّقْوى المَأمورِ بها. وإيثارُ (الصَّابرينَ) على (المُتَّقينَ)؛ لِلإيذانِ بأنَّهم حائِزونَ لِفَضيلةِ الصَّبرِ كحيازَتِهم لِفَضيلةِ الإحسانِ؛ لِمَا أُشيرَ إليه مِن استِلزامِ التَّقْوى لهما، مع ما فيه مِن زيادةِ حثٍّ على المُصابَرةِ والمُجاهَدةِ في تَحمُّلِ مَشاقِّ المُهاجَرةِ ومَتاعِبِها[٢].

- والحَصرُ المُستَفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ مُنصَبٌّ على القَيدِ، وهو ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، والمَعنى: ما يُوَفَّى الصَّابرونَ أجْرَهم إلَّا بغَيرِ حِسابٍ، وهو قَصرُ قَلبٍ[٣] مَبنيٌّ على قَلبِ ظَنِّ الصَّابرينَ أنَّ أجْرَ صَبرِهم بمِقدارِ صَبرِهم، أيْ: أنَّ أجْرَهم لا يَزيدُ على مِقدارِ مَشَقَّةِ صَبرِهم[٤].

- وفي ذِكرِ التَّوفيةِ وإضافةِ الأجْرِ إلى ضَميرِهم ﴿أَجۡرَهُم﴾، تَأنيسٌ لهم بأنَّهم استَحَقُّوا ذلك، لا مِنَّةَ عليهم فيه، وإنْ كانتِ المِنَّةُ للهِ على كُلِّ حالٍ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص:٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كِنايةٌ عنِ الوَفرةِ والتَّعظيمِ؛ لِأنَّ الشَّيءَ الكثيرَ لا يُتصَدَّى لِعَدِّه، والشَّيءَ العظيمَ لا يُحاطُ بمِقدارِه؛ فإنَّ الإحاطةَ بالمِقدارِ ضَربٌ مِنَ الحِسابِ، وذلك شَأنُ ثَوابِ الآخِرةِ الَّذي لا يَخطُرُ على قَلبِ بَشَرٍ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥).

الآيات (١١-١٦)

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ظُلَلٌ﴾: أي: أطباقٌ وسُرادِقاتٌ، والظُّلَّةُ: شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بناءٍ أو أعوادٍ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[(١)].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾

قَولُه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾: في هذه اللَّامِ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها للتَّعليلِ، ويكونُ المأمورُ به مَحذوفًا، تَقديرُه: وأُمِرْتُ أن أعبُدَ اللهَ لِأنْ أكونَ. الثَّاني: أن تكونَ اللَّامُ مَزيدةً في المَفعولِ للتَّأكيدِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ للنَّاسِ ما أمَره به سبحانَه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: إنِّي أُمِرتُ أنْ أعبُدَ اللهَ تعالى وَحْدَه عِبادةً خالِصةً لا شِركَ فيها ولا رِياءَ، وأُمِرتُ بذلك؛ لأجلِ أن أكونَ أوَّلَ المُسلِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٦٠).

قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ رَبِّي عذابَ يَومٍ عَظيمٍ.

قُلِ: اللهُ وَحْدَه أعبُدُه وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا؛ فاعبُدوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم مِن دُونِه سُبحانَه!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ سوءَ عاقبةِ مَن أعرَضَ عن دعوةِ الحقِّ، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ بالحِرمانِ مِن الجنَّة، ودُخولِ النَّارِ، ألَا ذلك الخُسرانُ هو الخُسرانُ الواضِحُ؛ لهم مِن فَوقِهم أطباقٌ مِن النَّارِ تَلتَهِبُ عليهم، ومِن تَحتِهم أطباقٌ مِن النَّارِ، ذلك العذابُ يُخوِّفُ اللهُ به عِبادَه؛ فاتَّقوا اللهَ يا عِبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أَمَر، واجتِنابِ ما عنه نهى وزَجَر.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ: إنِّي أُمِرتُ بإفرادِ اللهِ تعالى وَحْدَه في جَميعِ عِباداتي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وإخلاصِها له؛ فلا ينبغي أن أُشرِكَ به شَيئًا[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

قيل: أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِ ذلك للمُشرِكينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن عطية، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٧).

وقيل: أُمِر أن يقولَ ذلك للنَّاسِ. وممَّن قال به: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

شَىۡءٍۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان للعبادةِ رُكنانِ: عَمَلُ القَلبِ وعَمَلُ الجَوارِحِ، وكان عمَلُ القلبِ أشرَفَ مِن عَمَلِ الجوارحِ؛ قَدَّمَه سُبحانَه بقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مُخلِصًا له التَّوحيدَ، لا أُشرِكُ به شيئًا، ثمَّ ذَكَر عَقِبَه الأدْوَنَ، وهو عَمَلُ الجوارحِ، وهو الإسلامُ المذكورُ في قَولِه[1]:

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾.

أي: وأُمِرتُ بإفرادِه بالعبادةِ؛ لأجْلِ أن أكونَ بذلك أوَّلَ المُسلِمينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٦).

قال الزمخشري في تفسيرِ قَولِه: ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: (أي: مُقَدَّمَهم وسابِقَهم في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ أيضًا: البيضاويُّ، والنسفي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٦١٨).

وقيل: المرادُ: أوَّلُ المُسلِمينَ مِن أُمَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢١).

قال ابنُ عثيمين: (وهناك احتِمالٌ آخَرُ: أنَّ الأوَّليَّةَ هنا أوَّليَّةُ الصِّفةِ، يعني: أنَّني أسبَقُ المسلمينَ =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أمْرَه بالإخلاصِ بالقَلْبِ، وبالأعمالِ المخصوصةِ، وكان الأمرُ يَحتمِلُ الوُجوبَ ويَحتمِلُ النَّدبَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأمرَ للوُجوبِ، فقال[1]:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ ربِّي فيما أمَرَني به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العِبادةِ له: عذابَ يومِ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

= مِن حيثُ التَّقَدُّمُ إلى الإسلامِ... لأنَّنا نعلَمُ أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو أوَّلُ مَن يَنقادُ لله سُبحانَه وتعالى، وأنَّه أعظَمُ النَّاسِ انقيادًا، وأشَدُّهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ أنَّه مأمورٌ بأنْ يكونَ أقوَى المسلمينَ إسلامًا، بحيثُ أنَّ ما يقومُ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمورِ الإسلامِ أعظَمُ مِمَّا يقومُ به كلُّ مُسلمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما أُمِرَ به، وأعلَمَ أنَّه يَخافُ مِن مُخالَفةِ الأمرِ له بذلك، فأفهَمَ أنَّه مُمتَثِلٌ لِما أُمِرَ به؛ أمَرَه سُبحانَه بأن يُصَرِّحَ بذلك؛ لأنَّ للتَّصريحِ مِن المَزِيَّةِ ما لا يَخفَى[1].

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾.

أي: قُلِ: اللهُ وَحْدَه أُفرِدُه بعِبادتي، وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾.

أي: فاعبُدوا -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ أيَّ شَيءٍ شِئتُموه مِنَ الأوثانِ أو غَيرِها؛ اتِّباعًا لأهوائِكم بلا بُرهانٍ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

قال الشَّوكاني: (هذا الأمرُ للتَّهديدِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤). =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ حَقيقةً هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم بحِرمانِها مِنَ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم يومَ القيامةِ كذلك[1].

= وممَّن قال بأنَّ الأمرَ هنا للتَّهديدِ: ابنُ عطية، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا يحتمِلُ أن يكونَ تَهديدًا، ويحتمِلُ أن يكونَ تَحدِّيًا... والقاعِدةُ عندَنا في التَّفسيرِ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحمِلُ مَعنيَينِ لا يَتنافَيانِ تُحمَلُ عليهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨١)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠، ٣٦١).

قيل: المرادُ بخُسرانِهم أهليهم يومَ القيامةِ: أنَّهم يُفرَّقُ بيْنَهم وبيْن أهليهم، فلا التِقاءَ لهم أبدًا، سواءٌ ذهب أهلوهم إلى الجنَّةِ، أو سكنوا جميعًا النَّارَ، ولكنْ لا اجتماعَ لهم ولا سرور. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ -أي: أنَّه لا يكونُ لهم أهلٌ في النَّارِ يَرجِعون إليهم-: ابنُ زَيدٍ، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨١).

قال الشوكاني: (وأمَّا خُسْرانُهم لِأهْليهم فلأنَّهم إنْ كانوا معهم في النَّارِ فلا يَنتفِعونَ بهم، وإنْ كانوا في الجنَّةِ فقد حِيلَ بيْنَهم وبيْنَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٢).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا كان أعَزَّ ما على الإنسانِ بعدَ نفْسِه أهْلَه الَّذين عِزُّه بهم؛ قال: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾، أي: لِأنَّهم إن كانوا مِثلَهم فحالُهم في الخَسارةِ كحالِهم، ولا يُمكِنُ أحدًا منهم أن يواسيَ =

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

أي: ألَا إنَّ خُسرانَ المُشركينَ أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ هو الخُسرانُ الواضِحُ الَّذي لا خُسرانَ مِثلُه[1].

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر خُسرانَهم أنفُسَهم وأهليهم؛ ذَكَر حالَهم في جَهنَّمَ[2].

وأيضًا لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ حِرمانِهم مِن الرِّبح، وبيَّن كَيفيَّةَ خُسرانِهم؛ بيَّن أنَّهم لم يَقتَصِروا على الحِرمانِ والخُسرانِ، بل ضَمُّوا إليه استِحقاقَ العَذابِ العَظيمِ، والعِقابِ الشَّديدِ؛ فقال[3]:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أي: للخاسِرينَ يومَ القيامةِ أطباقٌ مِن النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم، محيطةٌ

= صاحبَه بوجهٍ؛ فإنَّه لِكُلٍّ منهم شأنٌ يُغْنيه، وإن كانوا ناجينَ فلا اجتِماعَ بيْنَهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٧٦).

وقيلَ: خُسرانُ الأهلِ: أنَّهم لو آمَنوا لَكانَ لهم في الجنَّةِ أهلٌ مِن الحُورِ العِينِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الخازنُ، وجلالُ الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

بهم، تلتهِبُ عليهم[1].

كما قال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

أي: ذلك الَّذي أخبَرَ اللهُ به مِن عذابِ الخاسِرينَ يومَ القيامةِ: يُخَوِّفُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالظُّلَلِ: الأطباقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٤).

قال الشوكاني: (وسُمِّيَ ما تحتَهم ظُلَلًا؛ لأنَّها تُظِلُّ مَن تحتَها مِن أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ طبقاتِ النَّارِ صارَ في كلِّ طبقةٍ منها طائفةٌ مِن طوائفِ الكفَّارِ، ومِثلُ هذه الآيةِ قولُه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، وقولُه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣).

وقال ابن جرير: (﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وذلك كهيئةِ الظُّلَلِ المَبنيَّةِ مِن النَّارِ، ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ يقولُ: ومِن تحتِهم مِن النَّارِ ما يَعلوهم، حتَّى يَصيرَ ما يَعلوهم منها مِن تحتِهم ظُلَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢).

وقال السعدي: (﴿ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قِطَعُ عذابٍ كالسَّحابِ العظيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وقيل: المرادُ أنَّهم مُعلَّقونَ في غَمَراتِ الاضطرابِ، يُصعِدُهم اللَّهيبُ تارةً، ويَهبِطُهم انعكاسُه عليهم برُجوعِه إليهم مرَّةً أخرَى، فلا قرارَ لهم أصلًا، كما يكونُ الحَبُّ في الماءِ على النَّارِ، يَغلي به صعودًا وهبوطًا، فلا يَقِرُّ في أسفَلِ القِدرِ أصلًا. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٧).

عِبادَه[(١)].

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا اللهَ يا عبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أمَر، واجتِنابِ ما نهَى عنه وزَجَر؛ للنَّجاةِ مِن سَخَطِه وعَذابِه[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا يَشتَمِلُ على قَيدَينِ؛ أحدُهما: الأمرُ بعبادةِ اللهِ. الثَّاني: كَونُ تلك العبادةِ خالِصةً عن شوائِبِ الشِّركِ الجَليِّ، وشَوائِبِ الشِّركِ الخَفيِّ، وإنَّما خَصَّ اللهُ تعالى الرَّسولَ بهذا الأمرِ؛ لِيُنبِّهَ على أنَّ غَيرَه بذلك أحَقُّ؛ فهو كالتَّرغيبِ للغَيرِ[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فلأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الدَّاعي الهادي للخَلقِ إلى رَبِّهم يَقتضي ذلك أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلُ مَنِ ائتَمَر بما يأمُرُ به، وأوَّلُ مَن أسلَمَ، وهذا الأمرُ لا بُدَّ مِن إيقاعِه أيضًا مِمَّن زَعَم أنَّه مِن أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلا بُدَّ مِن الإسلامِ في الأعمالِ الظَّاهِرةِ، والإخلاصِ لله في الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أنَّ اللهَ تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

أمَرَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجريَ هذا الكَلامَ على نَفْسِه، والمقصودُ منه المُبالَغةُ في زَجرِ الغَيرِ عن المعاصي؛ لأنَّه مع جلالةِ قَدرِه وشَرَفِ نُبُوَّتِه إذا وَجَب أن يكونَ خائِفًا حَذِرًا عن المعاصي، فغَيرُه بذلك أَولى[(١)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي * فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعلِنَ بالحَقِّ الَّذي هو عليه، ولا يُبالي بمَنْ خالَفَه[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على جانبٍ مِن الخَوفِ مِن العذابِ، وأنْ يَخافَ ممَّا خَوَّفَه اللهُ؛ حتَّى يُحَقِّقَ العبوديَّةَ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إذا جمَعْتَ بيْن قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾، عرَفْتَ شِدَّةَ امتِثالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لرَبِّه، وأنَّه عَبَد اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، وأعلَنَ ذلك للمَلأِ غيرَ مُبالٍ بمُخالَفتِهم[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فيه أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يُعلِنَ ما أمَرَ اللهُ به مِن عبادتِه؛ ولهذا فائِدتانِ؛ الفائِدةُ الأُولى: الحَثُّ على اتِّباعِه في هذا. والفائِدةُ الثَّانيةُ: بيانُ استِحقاقِ اللهِ سُبحانَه وتعالى لذلك، وأنَّه هو المُستَحِقُّ أن يُعبَدَ وَحْدَه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ مَن لم يُخْلِصْ لم يَكُنْ قد أَتَى بالأمرِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ عمَلَه يكونُ مردودًا عليه؛ فإذا أشركَ يكونُ قد عَمِل عمَلًا ليس عليه أمرُ اللهِ ورسولِه، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ))(١).

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم عبدٌ مأمورٌ، ويَتفرَّعُ على هذا: أنَّه ليس له مِن الأمرِ شَيءٌ، وقد صرَّحَ اللهُ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويَتفرَّعُ على ذلك أيضًا ضَلالُ أولئك القومِ الَّذين يَدْعُونَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُغيثَهم، أو أنْ يَجلِبَ لهمُ الخَيرَ، ويَدفَعَ عنهم الشَّرَّ(٢)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الإسلامُ هو دينَ الأنبياءِ في خاصَّتِهم، كان في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُ الرُّسُلِ؛ لِشُمولِ لَفظِ المُسلِمينَ للرُّسُلِ السَّابقينَ(٣)، على القَولِ بأنَّ ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بمعنى أقوَى المُسلِمينَ إسلامًا.

٦- قولُه: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه جوازُ وَصْفِ غيرِ اللهِ بالعِظَم، فوصَفه بذلك لِشِدَّتِه وأهوالِه، وشِدَّةِ ما يكونُ فيه، وقد قال اللهُ تعالى عن ملكةِ سَبَأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] إلى غيرِ ذلك، فوصْفُ غيرِ اللهِ بالعِظَمِ لا بأسَ به؛ لكنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٣).
والحديث ذكره البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزمِ قبل حديث (٢١٤٢)، وأخرجه موصولًا مسلمٌ (١٧١٨) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

العِظَمَ المُطْلَقَ إنَّما يكونُ للهِ عزَّ وجلَّ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أنَّ ظاهِرَ الأمرِ للوُجوبِ؛ وذلك لأنَّه قال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، ثمَّ قال بَعْدَه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ فيكونُ معنى هذا العِصيانِ: تَرْكَ الأمرِ الَّذي تقدَّم ذِكرُه، وذلك يَقتَضي أن يكونَ تارِكُ الأمرِ عاصِيًا، والعاصي يَترتَّبُ عليه الخَوفُ مِن العِقابِ، ولا مَعنى للوُجوبِ إلَّا ذلك[٢].

٨- أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُحتاجٌ إلى العَمَلِ الَّذي يُنجيه مِن عَذابِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ بالياءِ بالإضافةِ، وهو كذلك، ولَمَّا حَدَّثَ أصحابَه بأنَّه: ((ما مِن أحدٍ يُدخِلُه عمَلُه الجنَّةَ، فقيل: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتغمَّدَني ربِّي برحمةٍ))[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ عُمُرَ الإنسانِ حقيقةً هو ما أمضاه في طاعةِ اللهِ؛ ولهذا وَصَفَ اللهُ هؤلاء بأنَّهم قد خَسِروا أنفُسَهم؛ لأنَّهم لم يَعمَلوا خيرًا[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ أنَّ أهلَ الشِّركِ يومَ القيامةِ لا يَجتمِعونَ بأهْليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٧٢) (٢٨١٦) -واللَّفظُ له- من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الظُّلَلَ ما على الإنسانِ، فكيف سُمِّيَ ما تحتَه بالظُّلَلِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه مِن بابِ إطلاقِ اسمِ أحَدِ الضِّدَّينِ على الآخَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

الثَّاني: أنَّ الَّذي يكونُ تحتَه يكونُ ظُلَّةً لإنسانٍ آخَرَ تَحتَه؛ لأنَّ النَّارَ دَرَكاتٌ، كما أنَّ الجنَّةَ دَرَجاتٌ.

الثَّالثُ: أنَّ الظُّلَّةَ التَّحتانيَّةَ إذا كانت مُشابِهةً للظُّلَّةِ الفَوقانيَّةِ في الحرارةِ والإحراقِ والإيذاءِ، أُطلِقَ اسمُ أحَدِهما على الآخَرِ؛ لأجْلِ المُماثَلةِ والمُشابَهةِ[(١)].

الرَّابعُ: أنَّ ما تحتَهم يَلتَهِبُ ويَتصاعَدُ منه شَيءٌ حتَّى يكونَ ظُلَّةً؛ فسُمِّيَ ظُلَّةً باعتِبارِ ما آلَ إليه أخيرًا[(٢)].

الخامِسُ: أنَّ المرادَ إحاطةُ النَّارِ بهم مِن جميعِ الجِهاتِ[(٣)].

١٢- رُبَّما احتَجَّ بَعضُهم بِقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ على القَولِ بأنَّه ما ثَمَّ عذابٌ أصلًا، وإنَّما هو تخويفٌ لا حقيقةَ له! وهذا مِن أقوالِ الملاحِدةِ والكُفَّارِ. فيُقالُ لهذا: التَّخويفُ إنَّما يكونُ تَخويفًا إذا كان هناك مَخُوفٌ يُمكِنُ وُقوعُه بالمُخَوَّفِ، فإنْ لم يكُنْ هناك ما يُمكِنُ وُقوعُه امتَنَع التَّخويفُ، لكِنْ يكونُ حاصِلُه إيهامَ الخائفينَ بما لا حَقيقةَ له، كما تُوهِمُ الصَّبيَّ الصَّغيرَ. ومَعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا لا يَحصُلُ به تخويفٌ للعُقَلاءِ المُمَيِّزينَ؛ لأنَّهم إذا عَلِموا أنَّه ليس هناك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٨).

شَيءٌ مَخوفٌ زال الخَوفُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ببَيانِ ما أُمِرَ به هو نَفْسُه مِنَ الإخلاصِ في عِبادةِ اللهِ، الَّذي هو عِبارةٌ عَمَّا أُمِرَ به المُؤمِنونَ مِنَ التَّقْوى؛ مُبالَغةً في حَثِّهم على الإتيانِ بما كُلِّفوه، وتَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِمَّا خُوطِبَ به المُشرِكونَ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ جاءتْ هنا بتَعريفِ لَفظِ ﴿ٱلدِّينَ﴾ بـ(أل)، وقال بَعدُ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، مُعَرِّفًا لَفظَ الدِّينِ بالإضافةِ؛ ووَجْهه: أنَّ قَولَه: ﴿ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ إخبارٌ عنِ المُتَكلِّمِ؛ فناسَبتِ الإضافةُ إليه، وأنَّ قَولَه: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ليس إخبارًا عنِ المُتَكَلِّمِ، وإنَّما الإخبارُ: ﴿أُمِرْتُ﴾ فَقَطْ، وما بَعدَه فَضلةٌ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

- عُطِفَ فِعلُ (أُمِرْتُ) هنا على فِعلِ ﴿أُمِرْتُ﴾ من قولِه: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ووَجهُ هذا العَطفِ: أنَّهما ليسا بمَعنًى واحِدٍ؛ لاختِلافِ جِهَتَيْهما؛ وذلك أنَّ الأمْرَ بالإخلاصِ وتَكليفَه شَيءٌ، والأمْرَ به لِيُحرِزَ القائِمُ به قَصَبَ السَّبقِ في الدِّينِ شَيءٌ آخَرُ، وإذا اختَلَفَ الشَّيءُ وَجهًا ووصفًا يُنَزَّلُ بذلك مَنزِلةَ شَيئَينِ مُختَلِفَينِ، فالتَّقديرُ: أُمِرْتُ بإخلاصِ الدِّينِ، وأُمِرْتُ بذلك لأنَّ أكونَ مِن السَّابِقينَ. أو: وأُمِرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّمَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥).

المسلمينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ إحرازَ قَصَبِ السَّبقِ في الدِّينِ بالإخلاصِ فيه، وإخلاصُه عليه الصلاةُ والسلامُ أتمُّ مِن إخلاصِ كلِّ مخلصٍ، فالمرادُ بالأوليَّةِ الأوليَّةُ في الشَّرفِ والرُّتبةِ[١].

وقيل: لَفظُ «أُمِرْتُ» أوَّلًا في عَمَلِ القَلبِ، وثانيًا في عَملِ الجوارِحِ، ولا يكونُ هذا تكريرًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عدَّى ﴿أُمِرْتُ﴾ الأوَّلَ بـ«أن»، وعدَّى ﴿أُمِرْتُ﴾ الثَّاني باللَّامِ فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ القصدَ في الأمرِ الثَّاني غيرُ القصدِ في الأمرِ الأوَّلِ، وذلك أنَّ الأوَّلَ يَتعدَّى إلى العبادةِ، والثَّاني معناه: «وأُمِرتُ أن أعبُدَ اللهَ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمينَ»، أي: إنَّما أُمِرتُ بإخلاصِ العبادةِ لله تعالى، وبُعِثتُ رسولًا لأن أكونَ أوَّلَ مَن يَبدأُ بطاعةِ الله تعالى وعبادتِه على الإخلاصِ المطلوبِ؛ فاللَّامُ ليست مقحمةً -على ما ذهب إليه كثيرٌ مِن النَّحْويِّينَ- وإنَّما معناه ما ذكَرْنا مِن أنَّ الأمرَ بالعبادةِ لأجْلِ أن يفعلَ أوَّلًا ما أُمِر به، ثمَّ يحمِلَ النَّاسَ على مِثلِه[٣]، فقولُه: ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عِلَّةٌ لـ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ فالتَّقديرُ: وأُمِرْتُ بذلك؛ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمينَ، فمُتعلَّقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١١٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥).

﴿أُمِرْتُ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ عليه[١].

فدخلَتِ اللَّامُ لأنَّ مُتعلَّقَ (أُمِرْتُ) الثَّاني غيرُ الأوَّلِ؛ لاختِلافِ جِهتَيْهِما[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- على القَولِ بأنَّ المخاطَبَ بقولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ هو المشركونَ، فإعادةُ الأمْرِ بالقَولِ لِلتَّأكيدِ؛ اهتمامًا بهذا المَقولِ. وعلى أنَّ المخاطَبَ المؤمنونَ، فإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لِأجْلِ اختِلافِ المقصودينَ بتَوجيهِ القَولِ إليهم[٣].

- والمرادُ بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يَومُ القِيامةِ، ووُصِفَ بالعَظَمةِ؛ لِعَظَمةِ ما فيه مِنَ الدَّواهي والأهوالِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ أعادَ الأمْرَ بعِبادةِ اللهِ هنا بعدَ قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ لِأنَّ الأوَّلَ إخبارٌ بأنَّه مَأمورٌ مِن جِهةِ اللهِ بإحداثِ العِبادةِ والإخلاصِ، والثَّاني: إخبارٌ بأنَّه يَختَصُّ اللهَ وَحْدَه دُونَ غَيرِه بعِبادَتِه مُخلِصًا له دِينَه، ولِدَلالَتِه على ذلك قَدَّمَ المَعبودَ (اللهَ سُبحانَه) على فِعلِ العِبادةِ، وأخَّرَه في الأوَّلِ؛ فالكَلامُ أوَّلًا واقِعٌ في الفِعلِ نَفْسِه وإيجادِه، وثانيًا فيمَن يَفعَلُ الفِعلَ لِأجْلِه، فأخبَرَ بامتِثالِه بالأمْرِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لِتَصلُّبِه في الدِّينِ، وحَسمًا لِأطماعِهِمُ الفارِغةِ، وتَمهيدًا لِتَهديدِهم بقَولِه: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥]. وقيل: تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿قُلِ

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣١٤، ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

ﵟٱللَّهَ أَعۡبُدُﵞ دالٌّ على الاهتِمامِ بمَن يَعبُدُ، وليس الاختِصاصَ[١].

- وأيضًا أُمِرَ بأنْ يُعِيدَ التَّصريحَ بأنَّه يَعبُدُ اللهَ وحْدَه؛ تَأكيدًا لقولِه: ﵟقُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَﵞ [الزمر: ١١]؛ لأهمِّيَّتِه، وإنْ كان مُفادُ الجملتَينِ واحدًا؛ لأنَّهما معًا تُفيدانِ أنَّه لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ تعالى، باعتبارِ تَقْييدِ ﵟأَعۡبُدَ ٱللَّهَﵞ الأوَّلِ بقَيدِ ﵟمُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَﵞ، وباعتبارِ تَقديمِ المفعولِ على (أَعْبُدُ) الثَّاني، فتأكَّدَ معنى التَّوحيدِ مرَّتينِ؛ لِيَتقرَّرَ ثلاثَ مرَّاتٍ، وتَمهيدًا لقولِه: ﵟفَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦﵞ، وهو المقصودُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﵟفَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُﵞ

- قولُه: ﵟفَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦﵞ الفاءُ في قَولِه: ﵟفَٱعۡبُدُواْﵞ لِتَفريعِ الكَلامِ الَّذي بَعدَها على الكَلامِ قَبْلَها؛ فهو تَفريعٌ ذِكريٌّ، والأمْرُ مُستَعمَلٌ في مَعنى التَّخليةِ، ويُعبَّرُ عنه بالتَّسويةِ، والمَقصودُ: التَّسويةُ في ذلك عِندَ المُتكلِّمِ، فتَكونُ التَّسويةُ كِنايةً عن قِلَّةِ الاكتِراثِ بفِعلِ المُخاطَبِ، أيْ: إنَّ ذلك لا يَضُرُّني. وقيل: صِيغةُ الأمْرِ على جِهةِ التَّهديدِ[٣].

- وجُعِلَتِ الصِّلةُ فِعلَ المَشيئةِ ﵟشِئۡتُمﵞ؛ إيماءً إلى أنَّ رائِدَهم في تَعيينِ مَعبوداتِهم هو مُجرَّدُ المَشيئةِ والهَوى بلا دَليلٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على شِدَّةِ الغَضَبِ عليهم ما لا يَخفى، كأنَّهم لَمَّا لم يَنتَهُوا عمَّا نُهوا عنه أُمِروا به؛ كي يَحِلَّ بهمُ العِقابُ(١).

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أعقَبَ أمْرَ التَّسويةِ في شَأنِهم بشَيءٍ مِنَ المَوعِظةِ؛ حِرصًا على إصلاحِهم، على عادةِ القُرآنِ، ولُوحِظَ في إبلاغِهم هذه المَوعِظةَ مَقامُ ما سَبَق مِنَ التَّخليةِ بيْنَهم وبيْنَ شَأنِهم؛ جَمعًا بيْن الإرشادِ وبيْن التَّوبيخِ؛ فجيءَ بالمَوعظةِ على طَريقِ التَّعريضِ والحَديثِ عنِ الغائبِ، والمُرادُ المُخاطَبونَ(٢).

- وافتُتِحَ المَقولُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ تَنبيهًا على أنَّه واقِعٌ(٣).

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أيْ: إنَّ الجِنسَ الَّذين عُرِفوا بالخُسرانِ هُمُ الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وتَعريفُ المُسنَدِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والمُسنَدِ إليه ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ مِن طَريقِ القَصرِ؛ فيُفيدُ هذا التَّركيبُ قَصرَ جِنسِ الخاسِرينَ على الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ جِنسِ الخُسرانِ في الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، فخُسرانُ غَيرِهم كَلَا خُسرانٍ(٤).

- ولَمَّا كانَ الكَلامُ مَسوقًا بطَريقِ التَّعريضِ بالَّذين دارَ الجِدالُ معهم مِن قَولِه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزمر: ٧]، إلى قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]؛ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بالَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

همُ الَّذين جَرى الجِدالُ معهم، فأفادَ مَعنى: إنَّ الخاسِرينَ أنتم، إلَّا أنَّ وجْهَ العُدولِ عن الضَّميرِ إلى المَوصوليَّةِ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإدماجِ وَعيدِهم بأنَّهم يَخسَرونَ أنفُسَهُم وأهْلِيهم يومَ القِيامةِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ تَتميمٌ(٢)، كأنَّه قيلَ: خَسِروا رَأسَ المالِ والرِّبحَ(٣).

- قولُه: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ استِئنافٌ، بمَنزِلةِ الفَذْلَكةِ(٤) والنَّتيجةِ مِنَ الكَلامِ السَّابِقِ، والتَّذييلِ له؛ لِأنَّ وَصْفَ الَّذين خَسِروا بأنَّهم خَسِروا أحَبَّ ما عِندَهم، وبأنَّهمُ الَّذين انحَصَر فيهم جِنسُ الخاسِرينَ: يُستَخلَصُ منه أنَّ خَسارَتَهم أعظَمُ خَسارةٍ وأوضَحُها لِلعِيانِ؛ ولذلك أُوثِرَتْ خَسارَتُهم باسمِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ الَّذي هو اسمُ مَصدَرِ الخَسارةِ، وهو دالٌّ على قُوَّةِ المَصدَرِ والمُبالَغةِ فيه، وأُشيرَ إلى العِنايةِ والاهتِمامِ بوَصفِ خَسارَتِهم، وتَهويلِها؛ فصُدِّرَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّنبيهِ، ووُسِّطَ ضَميرُ الفَصلِ بيْن المُبتَدأِ والخَبَرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٢) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠).

(٤) تقدم تعريفها (ص: ٦٣).

وعُرِّفَ ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾، كأنَّه مِمَّا تُعورِفَ أمْرُه، واشتُهِرَ هَوْلُه، ووَصَفَه بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، فجَعَلَ خُسرانَهم غايةً في الفَظاعةِ، ونِهايةً في الشَّناعةِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وخُصَّ بالإبدالِ؛ لِأنَّه أشَدُّ خُسرانِهم عليهم؛ لِتَسلُّطِه على إهلاكِ أجسامِهم[٢].

- و(الظُّلَلُ): جمعُ ظُلَّةٍ، وهي شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بناءٍ أو أعوادٍ، مِثلُ الصُّفَّةِ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، مُشتَقَّةٌ مِنَ الظِّلِّ؛ لِأنَّها يَكونُ لها ظِلٌّ في الشَّمسِ، وهي هنا لِلتَّعبيرِ عن الطَّبَقةِ الَّتي تَعلو أهلَ النَّارِ في نارِ جَهنَّمَ، بقَرينةِ قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، شُبِّهتْ بالظُّلَّةِ في العُلوِّ والغِشْيانِ، مع ما فيها مِنَ التَّهكُّمِ بهم؛ لِأنَّهم يَتمَنَّونَ ما يَحجُبُ عنهم حَرَّ النارِ، فعُبِّرَ عن طَبَقاتِ النَّارِ بالظُّلَلِ إشارةً إلى أنَّهم لا واقيَ لهم مِن حَرِّ النَّارِ، على نَحوِ تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَذييلٌ لِلتَّهديدِ بالوَعيدِ من قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [الزمر: ١٥] الآيةَ. أو استِئنافٌ بَيانيٌّ بتَقديرِ سُؤالٍ يَخطُرُ في نَفْسِ السَّامِعِ لِوَصفِ عَذابِهم بأنَّه ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

مِن فَوقِهم، وظُلَلٌ مِن تَحتِهم، أنْ يَقولَ سائِلٌ: ما يَنفَعُ إعدادُ العَذابِ لهمْ في الآخِرةِ بَعدَ فَواتِ تَدارُكِ كُفرِهم؟ فأُجيبَ بأنَّ اللهَ جَعَلَ ذلك العَذابَ الفَظيعَ في الآخِرةِ لِتَخويفِ اللهِ عِبادَه حينَ يَأمُرُهم بالاستِقامةِ، ويَشرَعُ لهمُ الشَّرائِعَ؛ لِيَعلَموا أنَّهم إذا لم يَستَجيبوا للهِ ورُسُلِه تَكونُ تلك عاقِبَتَهم، ولَمَّا كان وَعيدُ اللهِ خَبَرًا منه، ولا يَكونُ إلَّا صِدقًا؛ حَقَّقَ لهم في الآخِرةِ ما تَوَعَّدَهم به في الحياةِ، وتَخويفُ اللهِ به مَعناه أنَّه يُخوِّفُهم بالإخبارِ به وبوَصفِه، أمَّا إذاقَتُهم إيَّاه فهي تَحقيقٌ لِلوَعيدِ[١].

- ويُعلَمُ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ بطَريقِ المُقابَلةِ جَعْلُ الجَنَّةِ لِتَرغيبِ عِبادِ اللهِ في التَّقْوى، إلَّا أنَّه طُوِيَ ذِكرُه؛ لأنَّ السِّياقَ مَوعِظةٌ لِأهلِ الشِّركِ؛ فاللهُ جَعَلَ الجَنَّةَ وجَهنَّمَ إتمامًا لِحِكمَتِه ومُرادِه مِن نِظامِ الحَياةِ الدُّنيا؛ لِيَكونَ النَّاسُ فيها على أكمَلِ ما تَرتَقي إليه النَّفْسُ الزَّكيَّةُ[٢].

- قولُه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَفريعٌ وتَعقيبٌ لِجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ لِأنَّ التَّخويفَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العَذابَ أُعِدَّ لِأهلِ العِصيانِ، فناسَبَ أنْ يُعقِبَ بأمْرِ النَّاسِ بالتَّقْوى؛ لِلتَّفادي مِنَ العَذابِ[٣].

- وهذه عِظةٌ مِنَ اللهِ تَعالى بالِغةٌ مُنطَويةٌ على غايةِ اللُّطفِ والمَرحَمةِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ قَدَّمَ النِّداءَ على التَّفريعِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ تَأخيرُه عنه، كَقولِه: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ لِأنَّ المَقامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

هنا مَقامُ تَحذيرٍ وتَرهيبٍ؛ فهو جَديرٌ باستِرعاءِ ألبابِ المُخاطَبينَ إلى ما سَيَرِدُ مِن بَعدُ مِنَ التَّفريعِ على التَّخويفِ، بخِلافِ آيةِ سورةِ البَقَرةِ؛ فإنَّها في سِياقِ التَّرغيبِ في إكمالِ أعمالِ الحَجِّ والتَّزَوُّدِ لِلآخِرةِ؛ فلِذلك جاءَ الأمْرُ بالتَّقْوى فيها مَعطوفًا بالواوِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ
يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ
﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ
غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطَّاغوتُ هو كُلُّ ذي طُغْيانٍ على الله، فكلُّ معبودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شيطانًا، أو وَثَنًا، أو صَنمًا، كائنًا ما كان مِن شَيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتِقاقُه مِن الطُّغيانِ: وهو الظُّلْمُ والبَغْيُ، وأصلُه: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ[١].

﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: أي: تابوا ورَجعوا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٢].

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

﴿غُرَفٌ﴾: أي: مَنازِلُ عاليةٌ في الجنَّةِ، جمْعُ غُرفةٍ: وهي العُلِّيَّةُ[١] المُشرِفةُ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه للمتَّقينَ: والَّذين ابتَعدوا عن عبادةِ كُلِّ ما يُعبَدُ من دُونِ اللهِ تعالى، ورجَعوا إلى اللهِ تعالى: لهم البُشرى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- عباديَ الَّذين يَستَمِعونَ القولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه، أولئك هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم، وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: أفمَنْ وجَبَ عليه العذابُ في سابقِ عِلمِ الله لكُفرِه، أفأنت -يا محمَّدُ- تَستطيعُ إنقاذَه مِن النَّارِ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، فيقولُ: لكِنِ الَّذين اتَّقوا ربَّهم لهم في الجنَّةِ غُرَفٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، تجري مِن تحتِها الأنهارُ، وعَدَهم اللهُ تعالى بذلك وعْدًا لا يَتخَلَّفُ؛ فهو سُبحانَه لا يُخلِفُ ما وعَدَ به عِبادَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى وَعيدَ عَبَدةِ الأصنامِ والأوثانِ؛ ذكَرَ وعْدَ مَن اجتنَبَ عِبادتَها، واحترَزَ عن الشِّركِ؛ لِيَكونَ الوَعدُ مَقرونًا بالوعيدِ أبدًا، فيَحصُلَ كمالُ التَّرغيبِ

---

(١) العُلِّيَّةُ: الغُرفةُ في الطبقةِ الثانيةِ مِن الدَّارِ وما فوقَها. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

والتَّرهيبِ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾

أي: والَّذين ابتَعَدوا عن عبادةِ الطَّاغوتِ[٢]، وتابوا إلى اللهِ تعالى مِنَ الشِّركِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

(٢) قيل: هو الشَّيطانُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣).

قال الرازي: (اخْتَلَفوا في أنَّ المرادَ مِن الطَّاغوتِ هاهنا الشَّيطانُ أم الأوثانُ، فقيل: إنَّه الشَّيطانُ، فإنْ قِيل: إنَّهم ما عَبَدوا الشَّيطانَ وإنَّما عَبَدوا الصَّنمَ، قُلْنا: الدَّاعي إلى عِبادةِ الصَّنم لَمَّا كان هو الشَّيطانَ كان الإقدامُ على عِبادةِ الصَّنَم عِبادةً للشَّيطانِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٥).

وقال ابن عطية: (الطَّاغوت: كُلُّ ما يُعبَدُ مِن دونِ الله. والطَّاغوتُ أيضًا: الشَّيطانُ، وبه فسَّر هنا مجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، وأوقعه هنا على جماعةِ الشَّياطينِ؛ ولذلك أنَّث الضَّميرَ بعدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥).

وقيل: الطَّاغوتُ: الأوثانُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣١).

قال الشنقيطي: (الأصنامُ تدخُلُ في الطَّاغوتِ دُخولًا أوَّليًّا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٥).

فإن قِيلَ: لِمَ سُمِّيت بذلك مع أنَّه لا فعلَ لها، والطُّغاةُ هم الَّذينَ يَعْبُدونَها؟

أُجيبَ عن ذلك: بأنَّه لَمَّا حَصَل الطُّغيانُ عندَ مُشاهَدَتِها والقُربِ منها، وُصِفتْ بهذه الصِّفةِ؛ إطلاقًا لاسم المُسَبَّبِ على السَّبَبِ بحَسَبِ الظَّاهِرِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٥).

وقيل: الطَّاغوتُ: الكاهِنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ السَّائِبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١).

وقيل: الطَّاغوتُ: اسمٌ لكلِّ ما عُبِدَ مِن دُونِ الله؛ فكُلُّ مُشركٍ إلهُه طاغوتُه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير =

والعِصيانِ، وأقبلوا على طاعةِ الرَّحمنِ: لهم البُشرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾

= السعدي)) (ص: ٧٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

قال ابنُ القَيِّم: (الطَّاغوتُ: كُلُّ ما تَجاوَزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٢-١٤٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالبُشرى هنا: عُمومُ البُشرى في الدُّنيا والآخرةِ: الزمخشريُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

قال السعدي: (﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ الَّتي لا يُقادِرُ قَدْرَها ولا يَعلَمُ وَصْفَها إلَّا مَن أكرمَهم بها، وهذا شامِلٌ للبُشرى في الحياةِ الدُّنيا بالثَّناءِ الحَسَنِ، والرُّؤيا الصَّالحةِ، والعنايةِ الرَّبانيَّةِ مِن الله، الَّتي يَرَون في خِلالِها أنَّه مُريدٌ لإكرامِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم البُشرَى في الآخرةِ عندَ الموتِ، وفي القبرِ، وفي القيامةِ، وخاتمةُ البُشْرى ما يُبشِّرُهم به الرَّبُّ الكريمُ مِن دَوامِ رِضوانِه وبِرِّه وإحسانِه، وحلولِ أمانِه في الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وقيل: المرادُ أنهم يُبشَّرون في الدُّنيا بالفوزِ بالجنَّةِ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والثعلبي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤).

وقيل: البُشرى المرادُ بها: الجنَّةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٠٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ لهم البُشرى أمَرَ نبيَّه بِبشارتِهم، وذكَرَ الوَصفَ الَّذي استحَقُّوا به البِشارةَ[١].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ...﴾

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- عِبادِيَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ[٢] فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٢) قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾: الظَّاهِرُ أنه نعتٌ لـ «عبادي»، أو بدَلٌ منه، أو بيانٌ له. وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ مبتدأً). ((الدر المصون)) (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥ - ٣٦٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾: هم المُجتنِبونَ الطَّاغوتَ، المُنيبون إلى الله. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والسمين الحلبي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٩).

وقيل: المرادُ بالعِبادِ هنا العمومُ؛ فيدخُلُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ إليه دُخولًا أوَّليًّا. وممَّن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣).

واختلف المفسِّرون أيضًا في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾؛ على أقوالٍ:

القولُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالقولِ: عمومُ الكلامِ، وجميعُ الأقوالِ حسَنِها وسَيِّئِها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وأبو حيَّان، والثعالبي، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٩).

قال ابنُ الجوزي في بيانِ هذا القولِ: (أنَّه الرَّجُلُ يَجلِسُ مع القَومِ فيَسْمَعُ كلامَهم، فيَعمَلُ بالمَحاسِنِ ويُحدِّثُ بها، ويَكُفُّ عن المَساوئِ ولا يُظهِرُها، قاله ابنُ السَّائبِ). ((تفسير ابن =

= الجوزي)) (٤/ ١٢).
وقال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ كلامٌ عامٌّ في جميع الأقوال، وإنَّما القَصدُ الثَّناءُ على هؤلاءِ ببَصائرَ هي لهم، وقَوامٍ في نَظَرِهم؛ حتى إنَّهم إذا سَمِعوا قَولًا مَيَّزوه واتَّبَعوا أحسَنَه. واختلَف المفَسِّرون في العبارةِ عن هذا؛ فقالت فِرقةٌ: أحسَنُ القَولِ كِتابُ اللهِ، أي: إذا سَمِعوا الأقاويلَ وسَمِعوا القرآنَ اتَّبَعوا القُرآنَ. وقالت فِرقةٌ: القَولُ هو القُرآنُ، وأحسَنُه: ما فيه مِن عَفْوٍ وصَفحٍ واحتِمالٍ على صَبرٍ، ونحوِ ذلك. وقال قَتادةُ: أحسَنُ القَولِ طاعةُ اللهِ. وهذه أمثلةٌ، وما قُلْناه أوَّلًا يَعُمُّها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥).
وقال السَّعدي: (وأحسَنُه على الإطلاقِ كَلامُ اللهِ وكَلامُ رَسولِه، كما قال في هذه السُّورةِ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).
وخصَّه ابنُ عُثيمينَ بالقَولِ الحَسَنِ لا بكُلِّ قَولٍ، أي: إنَّ هؤلاءِ العِبادَ يَستَمِعونَ القَولَ الحَسَنَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَه، فأمَّا القَولُ السَّيِّئُ أو اللَّغوُ فإنَّهم يُعرِضونَ عنه، ولا يَستَمِعونَ إليه أصلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فإذا كانوا لا يَستَمِعونَ إلى الكَلامِ الَّذي لا فائدةَ منه فهُم أبعَدُ عن الاستِماعِ إلى الكَلامِ المحَرَّمِ مِن بابِ أَولى. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).
القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالقولِ هاهنا: ما قاله اللهُ ورسوله. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيم، والشنقيطي. يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٦ - ٣٥٨).
قال الشنقيطي موضِّحًا هذا القولَ الَّذي اختاره: (المراد بالقولِ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن وحيِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومِن إطلاقِ القولِ على القرآنِ قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]... وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ أي: يُقَدِّمون الأحسَنَ، الَّذي هو أشدُّ حُسنًا... وأمَّا كَوْنُ القرآنِ فيه الأحسَنُ والحسَنُ، فقد دلَّتْ عليه آياتٌ مِن كتابه. واعلَمْ أوَّلًا أنَّه لا شكَّ في أنَّ الواجبَ أحسَنُ مِن المندوب، وأنَّ المندوبَ أحسَنُ مِن مُطلَقِ الحسَنِ، فإذا سمِعوا مثلًا قولَه تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] قدَّموا فِعلَ الخَيرِ الواجبِ على فعلِ الخَيرِ المندوبِ، وقدَّموا هذا الأخيرَ على مُطلَقِ الحسَنِ الَّذي هو الجائزُ؛ ولذا كان الجزاءُ بخصوصِ الأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ، لا على مُطلَقِ الحسَنِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: =

= ٩٧]... ومِن أمثلةِ التَّرغيبِ في الأخذِ بالأحسَنِ وأفْضَليَّته مع جوازِ الأخذِ بالحسَنِ قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]... وكقولِه جلَّ وعلا مُثْنيًا على مَن تَصَدَّق فأبدَى صدَقتَه: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثمَّ بيَّن أنَّ إخفاءَها وإيتاءَها الفقراءَ خيرٌ مِن إبدائِها في قولِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وكقولِه في نِصفِ الصَّداقِ اللَّازمِ للزَّوجةِ بالطَّلاقِ قبْلَ الدُّخولِ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولا شكَّ أنَّ أخْذَ كلِّ واحدٍ مِن الزَّوجَينِ النِّصْفَ حسَنٌ؛ لأنَّ اللهَ شرَعه في كتابِه في قولِه: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، مع أنَّه رغَّب كلَّ واحدٍ منهما أن يَعفوَ للآخَرِ عن نِصفِه، وبيَّن أنَّ ذلك أقرَبُ للتَّقْوى، وذلك في قولِه بعدَه: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقد قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ثمَّ أرشدَ إلى الأحسَنِ بقولِه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثمَّ أرشد إلى الأحسَنِ في قولِه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

وقال ابنُ القيِّمِ: (القولُ هاهنا ما قاله اللهُ ورسولُه، واتِّباعُ أحسَنِه هو الاقتداءُ به؛ فهذا أحسَنُ مِن قولِ كلِّ قائلٍ عَداه). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٥٢٥).

القولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ: القرآنُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام -ونسَبَه إليه الماوَرْديُّ-، وابنُ تيميَّةَ، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢).

قال مقاتلُ بنُ سُليمانَ: (﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ يعني: القرآنَ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ يعني: أحسَنَ ما في القرآنِ مِن طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَتَّبِعون المعاصيَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (والمرادُ بالقولِ القرآنُ، كما فسَّره بذلك سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، واللَّامُ لتعريفِ القولِ المعهودِ؛ فإنَّ السُّورةَ كلَّها إنَّما تضمَّنتْ مدْحَ القرآنِ واستماعِه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥).

وتقدَّم في كلامِ ابنِ عطيَّةَ والشِّنقيطيِّ بيانُ معنَى ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ بناءً على هذا القولِ.

ويُنظر ما في قولِه تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ مِن أوجُهٍ أخرى في: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٠).

كما قال تعالى عن موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾

أي: أولئك العِبادُ العالو المَنزِلةِ والرُّتبةِ: هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم لِمَعرفةِ الحَقِّ والعَمَلِ به(١).

عن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ((أنَّه كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ، قال: وَجَّهْتُ وجهِيَ لِلَّذي فَطَر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا مِن المشركينَ، إنَّ صَلاتي، ونُسُكي، ومَحْيايَ، ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا مِن المسلمينَ، اللَّهُمَّ أنت المَلِكُ لا إلهَ إلَّا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبْدُك، ظَلَمْتُ نفْسي، واعتَرَفْتُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصْرِفْ عنِّي سَيِّئَها لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيرُ كلُّه في يدَيكَ، والشَّرُّ ليس إليكَ، أنا بك وإليكَ، تبارَكْتَ وتَعالَيْتَ، أستغفِرُك وأتوبُ إليكَ...))(٢).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استفتَحَ الصَّلاةَ كبَّرَ، ثمَّ قال: إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٧، ١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا مِنَ المُسلِمينَ، اللَّهُمَّ اهدني لأحسَنِ الأعمالِ وأحسَنِ الأخلاقِ، لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، وقِني سَيِّئَ الأعمالِ وسَيِّئَ الأخلاقِ، لا يَقِي سَيِّئَها إلَّا أنت))(١).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

أي: وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ، الَّذين انتَفَعوا بها في مَعرِفةِ الحقِّ واتِّباعِه(٢).

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَصَّ سُبحانَه البِشارةَ بالمُحسِنينَ، عُلِمَ أنَّ غَيْرَهم قد حُكِمَ بشَقاوتِه، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -لِما جُبِلَ عليه مِن عَظيمِ الرَّحمةِ، ومَزيدِ الشَّفَقةِ- جَديرًا بالأسَفِ على مَن أعرَضَ؛ سَبَّبَ عن أسَفِه عليهم قَولَه(٣):

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

أي: أفمَنْ وَجَب عليه العَذابُ في سابقِ عِلمِ اللهِ لِكُفرِه تَقدِرُ -يا محمَّدُ- على هدايتِه في الدُّنيا، وإنقاذِه مِن النَّارِ يومَ القيامةِ(٤)؟!

(١) أخرجه النَّسائي (٨٩٦) واللَّفظُ له، والطبراني في ((الدعاء)) (٤٩٩)، والدارقطني (١/ ٢٩٨). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٨٩٦)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((تنقيح التحقيق)) (١/ ١٤١)، ووثَّق رجالَه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٧، ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

قال الخازن: (﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ قال ابنُ عبَّاس: سبَق في عِلم الله تعالى أنَّه في النَّار. وقيل: ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. وقيل: قولُه: «هؤلاءِ في النَّارِ ولا أُبالي»). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤).

ممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، وابن الجوزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١).

وقيل: المرادُ بكلمةِ العذابِ هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وممن اختاره: ابنُ عثيمين، قال: (الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بكلمةِ العذابِ هي ما ذكَره الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أنَّهم مِن أهلِ النَّارِ، هؤلاء لا يُمكِنُ أن يُؤمِنوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ المرادَ قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾-: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمعانيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٤٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٦١).

قال ابن الجوزي: (﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ إنْ قيل: كيف اجتمَع في هذه الآيةِ استِفهامانِ بلا جوابٍ؟

قيل: أمَّا الفَرَّاءُ فإنَّه يقولُ: هذا ممَّا يُرادُ به استِفهامٌ واحدٌ، فسبق الاستِفهامُ إلى غيرِ مَوضِعِه، فرُدَّ إلى مَوضِعه الَّذي هو له، فيَكونُ المعنى: أفأنتَ تُنقِذُ مَن في النَّارِ مَن حقَّتْ عليه كَلِمةُ العذابِ؟ ومِثلُه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] فردَّ ﴿أَنَّكُمْ﴾ مرَّتَينِ، والمعنى: أيَعِدُكم أنَّكم مُخرَجون إذا مِتُّمْ؟ ومِثلُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، ثمَّ قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فردَّ «تَحسَبَنَّ» مرَّتَينِ، والمعنى: لا تَحسَبَنَّ الَّذين يَفرَحون بمَفازةٍ مِن العذابِ.

وقال الزَّجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ في الكلام محذوفٌ، تقديرُه: أفَمَنْ حقَّ عليه كَلِمةُ العذابِ فيَتخلَّصُ منه أو يَنجو، أفأنتَ تُنقِذُه؟ قال المفسِّرون: أفأنتَ تُخَلِّصُه ممَّا قُدِّر له فتَجعَله =

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ النَّاسِ كمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حَوْلَه جَعَل الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فجعَل يَنزِعُهنَّ ويَغلِبْنَه فيَقتَحِمْنَ[١] فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[٢] عن النَّارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها))[٣].

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ الكُفَّارِ في النَّارِ وأنَّ الخاسِرينَ لهم ظُلَلٌ؛ ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ، وناسَبَ الاستِدراكَ هنا؛ إذ هو واقِعٌ بينَ الكافِرينَ والمؤمنينَ؛ فقال[٤]:

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾

أي: لكِنِ الَّذين اتَّقَوا رَبَّهم في الدُّنيا، بامتِثالِ أمْرِه، واجتِنابِ نَهْيِه: لهم في الجنَّةِ بِناياتٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ[٥].

= مؤمنًا؟ والمعنى: ما تَقدِرُ على ذلك). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(١) فيَقتَحِمْنَ: أي: فيَدخُلْنَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٩/ ٢٧٧).

(٢) بحُجَزِكُم: جَمعُ حُجْزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٢٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ[1] الغابِرَ مِن الأُفُقِ[2]، مِن المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غيرُهم. قال: بلى، والَّذي نَفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[3].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ الغُرفةَ في الجنَّةِ كما تَراءَونَ الكوكَبَ في السَّماءِ))[4].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المنازِلُ لا تَطيبُ إلَّا بالماءِ، وكان الجاري أشرَفَ وأحسَنَ؛ قال[5]:

= للبقاعي (١٦/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦٢-١٦٥).

(١) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) الغابرَ: أي: الباقِيَ في الأُفُقِ بعدَ انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ، وإنَّما يَستنيرُ في ذلك الوقتِ الكوكبُ الشَّديدُ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٣) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) واللَّفظ له.

(٤) رواه البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠) واللَّفظ له.

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

أي: تَجري مِن تحتِ تلك الغُرَفِ الأنهارُ المُتدَفِّقةُ[١].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر يومَ القيامةِ وما يكونُ فيه؛ بَيَّن أنَّه أمرٌ لا بُدَّ منه، فقال[٢]:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾

أي: وَعَدَهم اللهُ تلك الغُرَفَ والمَنازِلَ وعْدًا مؤكَّدًا لا يُخلِفُه؛ فاللهُ لا يُخلِفُ ما وَعَد به عِبادَه، بل يُوفِي به سُبحانَه[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أنَّ رأسَ السَّعاداتِ، ومَركزَ الخَيراتِ، ومَعدِنَ الكَراماتِ: هو الإعراضُ عن غَيرِ اللهِ تعالى، والإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على طاعةِ اللهِ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإذا رأيتَ مِن نَفْسِك الحرصَ على استماعِ قَولِ الخَيرِ واتِّباعِ أحْسَنِه فاعلَمْ أنَّ هذا من هدايةِ اللهِ لك؛ لأنَّه قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٧).

وإذا رأيتَ مِن نَفْسِك كراهةَ الاستِماعِ إلى القولِ الحَسَنِ فاتَّهِم نَفْسَك؛ لأنَّ اللهَ جَعَل الهِدايةَ في هؤلاء القَومِ، فإذا لم يَحصُلْ لك هذا فاتَّهِمْ نفْسَك، وصَحِّحِ الخطأَ، وأقبِلْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ فيه حضٌّ على التَّقْوَى(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أنَّ التَّوحيدَ لا يَتِمُّ إلَّا باجتِنابِ الطَّاغوتِ، والإخلاصِ للهِ تعالى(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ هذا مِن أحسَنِ الاحترازِ مِن الحَكيمِ العَليمِ؛ لأنَّ المدحَ إنَّما يَتناوَلُ المجتَنِبَ لها في عِبادتِها(٤).

٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، فدَلَّ ثَناءُ اللهِ على عِبادِه المُؤمِنينَ الكُمَّلِ بأنَّهم أحرَزوا صِفةَ اتِّباعِ أحسَنِ القَولِ الَّذي يَسمَعونَه، على شَرَفِ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ لِلتَّفرِقةِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ولِلتَّفرِقةِ بيْنَ الصَّوابِ والخَطَأِ، ولِغَلْقِ المَجالِ في وَجهِ الشُّبهةِ، ونَفيِ تَلَبُّسِ السَّفسَطةِ(٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ حَثُّ أهلِ الكِتابِ على اتِّباعِ هذا القُرآنِ العَظيمِ؛ فإنَّ كُتُبَ اللهِ كُلَّها حَسَنةٌ، وهذا القُرآنُ أحسَنُها كَلامًا ومَعانيَ ونِظامًا؛ لا يَشُكُّ في هذا أحَدٌ له أدنَى ذَوقٍ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ حُجَّةٌ على المُقَلِّدينَ؛ إذِ القولُ المسموعُ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ قولَ مَن يكونُ قولُه حُجَّةً، أو قولَ مَن لا يكونُ قولُه حُجَّةً، فلمَّا كان قولُ مَن يكونُ حُجَّةً حسَنًا كلُّه لا تزييفَ فيه؛ عُلِمَ أنَّه المُتَّبَعُ دونَ قولِ مَن لا يكونُ حُجَّةً(١).

٦- هنا سُؤالٌ مَشهورٌ، وهو أنَّه تعالى قال: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، فقد قَسَّم القَولَ إلى حَسَنٍ وأحسَنَ، والقُرآنُ كُلُّه مُتَّبَعٌ. وهذا على أنَّ المرادَ بالقولِ القرآنُ.

فيُقالُ: الجَوابُ مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ هذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ومِثلُ قَولِه: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ فقد أمَرَ المُؤمِنينَ باتِّباعِ أحسَنِ ما أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، وأمَرَ بني إسرائيلَ أن يأخُذوا بأحسَنِ التَّوراةِ، وهذا أبلَغُ مِن تلك الآيةِ؛ فإنَّ تلك إنَّما فيها مدْحٌ باتِّباعِ الأحسَنِ، ولا رَيبَ أنَّ القُرآنَ فيه الخَبَرُ والأمرُ بالحَسَنِ والأحسَنِ، واتِّباعُ القَولِ إنَّما هو العَمَلُ بمُقتضاه، ومُقتضاه فيه حَسَنٌ وأحسَنُ، ليس كُلُّه أحسَنَ، وإنْ كان القُرآنُ في نَفْسِه أحسَنَ الحديثِ؛ ففَرْقٌ بيْن حُسنِ الكلامِ بالنِّسبةِ إلى غَيرِه مِن الكَلامِ، وبيْنَ حُسنِه بالنِّسبةِ إلى مُقتضاه المأمورِ والمُخبَرِ عنه.

ومنها: أن يُقالَ: إنَّه قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، والقُرآنُ تضَمَّنَ خبرًا وأمرًا؛ فالخَبرُ عن الأبرارِ والمقَرَّبينَ، وعن الكُفَّارِ والفُجَّارِ؛ فلا رَيبَ أنَّ اتِّباعَ الصِّنفَينِ (الأبرارِ والمقَرَّبينَ)

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١، ٢٢).

حَسَنٌ، واتِّباعَ المقَرَّبينَ أحسَنُ، والأمرُ يَتضَمَّنُ الأمرَ بالواجِباتِ والمُستحَبَّاتِ، ولا رَيبَ أنَّ الاقتِصارَ على فِعلِ الواجِباتِ حَسَنٌ، وفِعلَ المُستحَبَّاتِ معها أحسَنُ، ومَنِ اتَّبَع الأحسَنَ فاقتدى بالمقَرَّبينَ وتقَرَّب إلى اللهِ بالنَّوافِلِ بعدَ الفرائِضِ كان أحَقَّ بالبُشرى. وعلى هذا فقَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]: هو أيضًا أمرٌ بذلك؛ لكِنَّ الأمرَ يَعُمُّ أمرَ الإيجابِ والاستِحبابِ؛ فهم مأمورونَ بما في ذلك مِن واجبٍ أمرَ إيجابٍ، وبما فيه مِن مُستحَبٍّ أمْرَ استحبابٍ، كما هم مأمورونَ مِثلَ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقَولِه: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والمعروفُ يتناوَلُ القِسمَينِ، وقَولِه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وهو يَعُمُّ القِسمَينِ، وقَولِه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، وأمثالِ ذلك[1].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العُقولِ؛ لأنَّ الإنسانَ كُلَّما كان للحَقِّ أتْبَعَ كان أكمَلَ عَقلًا، وكُلَّما نَقَص اتِّباعُه للحَقِّ كان أدَلَّ على قِلَّةِ عَقلِه؛ فأعقَلُ النَّاسِ أتْبَعُهم لدِينِ اللهِ لا شَكَّ؛ لأنَّهم هم الَّذين عِندَهم الحَزمُ وانتِهازُ الفُرَصِ وحِفظُ الوَقتِ[2].

٨- أنَّه لا تلازُمَ بيْن الذَّكاءِ والعَقلِ؛ فالذَّكاءُ شَيءٌ والعَقلُ شَيءٌ آخَرُ، حتَّى في عَقلِ الإدراكِ لا تلازُمَ بيْن الذَّكاءِ وعَقلِ الإدراكِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن تَجِدُه ذَكيًّا شديدَ الملاحظةِ، يَفهَمُ الشَّيءَ بسُرعةٍ، ويُعطي الجوابَ بسرعةٍ، لكِنَّه في التَّصرُّفِ أحمقُ ليس عندَه عَقلٌ! ومِن النَّاسِ مَن يكونُ بالعَكسِ؛ عندَه شيءٌ من

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥-٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٨).

البلادةِ، ولكِنَّه في التَّصرُّفِ عاقِلٌ مُتأَنٍّ، ولكنَّ أعقلَ النَّاسِ أطْوَعُهم للهِ تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أنَّ الإنقاذَ أُطلِقَ على الإلحاحِ في الإنذارِ -مِن إطلاقِ اسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ- وأنَّ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مَن هو صائِرٌ إلى النَّارِ، فلا مُتمَسَّكَ للمُعتَزِلةِ في الاستِدلالِ بالآيةِ على نَفيِ الشَّفاعةِ المُحمَّديَّةِ لأهلِ الكبائِرِ، على أنَّنا لو سَلَّمْنا أنَّ الآيةَ مَسوقةٌ في غَرَضِ الشَّفاعةِ فإنَّما نَفَت الشَّفاعةَ لأهلِ الشِّركِ؛ لأنَّ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يَحتمِلُ العَهدَ -وهم المُتحَدَّثُ عنهم في هذه الآيةِ- ولا خِلافَ في أنَّ المُشركينَ لا شَفاعةَ فيهم؛ قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، على أنَّ المنفيَّ هو أن يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنقِذًا لِمَن أراد اللهُ عَدَمَ إنقاذِه، فأمَّا الشَّفاعةُ فهي سؤالُ اللهِ أن يُنقِذَه[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يستطيعُ أنْ يُنقِذَ مَن في النَّارِ، وإذا كان هذا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فغَيْرُه مِن بابِ أَولى[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَنزلةِ المتَّقينَ؛ لأنَّ الاستِدراكَ هنا كأنَّه انتِشالٌ لهم ممَّا سَبَق ذِكرُه مِن الوَعيدِ الشَّديدِ لهؤلاء الَّذين حَقَّت عليهم كَلِمةُ العَذابِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ دَقيقةٌ شَريفةٌ، وهي أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

تعالى في كثيرٍ مِن آياتِ الوَعدِ صَرَّح بأنَّ هذا وعْدُ الله، وأنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، ولم يَذكُرْ في آياتِ الوَعيدِ ألبتَّةَ مِثلَ هذا التَّأكيدِ والتَّقويةِ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الوَعدِ أرجَحُ مِن جانبِ الوَعيدِ، بخِلافِ ما يقولُه المُعتزِلةُ(١).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ إنَّما كان كذلك؛ لِكَمالِ صِدقِه، وكَمالِ قُدرتِه؛ لأنَّ إخلافَ الميعادِ إمَّا أن يكونَ لكَذِبِ الواعِدِ، وإمَّا أن يكونَ لِعَجزِه، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن هذا وهذا؛ فهو كامِلُ الصِّدقِ، كامِلُ القُدرةِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ لَمَّا انتَهى تَهديدُ المُشرِكينَ، ومَوعِظةُ الخَلائِقِ أجمَعينَ؛ ثُنِيَ عِنانُ الخِطابِ إلى جانبِ المُؤمِنينَ فيما يَختَصُّ بهم مِنَ البِشارةِ مُقابَلةً لِنِذارةِ المُشرِكينَ(٣).

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ فيه التَّعبيرُ عن المُؤمنينَ بالَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وَجهِ بناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾، وهذا مُقابِلُ قَولِه: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾(٤) [الزمر: ١٦].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ تَشبيهُ الشَّيطانِ بالطَّاغوتِ -على أحدِ الأقوالِ-، وفيه وُجوهٌ ثَلاثةٌ مِنَ المُبالَغةِ: تَسميَتُه بالمَصدَرِ، كأنَّه نَفْسُ الطُّغيانِ. وبِناؤُه على (فَعَلوتٌ)، وهي صِيغةُ مُبالَغةٍ، كالرَّحَموتِ، وهي الرَّحمةُ الواسِعةُ، والمَلَكوتِ وهو المُلْكُ الواسِعُ. والثَّالثُ: تَقديمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٤).

لامِه على عَينِه؛ لِيُفيدَ اختِصاصَه بهذه التَّسميةِ[(١)].

- قَولُه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ (لهم)؛ لإفادةِ القَصرِ، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تعيينٍ[(٢)].

- ولم يُبَيِّنِ اللهُ وقتَ البُشرى؛ فهو شاملٌ للبُشْرى في الدُّنيا وفي الآخرةِ[(٣)].

- وفُرِّعَ على قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ قَولُه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وهمُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ فعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم بأنْ يُقالَ: فبَشِّرْهم، إلى الإظهارِ باسمِ العِبادِ مُضافًا إلى ضَميرِ اللهِ تعالى، وبالصِّلةِ؛ لِزيادةِ مَدحِهم بصِفتَينِ أُخرَيَينِ، وهُما: صِفةُ العُبوديَّةِ للهِ، أيْ: عُبوديَّةِ التَّقرُّبِ، وصِفةُ استماعِ القَولِ واتِّباعِ أحسَنِه[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ همُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ بأعيانِهم، لكنْ وُضِعَ مَوضِعَ ضَميرِهمُ الظَّاهِرُ؛ تَشريفًا لهم بالإضافةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ١١٨، ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

قال السمين: (وأصلُ الطاغوت... «طغووت» أو «طغيوت» فقُلِبت الكلمةُ بأنْ أُخِّرتْ عينُها إلى موضعِ لامِها، ولامُها إلى موضع عينِها، فصارت طغيوتًا أو طيغوتًا، فتحرَّك حرفُ العلةِ، وانفتَح ما قبلَه، فقُلِبت الفاءُ؛ فوزنُه بعدَ القلبِ «فلعوت»). ((عمدة الحفاظ)) (٢/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥).

والقصر تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥).

ودَلالةً على أنَّ مَدارَ اتِّصافِهم بالوَصفَينِ الجَليلَينِ كَونُهم نُقَّادًا في الدِّينِ؛ يُمَيِّزونَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ويُؤْثِرونَ الأفضَلَ فالأفضَلَ، ولِيَترَتَّبَ على الظَّاهِرِ الوَصفُ، وهو ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾[1].

- وأيضًا في المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اتِّباعَ أحسَنِ القَولِ سَبَبٌ في حُصولِ هِدايةِ اللهِ إيَّاهم[2].

- وقولُه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ ثَناءٌ عليهم بنُفوذِ بَصائِرِهم وتَمييزِهمُ الأحسَنَ، فإذا سَمِعوا قَولًا تَبَصَّروه، واسمُ التَّفضيلِ (أحْسَن) ليس مُستَعمَلًا في تَفاوُتِ المَوصوفِ به في الفَضلِ على غَيرِه؛ فهو لِلدَّلالةِ على قُوَّةِ الوَصفِ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ مُستَأنَفةٌ لاستِرعاءِ الذِّهنِ لِتَلَقِّي هذا الخَبَرِ، وأُكِّدَ هذا الاستِرعاءُ بجَعلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ؛ لِيَتمَيَّزَ المُشارُ إليهم أكمَلَ تميُّزٍ، مع التَّنبيهِ على أنَّهم كانوا أحْرياءَ بهذه العِنايةِ الرَّبَّانيَّةِ لِأجْلِ ما اتَّصَفوا به مِنَ الصِّفاتِ المَذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[4].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بعُلوِّ رُتبَتِهم، وبُعدِ مَنزِلَتِهم في الفَضلِ[5].

- وقد أفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ قَصْرَ الهِدايةِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ، أيْ:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥، ٣٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

دُونَ الخاسِرينَ الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان في هؤلاء المُجْتَبَينَ العالُو الرُّتبةِ جدًّا وغيرُهم، أبرَزَ المفعولَ فقال مُحوِّلًا الأسلوبَ إلى الاسمِ الأعظَمِ؛ إشارةً إلى عَظيمِ هِدايتِهم؛ فقال: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما له مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ فبيَّن سُبحانه أنْ لا وُصولَ إليه إلَّا به، وهذا بخِلافِ آيةِ (الأنعام)؛ حيثُ ذكَرَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فحذَفَ المفعولَ؛ لِتَصيرَ هِدايتُهم مُكرَّرةً بوُجوبِ تَسليطِ العاملِ على المَوصولِ الَّذي أعادَ عليه الضَّميرَ في هذه الآيةِ[٢].

- وأشارَتْ جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إلى مَعنى تَهَيُّئِهم لِلاهتِداءِ بما فَطَرَهمُ اللهُ عليه مِن عُقولٍ كامِلةٍ، وأصْلُ الخِلقةِ مَيَّالةٌ لِفَهمِ الحَقائِقِ، غَيرُ مُكترِثةٍ بالمَألوفِ، ولا مُراعاةِ الباطِلِ، على تَفاوُتِ تلك العُقولِ في مَدى سُرعةِ البُلوغِ لِلاهتِداءِ. وأُشيرَ إلى رُسوخِ هذه الأحوالِ في عُقولِهم بذِكرِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمۡ﴾، مع كَلِمةِ ﴿أُوْلُواْ﴾ الدَّالَّة على أنَّ المَوصوفَ بها مُمسِكٌ بما أُضيفَتْ إليه كَلِمةُ ﴿أُوْلُواْ﴾، وبما دَلَّ عليه تَعريفُ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مِن مَعنى الكَمالِ[٣].

- وأشارَ إعادةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى تَمَيُّزِهم بهذه الخَصلةِ مِن بَينِ نُظَرائِهم وأهلِ عَصرِهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد أفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ في قَولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قَصْرَ العقْلِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ، أيْ: دونَ مَسْلوبي العُقولِ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لَمَّا أفادَ الحَصرُ في قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧]، والحَصرانِ اللَّذانِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]؛ أنَّ مَن سِواهم -وهمُ المُشرِكونَ- لا بُشْرى لهم، ولم يَهدِهمُ اللهُ، ولا ألبابَ لهم؛ لِعَدَمِ انتِفاعِهم بعُقولِهم، وكان حاصِلُ ذلك أنَّ المُشرِكينَ مَحرومونَ من حُسنِ العاقبةِ بالنَّعيمِ الخالِدِ؛ لِحِرمانِهم مِنَ الطَّاعةِ الَّتي هي سَبَبُه -فُرِّعَ على ذلك استِفهامٌ إنكاريٌّ مُفيدٌ التَّنبيهَ على انتِفاءِ الطَّماعيةِ في هِدايةِ الفَريقِ الَّذي حَقَّتْ عليه كَلِمةُ العَذابِ، وهمُ الَّذين قُصِدَ إقصاؤُهم عن البُشرى، والهِدايةِ، والانتِفاعِ بعُقولِهم، بالقصْرِ المَصوغةِ عليه صِيغُ القصْرِ الثَّلاثِ المتقدِّمةِ(٢).

- وقولُه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ ...﴾ بيانٌ لأحوالِ أضْدادِ المذكورينَ على طَريقةِ الإجمالِ، وتسجيلٌ عليهم بحِرمانِ الهِدايةِ، وهم عَبَدةُ الطَّاغوتِ، ومُتَّبِعو خُطواتِها، كما يُلَوِّحُ به التَّعبيرُ عنهم بـ(مَنْ حَقَّ عَلَيْه كَلِمَةُ الْعَذَابِ)(٣).

- وفي هذه الآيةِ جاء نَظمُ الكلامِ على طَريقةٍ مُبتَكَرةٍ في الخَبَرِ المُهتَمِّ به؛ بأنْ يُؤكَّدَ مَضمونُه الثَّابتُ لِلخَبَرِ عنه، بإثباتِ نَقيضِ -أو ضِدِّ- ذلك المَضمونِ لِضِدِّ المُخبَرِ عنه؛ لِيَتقرَّرَ مَضمونُ الخَبَرِ مَرَّتَينِ: مَرَّةً بأصْلِه، ومَرَّةً بنَقيضِه أو ضِدِّه، لِضِدِّ المُخبَرِ عنه، فبعْدَ أنْ أُشيرَ إلى المَوصوفِينَ مرَّتينِ، فُرِّعَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

بعْدَه إثباتُ ضِدِّ حُكمِهم لِمَن هم مُتَّصِفون بضِدِّ حالِهم. وبهذا يَظهَرُ حُسنُ مَوقعِ الفاءِ؛ لِتَفريعِ هذه الجُملةِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]؛ لِأنَّ التَّفريعَ يَقتَضي اتِّصالًا وارتِباطًا بيْن المُفرَّعِ والمُفرَّعِ عليه[١].

- قولُه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ معنى (حقَّ) هنا تحقَّق، وحقُّ كلمةِ العذابِ عليهم ضِدُّ هدْيِ الله الآخَرينَ، وكَوْنُهم في النَّارِ ضِدُّ كَونِ الآخَرينَ لهم البُشْرى، وترتيبُ المُتضادَّينِ جرَى على طريقةٍ شِبهِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[٢]، وهو مِثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧] بعدَ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥]؛ فإنَّ قولَه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ضدٌّ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقولَه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ضدُّ قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

- وقولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَقدِرُ على الإنقاذِ مِنَ النَّارِ وَحْدَه، لا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ غيرُه، فكما لا تَقدِرُ أنتَ أنْ تُنقِذَ الدَّاخِلَ في النَّارِ مِنَ النَّارِ، لا تَقدِرُ أنْ تُخَلِّصَه ممَّا هو فيه مِن استِحقاقِ العَذابِ بتَحصيلِ الإيمانِ فيه؛ فتَقديمُ الفاعلِ المعنويِّ على الفِعلِ، وإيلاؤُه همزةَ الإنكارِ؛ يدُلُّ على أنَّ الكلامَ في الفاعلِ لا في الفعلِ، أي: لَسْتَ أنت الفاعلَ لهذا الفعلِ، بل فاعِلُه غيرُك، وهو اللهُ وحْدَه(٢).

- و(مَن) مِن قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قيل: المرادُ بها أبو لهبٍ وولَدُه، ومَن تخلَّفَ عن الإيمانِ مِن عَشيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيكونُ (مَن) مُبتدأً حُذِفَ خبَرُه. والتَّقديرُ: تُنقِذُه مِن النَّارِ، كما دلَّ عليه ما بَعْدَه، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ تذييلًا، أي: أنت لا تُنقِذُ الَّذين في النَّارِ. والهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والهمزةُ الثَّانيةُ كذلك، وهي تأكيدٌ للَّتي قبْلَها؛ للاهتِمامِ بشَأنِ هذا الاستِفهامِ الإنكاريِّ.

ويجوزُ أنْ تكونَ (مَن) في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ شرطيَّةً، بناءً على أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ يَحسُنُ أنْ تكونَ لِمَعنًى غيرِ معنَى التَّفريعِ المستفادِ مِن الَّتي قبْلَها، وإلَّا كانت مُؤكِّدةً للأُولى، وذلك يَنقُصُ معنًى مِن الآيةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٥).

ويجوزُ أنْ تكونَ (مَن) الأُولى موصولةً مُبتدأً، وخبرُه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾، وتكونَ الفاءُ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ مؤكِّدةً للفاءِ الأُولى في قولِه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ ...﴾ إلخ؛ فتكونَ الهَمْزةُ والفاءُ معًا مُؤكِّدتَينِ للهمْزةِ الأُولى والفاءِ الَّتي معها؛ لاتِّصالِهما، ولأنَّ جُملةَ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ صادقةٌ على ما صدَقَت عليه جُملةُ ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾، ويكونَ الاستفهامُ الإنكاريُّ جاريًا على غالِبِ استعمالِه؛ مِن تَوجُّهه إلى كلامٍ لا شرْطَ فيه. وأصلُ الكلام -على اعتبارِ (مَن) شرطيَّةً-: أمَنْ تَحْقُقُ عليه كلمةُ العذابِ في المستقبَلِ، فأنت لا تُنقِذُه منه؛ فتكونُ همزةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وتكونُ همزةُ ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ افتُتِحَ بها الكلامُ المُتضمِّنُ الإنكارَ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ الكلامَ يَتضمَّنُ إنكارًا. وأصلُ الكلامِ على اعتبارِ (مَن) الأُولى مَوصولةً: الَّذين تَحِقُّ عليهم كلمةُ العذابِ أنت لا تُنقِذُهم مِن النَّارِ، فتكونُ الهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وتكونُ همزةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ تأْكيدًا للهمزةِ الأُولى[(١)].

- وتَجريدُ فِعلِ ﴿حَقَّ﴾ مِن تاءِ التَّأنيثِ، مع أنَّ فاعِلَه مُؤنَّثُ اللَّفظِ -وهو ﴿كَلِمَةُ﴾-؛ لأنَّ الفاعِلَ اكتسَبَ التَّذكيرَ ممَّا أُضِيفَ هو إليه، نظرًا لإمكانِ الاستِغناءِ عن المُضافِ بالمُضافِ إليه، فكأنَّه قِيل: أفمَن حقَّ عليه العذابُ. وفائِدةُ إقْحام ﴿كَلِمَةُ﴾؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ ذلك أمْرُ اللهِ ووَعيدُه[(٢)].

- و﴿مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ هم مَن حَقَّ عليهم كَلِمةُ العَذابِ؛ لِأنَّ كَلِمةَ العَذابِ هي أنْ يَكونوا مِن أهلِ النَّارِ، فوَقَع إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، والأصلُ:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧١).

(أفأنتَ تُنقِذُه مِنَ النارِ)، وفائِدةُ هذا الإظهارِ: تَهويلُ حالَتِهم؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن حَرفِ الظَّرفيَّةِ المُصوِّرِ لِحالةِ إحاطةِ النَّارِ بهم، مع ما فيه مِن تَشهيرِ بحالِهم، وإظهارِ لِخِسَّةِ مَنازِلِهم، أيْ: أفأنتَ تُريدُ إنقاذَهم مِنَ الوُقوعِ في النَّارِ وهمُ الآنَ في النَّارِ؛ لِأنَّه مُحقَّقٌ مَصيرُهم إلى النارِ، فشَبَّهَ تَحقُّقَ الوُقوعِ في المُستَقبَلِ بتَحقُّقِه في الحالِ[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفعليِّ في قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مُفيدٌ لِتَقَوِّي الحُكمِ؛ وهو إنكارُ أنْ يَكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتكريرِ دَعوَتِه يُخَلِّصُهم مِن تَحقُّقِ الوَعيدِ، أو يُحصِّلُ لهمُ الهِدايةَ إذا لم يُقدِّرْها اللهُ لهم[٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَهوينًا عليه بَعضَ حِرصِه على تَكريرِ دَعوَتِهم إلى الإسلامِ، وحُزنَه على إعراضِهم وضَلالِهم، وإلَّا فلم يَكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالَّذي يَظُنُّ أنَّه يُنقِذُهم مِن وَعيدِ اللهِ؛ ولذلك اجتُلِبَ فِعلُ الإنقاذِ هنا؛ تَشبيهًا لِحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِرصِه على هَدْيِهم وبُلوغِ جهدِه في إقناعِهم بتَصديقِ دَعوَتِه، وحالِهم في انغِماسِهم في مُوجِباتِ وَعيدِهم؛ بحالِ مَن يُحاوِلُ إنقاذَ ساقِطٍ في النَّارِ قد أحاطَتِ النَّارُ بجَوانِبِه استِحقاقًا قَضى به مَن لا يُرَدُّ مُرادُه، فحالُهم تُشبِهُ حالَ وُقوعِهم في النَّارِ مِنَ الآنَ؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٣].

- وقد اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على نُكَتٍ بَديعةٍ مِنَ الإعجازِ؛ إذْ أفادَت أنَّ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَريقَ مِن أهلِ الشِّركِ الَّذين يَكمُنُ الكُفرُ في قُلوبِهم، حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ اللهِ بتَعذيبِهم، فهم لا يُؤمِنونَ، وأنَّ حالَهمُ الآنَ كحالِ مَن وَقَع في النَّارِ، فهو هالِكٌ لا مَحالةَ، وأنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِرصِه على هَديِهم كحالِ مَن رَأى ساقِطًا في النَّارِ فاندَفَع بدافِعِ الشَّفَقةِ إلى مُحاوَلةِ إنقاذِه، ولكنَّه لا يَستَطيعُ ذلك؛ فلِذلك أُنكِرَتْ شِدَّةُ حِرصِه على تَخليصِهم، فكان إيداعُ هذا المَعنى في جُملَتَينِ نِهايةً في الإيجازِ، مع قَرنِه بما دَلَّ عليه تَأكيدُ الهَمزةِ والفاءِ في الجُملةِ الثَّانيةِ مِنَ الإطنابِ في مَقامِ الصَّراحةِ. وحاصِلُ نَظمِ هذا التَّركيبِ: أفمَنْ حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ فهو في النَّارِ؛ أفأنتَ تُنقِذُه وتُنقِذُ مَن في النَّارِ[1]؟!

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

- في قولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ...﴾ أُعيدَتْ بِشارةُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ تَفصيلًا لِلإجمالِ الواقِعِ مِن قَبْلُ. وافتُتِحَ الإخبارُ عنهم بحَرفِ الاستِدراكِ؛ لِزيادةِ تَقريرِ الفارِقِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ والمُضادَّةِ بيْنَهما، فحَرفُ الاستِدراكِ هنا لِمُجرَّدِ الإشعارِ بتَضادِّ الحالَيْنِ؛ لِيَعلَمَ السَّامِعُ أنَّه سيَتلَقَّى حُكمًا مُخالِفًا لِما سبَقَ، فحَصَل في قَضيةِ الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطَّاغوتِ تَقريرٌ على تَقريرٍ، ابتُدِئَ بالإشارَتَينِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، ثمَّ بما أُعقِبَ مِن تَفريعِ حالِ أضْدادِهم على ذِكرِ أحوالِهم، ثمَّ بالاستِدراكِ الفارِقِ بيْنَ حالِهم وحالِ أضْدادِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٣).

- والمُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ همُ الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطَّاغوتِ، وأنابوا إلى اللهِ، واتَّبَعوا أحسَنَ القَولِ، واهتَدَوْا بهَدْيِ اللهِ، وكانوا أُولي الألبابِ؛ فعَدَلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم هنا إلى المَوصولِ؛ لِقَصدِ مَدحِهم بمَدلولِ الصِّلةِ، ولِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سَبَبٌ لِلحُكمِ المَحكومِ به على المَوصولِ، وهو نَوالُهمُ الغُرَفَ[1].

- وعُدِلَ أيضًا عن اسمِ الجَلالةِ إلى وَصْفِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِ المُتَّقينَ في قَولِه: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لِمَا في تلك الإضافةِ مِن تَشريفِهم بِرِضا رَبِّهم عنهم[2].

- وقولُه: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مُقابِلُ ما جُعِلَ لِأهلِ النَّارِ في قَولِه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ [الزمر: ١٦]، وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ خُولِفَ بيْنَ الحالَتَينِ: فجُعِل لِلمُتَّقينَ غُرَفٌ مَوصوفةٌ بأنَّها فَوقَها غُرَفٌ، وجُعِلتْ لِلمُشرِكينَ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ، وعُطِفَ عليها أنَّ مِن تَحتِهم ظُلَلًا؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ المُتَّقينَ مُتَنعِّمونَ بالتَّنقُّلِ في تلك الغُرَفِ، وإلى أنَّ المُشرِكينَ مَحبوسونَ في مَكانِهم، وأنَّ الظُّلَلَ مِنَ النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم؛ لِتَتَظاهَرَ الظُّلَلُ بتَوجيهِ لَفحِ النَّارِ إليهم مِن جَميعِ جِهاتِهم[3].

- وذِكرُ الغُرَفِ المَبنيَّةِ في قولِه: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّها غُرَفٌ حَقيقةً، ليستْ أشياءَ مُشابِهةً لِلغُرَفِ؛ فَرْقًا بَيْنَها وبيْنَ الظُّلَلِ الَّتي جُعِلتْ لِلَّذين خَسِروا يومَ القِيامةِ؛ فإنَّ ظُلَلَهم كانتْ مِن نارٍ. وقيل: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مِثلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المنازلِ اللَّاصقةِ للأرضِ؛ فذِكرُ الوصفِ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ الأنهارَ لا تَجْري إلَّا تحتَ المنازلِ السُّفليَّةِ، أي: لم يَفُتِ الغُرَفَ شَيءٌ مِن مَحاسنِ المنازلِ السُّفليَّةِ. وقِيل: أُرِيدَ أنَّها مُهيَّأةٌ لهم مِنَ الآنَ، فهي موجودةٌ؛ لأنَّ اسمَ المفعولِ كاسمِ الفاعلِ في اقتِضائه الاتِّصافَ بالوصفِ في زمَنِ الحالِ؛ فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ مِنَ الآنَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الوصفُ احترازًا عن نَوعٍ مِن الغُرَفِ تكونُ نَحتًا في الحَجَرِ في الجبالِ، مِثلُ غُرَفِ ثَمودَ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ وَصفًا للغُرَفِ باعتبارِ ما دلَّ عليه لَفْظُها مِن معنى المبنيِّ المُعْتَلي؛ فيكونَ الوصفُ دالًّا على تَمكُّنِ المعنى الموصوفِ، أي: مَبنيَّةٌ بِناءً بالغًا الغايةَ في نَوعِه، كقولِهم: لَيلٌ أَلْيَلُ (أي: شديدُ الظُّلمةِ)، وظِلٌّ ظَليلٌ(١).

- قولُه: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ إضافةُ ﴿وَعْدَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ مُؤْذِنةٌ بأنَّه وعْدٌ مُوفًى به؛ فوَقَعتْ جُملةُ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ بيانًا لِمَعنى ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٧٥).

الآيات (٢١-٢٢)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: أي: فأجْراه وأدخَلَه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[1].

﴿يَنَٰبِيعَ﴾: أي: عُيونًا تَنبُعُ، ومفردُها: يَنبوعٌ، مِن قَولِهم: نَبَع الماءُ: إذا ظهَرَ وفارَ، وأصلُ (نبع): يدُلُّ على خُروجِ الماءِ مِن العَينِ[2].

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيبَسُ ويَجِفُّ، يُقالُ: هاج النَّبتُ هِياجًا، أي: يَبِسَ، وأرضٌ هائِجةٌ: يَبِسَ بَقلُها واصفَرَّ، وأصل (هيج): يدُلُّ على ثَورانِ شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٨) و(٢٠/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣).

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفَتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿مَّثَانِيَ﴾: أي: تُثَنَّى وتُكَرَّرُ فيه الأنباءُ والأخبارُ، والقَضاءُ والأحكامُ والحُجَجُ، وأصلُ (ثني): يدُلُّ على تَكريرِ الشَّيءِ[٢].

﴿تَقْشَعِرُّ﴾: أي: تَنقَبِضُ وتَضطَرِبُ مِنَ الخَوفِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

﴿يَنَٰبِيعَ﴾: مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ، أي: سَلَكه في ينابيعَ، أو مَفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ سَلَكه معنى: جعَلَه، أو مَنصوبٌ على الحالِ مِن الضَّميرِ في (سَلَكَه)، أي: فأَجْراه عُيونًا في الأرضِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١٠٧٩)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٣/ ١٣٦).

﴿كِتَٰبًا﴾: بَدَلٌ مَنصوبٌ مِنْ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: نَعتٌ لـ ﴿كِتَٰبًا﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾: نَعتٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن ﴿كِتَٰبًا﴾ لِوَصفِه، أو تَمييزٌ مَنقولٌ مِن الفاعِليَّةِ، أي: مُتشابِهًا مَثانيه. ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾: نَعْتٌ ثالِثٌ لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حالٌ مِنه؛ لاختِصاصِه بالصِّفةِ، أو مُستأنَفٌ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سرعةَ زوالِ الحياةِ الدُّنيا: ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزَلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأدخَلَه في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، ثمَّ يُنبِتُ به زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ، ثمَّ يُصابُ هذا الزَّرعُ بالجَفافِ، فتَراه مُصفَرًّا مِن بَعدِ اخضِرارِه ونَضارتِه، ثمَّ يَجعَلُه اللهُ فُتاتًا مُتكَسِّرًا؟! إنَّ في ذلك لَذِكرَى لأهلِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يَنفي اللهُ تعالى المُساواةَ بيْنَ المؤمنِ والكافرِ، وبيْنَ المُهتدي والضَّالِّ، فيقولُ: أفَمَنْ شَرَح اللهُ صَدْرَه للإسلامِ فهو على بَصيرةٍ وهِدايةٍ مِن رَبِّه، كمَنْ قَسا قَلبُه وغَلُظ؟! فوَيْلٌ للقاسيةِ قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ الَّذي مِن شَأنِه أن تَلينَ له القُلوبُ، أولئك في ضَلالٍ ظاهِرٍ عن الحَقِّ.

ثمَّ يَمدَحُ تعالى كتابَه، فيقولُ: اللهُ نزَّل القُرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في فَصاحتِه وبَلاغتِه، وفي نَظمِه وإعجازِه، وفي صِحَّةِ مَعانيه وأحكامِه، تُثَنَّى وتُكرَّرُ فيه القِصَصُ والمواعِظُ، والأمثالُ والأحكامُ، والوَعدُ والوَعيدُ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المؤمنينَ الصَّادِقينَ عندَ سماعِ القرآنِ، وأثرَه فيهم، فيقولُ: تَضْطَرِبُ وتَتقبَّضُ منه جُلودُ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم، ثمَّ تَلينُ جُلودُهم وتَسكُنُ

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٧١).

قُلوبُهم إلى كِتابِ اللهِ، ذلك هُدى اللهِ يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ومَن يُضْلِلْه اللهُ فلا هادِيَ له.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف الآخِرةَ بِصِفاتٍ تُوجِبُ الرَّغبةَ العَظيمةَ لأُولي الألبابِ فيها؛ وَصَف الدُّنيا بصِفةٍ تُوجِبُ اشتِدادَ النفرةِ عنها[1].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه بقُدرتِه على البَعثِ؛ دَلَّ عليها بما يَتكَرَّرُ مُشاهَدتُه مِن مِثلِها[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾

أي: ألَمْ تَرَ[3] أنَّ اللهَ أنزَلَ المطَرَ مِنَ السَّماءِ، فأدخَلَه في الأرضِ وأجراه فيها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٣).

(٣) ذكر ابنُ عاشور أنَّ الخطابُ لكُلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ، فليسَ المرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

وقال ابنُ عطيَّة: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلُّ بَشَرٍ داخِلٌ معه في معناه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٦-١٧٠). =

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾

أي: ثمَّ يُنبِتُ اللهُ بهذا الماءِ زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾

أي: ثُمَّ يَيبسُ الزَّرعُ ويجِفُّ فتَراه مُصفَرَّ اللَّونِ بعدَ تلك البَهجةِ والنَّضْرةِ(٢).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾

أي: ثمَّ يجعَلُ اللهُ الزَّرعَ الذَّابِلَ فُتاتًا مُتكَسِّرًا(٣).

= قال الشوكاني: (اليَنبُوعُ: عَينُ الماءِ، والأمكنةُ الَّتي يَنبُعُ منها الماءُ، والمعنى: أدخَلَ الماءَ النَّازِلَ مِنَ السَّماءِ في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، أو جعَلَه في يَنابيعَ، أي: في أمكِنةٍ يَنبُعُ منها الماءُ، فهو على الوَجهِ الثَّاني مَنصوبٌ بنَزعِ الخافِضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ هذا المِنوالُ البَديعُ الدَّالُّ بلا شَكٍّ لكُلِّ مَن رآه على أنَّ فاعِلَه قادرٌ على الإعادةِ لِما يُريدُ بعدَ الإبادةِ، كما قدَرَ على الإيجادِ مِن العَدَمِ، والإفادةِ لكُلِّ ما لم يكُنْ؛ قال على سَبيلِ التَّأكيدِ للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ[(١)]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

أي: إنَّ في ذلك[(٢)] لَذِكْرى يَتذكَّرُ بها أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤).

(٢) الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم ذِكرُه مِن إنزالِ المطرِ إلى آخرِ الأطوارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

قيل: إنَّ ما ذُكِرَ تَذكيرٌ وتَنبيهٌ على أنَّه لا بُدَّ مِن صانعٍ حَكيمٍ، وأنَّ ذلك كائِنٌ عن تقديرٍ وتَدبيرٍ، لا عن تَعطيلٍ وإهمالٍ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٢).

وقيل: إنَّه مَثَلٌ للدُّنيا؛ فالدُّنيا هكذا، تكونُ خَضِرةً نَضِرةً حَسناءَ، ثمَّ تعودُ عَجوزًا شَوهاءَ، والشَّابُّ يعودُ شَيخًا هَرِمًا كبيرًا ضَعيفًا، وبعدَ ذلك كُلِّه الموتُ. قال ابنُ كثير: (وكثيرًا ما يَضرِبُ اللهُ تعالى مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا بما يُنزِلُ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ، ويُنبِتُ به زُروعًا وثمارًا، ثمَّ يكونُ بعدَ ذلك حُطامًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥).

وقيل: إنَّها ذِكرى للبَعثِ مِن القُبورِ وإحياءِ الموتى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧). =

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى الدَّلائلَ على وُجوبِ الإقبالِ على طاعةِ اللهِ تعالى، ووُجوبِ الإعراضِ عن الدُّنيا ولَذَّاتِها؛ ذكَرَ أنَّ الانتِفاعَ بهذه البَياناتِ لا يَكمُلُ إلَّا إذا شَرَح الصُّدورَ، ونَوَّر القُلوبَ[1].

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

أي: أفَمَنْ وسَّع اللهُ قَلبَه لِمَعرفتِه، وفَسَحَه للإقرارِ بوَحدانيَّتِه، والخُضوعِ لطاعتِه، والعَمَلِ بدِينِه، فهو على بَصيرةٍ ويَقينٍ من رَبِّه، وشُعورٍ بالرَّاحةِ والطُّمأنينةِ والسُّرورِ: كمَنْ ليس كذلك ممَّن هو ضَيِّقُ الصَّدرِ عن استِماعِ الحَقِّ واتِّباعِه، قاسي القَلبِ، مُعرِضٌ عن ذِكرِ الرَّبِّ تعالى[2]؟!

= وقيل: يَذْكُرونَ به عنايةَ رَبِّهم ورَحمتَه بعِبادِه؛ حيث يَسَّرَ لهم هذا الماءَ، وخَزَنَه بخزائِنِ الأرضِ تبَعًا لِمَصالحِهم، ويَذكُرونَ به كَمالَ قُدرتِه، وأنَّه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها، ويَذكُرونَ به أنَّ الفاعِلَ لذلك هو المُستَحِقُّ للعِبادة. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

قال الماوردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: وسَّع صَدرَه للإسلامِ حتَّى يثبت فيه، قاله ابنُ عبَّاسٍ والسُّدِّيُّ. الثَّاني: وسَّع صَدرَه بالإسلامِ بالفرحِ به والطمأنينةِ إليه. فعلى هذا لا يجوزُ أن يكونَ الشرحُ قبلَ الإسلامِ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ يجوزُ أن يكونَ الشرحُ قبلَ الإسلامِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾

أي: فوَيلٌ للَّذين تَقسو قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ؛ فلا تَلينُ لكِتابِه، ولا تَتذكَّرُ آياتِه، ولا تَطمَئِنُّ عندَ ذِكرِه، ولا تَخشَعُ ولا تَعي، بل هي مُعرِضةٌ عن رَبِّها[1]!

= (١٥/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

قال الزَّجَّاجُ: (المعنَى: أفمَنْ شرَح اللهُ صدرَه فاهتدَى كمَنْ طبع على قلبه فلم يَهْتَدِ لِقَسْوته؟ والجوابُ متروكٌ؛ لأنَّ الكلامَ دَالٌّ عليه. ويؤكِّدُ ذلك قولُه جلَّ وعزَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قال الزَّجَّاجُ: (يُقال: قَسا قَلبُه عن ذِكرِ اللهِ، ومن ذِكْرِ اللهِ؛ فمَن قال: من ذِكْرِ اللهِ، فالمعنى: كُلَّما تُلِيَ عليه ذِكرُ اللهِ قَسا قَلْبُه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. ومَن قال: عن ذِكْرِ اللهِ، فالمعنى: أنَّه غَلُظ قَلبُه وجَفا عن قَبولِ ذِكْرِ اللهِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٥١).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: ابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٦).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: الَّذين لا يَذْكُرونَ اللهَ، وكلُّ مَن ترَك ذِكرَ الله فقد قسَا قلبُه). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٥).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أي: أولئك القاسِيةُ قُلوبُهم مِن ذِكرِ اللهِ: في ضَلالٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ[(١)].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه عن هؤلاءِ المَمدوحينَ أنَّهم يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحْسَنَه؛ كأنَّه قيل: هل مِن طَريقٍ إلى مَعرِفةِ أحسَنِه حتَّى نَتَّصِفَ بصِفاتِ أُولي الألبابِ، وحتَّى نَعرِفَ أنَّ مَن آثَرَه عَلِمْنا أنَّه مِن أُولي الألبابِ؟ قيل: نَعَمْ، أحْسَنُه ما نَصَّ اللهُ تعالى عليه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا﴾[(٢)].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قصَصْتَ علينا! فأنزل اللهُ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] إلى قَولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو حدَّثْتَنا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤْمَرونَ بالقُرآنِ))[١].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾

أي: اللهُ نزَّل القرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحَديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في صِدقِ الأخبارِ، وعَدلِ الأحكامِ، وبَلاغةِ الألفاظِ، وشَرَفِ المعاني؛ فلا تَفاوُتَ فيه في لَفظٍ ولا مَعنًى، ويُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، فلا اختِلافَ فيه ولا تَضادَّ[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال جَلَّ ثناؤُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

---

(١) أخرجه البزار (١١٥٣)، وابن حبان (٦٢٠٩)، والحاكم (٣٣١٩).

حَسَّنه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٢٢)، وابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢)، وحَسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وقوَّاه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٦٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (٧/ ٩٣).

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا خَطَب يقولُ: أمَّا بَعْدُ، فإنَّ خَيْرَ الحَديثِ كِتابُ اللهِ، وخَيرَ الهُدْى هُدَى مُحمَّدٍ، وشَرَّ الأُمورِ مُحْدَثاتُها، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ))[١].

﴿مَّثَانِيَ﴾

أي: يُثَنَّى ما فيه؛ كالوَعدِ والوَعيدِ، والقصصِ، والأحكامِ[٢].

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُكرَّرُ ما فيه؛ كالأخبارِ والقَصَصِ، والأحكامِ والحُجَجِ، والمواعِظِ، والوَعدِ والوَعيدِ. وممَّن قال بهذا المعنَى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣).

قال ابن تيميَّةَ: (﴿مَّثَانِيَ﴾ يُثَنِّي اللهُ فيه الأقسامَ ويَستوفيها. والحقائقُ: إمَّا مُتماثلةٌ، وهي «المُتشابِهُ»، وإمَّا مُماثلةٌ، وهي: الأصنافُ والأقسامُ والأنواعُ، وهي «المَثاني». و«التَّثنيةُ» يُرادُ بها: جِنسُ التَّعديدِ من غيرِ اقتصارٍ على اثنَينِ فقط). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٠٧).

وقيل: معنى ﴿مَّثَانِيَ﴾: اقترانُ المعنى بما يُقابِلُه؛ فإذا ذُكِرَت النَّارُ ذُكِرَت بعدَها الجنَّةُ، وإذا ذُكِرَ المؤمنون ذُكِرَ بَعدَهم الكافِرون... وهكذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨٨، ١٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٦).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القولُ مِن السَّلَفِ: سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤).

أي: تَضطَرِبُ وتَتقَبَّضُ جُلودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم إذا تَلَوُا القُرآنَ أو سَمِعوه[١].

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

أي: ثمَّ تَلينُ جُلودُهم، وتَسكُنُ وتَطمَئِنُّ قُلوبُهم إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

أي: ذلك هُدى اللهِ، يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قيل: المرادُ بـ ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾: إلى العمَلِ بما في كتابِ اللهِ، والتَّصديقِ به. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٢٧).

وقيل: المرادُ: أنَّها تَلينُ عندَ سَماعِ آياتِ الرَّحمةِ والرَّجاءِ والتَّرغيب. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والبَغَويُّ، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٩، ٣٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥).

قال الواحدي: (﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ إذا ذُكِرَتْ آياتُ الرَّحمةِ، وهذا معنى قولِ جميعِ المفسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١، ٣٩٢). =

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه[1].

= قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمِلُ أن يُشيرَ إلى القرآنِ، أي: ذلك الَّذي هذه صِفَتُه: هُدَى الله. ويحتمِلُ أن يُشيرَ إلى الخَشيةِ واقْشِعْرارِ الجُلودِ، أي: ذلك أمارةُ هُدى اللهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتملُ أن يكونَ المشارُ إليه باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾: ما حصَلَ لهم مِن الخَشيةِ، وعلى هذا فيَكونُ المرادُ بالهدايةِ هِدايةَ التَّوفيقِ؛ لأنَّ الخَشيةَ عَمَلٌ. ويحتملُ أن يكونَ المشارُ إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾: الكِتابَ الَّذي هو أحسَنُ الحديث؛ فتكون الهدايةُ هنا هدايةَ دَلالةٍ؛ لأنَّ الكِتابَ يَهدي، بمعنى: يَدُلُّ، والتَّوفيقُ بيَدِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ هنا تعودُ إلى القرآنِ: البَغَويُّ، والقرطبي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٧).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ تعودُ إلى ما ذكَره الله تعالى مِن تأثيرِ القرآنِ الَّذي يُوجِبُ الخشيةَ واقْشِعْرارَ الجُلودِ ولِينَها: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هذه صِفةُ مَن هداه اللهُ، ومَن كان على خِلافِ ذلك فهو ممَّن أضَلَّه اللهُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥).

وممَّن جمَع بيْن المَعنَيَين: البِقاعي، فقال: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الغريبُ مِن الحديثِ المنزَّلِ، والقبضِ والبَسطِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَستعمِلَ عقْلَه في مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِيَتذكَّرَ به فيما في هذه المخلوقاتِ مِن عَظَمةِ الخالِقِ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه متى عَلِم الإنسانُ أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا يَلْتَفِتُ في طلبِ الهدايةِ إلَّا إلى اللهِ تعالى، وإذا عَلِم أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى فلا يُعْجَبُ بنَفْسِه إذا اهتدَى! بل يقولُ لِنَفْسِه: لولا أنَّ اللهَ تعالى هَداه لَكان ضالًّا، فلا يقولُ: إنَّما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي! أو يقولُ: هذا لي! بل يَعتَرِفُ بفَضْلِ اللهِ تعالى عليه؛ وأنَّه لولا هدايةُ اللهِ تعالى ما انتَفَعَ إلى يوم الدِّينِ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا رأيْتَ مِن قلبِك عدَمَ لِينٍ لِذِكْرِ اللهِ فعالِجْ نفْسَك لِتَسْلَمَ من هذا الوعيدِ، فأحيانًا يَقْسُو القلبُ ولا يَلِينُ، ويقرأُ الآياتِ العظيمةَ الرَّادِعةَ ولا يَتأثَّرُ! وأحيانًا يَقرأُ نَفْسَ الآياتِ ثمَّ يَتأثَّرُ، فإذا عَرَفْتَ مِن نَفْسِك قَسوةَ القلبِ فالْجَأْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واسألْه أنْ يُلينَ قلبَك لِذِكْرِه، وتأَهَّبْ للوعيدِ إذا لم يَتداركْك اللهُ تعالى بلُطْفِه ومغفرتِه(٣).

٤- قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٤).

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ قَولُه تعالى: ﴿مَّثَانِىَ﴾ هذا مِن جَلالةِ القُرآنِ وحُسنِه؛ فإنَّه تعالى لَمَّا عَلِم احتياجَ الخَلقِ إلى مَعانيه المُزَكِّيةِ للقُلوبِ، المكَمِّلةِ للأخلاقِ، وأنَّ تلك المعانيَ للقُلوبِ بمنزلةِ الماءِ لِسَقيِ الأشجارِ، فكما أنَّ الأشجارَ كُلَّما بَعُدَ عَهْدُها بسَقيِ الماءِ نَقَصَت، بل رُبَّما تَلِفَت، وكُلَّما تكَرَّر سَقْيُها حَسُنَت وأثمَرَت أنواعَ الثِّمارِ النَّافِعةِ؛ فكذلك القَلبُ يَحتاجُ دائمًا إلى تكَرُّرِ معاني كلامِ اللهِ تعالى عليه، وأنَّه لو تكرَّر عليه المعنى مَرَّةً واحِدةً في جميعِ القُرآنِ لم يقَعْ منه مَوقِعًا، ولم تحصُلِ النَّتيجةُ منه، وهكذا ينبغي للقارئِ للقُرآنِ المُتدَبِّرِ لِمَعانيه ألَّا يَدَعَ التَّدَبُّرَ في جميعِ المواضِعِ منه؛ فإنَّه يَحصُلُ له بسَبَبِ ذلك خيرٌ كثيرٌ، ونَفعٌ غزيرٌ(١).

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أنَّ القُرآنَ قد بَلَغَ الغايةَ في البَلاغةِ؛ لِكَونِه يأتي مَثانيَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه يَنبغي لِمَن تَكَلَّمَ في مَوعِظةِ النَّاسِ ألَّا يأتيَ بالتَّرغيبِ المُطْلَقِ ولا بالتَّرهيبِ المُطلَقِ؛ وذلك أنَّه إذا أتى بالتَّرغيبِ المُطلَقِ حَمَلَهم على الرَّجاءِ فتَهاوَنوا، وإذا أتى بالتَّرهيبِ المُطلَقِ حَمَلَهم على اليَأسِ فقَنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ تعالى؛ فالَّذي ينبغي للإنسانِ الَّذي يَتكلَّمُ مع النَّاسِ في المواعظِ أنْ يَتكلَّمَ أحيانًا بهذا، وأحيانًا بهذا؛ حتَّى لا يَحمِلَ النَّاسَ على القُنوطِ أو على الرَّجاءِ الَّذي يُوجِبُ الأمْنَ مِن مَكْرِ اللهِ تعالى(٢).

٦- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَلْجَأَ إلى اللهِ تعالى وحْدَه في طلبِ الهدايةِ؛ لقولِه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٧).

تعالى: ﴿يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكان النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ -وهو الهادي المَهْديُّ- يَستَفْتِحُ ويقولُ: ((اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرائيلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ؛ أنت تَحْكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفون، اهْدِني لِمَا اختُلِفَ فيه مِن الحقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهْدي مَن تَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ))[١]، فهذا وهو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف بنا نحن؟! فعليك أنْ تَلْجَأَ إلى ربِّك في طلبِ الهِدايةِ؛ وألَّا تَعتمِدَ على نفْسِك، بل اعتمِدْ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ تعالى مَرْجِعُك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ ماءٍ نَبَع مِن الأرضِ فهو طَهورٌ، ووجْهُ ذلك: أنَّ الماءَ النَّابعَ مِن الأرضِ هو الماءُ النَّازِلُ مِن السَّماءِ، وكُلُّ ماءٍ نَزَل من السَّماءِ فهو طَهورٌ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[٣] [الفرقان: ٤٨].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَحمتِه بالعِبادِ؛ حيثُ سَلَكَ هذا الماءَ يَنابيعَ في الأرضِ، ولم يَبْقَ راكِدًا على ظَهرِها؛ لِمَا في ذلك مِن الحِكمةِ والرَّحمةِ، فنراه مخزونًا في الأرضِ متى احتاجَه النَّاسُ استَخرَجوه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ السَّببَ لا يَستَقِلُّ بالتَّأثيرِ في المُسَبَّبِ؛ فقد أضاف الإخراجَ إلى اللهِ تعالى، وهذا هو الَّذي عليه

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (٢٠٦/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٣).

سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها؛ فالأسبابُ لها تأثيرٌ في المُسَبَّباتِ، ولكِنَّ تأثيرَها بفِعلِ اللهِ تعالى(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أنَّ كَمالَ الدُّنيا مُؤْذِنٌ بنَقصِها؛ لأنَّ اللهَ تعالى ضَرَبَ ذلك مَثَلًا للدُّنيا(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أنَّ مَن شرَحَ اللهُ تعالى صَدْرَه للإسلامِ فقَبِل الحقَّ، فإنَّه على نورٍ مِن اللهِ تعالى، ويَتفرَّعُ عليها زيادةُ عِلمِه؛ لأنَّ العِلمَ نورٌ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ويَتفرَّعُ عليها قُوَّةُ الفِراسةِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُعطي الإنسانَ فِراسةً بحيث يَعلَمُ أحوالَ النَّاسِ مِن لَمَحاتِ وُجوهِهم، بل أكثَرَ مِن ذلك؛ يَستَدِلُّ بالحاضِرِ على الغائِبِ، ويُعطيه اللهُ تعالى استِنتاجاتٍ لا تَكونُ لِغَيرِه(٣).

٦- أنَّ أعْظَمَ أسبابِ شَرحِ الصَّدرِ التَّوحيدُ، وعلى حَسَبِ كَمالِه وقُوَّتِه وزيادتِه يكونُ انشِراحُ صَدرِ صاحِبِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى، ووجْهُه: أنَّه إذا كان القرآنُ كلامَه، ووُصِفَ القرآنُ بأنَّه مُنَزَّلٌ؛ دلَّ على أنَّ المتكَلِّمَ به عالٍ، وعُلُوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنقَسِمُ إلى قِسْمَينِ: عُلُوِّ ذاتٍ، وعُلُوِّ صِفةٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((زاد المَعاد)) لابن القيم (٢/ ٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ بصيغةِ الإفرادِ: دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بالضَّمائرِ الَّتي فيها صيغةُ الجَمعِ في الإنزالِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩]؛ أنَّ المرادَ بهما التَّعظيمُ قطعًا، ولاستِحالةِ التَّعَدُّدِ، أو إرادةِ معنى الجَمعِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أنَّ القُرآنَ أحسَنُ الحَديثِ بحَسَبِ لَفظِه؛ وذلك مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أن يكونَ ذلك الحُسنُ لأجْلِ الفَصاحةِ والجَزالةِ.

الثَّاني: أن يكونَ بحَسَبِ النَّظْمِ في الأُسلوبِ؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ ليس مِن جِنسِ الشِّعرِ، ولا مِن جِنسِ الخُطَبِ، ولا مِن جِنسِ الرَّسائِلِ، بل هو نوعٌ يُخالِفُ الكُلَّ، مع أنَّ كُلَّ ذي طَبعٍ سَليمٍ يَستَطيبُه ويَستَلِذُّه.

وهو أحسَنُ الحَديثِ لأجْلِ المعنى، وفيه وُجوهٌ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه كِتابٌ مُنَزَّهٌ عن التَّناقُضِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، ومِثلُ هذا الكِتابِ إذا خلا عن التَّناقُضِ كان ذلك مِن المُعجِزاتِ.

الوَجهُ الثَّاني: اشتِمالُه على الغُيوبِ الكثيرةِ في الماضي والمُستقبَلِ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ العُلومَ الموجودةَ فيه كثيرةٌ جِدًّا[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٗا﴾ فيه أنَّ القرآنَ مكتوبٌ؛ فهو يُكْتَبُ في ثلاثةِ مواضِعَ: اللَّوحِ المحفوظِ، الصُّحُفِ الَّتي بأيدي الملائكةِ، الصُّحُفِ الَّتي بأيدينا[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٥).

١١- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ القرآنَ كلَّه مُتشابِهٌ، وفي سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧] تدُلُّ على أنَّ من القرآنِ مُحْكَمًا ومنه مُتشابِهًا، وقولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] يدُلُّ على أنَّ كلَّه مُحْكَمٌ.

ووَجْهُ الجمْعِ بيْن هذه الآياتِ: أنَّ معنى كَونِه كلِّه مُحْكَمًا -وهو ما يُعرَفُ بالإحكامِ العامِّ-: أنَّه في غايةِ الإحكامِ -أي: الإتقانِ- في ألفاظِه ومَعانيه وإعجازِه؛ أخبارُه صِدْقٌ، وأحكامُه عَدْلٌ، لا تَعْتريه وَصْمةٌ ولا عَيبٌ؛ لا في الألفاظِ ولا في المعاني. ومعنى كَونِه مُتشابِهًا -ويُعرَفُ بالتَّشابُهِ العامِّ-: أنَّ آياتِه يُشبِهُ بعضُها بعضًا في الحُسنِ، والصِّدقِ، والإعجازِ، والسَّلامةِ مِن جَميعِ العيوبِ. ومعنى كَونِ بَعضِه مُحْكَمًا وبعضِه مُتشابِهًا -وهو الإحكامُ الخاصُّ والتَّشابُهُ الخاصُّ-: أنَّ المُحكَمَ منه هو واضِحُ المعنى لكلِّ النَّاسِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، والمُتشابِهَ هو ما خفِيَ عِلمُه على غيرِ الرَّاسخينَ في العِلمِ -بِناءً على أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] عاطفةٌ-، أو هو ما استأْثَرَ اللهُ بعِلمِه، بِناءً على أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ استئنافيَّةٌ لا عاطفةٌ[1].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٣٨).

قال ابن عثيمين: (الوقف عندَ قولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو قولُ جمهورِ السَّلفِ والخلَفِ، وبناءً عليه يكونُ المرادُ بالتَّأويلِ في قولِه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]: الحقيقةَ الَّتي يؤولُ الكلامُ إليها، لا التَّفسيرَ الَّذي هو بيانُ المعنى). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٧١).

وقال أيضًا: (إنَّ وصْفَ القرآنِ جميعِه بالإحكامِ، ووصْفَه جميعِه بالتَّشابُهِ لا يَتعارَضانِ، والجمعُ بيْنَهما: أنَّ الكلامَ المُحْكَمَ المُتقَنَ يُشبِهُ بعضُه بعضًا في الكمالِ والصِّدقِ؛ فلا يَتناقَضُ في أحكامِه، ولا يَتكاذَبُ في أخبارِه. وأمَّا وصْفُ القرآنِ بأنَّ بعضَه مُحْكَمٌ وبعضَه مُتشابِهٌ فلا =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ تَنبيهٌ على ناحيةٍ مِن نواحي إعجازِ القُرآنِ، وهي: عدَمُ الملَلِ مِن سَماعِه، وأنَّه كُلَّما تكرَّر غَرَضٌ مِن أغراضِه زاده تكرُّرُه قَبولًا وحلاوةً في نُفوسِ السَّامِعينَ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ أُعجوبةُ جَمعِ القُرآنِ بيْنَ التَّأثيرَينِ المُتضادَّينِ: مَرَّةً بتأثيرِ الرَّهبةِ، ومرَّةً بتأثيرِ الرَّغبةِ؛ وذلك لِيَكونَ المُسلِمونَ في مُعامَلةِ رَبِّهم جارينَ على ما يَقتَضيه جَلالُه، وما يَقتَضيه حِلمُه ورَحمتُه، وهذه الجِهةُ اقتَضاها الجَمعُ بيْنَ الجِهَتينِ المُصَرَّحِ بهما -وهما: جِهةُ القُشَعْريرةِ، وجِهةُ اللِّينِ- مع كَونِ المَوصوفِ بالأمْرَينِ فَريقًا واحِدًا، وهم الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم، والمقصودُ وَصْفُهم بالتَّأثُّرَينِ عندَ تَعاقُبِ آياتِ الرَّحمةِ بعدَ آياتِ الرَّهبةِ(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال قَتادةُ: (هذا نَعْتُ أولياءِ اللهِ؛ نعَتَهم اللهُ بأن تَقشَعِرَّ جُلودُهم، وتَبكيَ أعيُنُهم، وتَطمَئِنَّ قُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ، ولم يَنعَتْهم بذَهابِ عُقولِهم، والغَشَيانِ عليهم، وإنَّما هذا في أهلِ البِدَعِ، وهذا مِنَ الشَّيطانِ)(٣).

١٥- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِينُ القُلوبِ هو زَوالُ قَساوتِها؛ لِحُدوثِ الخُشوعِ فيها والرِّقَّةِ، وقد قَبَّح اللهُ مَن لا يَخشَعُ قَلبُه

= تَعارُض بيْنَهما أصلًا؛ لأنَّ كلَّ وصْفٍ واردٌ على محلٍّ لم يَرِدْ عليه الآخَرُ؛ فبعضُ القرآنِ مُحْكَمٌ ظاهرُ المعنى، وبعضُه مُتشابِهٌ خَفيُّ المعنى). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٣/ ١٣٠) (٢٦٢٦). ويُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣-٢٢٨)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ١٢١-١٢٥).

لِسَماعِ كِتابِه وتدَبُّرِه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] [الحديد: ١٦].

١٦- أنَّ ذِكْرَ اللهِ عزَّ وجَلَّ سَبَبٌ لِلِينِ القُلوبِ وطُمأنينتِها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ويَشهَدُ لهذا قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2] [الرعد: ٢٨].

١٧- مِن وجوهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ: الرَّوعةُ التي تلحقُ قلوبَ سامعيه وأسماعَهم عندَ سماعِه، والهيبةُ التي تعتريهم عندَ تلاوتِه لقوةِ حالِه وإنافةِ خطرِه، وهي على المكذِّبينَ به أعظمُ، حتى كانوا يستثقِلونَ سماعَه، ويزيدُهم نفورًا كما قال تعالى، ويودُّون انقطاعَه لكراهتِهم له.

وأمَّا المؤمنُ فلا تزالُ روعتُه به وهيبتُه إياه معَ تلاوتِه تُوليه انجذابًا، وتكسبُه هشاشةً لميلِ قلبِه إليه، وتصديقِه به؛ قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ...﴾ الآية [الحشر: ٢١]. ويدلُّ على أنَّ هذا شيءٌ خُصَّ به أنَّه يعتري مَن لا يفهمُ معانيَه، ولا يعلمُ تفاسيرَه.

وهذه الروعةُ قد اعترَتْ جماعةً قبلَ الإسلامِ وبعدَه، فمِنهم مَن أسلمَ لها لأوَّلِ وهلةٍ وآمَن به، ومنهم مَن كفَر، فعن جُبيرِ بنِ مطعمٍ قال: ((سمِعْتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ في المغربِ بـ(الطور) فلمَّا بلَغَ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] إلى قوله: ﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٨).

كاد قلبي أنْ يطيرَ))[١]، وفي رواية[٢]: (وذلك أولَ ما وقر الإيمانُ في قلبي)[٣].

١٨- قولُه تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيه إثباتُ أنَّ الهدايةَ بمشيئةِ اللهِ تعالى، وهذه الآيةُ فَرْدٌ من أفرادِ أدلَّةٍ كثيرةٍ تدُلُّ على أنَّ فِعلَ العبدِ واقعٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٤] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فيه أنَّ اسمَ الهادي يُطلَقُ على غَيرِ اللهِ تعالى، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]؛ فالهادي تُطلَقُ على اللهِ تعالى وعلى غيرِه، لكنِ الَّذي يَمتنعُ إطلاقُه على غَيرِه هو هدايةُ التَّوفيقِ؛ فإنَّ هِدايةَ التَّوفيقِ لا تَكونُ إلَّا للهِ تعالى وَحْدَه، أمَّا هِدايةُ الدَّلالةِ فإنَّها تَكونُ للهِ تعالى ولِغَيرِه[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ استِئنافٌ واردٌ إمَّا لِتَمثيلِ الحَياةِ الدُّنيا في سُرعةِ الزَّوالِ، وقُربِ الاضمِحلالِ بما ذُكِر مِن أحوالِ الزَّرعِ؛ تَرغيبًا عن زَخارِفِها وزِينَتِها، وتَحذيرًا مِنَ الاغترارِ بزَهرتِها، كما في نَظائِرِ قَولِه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآيةَ [يونس: ٢٤]. أو لِلاستِشهادِ على تَحقُّقِ المَوعودِ مِنَ الأنهارِ الجاريةِ من

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤). وأخرجه مسلم مختصرًا (٤٦٣).

(٢) أخرجها البخاري (٤٠٢٣).

(٣) يُنظر: ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى- وحاشية الشمني)) (١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

تَحتِ الغُرَفِ بما يُشاهَدُ مِن إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وما يَترَتَّبُ عليهِ مِن آثارِ قُدرَتِه تَعالى، وأحكامِ حِكمَتِه ورَحمَتِه[١].

- أو هو استِئنافٌ ابتِدائيٌّ انتُقِلَ به إلى غَرَضِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، وما احتَوى عليه مِن هُدى الإسلامِ، وهو الغَرَضُ الَّذي ابتُدِئتْ به السُّورةُ، وانثَنى الكَلامُ منه إلى الاستِطرادِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] إلى هنا؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣]، فمُثِّلَتْ حالةُ إنزالِ القُرآنِ، واهتِداءِ المُؤمِنينَ به، والوَعدِ بنَماءِ ذلك الاهتِداءِ: بحالةِ إنزالِ المَطَرِ ونَباتِ الزَّرعِ به واكتِمالِه، وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لِتَجزِئةِ أجزائِه على أجزاءِ الحالةِ المُشَبَّهِ بها: فإنزالُ الماءِ مِنَ السَّماءِ تَشبيهٌ لإنزالِ القُرآنِ لإحياءِ القُلوبِ، وإسلاكُ الماءِ يَنابيعَ في الأرضِ تَشبيهٌ لِتَبليغِ القُرآنِ لِلنَّاسِ، وإخراجُ الزَّرعِ المُختَلِفِ الألوانِ تَشبيهٌ لِحالِ اختِلافِ النَّاسِ مِن طَيِّبٍ وغَيرِه، ونافِعٍ وضارٍّ، وهَياجُ الزَّرعِ تَشبيهٌ لِتَكاثُرِ المُؤمِنينَ بيْن المُشرِكينَ، وأمَّا قَولُه: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فهو إدماجٌ[٢] لِلتَّذكيرِ بحالةِ المَماتِ، واستِواءِ النَّاسِ فيها مِن نافِعٍ وضارٍّ، وفي تَعقيبِ هذا بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، إلى قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] إشارةٌ إلى العِبرةِ مِن هذا التَّمثيلِ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى أصالةً وإدماجًا على عَكسِ ما ذُكِرَ؛ فيَكونَ عَوْدًا إلى الاستِدلالِ على تَفَرُّدِ اللهِ تَعالى بالإلَهيَّةِ، بدَليلٍ مِن مَخلوقاتِه الَّتي يُشاهِدُها النَّاسُ مُشاهَدةً مُتكَرِّرةً، فيكونَ قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٩).

إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مُتَّصِلًا بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] المتَّصِلِ بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥]، ويكونَ ما بيَّنَّاه من تَمثيلِ حالِ نُزولِ القُرآنِ وانتِفاعِ المُؤمِنينَ إدماجًا في هذا الاستِدلالِ، وقد أُدمِجَ في أثناءِ الكَلامِ إيماء إلى إمكانِ إحياءِ النَّاسِ حياةً ثانيةً(١).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ، والخِطابُ لِكُلِّ مَن يَصلُحُ لِلخِطابِ؛ فليس المُرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا، وهو خِطابٌ وتَوقيفٌ لِلسَّامِعِ على ما يُعتَبَرُ به مِن أفعالِ اللهِ الدَّالَّةِ على فَناءِ الدُّنيا واضمِحلالِها(٢).

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ بحَرفِ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتْبيِّ، أو الزَّمانِ؛ لِأنَّ إخراجَ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ بعدَ إقحالِها أوقَعُ في نُفوسِ النَّاسِ؛ لِأنَّه أقرَبُ لِأبصارِهم، وأنفَعُ لِعَيشِهم، وإذْ هو المَقصودُ مِنَ المَطَرِ(٣). وصيغةُ المُضارِعِ؛ لِاستِحضارِ الصُّورةِ(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾، بلَفظِ ﴿يَجْعَلُهُ﴾، وفي سورةِ (الحَديدِ) قال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠] بلَفظِ ﴿يَكُونُ﴾؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الزُّمَرِ) ورَدَتْ مَوردَ التَّنبيهِ على الاعتبارِ، وبالنَّصِّيَّةِ على ذلك افتُتِحَت الآيةُ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾؛ فنسَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٦، ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩، ٢٥٠).

سُبحانه كلَّ حالةٍ مِن تقَلُّباتِ الزَّرعِ إلى نفْسِه، وتَنقُّلاتِه -مِن لَدُنْ خُروجِه ونَباتِه وما بعْدَ ذلك إلى تحطُّمِه- إلى نفْسِه -إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في إعادةِ شَيءٍ مِن ذلك-، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فافتُتِحَت الآيةُ واختُتِمَت بالتَّنبيهِ على الاعتبارِ، فلمَّا كان مَبْناها على ذلك ناسَبَ نِسبةُ الفِعلِ إليه تعالى؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾.

وأمَّا آيةُ (الحديدِ) فورَدَتْ مِثالًا للدُّنيا وغُرورِها، وإعراضِ الكافرِ عن سُرعةِ تَقلُّبِها وزَوالِها وفَنائِها؛ فلمَّا قُصِدَ هنا المثالُ ناسَبَ هذا المقصودَ قولُه: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في أوَّلِ الآيةِ النِّسبةُ للفاعلِ، اكتِفاءً بما هو غيرُ خافٍ على كلِّ ذي عقْلٍ سليمٍ؛ فجَرى آخِرُها على ما يَجْري عليه أوَّلُها -كما جَرى في آيةِ (الزُّمَرِ) مِن آخِرِها مِن التَّنبيهِ على ما جَرى عليه أوَّلُها-، وتَناسَبَ ذلك كلُّه، ولم يكُنْ -بِناءً على ما صُدِّرَت به كلُّ آيةٍ منهما- أنْ يكونَ في آيةِ (الزُّمَرِ): ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾، ولا في آيةِ (الحديدِ): ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾، بلْ ورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ، واللهُ أعلَمُ[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ عُلِّقتْ هذه الحالةُ بجَعْلِ اللهِ تعالى، كالإخراجِ؛ لكَونِها مِنَ الآثارِ القَويَّةِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مُبيِّنةٌ لِلاستِفهامِ التَّقريريِّ، وفَذْلَكةٌ[3] لِلأطوارِ المُستَفهَمِ عنها؛ فالإشارةُ بذلك إلى المَذكورِ مِنَ الإنزالِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٥، ١٢٥٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥). ويُنظر أيضًا: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٦٣).

إلى آخِرِ الأطوارِ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في الغَرابةِ والدَّلالةِ على ما قُصِدَ بَيانُه[١].

- والمُرادُ: ذِكْرى بالدَّلالةِ على ما يَغفُلُ عنه العاقِلُ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ الذِّكرى لِمَا يَذهَلُ عنه العاقِلُ مِمَّا تَشتَمِلُ عليه هذه الأحوالُ مِن مَبدَئِها إلى مُنتَهاها، فمِن ذلك أنَّها تَصلُحُ مِثالًا لِتَقريبِ البَعثِ، فتَتَضمَّنُ الآيةُ إدماجَ[٢] تَقريبِ البَعثِ وإمكانِه، مع الاستِدلالِ على انفِرادِ اللهِ تَعالى بالتَّصرُّفِ، ومِن ذلك أنَّها تَصلُحُ مَثَلًا لِلحياةِ الدُّنيا، والمَقصودُ تَشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، فلا يُعتبَرُ التَّجَوُّزُ في مُفرَداتِ هذا المُرَكَّبِ؛ بأنْ يُطلَبَ لِكُلِّ طَورٍ مِن أطوارِ الدُّنيا طَورٌ يُشَبَّه به مِن أطوارِ النَّباتِ، ومنها أنَّها مَثَلٌ لِأطوارِ الإنسانِ مِن طَورِ النُّطَفِ إلى الشَّبابِ إلى الشَّيخوخةِ، ثمَّ الهَلاكِ، والمَقصودُ تَشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، مع إمكانِ تَوزيعِ تَشبيهِ كُلِّ طَورٍ مِن أطوارِ الحالةِ المُشَبَّهةِ بطَورٍ مِن أطوارِ الحالةِ المُشَبَّهِ بها[٣].

- قولُه: ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أُولو الألبابِ هُمُ الَّذين يَنتَفِعونَ بألبابِهم، فيَهتدونَ بما نُصِبَ لهم مِنَ الأدِلَّةِ، وهمُ الَّذين استَدَلُّوا فآمَنوا، وفي هذا تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَستَفيدوا مِنَ الأدِلَّةِ بمَنزِلةِ مَن عَدِموا العُقولَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قَبْلَه من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

(٢) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٧٩).

تَخصيصِ الذِّكرى بأُولي الألبابِ[(١)].

- قولُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فيه حذْفُ خَبَرِ (مَنْ)؛ لِدَلالةِ ما بَعْدَه عليه، والتَّقديرُ: أكُلُّ النَّاسِ سَواءٌ[(٢)]؟! أو دَلَّ عليه قَولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٠]، مِمَّا اقتَضاه حَرفُ الاستدراكِ (لكن) مِن مُخالَفةِ حالِه لِحالِ مَن حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ، والتَّقديرُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مِثلُ الَّذي حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ؛ فهو في ظُلمةِ الكُفرِ؟! أو تَقديرُه: مِثلُ مَن قَسا قَلبُه؟! بدَلالةِ قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، وهذا مِن دَلالةِ اللَّاحِقِ[(٣)].

- ومِن رَشاقةِ ألفاظِ القُرآنِ إيثارُ كَلِمةِ ﴿شَرَحَ﴾ للدَّلالةِ على قَبولِ الإسلامِ؛ لِأنَّ تعاليمَ الإسلامِ وأخلاقَه وآدابَه تُكسِبُ المُسلِمَ فَرَحًا بحالِه، ومَسَرَّةً برِضا رَبِّه، واستِخفافًا لِلمَصائِبِ والكَوارِثِ؛ لِجَزمِه بأنَّه على حَقٍّ في أمْرِه، وأنَّه مُثابٌ على ضُرِّه، وأنَّه راجٍ رَحمةَ رَبِّه في الدُّنيا والآخِرةِ، ولِعَدَمِ مُخالَطةِ الشَّكِّ والحَيرةِ ضَميرَه[(٤)].

- واللَّامُ في ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أيْ: شَرَحَه لِأجْلِ الإسلامِ، أيْ: لِأجْلِ قَبولِه[(٥)]. وذلك على وجهٍ في التفسيرِ.

- وعُبِّرَ بالنُّورِ هنا في قولِه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ عن الهُدى ووُضوحِ الحَقِّ؛ لِأنَّ النُّورَ به تَنجلي الأشياءُ، ويَخرُجُ المُبصِرُ مِن غَياهِبِ الضَّلالةِ، وتَردُّدِ اللَّبسِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٠).

بيْن الحَقائِقِ والأشباحِ، وأفادَ حَرفُ الاستعلاءِ (على) التَّمَكُّنَ مِنَ النُّورِ[١].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على وصْفِ حالِ مَن شَرَح اللهُ صَدرَه لِلإسلامِ فهو على نُورٍ مِن رَبِّه، وهو يدُلُّ على حالِ ضِدِّه؛ وهمُ الَّذين لم يَشرَحِ اللهُ صُدورَهم لِلإسلامِ؛ فكانت لِقُلوبِهم قَساوةٌ فُطِروا عليها، فلا تَسلُكُ دَعوةُ الخَيرِ إلى قُلوبِهم. وأُجمِلَ سُوءُ حالِهم بما تدُلُّ عليه كَلِمةُ ﴿فَوَيْلٌ﴾ من بُلوغِهم أقصَى غاياتِ الشَّقاوةِ والتَّعاسةِ[٢].

- والمُرادُ بذِكرِ اللهِ: القُرآنُ، وإضافَتُه إلى اللهِ زيادةُ تَشريفٍ له[٣]، ولأنَّه كلامُه عزَّ وجلَّ.

- وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ ذكَرَ أوَّلًا: الشَّرحَ والنُّورَ دَليلًا على حَذفِ ضِدِّه ثانيًا، وثانيًا: الوَيْلَ للقاسي، والضَّلالَ؛ دليلًا على حَذفِ ضِدِّه أوَّلًا[٥].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مُستَأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ ما قَبلَه مِنَ الحُكمِ بأنَّ قَساوةَ قُلوبِهم مِن أجْلِ أنْ يُذكَرَ اللهُ عِندَهم، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَتساءَلَ: كيف كان ذِكرُ اللهِ سَبَبَ قَساوةِ قُلوبِهم؟ فأُفيدَ بأنَّ سَبَبَ ذلك هو أنَّهم مُتَمَكِّنونَ مِنَ الضَّلالةِ، مُنغَمِسونَ في حَمْأَتِها، فكان ضَلالُهم أشَدَّ من أنْ يَتقَشَّعَ حينَ يَسمَعونَ ذِكْرَ اللهِ.

وافتِتاحُ هذه الجُملةِ باسمِ الإشارةِ عَقِبَ ما وُصِفوا به مِن قَساوةِ القُلوبِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٦).

لإفادةِ أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن حالِهم بعْدَ الإشارةِ إليهم، صاروا به أحْرِياءَ لِأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، فكان مَضمونُ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ -وهو الضَّلالُ الشَّديدُ- عِلَّةً لِقَسوةِ قُلوبِهم حَسبَما اقتَضاه وُقوعُ جُملَتِه استِئنافًا بَيانيًّا، وكان مَضمونُها مَفعولًا لِقَسوةِ قُلوبِهم حَسبَما اقتَضاه تَصديرُ جُملَتِها باسمِ الإشارةِ عَقِبَ وَصْفِ المُشارِ إليهم بأوصافٍ[1].

- وقَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فيه الإشارةُ إليهم بإشارةِ البَعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنويهِ بسُفولِهم، وانحِطاطِ مَرتبَتِهم[2].

- وما أحسَنَ التَّعبيرَ بـ(في) الَّتي للظَّرفيَّةِ، في هذا الموضعِ! حيث تُشيرُ إلى أنَّ الضَّلالَ قد أحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ، كما تُحيطُ الحُجْرةُ بساكِنِها، وإذا كان الضَّلالُ قد أحاطَ بهم من كلِّ جانبٍ، فإنَّه لا يُرْجى لهم خيرٌ -والعياذُ باللهِ تعالى-؛ لأنَّهم في ضَلالٍ مُبينٍ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ...﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نَشَأ بمُناسَبةِ المُضادَّةِ بيْن مَضمونِ جُملةِ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وبيْنَ مَضمونِ هذه الجُملةِ؛ وهو أنَّ القُرآنَ يُلينُ قُلوبَ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم؛ لِأنَّ مَضمونَ الجُملةِ السَّابِقةِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن وَجهِ قَسوةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

قُلوبِ الضَّالِّينَ مِن ذِكرِ اللهِ؛ فكانتْ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، إلى قَولِه: ﴿مِنۡ هَادٍ﴾ مُبيِّنةً أنَّ قَساوةَ قُلوبِ الضَّالِّينَ مِن سَماعِ القُرآنِ إنَّما هي لِرَيْنٍ في قُلوبِهم وعُقولِهم، لا لِنَقصٍ في هِدايَتِه(١).

- وهذه الجُملةُ تَكميلٌ؛ لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ المُفتَتَحِ به غَرَضُ السُّورةِ، وسيُقَفَّى بثَناءٍ آخَرَ عِندَ قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، ثمَّ بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]، ثم بقَولِه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(٢) [الزمر: ٥٥].

- وإيقاعُ اسمِ اللهِ مُبتدَأً، وبناءُ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه: فيه تَفْخيمٌ لأحسَنِ الحديثِ، ورَفْعٌ منه، واستِشْهادٌ على حُسنِه، وتأكيدٌ لاستِنادِه إلى اللهِ تعالى، وأنَّه مِن عِندِه، وأنَّ مِثلَه لا يجوزُ أنْ يَصدُرَ إلَّا عنه، وتَنْبيهٌ على أنَّه وَحْيٌ مُعجِزٌ مُباينٌ لِسائرِ الأحاديثِ، حيثُ نَزَّلَه العَليمُ بنِهايةِ مَحاسِنِ الأخْبارِ والذِّكرِ(٣)، وحِكْمةُ البَدءِ باسْمِ اللهِ هو البُداءةُ بالأشرَفِ ثمَّ تذكرُ ما تُسنَدُ إليه، وهو كثيرٌ في القُرآنِ، كَقَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾(٤) [الحج: ٧٥].

- والإخبارُ عنِ اسمِ الجَلالةِ بالخَبَرِ الفعليِّ ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يدُلُّ على تَقويةِ الحُكمِ وتَحقيقِه، ويُفيدُ مع التَّقويةِ دَلالةً على الاختِصاصِ، أي: اختِصاصَ تَنزيلِ الكِتابِ باللهِ تعالى؛ ففيه إثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ من اللهِ تعالى، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥).

مِثلَ هذا الكَلامِ في حُسنِ نَظمِه وغَرابَتِه، وكَونه جامِعًا للمَعارِفِ الحقَّةِ، وحائزًا لِمَحاسِنِ الأخلاقِ، ومَكارِمِ الشِّيَمِ، لا يَنبَغي أنْ يَصدُرَ إلَّا عمَّن استُجمِعَ فيه الأسماءُ الحُسْنى والصِّفاتُ العُلْيا، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن كَونِه وَحيًا مِن عِندِ اللهِ، لا مِن وضْعِ البَشَرِ؛ فدَلَّتِ الجُملةُ على تَقَوٍّ واختِصاصٍ بالصَّراحةِ، وعلى اختِصاصٍ بالكِنايةِ، وإذْ أُخِذَ مَفهومُ القَصرِ ومَفهومُ الكِنايةِ -وهو المُغايِرُ لِمَنطوقِهما- كذلك يُؤخَذُ مُغايِرُ التَّنزيلِ فِعلًا يَليقُ بوَضعِ البَشَرِ، فالتَّقديرُ: لا غَيرُ اللهِ وَضَعَه، رَدًّا لِقَولِ المُشرِكينَ: هو أساطيرُ الأوَّلينَ[١].

- ومُفادُ تَقْديم لَفظِ الجلالةِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ فيه تَحْقيقٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الإضافةُ مِن التَّعْظيمِ لِشَأنِ المُضافِ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ فالمُرادُ بـ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ عَينُ المُرادِ بـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وهو القُرآنُ، عَدَلَ عن ذِكرِ ضَميرِه؛ لِقَصدِ إجراءِ الأوصافِ عليه، وهي قَولُه: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ إلخ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾ وُصِفَ القُرآنُ بأنَّه أحسَنُ الحَديثِ، أيْ: أحسَنُ الخَبَرِ، والتَّعريفُ لِلجِنسِ، وسُمِّيَ حَديثًا؛ لِأنَّ شَأنَ الإخبارِ أنْ يَكونَ عن أمْرٍ حَدَثَ ووُجِدَ، وسُمِّيَ القُرآنُ حَديثًا باسمِ بَعضِ ما اشتَمَلَ عليه مِن أخبارِ الأُمَمِ والوَعدِ والوَعيدِ، وأمَّا ما فيه مِن الإنشاءِ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ ونحوِهما، فإنَّه لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبلِّغَه للنَّاسِ؛ آلَ إلى أنَّه إخبارٌ عن أمْرِ اللهِ ونَهْيِه[٣].

- ووُصِفَ القُرآنُ أيضًا بأنَّه كِتابٌ، أيْ: مَجموعُ كَلامٍ مُرادٍ قِراءَتُه وتِلاوَتُه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣، ٣٨٤).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٤).

والاستِفادةُ منه، مأمورٍ بكِتابَتِه؛ لِيَبقى حُجَّةً على مَرِّ الزَّمانِ؛ فإنَّ جَعْلَ الكَلامِ كِتابًا يَقتَضي أهمِّيَّةَ ذلك الكَلامِ، والعِنايةَ بتَنسيقِه، والاهتِمامَ بحِفظِه على حالَتِه، ولَمَّا سمَّى اللهُ القُرآنَ كِتابًا، كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأمُرُ كُتَّابَ الوَحْيِ مِن أصْحابِه أنْ يَكتُبوا كُلَّ آيةٍ تَنزِلُ مِن الوَحْيِ في المَوضِعِ المُعَيَّنِ لها بيْنَ أخَواتِها؛ استِنادًا إلى أمرٍ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ أشارَ إلى الأمْرِ بكِتابتِه في مَواضِعَ كَثيرةٍ، مِن أوَّلِها قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقَولُه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[1] [الواقعة: ٧٧، ٧٨].

- وفي قوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ وُصِفَ الكتابُ بأنَّه مُتشابِهٌ، أي: مُتشابِهةٌ أجزاؤُه، مُتماثِلةٌ في فَصاحةِ ألْفاظِها، وشرَفِ مَعانيها، ولا تَناقُضَ فيها ولا تَعارُضَ؛ فهي مُتكافئةٌ في الشَّرَفِ والحُسنِ، فمَعانيه مُتشابِهةٌ في صِحَّتِها وأحكامِها، وابتِنائِها على الحقِّ والصِّدْقِ، وإصابتِها المحَزَّ[2] مِن الحُجَّةِ، وتَبْكيتِ الخُصومِ، وكَونِها صلاحًا للنَّاسِ وهُدًى، وألفاظُه مُتماثِلةٌ في الشَّرَفِ والفصاحةِ، والإصابةِ للأغراضِ مِن المعاني، بحيث تَبلُغُ ألفاظُه ومَعانيه أقْصى ما تَحتمِلُه أشرَفُ لُغةٍ للبشرِ -وهي اللُّغةُ العربيَّةُ-؛ مُفرَداتٍ ونظْمًا، فتَجاوَبَ نَظْمُه وتَأليفُه في الإعْجازِ، وبذلك كان مُعجِزًا لكلِّ بَليغٍ عن أنْ يَأتيَ بمِثْلِه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ جَميعَ آياتِ القُرآنِ بالغةٌ الطَّرَفَ الأعلَى مِن البَلاغةِ، وأنَّها مُتَساويةٌ في ذلك بحَسَبِ ما يَقتَضيه حالُ كُلِّ آيةٍ مِنها، وأمَّا تَفاوُتُها في كثرةِ الخُصوصيَّاتِ وقِلَّتِها، فذلك تابعٌ لاختلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٥).

(٢) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطع. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

المقاماتِ ومُقتضياتِ الأحوالِ؛ فإنَّ بلاغةَ الكلامِ مُطابَقتُه لِمُقتضَى الحالِ، والطَّرَفُ الأعلَى مِن البلاغةِ هو مُطابَقةُ الكلامِ لِجَميعِ ما يَقتضِيه الحالُ؛ فآياتُ القرآنِ مُتماثِلةٌ مُتشابِهةٌ في الحُسْنِ لَدى أهْلِ الذَّوقِ مِن البُلَغاءِ بالسَّليقةِ أو بالعِلْم، وهو في هذا مُخالِفٌ لِغَيرِه مِن الكلامِ البليغ؛ فإنَّ ذلك لا يَخْلو عن تَفاوُتٍ رُبَّما بلَغَ بعْضُه مَبلَغَ ألَّا يُشبِهَ بقيَّتَه، وهذا المعنى ممَّا يَدخُلُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ فالكاتبُ البليغُ والشَّاعرُ المُجيدُ لا يَخْلو كلامُ أحدٍ منهما مِن ضَعفٍ في بَعضِه، وأيضًا لا تَتشابَهُ أقوالُ أحدٍ منهما، بلْ تجدُ لكلٍّ منهما قِطَعًا مُتفاوِتةً في الحُسْنِ والبلاغةِ وصِحَّةِ المعاني. وبما قُرِّر تَعلَمُ أنَّ المُتشابِهَ هنا مُرادٌ به معنًى غيرُ المرادِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لاختِلافِ ما فيه التَّشابُهُ[1].

- ووُصِفَ القُرآنُ بكَونِه ﴿مَّثَانِيَ﴾ وهو جَمعُ (مُثَنَّى) جَمْعًا على غَيرِ قِياسٍ، أو اسْمُ جَمْعٍ بمَعْنى مُردَّدٍ ومُكرَّرٍ؛ لِمَا ثُنِّيَ من قَصَصِه، وأنْبائِه، وأحْكامِه، وأوامِرِه، ونَواهيه، ووَعْدِه، ووَعيدِه، ومَواعِظِه، وقيلَ: لأنَّه يُثَنَّى في التِّلاوةِ. ويجوزُ كَوْنُه جَمْعَ (مَثْنَى)، وهو اسمٌ لجعلِ المَعْدودِ أزواجًا اثنَينِ، اثنَينِ، مِن التَّثنيةِ، بمَعْنى التَّكريرِ والإعادةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، أي: كَرَّةً بعدَ كرَّةٍ، وكِلا الاحتِمالَينِ يُطلَقُ على مَعْنى التَّكْريرِ، فكُنِّيَ عن مَعنى التَّكريرِ بمادَّةِ التَّثنيةِ؛ لِأنَّ التَّثنيةَ أُولى مَراتِبِ التَّكريرِ، فالقرآنُ ﴿مَّثَانِيَ﴾؛ لأنَّه مُكرَّرُ الأغراضِ، وهذا يَتضَمَّنُ امتِنانًا على الأُمَّةِ بأنَّ أغراضَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٥، ٣٨٦).

كِتابِها مُكرَّرةٌ فيه؛ لِتكونَ مَقاصِدُه أرسَخَ في نُفوسِها، ولِيَسمَعَها مَن فاتَه سَماعُ أمثالِها مِن قَبْلُ[(١)].

- ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَّثَانِيَ﴾ بيانًا لِكَونِه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ لأنَّ القِصصَ المُكرَّرةَ لا تكونُ إلَّا مُتشابِهةً[(٢)].

- ووَصْفُ المُفرَدِ ﴿كِتَٰبًا﴾ باللَّفظِ الجمعِ ﴿مَّثَانِيَ﴾ -وهو مُقتَضٍ التَّعدُّدَ- يُعيِّنُ أنَّ هذا الوَصْفَ جَرَى عليه باعتِبارِ أجْزائِه، أي: سُوَرِه أو آياتِه، باعتِبارِ أنَّ كُلَّ غَرَضٍ منه يُكرَّرُ، أي: باعتِبارِ تَباعيضِه؛ لأنَّ الكِتابَ جُملةٌ ذاتُ تَفاصيلَ، ألَا تَراكَ تَقولُ: القُرآنُ أسباعٌ وأخماسٌ، وسُوَرٌ وآياتٌ، وأقاصيصُ وأحكامٌ، ومَواعِظُ مُكَرَّراتٌ، ونَظيرُه قَولُكَ: الإنسانُ عِظامٌ وعُروقٌ وأعصابٌ[(٣)].

- قولُه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ آثارِ القُرآنِ العظيمِ الظَّاهِرةِ في سامِعيه، بعدَ بَيانِ أوصافِه في نَفْسِه، ولِتَقريرِ كَونِه أحسَنَ الحَديثِ، أو صِفةٌ لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حالٌ منهُ لتخصُّصِه بالصِّفةِ[(٤)].

- وهذا الوَصفُ مُرتَّبٌ على الوَصفِ قَبْلَه، وهو كَوْنُ القُرآنِ مَثانيَ، أيْ: مُثَنَّى الأغراضِ، وهو مُشتَمِلٌ على عِدَّةِ جِهاتٍ؛ منها: وَصْفُ القُرآنِ بالجَلالةِ والرَّوعةِ في قُلوبِ سامِعيه؛ وذلك لِمَا في آياتِه الكَثيرةِ مِنَ المَوعِظةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٠، ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١).

الَّتي تَوْجَلُ منها القُلوبُ، وهو وصْفُ كَمالٍ؛ لأنَّه مِن آثارِ قُوَّةِ تأثيرِ كلامِه في النُّفوسِ. ومِن جِهاتِ هذا الوَصفِ: لِينُ قُلوبِ المُؤمنينَ عِندَ سَماعِه أيضًا عَقِبَ وَجَلِها العارضِ مِن سَماعِه قَبْلُ. الجِهةُ الثَّالثةُ مِن جِهاتِ هذا الوَصفِ: أُعْجوبةُ جَمعِهِ بيْنَ التَّأثيرَينِ المُتَضادَّينِ: مرَّةً بتَأْثيرِ الرَّهْبةِ، ومرَّةً بتَأْثيرِ الرَّغْبةِ[1].

- وقد اقتَضى قَولُه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنَّ القُرآنَ يَشتَمِلُ على مَعانٍ تَقشَعِرُّ منها الجُلودُ، وهي المَعاني المَوسومةُ بالجَزالةِ الَّتي تُثيرُ في النُّفوسِ رَوعةً وجَلالةً ورَهبةً تَبعَثُ على امتِثالِ السَّامِعينَ له، وعَمَلِهم بما يَتَلقَّونَه مِن قَوارِعِ القُرآنِ وزَواجِرِه، وكُنِّيَ عن ذلك بحالةٍ تُقارِنُ انفعالَ الخَشيةِ والرَّهبةِ في النَّفْسِ؛ لِأنَّ الإنسانَ إذا ارتاعَ وخَشيَ، اقشَعَرَّ جِلدُه مِن أثَرِ هذا الانفِعالِ، ومَعنى ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾: تَقشَعِرُّ مِن سَماعِه وفَهمِه؛ فإنَّ السَّماعَ والفَهْمَ يَومَئذٍ مُتَقارِنانِ؛ لأنَّ السَّامِعينَ أهْلُ اللِّسانِ، يُقالُ: اقْشعَرَّ الجِلدُ: إذا تقبَّضَ تَقبُّضًا شَديدًا، وتَركيبُه مِن حُروفِ القَشْعِ، وهو الأديمُ اليابِسُ، مُضمومًا إليها حرفٌ رابعٌ، وهو الرَّاءُ؛ لِيَكونَ رُباعيًّا ودالًّا على معنًى زائدٍ؛ يقال: اقْشَعَرَّ جِلدُه مِن الخَوفِ، وقَفَّ شَعرُه، وهو مَثَلٌ في شِدَّةِ الخَوفِ، وكِنايةٌ عن وَجَلِ القُلوبِ الَّذي تَلزَمُه قُشَعْريرةٌ في الجِلدِ غالِبًا، فيجوزُ أنْ يُريدَ به اللهُ سُبْحانَه التَّمْثيلَ؛ تَصْويرًا لإفْراطِ خَشيَتِهم، وأنْ يُريدَ التَّحقيقَ، والمَعْنى: أنَّهم إذا سَمِعوا بالقُرآنِ وبآياتِ وَعيدِه: أصابَتْهم خَشْيةٌ تَقشعِرُّ منها جُلودُهم، ثُمَّ إذا ذَكَروا اللهَ ورَحْمَتَه وَجُودَه بالمَغْفِرةِ: لَانَتْ جُلودُهم وقُلوبُهم، وزالَ عنها ما كان بها مِن الخَشْيةِ والقُشَعْريرةِ. وقيلَ: إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧ - ٢٨٩).

المَعنى أنَّ القُرآنَ لَمَّا كان في غايةِ الجَزالةِ والبَلاغةِ، كانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن مُعارَضَتِه اقشَعَرَّتِ الجُلودُ منه؛ إعظامًا له، وتَعَجُّبًا مِن حُسنِه وبَلاغَتِه، ثمَّ تَلينُ جُلودُهم وقُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ[1].

- وخَصَّ القُشَعْريرةَ بالَّذين يَخْشَون ربَّهم، باعتِبارِ ما سيُرْدَفُ به مِن قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾[2].

- وضُمِّنَ ﴿تَلِينُ﴾ مَعنى تَطمَئِنُّ جُلودُهم لَيِّنةً غَيرَ مُنقَبِضةٍ، وقُلوبُهم راجيةٌ غَيرُ خاشيةٍ؛ ولذلك عَدَّاه بـ ﴿إِلَىٰ﴾[3]. على أنَّ ذِكرَ اللِّينِ هنا أبلَغُ مِن ذِكرِ الطُّمأنينةِ؛ لأنَّ القُشَعْريرةَ تَقْتضي نُشوزَ الجِلدِ وارتفاعَه وتَصلُّبَه، والَّذي يُقابِلُ ذلك اللِّينُ والهُدوءُ؛ فذِكرُ اللِّينِ هنا؛ لأنَّ الجِلدَ إذا اقشعَرَّ يَتصلَّبُ، ولهذا تجِدُ أطرافَ الإنسانِ تَبرُدُ؛ لانحسارِ الدَّمِ عنها بعضَ الشَّيءِ، فإذا هدَأَ الرَّوعُ فإنَّه يَلينُ ويَزولُ ذلك التَّصلُّبُ[4].

- واللِّينُ: مُعبَّرٌ به عن القَبولِ والسُّرورِ، وهو ضِدٌّ للقَساوةِ الَّتي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فإنَّ المُؤمِنَ إذا سَمِعَ آياتِ الوَعيدِ والتَّهْديدِ يَخْشى ربَّه، ويَتَجنَّبُ ما حذَّرَ منه، فيَقشعِرُّ جِلدُه، فإذا عقَّبَ ذلك بآياتِ البِشارةِ والوَعدِ استَبْشَرَ وفَرِحَ، وعرَضَ أعْمالَهُ على تلك

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩١).

الآياتِ، فرأى نفْسَه مُتحلِّيةً بالعَمَلِ الَّذي وَعَدَ اللهُ عليه بالثَّوابِ، فاطمَأَنَّتْ نَفْسُه، وانقَلَبَ الوَجَلُ والخَوفُ رجاءً وترَقُّبًا، فذلك مَعْنى لِينِ القُلوبِ[١].

- وجُمِعَ بيْنَ الجُلودِ والقُلوبِ في قَولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُكتَفَ بأحَدِ الأمْرَينِ عنِ الآخَرِ كما اكتُفِيَ في قَولِه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لِأنَّ اقشِعرارَ الجُلودِ حالةٌ طارِئةٌ عليها، لا يَكونُ إلَّا مِن وَجَلِ القُلوبِ ورَوعَتِها، فكُنِّيَ به عن تلك الرَّوعةِ، وأمَّا لِينُ الجُلودِ عَقِبَ تلك القُشَعْريرةِ فهو رُجوعُ الجُلودِ إلى حالَتِها السَّابِقةِ قبْلَ اقشِعرارِها، وذلك قد يَحصُلُ عن تَناسٍ أو تَشاغُلٍ بَعدَ تلك الرَّوعةِ، فعُطِفَ عليه لِينُ القُلوبِ؛ لِيُعلَمَ أنَّه لِينٌ خاصٌّ ناشئٌ عنِ اطمِئنانِ القُلوبِ بالذِّكرِ، كما قال تَعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وليس مُجَرَّدَ رُجوعِ الجُلودِ إلى حالَتِها الَّتي كانت قبْلَ القُشَعْريرةِ، ولم يُكتَفَ بذِكرِ لِينِ القُلوبِ عن لِينِ الجُلودِ؛ لِأنَّه قُصِدَ أنَّ لِينَ القُلوبِ أفعَمَها حتَّى ظَهَرَ أثَرُه على ظاهِرِ الجُلودِ[٢]. أو ذُكِرَتِ الجُلودُ وَحْدَها أوَّلًا، ثمَّ قُرِنتْ بها القُلوبُ؛ لِأنَّه إذا ذُكِرتِ الخَشيةُ الَّتي مَحَلُّها القُلوبُ فقد ذُكِرتِ القُلوبُ، فكان ذِكرُ القُلوبِ لِتقدُّمِ الخَشْيةِ الَّتي هي مِن عَوارِضِها، فكأنَّه قيلَ: تَقشَعِرُّ جُلودُهم مِن آياتِ الوَعيدِ، وتَخشى قُلوبُهم في أوَّلِ وَهْلةٍ، فإذا ذَكَروا اللهَ ومَبْنى أمْرِه على الرَّأفةِ والمَرحَمةِ، استَبدَلوا بالخَشيةِ رَجاءً في قُلوبِهم، وبالقُشَعْريرةِ لِينًا في جُلودِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١١).

- وقيلَ: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف القُرآنَ المَجيدَ، وبالَغَ في مَدحِه حتَّى بَلَغ غايَتَه مِنَ الكَمالِ، على ما سَبَق في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، وأرادَ أنْ يُبيِّنَ كيفيَّةَ هِدايَتِه لِلخَلقِ، فإنَّ جُلَّ الغَرَضِ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ الهِدايةُ؛ قال: ﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، يَعْني: مَن أرادُ اللهُ أنْ يَهديَه به أوْقَعَ في قَلبِه الخَشْيةَ، كقَولِه: ﴿**هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ٢]، ثُمَّ يَتأثَّرُ منه ظاهِرُه بأنْ يأخُذَه في بَدءِ الحالِ قُشَعْريرةٌ في الجِلْدِ؛ لِضَعفِ الحالِ أو قُوَّةِ سَطْوةِ الوارِدِ، فإذا أدْمَنَ سَماعَه، وأَلِفَ أنْوارَه، تَلينُ جُلودُه، فيتأثَّرُ منه القَلْبُ، فيَطمَئِنُّ إليه، فتَنقلِبُ النَّفْسُ الأمَّارةُ مُطمَئِنَّةً، ﴿**أَلَا** بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فكما يتأثَّرُ الظَّاهِرُ مِن القَلبِ في بَدءِ الحالِ، يَنعَكِسُ في ثاني الحالِ، ويتأثَّرُ القَلْبُ مِن الظَّاهِرِ؛ ولذلك جُعِلَ اقْشعرارُ الجلدِ تابعًا لِخَشْيةِ اللهِ أوَّلًا، ولِينُ القَلْبِ تابعًا لِلينِ الجِلْدِ ثانيًا، فيَستَمِدُّ الظَّاهِرُ مِن الباطِنِ أنْوارَه، والباطِنُ مِن الظَّاهِرِ آثارَه، فلا يَزالانِ يَتَناوَبانِ حتَّى يَصعَدَ السَّالِكُ بذلك إلى مَدارِجِ القُدسِ، ومَعارِجِ الكَمالِ، فيَتوطَّنُ في مَخدَعِ القُربِ، ثمَّ يَفيضُ نورُهُ المُسْتَفيضُ على الغَيرِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكُشِفَ عن القِناعِ، حيث أشارَ مَن صَحِبَ أولئك ورآهُمْ خاشِينَ راجِينَ، فكان ذلك مُرغِّبًا لهم في الاقتِداءِ بسيرتِهم، وسُلوكِ طَريقَتِهم، رَزَقَنا اللهُ الاقتِداءَ بهم بفَضلِه وجُودِه(١).

- وكان في ذِكْرِ القُلوبِ في هذه الجُملةِ دليلٌ على تأثُّرِها عِندَ السَّماعِ، فاكْتَفَى بقُشَعْريرةِ الجُلودِ عن ذِكرِ خَشْيةِ القُلوبِ لِقيامِ المُسبَّبِ مَقامَ السَّبَبِ، فلمَّا ذكَرَ اللِّينَ ذَكَرهما، وفي ذِكرِ اللِّينِ دَليلٌ على المَحذوفِ الَّذي هو رَحمةُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).

اللهِ، كما كان في قَولِه: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] دَليلٌ بقَولِه: ﴿وَجِلَتْ﴾ عن ذِكرِ المَحذوفِ، أي: إذا ذُكِرَ وَعيدُ اللهِ وبَطشُه[١].

- و(ذِكْرِ اللَّهِ) هو (أَحْسَنُ الْحَدِيثِ)، وعُدِلَ عن ضَميرِه في قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِبُعدِ المعادِ، وعُدِلَ عن إعادةِ اسمِه السَّابِقِ؛ لِمَدحِه بأنَّه ذِكرٌ مِنَ اللهِ بَعدَ أنْ مُدِحَ بأنَّه أحسَنُ الحَديثِ، والمُرادُ بذِكرِ اللهِ: ما في آياتِه مِن ذِكرِ الرَّحمةِ والبِشارةِ؛ وذلك أنَّ القُرآنَ ما ذَكَرَ مَوعِظةً وتَرهيبًا إلَّا أعقَبَها بتَرغيبٍ وبِشارةٍ[٢].

وقيل: مفعولُ ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ، والتقديرُ: إلى ذكرِ الله رحمتَه وثوابَه وجنتَه. وحُذف؛ للعِلم به[٣].

- وقيل: لم يَقُلْ سُبحانَه: «لذكرِ اللهِ»! بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وكأنَّ هذا اللِّينَ صار له غايةً، وهو ذِكْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

- واقتُصِرَ على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، مِن غَيرِ ذِكرِ الرَّحمةِ؛ لِأنَّ أصْلَ أمْرِه الرَّحمةُ والرَّأفةُ، ورَحمَتُه سابِقةٌ غَضَبَه، فلأصالةِ رَحمَتِه إذا ذُكِرَ لم يَخطُرْ بالبالِ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ مِن صِفاتِه إلَّا كَونُه رَؤوفًا رَحيمًا[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرَ للمؤمنينَ هنا في هذه الآيةِ حالتانِ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِوُقوعِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤).

بعْدَ قولِه: ﴿مَّثَانِيَ﴾، وفي سُورةِ (الأنفالِ) اقتُصِرَ على وَصْفِ اللهِ المؤمنينَ بالوَجَلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المقامَ هنا لِبَيانِ تأثُّرِ المؤمنينَ بالقرآنِ، والمقامَ هنالك للثَّناءِ على المؤمنينَ بالخشيةِ مِن اللهِ في غيرِ حالةِ قِراءةِ القرآنِ[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّ إجراءَ الصِّفاتِ الغُرِّ على القُرآنِ الدَّالَّةِ على أنَّه قدِ استَكمَلَ أقصَى ما يُوصَفُ به كَلامٌ بالِغٌ في نُفوسِ المُخاطَبينَ كيف سُلِكَتْ آثارُه إلى نُفوسِ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم؛ مِمَّا يُثيرُ سُؤالًا يَهجِسُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَقولَ: كيف لم تَتأثَّرْ به نُفوسُ فَريقِ المُصِرِّينَ على الكُفرِ وهو يَقرَعُ أسماعَهم يومًا فيومًا؟ فتَقَعُ جُملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جوابًا عن هذا السُّؤالِ الهاجِسِ[2].

- والإشارةُ إلى مَضمونِ صِفاتِ القُرآنِ المَذكورةِ وتأثُّرِ المُؤمنينَ بهَدْيِه، أيْ: ذلك المَذكورُ هُدى اللهِ، أيْ: جَعَله اللهُ سَبَبًا كامِلًا جامِعًا لِوَسائِلِ الهُدى.

ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وهو الكتابُ، أي: ذلك القرآنُ هُدى اللهِ، أي: دليلُ هُدى اللهِ ومَقصدُه؛ اهتدى به مَن شاء اللهُ اهتِداءَه، وكفَرَ به مَن شاء اللهُ ضَلالَه[3].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تَذييلٌ للاستِئنافِ البَيانيِّ[4].

- وفي قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩١، ٣٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٢).

هَادٍ ﴾ احتِباكٌ(١)؛ ذكَرَ أوَّلًا: إطلاقَ أمْرِه في الهدايةِ دَليلًا على حَذفِ مِثلِه في الضَّلالِ، وثانيًا: انسِدادَ بابِ الهدايةِ على مَن أضَلَّه دَليلًا على حَذْفِ مِثْلِه فيمَن هداه، وهي دامِغةٌ للقَدَريَّةِ(٢).



(١) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩١).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْخِزْيَ﴾: أي: الذُّلَّ والهوانَ، بما أنزَل بهم مِن العذابِ والنَّكالِ، وأصلُ الخِزيِ: الإبعادُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أفمَن يَلْقى النَّارَ بوَجهِه يَومَ القيامةِ لِيَكُفَّها عن نَفْسِه: خَيرٌ أمَّنْ هو آمِنٌ مِن العذابِ؟ ويُقالُ للظَّالِمينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَكسِبونَ مِن الكُفرِ والعِصيانِ.

كذَّب الَّذين مِن قَبْلِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ، فأذاقهم اللهُ العذابَ الَّذي يُذِلُّهم ويُخزِيهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعذابُ الآخرةِ أكبَرُ، لو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاتَّعَظوا وآمَنوا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنكارَ على مَن سَوَّى بيْنَ مَن شَرَح صَدْرَه ومَن ضَيَّق، وما تَبِعَه، وخَتَم بأنَّ الأوَّلَ مُهتَدٍ، والثَّانيَ ضالٌّ؛ شَرَع في بيانِ ما لِكُلٍّ منهما[1].

وأيضًا لَمَّا حَكَم على القاسيةِ قُلوبُهم بحُكمٍ في الدُّنيا، وهو الضَّلالُ التَّامُّ؛ حَكَم عليهم في الآخِرةِ بحُكمٍ آخَرَ، وهو العَذابُ الشَّديدُ، فقال[2]:

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: أفَمَن يتَّقي بوَجهِه العَذابَ السَّيِّئَ يومَ القيامةِ خَيرٌ أمَّنْ ليس كذلك، فهو مِنَ الآمِنينَ المُنعَّمينَ[3]؟

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

أي: ويُقالُ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالكُفرِ والمعاصي: ذوقوا جزاءَ ما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

قال ابن جُزَي: (ومعنى ﴿يَتَّقِي﴾ يَلْقى النَّارَ بوجْهِه لِيَكُفَّها عن نفْسِه؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا لَقِيَ شيئًا مِن المَخاوفِ استقبَلَه بيدَيْه، وأيدي هؤلاء مَغلولةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٠).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال عَطاءٌ وابنُ زَيدٍ: يُرْمَى به مكتوفًا في النَّارِ، فأوَّلُ شَيءٍ تَمَسُّ منه وَجْهُه. وقال مُجاهِدٌ: يُجَرُّ على وَجْهِه في النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١).

وقال البِقاعي: (دلَّ على أنَّ يَدَه الَّتي جَرَت العادةُ بأنَّه يَتَّقي بها المَخاوِفَ مَغلولةٌ، بقَولِه: ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ الَّذي كان يَقيه المخاوِفَ ويَحميه منها، بجَعْلِه -وهو أشرَفُ أعضائِه- وِقايةً يَقي به غيرَه مِن بَدَنِه ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾... يُرمَى به في النَّارِ منكوسًا وهو مُكَبَّلٌ، لا شَيءَ له مِن أعضائِه مُطلَقٌ يَرُدُّ به عن وَجْهِه... ويُسحَبُ في النَّارِ على وَجهِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩٢).

كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرٍ وعِصيانٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: كذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابٍ جاءَهم مِن جِهةٍ لم يَتوقَّعوا مَجيئَه منها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبغويُّ، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ العُمومُ؛ فيَشمَلُ كُفَّارَ مَكَّةَ وغيرَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٧-٢٠٨).

قال أبو حيان: (﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: مِن الجهةِ الَّتي لا يَشعُرونَ أنَّ العذابَ يأتيهم مِن قِبَلِها، ولا يَخطُرُ ببالِهم أنَّ الشَّرَّ يأتيهم منها، كانوا في أمْنٍ وغِبطةٍ وسرورٍ، فإذا هم مُعَذَّبونَ مَخزيُّونَ ذَليلونَ في الدُّنيا؛ مِن ممسوخٍ ومقتولٍ ومأسورٍ ومَنفيٍّ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (﴿حَيْثُ﴾ ظَرفُ مَكانٍ، أي: جاء العذابُ الَّذين مِن قَبْلِهم مِن مَكانٍ لا يَشعُرونَ =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ * أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف: ٩٦ - ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: فعَجَّل اللهُ لِكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ عذابَ الذُّلِّ والهَوانِ في الحياةِ الدُّنيا[١].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انتِظارُ الفَرَجِ مِمَّا يُسَلِّي، قال مُعْلِمًا أنَّ عذابَهم دائِمٌ على سَبيلِ التَّرقِّي إلى ما هو أشَدُّ[٢]:

= به؛ فقَومٌ أتاهم مِن جِهةِ السَّماءِ بالصَّواعِقِ، وقَومٌ أتاهم مِنَ الجَوِّ مِثلُ رِيحِ عادٍ... وقَومٌ أتاهم مِن تحتِهم بالزَّلازِلِ والخَسْفِ...، وقَومٌ أتاهم مِن نَبعِ الماءِ مِن الأرضِ مِثلُ قَومِ نُوحٍ، وقَومٌ عَمَّ عليهم البَحرُ مِثلُ قَومِ فِرعَونَ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ مِن عَذابِ الدُّنيا، فلو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاعتَبَروا واتَّعَظوا، فآمَنوا ولم يُعَرِّضوا أنفُسَهم لِعَذابِ اللهِ تعالى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُعِل إتيانُه مِن مَأمَنِهم؛ لِيَكونَ ذلك أوجَعَ للمُعَذَّبِ، وأدَلَّ على القُدرةِ، بأنَّه سَواءٌ عندَه تعالى الإتيانُ بالعذابِ مِن جِهةٍ يُتوقَّعُ منها، ومِن جهةٍ لا يُتوقَّعُ أن يأتيَ منها شَرٌّ ما -فَضلًا عمَّا أُخِذوا به- بل لا يُتوقَّعُ منها إلَّا الخَيرُ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّه لَمَّا بَيَّن أنَّه أتاهم العَذابُ في الدُّنيا؛ بَيَّنَ أيضًا أنَّه أتاهم الخِزيُ، وهو الذُّلُّ والصَّغارُ والهَوانُ؛ والفائِدةُ في ذِكرِ هذا القَيدِ: أنَّ العذابَ التَّامَّ هو أن يَحصُلَ فيه الألَمُ مَقرونًا بالهَوانِ والذُّلِّ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٩).
قال الشوكاني: (﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا مِمَّن يعلمُ الأشياءَ، ويتَفكَّرُ فيها، ويعمَلُ بمقتضى عِلْمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٨).
وقيل: المعنى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما حَلَّ بهم سَبَبُه تكذيبُهم رُسُلَهم كما كَذَّب هؤلاءِ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٩).

ﵟذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَﵞ

- قولُه: ﵟأَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚﵞ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قَبْلَه مِن تَبايُنِ حالَيِ المُهتَدي والضَّالِّ[١]. أو اعتراضٌ بيْن الثَّناءِ على القُرآنِ فيما مضَى وقولِه الآتي: ﵟوَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖﵞ [الزمر: ٢٧]. وقيل: هو تَفريعٌ على جُملةِ ﵟذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍﵞ [الزمر: ٢٣]، بدَلالةِ مَجموعِ الجُملتَينِ على فَريقينِ: فَريقٍ مُهتدٍ، وفريقٍ ضالٍّ، ففُرِّعَ على ذلك هذا الاستِفهامُ، وفي الكلامِ حذْفٌ، تَقديرُه: كمَنْ أمِنَ العذابَ، أو كمَنْ هو في النَّعيمِ؟ والاستِفهامُ تَقريريٌّ، أو إنكاريٌّ، والمَقصودُ: عَدَمُ التَّسويةِ بيْن مَن هو في العَذابِ، وهو الضَّالُّ، ومَن هو في النَّعيمِ، وهو الَّذي هداه اللهُ، وحُذِفَ حالُ الفَريقِ الآخَرِ؛ لِظُهورِه مِنَ المُقابَلةِ الَّتي اقتَضاها الاستِفهامُ، وتَقديرُ الكَلامِ: أفمَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ لِأنَّ اللهَ أضَلَّه، كمَنْ أمِنَ مِنَ العَذابِ لِأنَّ اللهَ هَداه؟ ويَجوزُ أنْ يَكونَ الكَلامُ تَفريعًا على جُملةِ ﵟوَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍﵞ [الزمر: ٢٣]، تَفريعًا لِتَعيينِ ماصَدَقَ[٢] (مَنْ) في قَولِه: ﵟوَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍﵞ، ويَكونَ (مَن يَتَّقي) خَبَرًا لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أفهو مَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ؟ والاستِفهامُ لِلتَّقريرِ[٣].

- قولُه: ﵟأَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚﵞ إذا كان وَجهُ الإنسانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢).

(٢) الماصَدَق -عندَ المَناطِقةِ-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كُلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و (٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣).

ليس مِن شأْنِه أنْ يُوقَى به شَيءٌ مِن الجسَدِ؛ إذ الوجهُ أعَزُّ ما في الجسَدِ، وهو يُوقَى ولا يُتَّقى به؛ فإنَّ مِن جِبِلَّةِ الإنسانِ إذا توقَّعَ ما يُصيبُ جسَدَه، ستَرَ وَجْهَه خوفًا عليه؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الاتِّقاءُ بالوَجهِ مُستعمَلًا كِنايةً عن عَدَمِ الاتِّقاءِ، على طَريقةِ التَّهكُّمِ أو التَّلميحِ، فكأنَّه قِيل: مَن يَطلُبُ وِقايةَ وَجهِه، فلا يَجِدُ ما يَقِيه به إلَّا وَجهَه، وهذا مِن إثباتِ الشَّيءِ بما يُشبهُ نفْيَه[١].

- قَولُه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فيه احتِباكٌ[٢]؛ فذَكَر الاستِفهامَ أوَّلًا دَليلًا على حَذفِ مُتعَلَّقِه ثانيًا، وما يُقالُ للظَّالمِ ثانيًا دَليلًا على ما يُقالُ للعَدلِ أوَّلًا[٣].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ جاءَ فِعلُ ﴿وَقِيلَ﴾ بصِيغةِ المُضيِّ وهو واقعٌ في المُستَقبَلِ؛ لِأنَّه لِتحقُّقِ وُقوعِه نُزِّلَ مَنزِلةَ فِعلٍ مَضى. ويَجوزُ أنْ يكونَ جُملةُ ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، بتَقديرِ (قد)؛ ولذلك لا يُحتاجُ إلى تأويلِ صِيغةِ المُضيِّ على مَعنى الأمْرِ المُحقَّقِ وُقوعُه[٤].

- والتَّعبيرُ هنا بـ(الظَّالمينَ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -على القولِ بأنَّ المرادَ بالظالِمينَ هنا المشركونَ المُتحدَّثُ عنهم-؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ ما يُلاقونَه مِنَ العَذابِ مُسَبَّبٌ على ظُلمِهم، أيْ: شِركِهم، أي: أفمَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ فلا يَجِدُ وِقايةً تُنجيه مِن ذَوقِ العَذابِ؟ فيُقالُ لهم: ذُوقوا العَذابَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالظَّالِمينَ جَميعَ الَّذين أشرَكوا باللهِ مِنَ الأُمَمِ، غَيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٤).

خاصٍّ بالمُشرِكينَ المُتَحدَّثِ عنهم؛ فيَكونَ (الظَّالِمينَ) إظهارًا على أصْلِه؛ لِقَصدِ التَّعميمِ؛ فتَكونَ الجُملةُ في مَعنى التَّذييلِ، أيْ: ويُقالُ لِهؤلاء وأشباهِهم، ويَظهَرُ بذلك وَجهُ تَعقيبِه بقَولِه: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1] [الزمر: ٢٥].

- قولُه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ المَذوقُ هو العَذابُ؛ فهو جَزاءُ ما اكتَسَبوه في الدُّنيا مِنَ الشِّركِ وشَرائِعِه، فجُعِلَ المَذوقُ نَفْسَ ما كانوا يَكسِبونَ؛ مُبالَغةً مُشيرةً إلى أنَّ الجَزاءَ وَفْقَ أعمالِهم، وأنَّ اللهَ عادِلٌ في تَعذيبِهم[2].

- وأُوثِرَ ﴿تَكۡسِبُونَ﴾ على (تَعمَلونَ)؛ لِأنَّ خِطابَهم كان في حالِ اتِّقائِهم سُوءَ العَذابِ، ولا يَخلو حالُ المُعذَّبِ مِنَ التَّبرُّمِ الَّذي هو كالإنكارِ على مُعَذِّبِه؛ فجيءَ بالصِّلةِ الدَّالَّةِ على أنَّ ما ذاقوه جَزاءُ ما اكتَسَبوه؛ قَطعًا لِتَبرُّمِهم[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأنَّ ما ذُكِرَ قَبلَه مِن مَصيرِ المُشرِكينَ إلى سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ ويَومَ يُقالُ لِلظَّالِمينَ هم وأمثالِهم: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]؛ يُثيرُ في نُفوسِ المُؤمِنينَ سُؤالًا عن تَمتُّعِ المُشرِكينَ بالنِّعمةِ في الدُّنيا، ويَتمَنَّوْنَ أنْ يُجعَلَ لهمُ العَذابُ؛ فكان جَوابًا عن ذلك قَولُه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أيْ: هم مَظِنَّةُ أنْ يَأتيَهم العَذابُ، كما أتَى العَذابُ الَّذين من قَبلِهم، إذْ أتاهمُ العَذابُ في الدُّنيا بدُونِ إنذارٍ، غَيرَ مُترَقِّبينَ مَجيئَه، فكان عَذابُ الدُّنيا خِزيًا يُخزي به اللهُ مَن يَشاءُ مِنَ الظَّالِمينَ، وأمَّا عَذابُ الآخِرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فجَزاءٌ يَجزي به اللهُ الظَّالِمينَ على ظُلمِهم[١].

- وضَميرُ ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عائِدٌ على (مَنْ) في قولِه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] باعتبارِ أنَّ معنى (مَن) جمْعٌ، وفي هذا تَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكينَ بعَذابٍ يَحِلُّ بهم في الدُّنيا، وهو عذابُ السَّيفِ الَّذي أخزاهم اللهُ به يومَ بَدرٍ؛ فالمرادُ بالعذابِ الَّذي أتَى الَّذين مِن قبْلِهم: هو عذابُ الدُّنيا؛ لأنَّه الَّذي يُوصَفُ بالإتيانِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ[٢].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ دالَّةٌ على تَسبُّبِ التَّكذيبِ في إتيانِ العَذابِ إليهم، فلَمَّا ساواهم مُشرِكو العَرَبِ في تكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كان سَبَبُ حُلولِ العَذابِ بأولئك مَوجودًا فيهم، فهو مُنذِرٌ بأنَّهم يَحِلُّ بهم مِثلُ ما حَلَّ بأولئك[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ في هذه الآيةِ احتِباكٌ[٤]، حيثُ ذكَرَ (الخِزْي) أوَّلًا دليلًا على إرادتِه ثانيًا، و(الأكْبَر) ثانيًا دليلًا على الكَبيرِ أوَّلًا. وسِرُّ هذا الاحتِباكِ: تَغليظُ الأمْرِ عليهم -بالجمْعِ بيْن الخِزيِ والعذابِ- لِمَا فَعَلوا برُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، بخِلافِ ما في سُورةِ (فُصِّلت) في قولِه تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فإنَّ سِياقَه للطَّعنِ في الوَحدانيَّةِ، وهي لِكثرةِ أدلَّتِها، وبُعدِها عن الشُّكوكِ، وعظيمِ المتَّصِفِ بها، وعدَمِ تأثيرِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السبق)).

(٤) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٣٧).

بشَيءٍ؛ يَكفي في نَكالِ الكافرِ به مُطلَقُ العذابِ[1].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ على ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ لِلاحتِراسِ، أيْ: إنَّ عَذابَ الآخِرةِ هو الجَزاءُ، وأمَّا عَذابُ الدُّنيا فقد يُصيبُ اللهُ به بَعضَ الظَّلَمةِ زيادةَ خِزيٍ لهم[2].

- وقولُه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكَلامِ، ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ دَلَّ عليه الكَلامُ المُتقَدِّمُ، أيْ: لو كان هؤلاء يَعلمونَ أنَّ اللهَ أذاقَ الآخَرينَ الخِزيَ في الدُّنيا بسَبَبِ تَكذيبِهمُ الرُّسُلَ، وأنَّ اللهَ أعَدَّ لهم عَذابًا في الآخِرةِ هو أشَدُّ، وضَميرُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ عائِدٌ إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾ [الزمر: ٢٥].

وجَوابُ ﴿لَوۡ﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه التَّعريضُ بالوَعيدِ في قَولِه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الزمر: ٢٥] الآيةَ، تَقديرُه: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ما حَلَّ بهم سَبَبُه تَكذيبُهم رُسُلَهم كما كَذَّبَ هؤلاء مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3]. على قولٍ في التفسيرِ.



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٣١)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾: أي: لا اعوِجاجَ فيه ولا انحِرافَ، وقيل: العِوَجُ -بالكَسرِ- في المعاني، والعَوَجُ -بالفتحِ- في الأعيانِ، وأصلُ (عوج): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

﴿ مُتَشَاكِسُونَ ﴾: أي: مُختَلِفونَ مُتنازِعونَ، وأصلُ (شكس): يدُلُّ على سُوءِ خُلُقٍ[2].

﴿ سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾: أي: خالصًا له، لا يَشرَكُه فيه غيرُه[3].

﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾: أي: تَتنازَعونَ، وتَختلِفونَ، وأصلُ (خصم): مُنازَعةٌ، وأصلُ المُخاصَمةِ: أن يَتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْمِ الآخَرِ، أي: جانِبِه[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٧) و(١٩/ ٣٠١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

قَولُه: ﴿قُرْءَانًا﴾: مَنصوبٌ على الحالِ مِنِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ المُبَيَّنِ بالقُرآنِ، وهي حالٌ مُوَطِّئةٌ؛ لأنَّ الحالَ في الحقيقةِ ﴿عَرَبِيًّا﴾، و﴿قُرْءَانًا﴾ تَوطِئةٌ له. وقيل: إنَّه مَنصوبٌ بمُقدَّرٍ، تقديرُه: أعْني، أو أخُصُّ، أو أمْدَحُ، ونحو ذلك. وقيل: يجوزُ نَصبُه على المفعوليَّةِ بـ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: يَتذكَّرونَ قُرآنًا.

قَولُه: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ نعتٌ ثانٍ لـ﴿قُرْءَانًا﴾، أو حالٌ منه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثنِيًا على كتابِه الكريمِ: ولقد بَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ يَحتاجُونَ إليه في أُمورِهم وشُؤونِهم؛ لعلَّهم يَتذَكَّرون فيَتَّعِظونَ؛ قُرآنًا عَربيًّا لا اعوِجاجَ فيه، ولا تَناقُضَ ولا اختِلافَ؛ لَعَلَّهم يَتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهيَه.

ثمَّ يَضرِبُ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شَتَّى، بعَبدٍ مَملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ؛ لِسُوءِ أخلاقِهم وطِباعِهم، وهذا العَبدُ مُوَزَّعٌ ومُمَزَّقٌ بيْنَهم، كلٌّ منهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه، وهو حائِرٌ بيْنَهم جَميعًا؛ لا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جميعًا، ولا يَملِكُ أن يُطيعَ أهواءَهم المُتنازِعةَ.

ويَضرِبُ سُبحانَه مَثَلًا للمُوحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ مَملوكٍ لسَيِّدٍ

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١٠٨٠).

واحِدٍ، وخالِصٍ له، وليس لِغَيرِه مِن سَبيلٍ عليه؛ فهو في سَلامةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، فهل يَستوي هَذانِ في العُقولِ؟ كلَّا لا يَستويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كَثيرةً، والموحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه. الحَمدُ للهِ، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ الموتَ سيَنزِلُ به كما سيَنزِلُ بأعدائِه، فيقولُ: إنَّك -يا مُحمَّدُ- صائِرٌ إلى الموتِ، وكذلك قَومُك سيَموتونَ، ثمَّ إنَّكم جَميعًا يومَ القيامةِ عِندَ ربِّكم تَختَصِمونَ فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ اللهُ بيْنَكم بالحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الفوائدَ المُتكاثِرةَ والنَّفائسَ المُتوافرةَ في هذه المَطالِبِ؛ بيَّن تعالى أنَّه بلَغت هذه البياناتُ إلى حدِّ الكمالِ والتمامِ[1].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

أي: ولقد ذكَرْنا وبيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ صِنفٍ ممَّا يَحتاجُونَ إليه مِنَ الأمثالِ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٩).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: لَعلَّهم يَتذَكَّرونَ الحَقَّ، فيَتَّعِظونَ ويَنزَجِرونَ عمَّا هم فيه مِن ضَلالٍ[1].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

أي: قُرآنًا عَرَبيًّا، لا اعوِجاجَ فيه؛ فلا لَبْسَ فيه ولا اختِلافَ، ولا خَلَلَ ولا تَناقُضَ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عِوَجٍ؛ لِيَفْهَمَه النَّاسُ ويَعْملوا به؛ فيَتَّقوا سخطَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

اللهِ وعذابَه، بامتِثالِ أوامرِه، واجتِنابِ نواهيه[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالَغَ تعالى في شَرحِ وَعيدِ الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ مَثَلٍ ما يدُلُّ على فَسادِ مَذهَبِهم، وقُبحِ طريقتِهم، فقال[٢]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾.

أي: ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شتَّى، بعَبدٍ مملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ سَيِّئةٍ أخلاقُهم، وكلٌّ مِنهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه؛ فهو يُعاني منهم لاختِلافِهم، ولا يَقِرُّ له قَرارٌ، ولا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جميعًا؛ وضرَب مَثَلًا للمُوَحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ خالِصٍ لرَجُلٍ واحِدٍ، لا يَملِكُه غَيرُه؛ فعَلِمَ مَقاصِدَ سَيِّدِه، وعَرَف الطَّريقَ إلى رِضاه، وهو في سَلامةٍ وطُمَأنينةٍ وراحةٍ من تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، مع رَحمةِ مالِكِه به، وشَفَقَتِه عليه، وإحسانِه إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال البِقاعي: (أي: لِيَكونَ حالُهم بعدَ التَّذكُّرِ النَّاشِئِ عن التَّذكيرِ حالَ مَن يُرجى له أن يَجعَلَ بيْنَه وبيْن غَضَبِ اللهِ وقايةً). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦، ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣، ١٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤)، ((تفسير =

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

أي: فهل يَستوي في العُقولِ العَبدُ المَملوكُ لِشُرَكاءَ مُتشاكِسينَ، والمملوكُ لسَيِّدٍ واحِدٍ؟ كلَّا، لا يَستَويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كَثيرةً، والموَحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه[١].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَطَل القَولُ بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأندادِ، وثَبَت أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحِدُ الأحَدُ الحَقُّ؛ ثَبَت أنَّ الحَمْدَ له لا لِغَيرِه[٢].

وأيضًا لَمَّا سَبَقَت هذه الدَّلائِلُ الظَّاهِرةُ، والبَيِّناتُ الباهِرةُ؛ قال: الحَمدُ لله على حُصولِ هذه البياناتِ، وظهورِ هذه البَيِّناتِ، وإن كان أكثَرُ الخَلقِ لم يَعرِفوها، ولم يَقِفوا عليها[٣].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

أي: الحَمدُ[٤] لله وَحْدَه دونَ كُلِّ مَن سِواه، الَّذي أقام بهذا المَثَلِ الواضِحِ

= ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الحمدُ: هو وصْفُ المحمودِ بالكمالِ محبَّةً وتعظيمًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧).

الحُجَّةَ على المُشرِكينَ، وأبان الحَقَّ مِن الباطِلِ؛ فلا يَنبغي أن يكونَ له شَريكٌ[1].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: بل أكثَرُهم[2] لا يَعلَمونَ الحَقَّ، فهم لا يَعلَمونَ أنَّ المُوحِّدَ والمُشرِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال الماوَرْدي: (﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحَدُهما: على احتِجاجِه بالمَثَلِ الَّذي خَصَمَ به المُشرِكينَ. الثَّاني: على هِدايتِه الَّتي أعان بها المؤمِنينَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٤).

(٢) قيل: أكثرُ على بابِها، والمرادُ بقولِه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثرُ النَّاسِ، وهم المشركون. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٨).

قال الشوكاني: (فإنَّ المؤمِنينَ باللهِ يَعلَمونَ ما في التَّوحيدِ مِن رِفعةِ شَأنِه، وعُلُوِّ مَكانِه، وأنَّ الشِّركَ لا يُماثِلُه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، ولا يُساويه في وَصفٍ مِن الأوصافِ، ويَعلَمونَ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَستَحِقُّ الحَمدَ على هذه النِّعمةِ، وأنَّ الحَمدَ مُختَصٌّ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (فأكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ إمَّا لجَهلِهم، أو لِغَيِّهم، فإن كانوا لجَهلِهم... فهم قد انتفى عنهم العِلمُ، وإن كان لِغَيِّهم فإنَّ العِلمَ انتفى عنهم لانتِفاءِ فائِدتِه؛ حيثُ لم يَسترشِدوا به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٤).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على المشركين، قال ابنُ جرير: (بل أكثرُ هؤلاءِ المشركينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّهما لا يَستَوِيانِ، فهم بجهلِهم بذلك يَعْبُدونَ آلِهةً شَتَّى مِن دونِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠).

وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن أكثَرَ المشركينَ عامَّةٌ أتْباعٌ لزُعمائِهم الَّذين سَنُّوا لهم الإشْراكَ وشَرائِعَه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

وقال ابن عطيَّةَ: (و«أكثر» في هذه الآيةِ على بابِها؛ لأنَّا وجَدْنا الأقَلَّ عَلِمَ أمْرَ التَّوحيدِ، وتكلَّم به، ورفَض الأصنامَ؛ كوَرَقةَ، وزَيدٍ، وقُسٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٠).

وقيل: المرادُ بالأكثَرِ الكُلُّ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧).

والأكثَرُ قد يُذكَرُ ويُرادُ به الجميعُ؛ لأنَّ أكثَرَ الشَّيءِ يَقومُ مَقامَ الكلِّ؛ فذِكْرُ الأكثَرِ كذِكْرِ الجميعِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

لا يَستَويانِ، وأنَّ عِبادةَ رَبٍّ واحدٍ خَيرٌ مِن عِبادةِ أربابٍ شَتَّى؛ فيَعبُدونَ غَيرَ اللهِ ويُشرِكونَ به(١)!

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَلتَفِتوا إلى هذه الدَّلائِلِ الباهِرةِ، أخبَرَ سُبحانَه الجَميعَ بأنَّهم مَيِّتونَ وصائِرونَ إليه، وأنَّ اختِصامَكم يكونُ بيْنَ يَدَيه يومَ القيامةِ، وهو الحَكَمُ العَدلُ؛ فيَتمَيَّزُ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ، والنَّبيُّ عليه السَّلامُ وأتْباعُه: المُحِقُّونَ الفائِزونَ بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، والكافِرونَ هم المُبطِلونَ(٢).

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾.

أي: إنَّك -يا مُحمَّدُ- صائِرٌ إلى الموتِ لا مَحالةَ، وإنَّ جَميعَ قَومِك؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، سيَموتونَ كذلك(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

قال القرطبي: (هو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أخبَرَه بمَوتِه ومَوتِهم، فاحتمَلَ خَمسةَ أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ ذلك تحذيرًا مِن الآخرةِ. الثَّاني: أن يُذَكِّرَه حَثًّا على العمَلِ. الثَّالثُ: أن يُذَكِّرَه تَوطِئةً للمَوتِ. الرَّابعُ: لئلَّا يَختَلِفوا في مَوتِه كما اختَلَفت الأُمَمُ في غيرِه، حتَّى إنَّ عُمَرَ رَضِيَ الله عنه لَمَّا أنكر مَوتَه احتَجَّ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه بهذه الآيةِ، فأمسَك [البخاري «١٢٤٢»]. الخامسُ: لِيُعْلِمَه أنَّ اللهَ تعالى قد سَوَّى فيه بيْن خَلْقِه مع تفاضُلِهم في غيرِه؛ لِتَكثُرَ فيه السَّلوةُ، وتَقِلَّ فيه الحَسرةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٠، ٥٠١).
=

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم تَختَصِمونَ يومَ القيامةِ عِندَ اللهِ رَبِّكم فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ بيْنَكم بالحَقِّ[1].

= ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُم﴾: جميعُ العالَمِ، وكلُّ العبادِ؛ أتباعُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وغيرُهم: ابنُ عطية، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُم﴾: المكذِّبونَ من قومِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، والمؤمنونَ منهم: ابن جرير، ومكي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وضميرُ الغيبةِ في ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ للمشركينَ المتحدَّثِ عنهم، وأمَّا المؤمنونَ فلا غرضَ هنا للإخبارِ بأنَّهم ميتونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

وممن اختار أنَّ الضميرَ يعودُ إلى الكفَّارِ: ابن جزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال ابن كثير: (هذه الآيةُ وإن كان سياقُها في المؤمنينَ والكافرينَ، وذِكرِ الخُصومةِ بيْنَهم في الدَّارِ الآخِرةِ؛ فإنَّها شامِلةٌ لكُلِّ مُتنازِعَينِ في الدُّنيا، فإنَّه تعادُ عليهم الخُصومةُ في الدَّارِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦، ٩٨).

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ، عن الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت هذه السُّورةُ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزُّبَيرُ: أيْ رَسولَ الله، أيُكَرَّرُ علينا ما كان بَيْنَنا في الدُّنيا مع خَواصِّ الذُّنوبِ[1]؟ قال: نعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ عليكم حتَّى يُؤدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه! فقال الزُّبَيرُ: واللهِ إنَّ الأمرَ لَشَديدٌ))[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أنَّه ينبغي للمُعَلِّمِ غيرَه أنْ يُكْثِرَ له مِن ضَربِ الأمثالِ الَّتي تُعينُه على فَهمِ المعنى؛ لأنَّ هذا هو أُسلوبُ القُرآنِ الكريمِ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ النَّاسَ كُلَّهم صائِرونَ إلى المَوتِ؛ فإنَّ الموتَ آخِرُ ما

---

(١) أي: مع السُّؤالِ عن الذُّنوبِ المخصوصةِ بكلِّ أحدٍ مِنَّا. يُنظر: ((حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (١/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٦)، وأحمد (١٤٣٤) واللفظُ له.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ). وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٦)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٢١)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٢).

يُذَكَّرُ به السَّادِرُ في غُلَوائِه[1] إذا كان قد اغترَّ بعَظَمةِ الحياةِ، ولم يَتفَكَّرْ في اختيارِ طَريقِ السَّلامةِ والنَّجاةِ[2]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ خُصَّت أمثالُ القُرآنِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ مزايا القُرآنِ؛ لأجْلِ لَفْتِ بَصائِرِهم للتَّدَبُّرِ في ناحيةٍ عَظيمةٍ مِن نواحي إعجازِه، وهي بلاغةُ أمثالِه؛ فإنَّ بُلَغاءَهم كانوا يَتنافَسونَ في جَودةِ الأمثالِ وإصابتِها المحَزَّ مِن تشبيهِ الحالةِ بالحالةِ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ كُلَّ مَثَلٍ في القُرآنِ فإنَّ فيه دَليلًا على إثباتِ القياسِ[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ في أفعالِ اللهِ تعالى وشَرعِه[5]، والرَّدُّ على الجَهميَّةِ وأشباهِهم ممَّن أنكَروا حِكمةَ اللهِ تعالى، وقالوا: «إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَفعَلُ الشَّيءَ لا لِعِلَّةٍ وحِكمةٍ، ولكنْ لِمُجَرَّدِ المَشيئةِ»! ووجْهُ ذلك: أنَّ «لعلَّ» هنا للتَّعليلِ، والتَّعليلُ يعني: إثباتَ الحِكمةِ[6].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ثناءٌ على القُرآنِ مِن حيثُ إنَّه كلامٌ، باستِقامةِ

(١) السَّادِرُ: الَّذي لا يَهتَمُّ لِشَيءٍ، ولا يُبالي ما صَنَع. والغُلَواءُ: الغُلُوُّ والتَّجاوُزُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ٥٢٨) و (٣٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ألفاظِه؛ لأنَّ اللُّغةَ العَربيَّةَ أفصَحُ لُغاتِ البَشَرِ(١).

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّه لا يُوجدُ في القرآنِ لفظٌ أعجميٌّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ القرآنَ كلَّه بأنَّه عربيٌّ، وهذا يقتضي أنَّه ليس فيه شَيءٌ مِن لغةِ العَجَمِ، ولا شكَّ أنَّ هذا هو الواقعُ؛ فليس في القرآنِ لفظٌ أعجميٌّ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ دَلالةٌ على شَرَفِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ وعِظَمِها(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ يعني: ليس فيه خَلَلٌ ولا نَقْصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ لا في ألفاظِه، ولا في مَعانيه، وهذا يَستلزِمُ كَمالَ اعتِدالِه واستِقامتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾(٤) [الكهف: ١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ جوازُ الشَّرِكةِ، وأنَّها مُشاعةٌ(٥).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ الحَمدَ المُطلَقَ إنَّما يكونُ للهِ عزَّ وجلَّ، أمَّا غيرُه فهو وإنْ حُمِدَ فليس حَمْدُه على الإطلاقِ، بل يُحمَدُ على شَيءٍ مُعَيَّنٍ وجُزءٍ مُعَيَّنٍ ممَّا يُحمَدُ عليه، أمَّا الحَمدُ على الإطلاقِ فهو للهِ ربِّ العالَمينَ عزَّ وجلَّ؛ فهو المحمودُ على كُلِّ حالٍ(٦).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يُشعِرُ بوقوعِ الهلاكِ بالذين أشرَكوا باللهِ غيرَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).
(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٥).

كقولِه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[١] [الأنعام: ٤٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] دَلالةٌ بظاهِرِها على أنَّ الشُّهَداءَ أحياءٌ غيرُ أمواتٍ، وقد قال في الآيةِ هنا لِمَن هو أفضَلُ مِن كُلِّ الشُّهَداءِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ الشُّهَداءَ يَموتونَ المَوتةَ الدُّنيَويَّةَ، فتُورَثُ أموالُهم، وتُنكَحُ نِساؤُهم بإجماعِ المُسلِمينَ، وهذه المَوتةُ هي الَّتي أخبَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه أنَّه يموتُها صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا الحياةُ الَّتي أثْبَتَها اللهُ للشُّهَداءِ في القُرآنِ، وحياتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي ثَبَت في الحديثِ أنَّه يَرُدُّ بها السَّلامَ على مَن سَلَّم عليه[٢]: فكِلْتاهما حياةٌ بَرزخيَّةٌ ليست مَعقولةً لأهلِ الدُّنيا، فأمَّا ما جاء في الشُّهَداءِ، فقد نَصَّ تعالى على ذلك بقَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وقد فسَّرها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم تُجعَلُ أرواحُهم في حواصِلِ طُيورٍ خُضرٍ تَرتَعُ في الجنَّةِ وتأوي إلى قناديلَ مُعَلَّقةٍ تحتَ العَرشِ[٣]؛ فهم يتنَعَّمون بذلك، وأمَّا ما ثبت عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أنَّه لا يُسَلِّمُ عليه أحدٌ إلَّا رَدَّ اللهُ عليه رُوحَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (١٠٨١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صحَّحه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٤/ ١٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٤١)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٨/ ٢٧٢)، وجوَّده العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٠٩)، وحسَّنه السَّخاويُّ في ((القول البديع)) (ص: ٢٢٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٠٤١). وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٨): (رواته ثقات).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

حتَّى يَرُدَّ عليه السَّلامَ[(١)]، وأنَّ اللهَ وكَلَ ملائِكةً يُبَلِّغونَه سَلامَ أُمَّتِه[(٢)]؛ فإنَّ تلك الحياةَ أيضًا لا يَعقِلُ حقيقتَها أهلُ الدُّنيا، وهي ثابتةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ رُوحَه الكريمةَ في أعلى عِلِّيِّينَ مع الرَّفيقِ الأعلى فَوقَ أرواحِ الشُّهَداءِ؛ فتَعَلُّقُ هذه الرُّوحِ الطَّاهرةِ -الَّتي هي في أعلى عِلِّيِّينَ- بهذا البَدَنِ الشَّريفِ الَّذي لا تأكُلُه الأرضُ: يَعلَمُ اللهُ حَقيقتَه ولا يَعلَمُها الخَلْقُ، كما قال في جِنسِ ذلك: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾، ولو كانت كالحياةِ الَّتي يَعرِفُها أهلُ الدُّنيا لَمَا قال الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مات[(٣)]، ولَمَا جاز دَفْنُه، ولا نُصِبَ خَليفةٌ غَيرُه، ولا قُتِل عُثمانُ، ولا اختلَف أصحابُه، ولا جرَى على عائِشةَ ما جرى، ولَسألوه عن الأحكامِ الَّتي اختلَفوا فيها بعدَه كالعَولِ[(٤)]، وميراثِ الجَدِّ والإخوةِ... ونحو ذلك، وممَّا يُقرِّبُ هذا للذِّهنِ حياةُ النَّائِمِ؛ فإنَّه يُخالِفُ الحيَّ في جميعِ التَّصرُّفاتِ، مع أنَّه يُدرِكُ الرُّؤيا، ويَعقِلُ المعانيَ[(٥)]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الاختِصامَ مِن مُقتَضى

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي (١٢٨٢)، وأحمد (٣٦٦٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (٩١٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٣١١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٢٨٢)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٥٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٥٤)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٤) العَول: هو زيادةُ السِّهامِ على أجزاءِ أصلِ المسألةِ وارتفاعُها، أو زيادةُ السِّهامِ على الفريضةِ، فتَعولُ المسألةُ إلى سِهامِ الفريضةِ، فيَدخُلُ النُّقصانُ عليهم بقَدرِ حِصَصِهم. يُنظر: ((تحرير ألفاظ التنبيه)) للنووي (ص: ٢٤٧)، ((المطلع على ألفاظ المقنع)) للبعلي (ص: ٣٦٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤، ٢٥).

رُبوبيَّتِه عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه حَكَمٌ عَدلٌ، ومِن عَدلِه أنَّه يَفصِلُ بيْنَ المُتنازِعينَ فيه يومَ القيامةِ كما يَفصِلُ بيْنَ المُتنازِعينَ في الحُقوقِ الخاصَّةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو تَتِمَّةٌ لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ وإرشادِه، ولِلتَّعريضِ بتَسفيهِ أحلامِ الَّذين كَذَّبوا به، وأعرَضوا عن الاهتِداءِ بهَدْيِه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فيه تأكيدُ الخَبَرِ بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ)، وهو مَنظورٌ فيه إلى حالِ الفَريقِ الَّذين لم يَتَدبَّروا القُرآنَ، وطَعَنوا فيه، وأنكَروا أنَّه مِن عِندِ اللهِ[٣].

- والتَّعريفُ في (النَّاسِ) لِلاستِغراقِ، أي: لِجَميعِ النَّاسِ؛ فإنَّ اللهَ بَعَثَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِلنَّاسِ كافَّةً[٤].

- وتَنوينُ ﴿مَثَلٍ﴾ لِلتَّعظيمِ والشَّرَفِ، أيْ: مِن كُلِّ أشرَفِ الأمثالِ، فالمَعنى: ذَكَرْنا لِلنَّاسِ في القُرآنِ أمثالًا هي بَعضٌ مِن كُلِّ أنفَعِ الأمثالِ وأشرَفِها[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

- انتَصَبَ ﴿قُرْآنًا﴾ على الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ المُبيَّنِ بالقُرآنِ؛ فالحالُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُوطِّئةٌ -على أحدِ الأقوالِ-، والمَقصودُ مِنَ الحالِ التَّورُّكُ على المُشركينَ؛ حيثُ تَلَقَّوُا القُرآنَ تَلقِّيَ مَن سَمِعَ كَلامًا لم يَفهَمْه، كأنَّه بلُغةٍ غيرِ لُغَتِه، لا يُعيرُه بالًا، كقَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع التَّحدِّي لهم بأنَّهم عَجَزوا عن مُعارَضَتِه وهو مِن لُغَتِهم[١].

- قولُه: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ هذا ثَناءٌ على القُرآنِ بكَمالِ مَعانيه بَعدَ أنْ أُثنيَ عليه باستِقامةِ ألفاظِه، ووَجْهُ العُدولِ عن وَصْفِه بالاستِقامةِ إلى وَصفِه بانتِفاءِ العِوَجِ عنه التَّوسُّلُ إلى إيقاعِ ﴿عِوَجٍ﴾ وهو نَكِرةٌ في سياقِ ما هو بمَعنى النَّفيِ، وهو كَلِمةُ (غَير)، فيُفيدُ انتِفاءَ جِنسِ العِوَجِ على وَجهِ عُمومِ النَّفيِ، أيْ: ليس فيه عِوَجٌ قَطُّ، ولا اختِلافَ فيه بوَجهٍ مِن الوُجوه، والاستقامةُ يجوزُ أن تكونَ مِن وجْهٍ دونَ وجهٍ؛ فقولُه: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أبْلَغُ مِن المستقيم، وأخَصُّ بالمعاني، ولِأنَّ لَفْظَ ﴿عِوَجٍ﴾ مُختَصٌّ باختِلالِ المَعاني، فيَكونُ الكَلامُ نَصًّا في استِقامةِ مَعاني القُرآنِ؛ لِأنَّ الدَّلالةَ على استِقامةِ ألفاظِه ونَظْمِه قدِ استُفيدَتْ مِن وَصْفِه بكَونِه عَرَبيًّا[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقال قبْلُ: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]؛ لِأنَّهم إذا تَذكَّروا يُسِّرتْ عليهمُ التَّقْوى، ولِأنَّ التَّذكُّرَ أنسَبُ بضَربِ الأمثالِ؛ لِأنَّ في الأمثالِ عِبرةً بأحوالِ المُمَثَّلِ به، فهي مُفْضيةٌ إلى التَّذكُّرِ، والاتِّقاءُ أنسَبُ بانتِفاءِ العِوَجِ؛ لِأنَّه إذا استَقامَتْ مَعانيه واتَّضَحتْ، كان العَمَلُ بما يَدعو إليه أيسَرَ، وذلك هو التَّقْوى[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٩).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ الآيةَ، استِئنافٌ، وهو من قَبيلِ التَّعرُّضِ إلى المَقصودِ بَعدَ المُقدِّمةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧] تَوطِئةٌ لِهذا المَثَلِ المَضروبِ لِحالِ أهلِ الشِّركِ وحالِ أهلِ التَّوحيدِ، وفي هذا الانتِقالِ تَخلُّصٌ؛ أُتْبِعَ تَذكيرُهم بما ضُرِبَ لهم في القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ على وَجهِ إجمالِ العُمومِ؛ استِقصاءً في التَّذكيرِ، ومُعاوَدةً لِلإرشادِ، وتَخلُّصًا مِن وَصفِ القُرآنِ بأنَّ فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ؛ إلى تَمثيلِ حالِ الَّذين كَفَروا بحالٍ خاصٍّ، فهذا المَثَلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾، إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ فهو مَثَلٌ لِحالِ مَن شَرَحَ اللهُ صُدورَهم لِلإسلامِ، وحالِ مَن قَسَتْ قُلوبُهم[(١)].

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ...﴾ فيه مَجيءُ فِعلِ ﴿ضَرَبَ﴾ بصيغةِ الماضي، مع أنَّ ضَرْبَ هذا المَثلِ ما حَصَل إلَّا في زَمَنِ نُزولِ هذه الآيةِ؛ لِتَقريبِ زَمَنِ الحالِ مِن زَمَنِ الماضي؛ لِقَصدِ التَّشويقِ إلى عِلْمِ هذا المَثَلِ، فيُجعَلُ كالإخبارِ عن أمْرٍ حَصَل؛ لِأنَّ النُّفوسَ أرغَبُ في عِلْمِه، كقَولِ المُثوِّبِ: قد قامَتِ الصَّلاةُ، وفيه التَّنبيهُ على أنَّه أمْرٌ مُحقَّقُ الوُقوعِ[(٢)]. وقيل: إنَّ فِعلَ (ضرَبَ) مُستعمَلٌ في معنى الأمْرِ، فالمعنى: اضرِبْ لهم مَثلًا، وقُلْ لهم: ما تَقولون في رجُلٍ مِن المَماليكِ قد اشترَكَ فيه شُركاءُ... إلخ؟ والخبَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هنا مُستعمَلٌ في الطَّلَبِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا سمِعَ قولَه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧]، عَلِم أنَّه سيَنزِلُ عليه مَثَلٌ من أمثالِ القرآنِ، فأنْبَأه اللهُ بصِدقِ ما عَلِمَه، وجَعَله -لِتَحقُّقِه- كأنَّه ماضٍ. والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ سؤالُ تَبكيتٍ؛ فعُدِلَ عن مُقْتضى الظَّاهِرِ مِن إلقاءِ ضَرْبِ المثَلِ بصِيغةِ الأمْرِ، إلى إلقائِه بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لإفادةِ صِدقِ عِلمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وقد يُقال: إنَّما عُدِل عن أنْ يُصاغَ بصِيغةِ الطَّلَبِ -كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]- إلى أنْ صِيغَ بصِيغةِ الخبرِ؛ لِيُتَوسَّلَ بذلك إلى إسنادِه إلى اللهِ؛ تَنويهًا بشَأْنِ المثَلِ[1].

- قولُه: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ...﴾ وما بَعْدَه في مَوضِعِ البَيانِ لـ ﴿مَثَلًا﴾، وجَعْلُ المُمَثَّلِ به حالةَ رَجُلٍ، ليس لِلاحترازِ عنِ امرأةٍ أو طِفلٍ؛ ولكنْ لِأنَّ الرَّجُلَ هو الَّذي يَسبِقُ إلى أذهانِ النَّاسِ في المُخاطَباتِ والحِكاياتِ، ولِأنَّ ما يُرادُ مِنَ الرَّجُلِ مِنَ الأعمالِ أكثَرُ ممَّا يُرادُ مِنَ المَرأةِ والصَّبيِّ، ولِأنَّ الرَّجُلَ أشَدُّ شُعورًا بما هو فيه مِنَ الدَّعةِ أو الكَدِّ، وأمَّا المَرأةُ والصَّبيُّ فقد يَغفُلانِ ويَلهَيانِ[2].

- وهذا تَمثيلٌ لِحالِ المُشرِكِ في تَقسُّمِ عَقلِه بيْنَ آلِهةٍ كَثيرينَ، فهو في حَيرةٍ وشَكٍّ مِن رِضا بَعضِهم عنه، وغَضَبِ بَعضٍ، وفي تَردُّدِ عِبادَتِه إنْ أرضى بها أحَدَ آلِهَتِه، لَعَلَّه يُغضِبُ بها ضِدَّه؛ فرَغَباتُهم مُختَلِفةٌ، وبَعضُ القَبائِلِ أَوْلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤) و (٢٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٤٠١).

ببَعضِ الأصنامِ مِن بَعضٍ، ويَبقَى هو ضائِعًا لا يَدري على أيِّهم يَعتَمِدُ؛ فهَمُّه شَعاعٌ (مُتفرِّقٌ)، وقَلْبُه أوزاعٌ -بحالِ مَملوكٍ اشتَرَك فيه مالِكونَ لا يَخلونَ مِن أنْ يَكونَ بَيْنَهمُ اختِلافٌ وتَنازُعٌ، فهم يَتَعاوَرونَه في مِهَنٍ شَتَّى، ويَتَدافَعونَه في حَوائِجِهم، فهو حَيرانُ في إرضائِهم، تَعبانُ في أداءِ حُقوقِهم، لا يَستَقِلُّ لَحظةً، ولا يَتمَكَّنُ مِنِ استِراحةٍ، ويُقابِلُه تَمثيلُ حالِ المُسلِمِ المُوحِّدِ؛ يَقومُ بما كَلَّفَه رَبُّه، عارِفًا بمَرضاتِه، مُؤمِّلًا رِضاه وجَزاءَه، مُستَقِرَّ البالِ؛ بحالِ العَبدِ المَملوكِ الخالِصِ لِمالِكٍ واحِدٍ، قد عَرَف مُرادَ مَولاه، وعَلِم ما أوجَبَه عليه؛ ففَهْمُه واحِدٌ، وقَلبُه مُجتَمِعٌ، وكذلك الحالُ في كُلِّ مُتَّبِعِ حَقٍّ ومُتَّبِعِ باطِلٍ؛ فإنَّ الحَقَّ هو المُوافِقُ لِمَا في الوُجودِ والواقِعِ، والباطِلَ مُخالِفٌ لِما في الواقِعِ، فمُتَّبِعُ الحَقِّ لا يَعترِضُه ما يُشَوِّشُ عليه بالَه، ولا ما يُثقِلُ عليه أعمالَه، ومُتَّبِعُ الباطِلِ يَتَعثَّرُ به في مَزالِقِ الخُطى، ويَتخَبَّطُ في أعمالِه بيْن تَناقُضٍ وخَطَأٍ[1].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ تَقريرِيًّا، ويَجوزُ أنْ يَكونَ إنكارِيًّا، وجيءَ فيه بـ﴿هَلْ﴾؛ لِتَحقيقِ التَّقريرِ أوِ الإنكارِ، والاقتِصارُ في التَّمييزِ على الواحِدِ لِبَيانِ الجِنسِ، وقد عُرِفَ التَّعدُّدُ من فاعلِ ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾[2]. وأيضًا جاء التَّعبيرُ بقولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يَقُلْ: مَثَلَينِ؛ لأنَّهما كِلَيْهما ضُرِبَا مَثَلًا واحدًا؛ فجَرى المَثَلُ بالتَّوحيدِ، كما قال جَلَّ ثَناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]؛ إذ كان مَعناهما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٢).

واحدًا في الآيةِ[1].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ جَوابًا لِلاستِفهامِ التَّقريريِّ، بِناءً على أنَّ أحَدَ الظَّرفَينِ المُقرَّرَ عليهما مُحقَّقُ الوُقوعِ، لا يَسَعُ المُقرَّرَ عليه إلَّا الإقرارُ به، فيُقدِّرونَ: أنَّهم أقَرُّوا بعَدَمِ استِوائِهما في الحالةِ، أيْ: بأنَّ أحَدَهما أفضَلُ مِنَ الآخَرِ؛ فإنَّ مِثلَ هذا الاستِفهامِ لا يَنتظِرُ السَّائِلُ جوابًا عنه. وقد يُبنى على أنَّ المَسؤولَ اعترَف، فيُؤتَى بما يُناسِبُ اعترافَه كما هنا، فكَأنَّهم قالوا: لا يَستَويانِ، وذلك هو ما يَبتَغيه المُتكلِّمُ مِن استِفهامِه، فلَمَّا وافَقَ جَوابُهم بُغيةَ المُستَفهِمِ حَمِدَ اللهَ على نُهوضِ حُجَّتِه، فتَكونُ الجُملةُ استِئنافًا؛ فمَوقِعُها كمَوقِعِ النَّتيجةِ بَعدَ الدَّليلِ، وتكون جُملةُ ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قَرينةً على أنَّهم نُزِّلوا مَنزلةَ مَن عَلِم فأقَرَّ، وأنَّهم ليسوا كذلك في الأمْرِ نَفْسِه. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً إذا جُعِل الاستِفهامُ إنكاريًّا، فتَكونَ مُعترِضةً بيْنَ الإنكارِ وبيْنَ الإضرابِ الانتِقاليِّ في قَولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أيْ: لا يَعلَمونَ عَدَمَ استِواءِ الحالَتَيْنِ، ولو عَلِموا لاختاروا لأنفُسِهمُ الحُسنَى منهما، ولَمَا أصَرُّوا على الإشراكِ، وأفادَ هذا أنَّ ما انتَحَلوه مِنَ الشِّركِ وتَكاذيبِه لا يَمُتُّ إلى العِلْمِ بصِلةٍ؛ فهو جَهالةٌ واختِلاقٌ[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿بَلۡ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ؛ تَسجيلًا عليهم بالجَهلِ المُفرِطِ، وأنَّهم مِمَّن طُبِعَ على قُلوبِهم، فلا يَلتَفِتونَ إلى هذه البَياناتِ الظَّاهِرةِ، والحُجَجِ المُتَظاهِرةِ، مع كمالِ ظُهورِها، فيَبْقَون في وَرطةِ الشِّركِ والضَّلالِ، وأسنَدَ عَدَمَ العِلْمِ لِأكثَرِهم؛ لِأنَّ أكثَرَهم عامَّةٌ أتْباعٌ لِزُعَمائِهمُ الَّذين سَنُّوا لهمُ الإشراكَ وشَرائِعَه؛ انتِفاعًا بالجاهِ والثَّناءِ الكاذِبِ، بحيثُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٢، ٤٠٣).

غَشَّى ذلك على عَمَلِهم(١)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

- جُمْلَتا ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ استِئنافٌ، تَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِنَ الاختِصامِ يَومَ القيامةِ، وعُطِفَ على هاتَينِ الجُملَتَينِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على التَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الإنباءَ بالفَصلِ بيْنَهم يَومَ القيامةِ أهَمُّ في هذا المَقامِ مِنَ الإنباءِ بأنَّهم صائِرونَ إلى المَوتِ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قَدَّم تذكيرَهم بأنَّ النَّاسَ كلَّهم صائِرونَ إلى الموتِ، وهذا مِن انتِهازِ القُرآنِ فُرَصَ الإرشادِ والمَوعظةِ؛ فالمَقصودُ هو قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، فاغتُنِمَ هذا الغَرَضُ لِيُجتَلَبَ معه مَوعِظةٌ بما يَتقَدَّمُه مِنَ الحَوادِثِ؛ عَسى أنْ يَكونَ لهم بها مُعتَبَرٌ، فحَصَلتْ بهذا فَوائِدُ؛ منها: تَمهيدُ ذِكرِ يَومِ القِيامةِ، ومِنها التَّذكيرُ بزَوالِ هذه الحَياةِ، فهذانِ عامَّانِ لِلمُشركينَ والمُؤمِنينَ. ومنها: حَثُّ المُؤمِنينَ على المُبادَرةِ لِلعَمَلِ الصَّالِحِ. ومِنها: إشعارُهم بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَموتُ كما ماتَ النَّبيُّونَ مِن قَبلِه؛ لِيَغتَنِموا الانتِفاعَ به في حَياتِه، ويَحرِصوا على مُلازَمةِ مَجلِسِه. ومنها: ألَّا يَختَلِفوا في مَوتِه كما اختَلَفتِ الأُمَمُ في غَيرِه. ومنها: تَعليمُ المُسلمينَ أنَّ اللهَ سَوَّى في المَوتِ بيْنَ الخَلقِ دُونَ رَعْيٍ لِتَفاضُلِهم في الحياةِ؛ لِتَكثُرَ السَّلوةُ، وتَقِلَّ الحَسرةُ(٣).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣، ٤٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤).

- والخِطابُ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ بالمُشركينَ؛ إذْ كانوا يَقولونَ: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والمَعنى: أنَّ المَوتَ يأتيكَ ويأتيهم، فما يُدري القائِلينَ: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أنْ يَكونوا يَموتونَ قَبْلَكَ؟! وتَأكيدُ الخَبرَيْنِ بـ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ المَعنى التَّعريضيِّ المَقصودِ منهما(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ تأكيدُ هذه الجُملةِ بـ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنكارِ المُشرِكينَ البَعثَ(٢).

- وتَقديمُ ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ على ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ورِعايةِ الفاصِلةِ(٣).

- والاختِصامُ: قيل: هو كِنايةٌ عنِ الحُكمِ بيْنَهم، أيْ: يَحكُمُ بيْنَكم فيما اختَصَمتُم فيه في الدُّنيا؛ من إثباتِ المُشرِكينَ آلِهةً، وإبطالِكم ذلك؛ فهو كقَولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاختِصامُ أُطلِقَ على حِكايةِ ما وَقَعَ بيْنَهم في الدُّنيا حينَ تُعرَضُ أعمالُهم، كما يُقالُ: هذا تَخاصُمُ فُلانٍ وفُلانٍ، في طالِعِ مَحضَرِ خُصومةٍ ومُقاوَلةٍ بيْنَهما يُقرَأُ بيْن يَدَي القاضي. ويَجوزُ أنْ تُصوَّرَ خُصومةٌ بيْن الفَريقَينِ يَومَئِذٍ؛ لِيُفتَضَحَ المُبطِلونَ، ويُبهَجَ أهلُ الحَقِّ، على نَحوِ قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾(٤) [ص: ٦٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ
ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَثْوًى﴾: أي: منزلٌ ومقامٌ ومَأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ[1].

﴿لِيُكَفِّرَ﴾: أي: لِيستُرَ، ولا يؤاخِذَ، وأصلُ (كفر): سترٌ وتغطيةٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى محذِّرًا المشركينَ الَّذين افترَوا على الله، وكذَّبوا بالحقِّ: لا أحَدَ أظْلَمُ ممَّن كذَبَ على اللهِ، وكذَّبَ بالحَقِّ إذ جاءَه مِن قِبَلِ الرَّسولِ، أليس في جَهنَّمَ مُستقَرٌّ للكافِرينَ؟

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حُسْنَ عاقِبةِ أهلِ الصِّدقِ والإيمانِ، فيقولُ: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصَدَّقوا به، أولئكَ هم المتَّقونَ. لهم عِندَ رَبِّهم ما يَشاؤونَ، وذلك جزاءُ الَّذين أحْسَنوا في الدُّنيا؛ لِيُكفِّرَ اللهُ عن المحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ، ويَجزيَهم اللهُ ثوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن كذَبَ على اللهِ، فنَسَب إليه باطِلًا -كمَن زعَمَ أنَّ لله شُرَكاءَ في عبادتِه- وكذَّب بالحَقِّ المُشتَمِلِ على الصِّدقِ حينَ بلَغَه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٠-٢٣٢).

قال الماوَرْدي: (وفي «الصِّدق» قَولان؛ أحَدُهما: أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: القُرآنُ. قاله مجاهِدٌ وقَتادةُ. ويحتمِلُ ثالثًا: أنَّه البَعثُ والجَزاءُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصِّدقِ هنا: التَّوحيدُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الإخبارُ بوحدانيَّةِ الله تعالى، وأنَّه يَبعَثُ عبادَه للجزاءِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٣، ٥٠٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصِّدق هنا: القُرآنُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثَّعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّوحيدُ والقرآنُ: السمرقنديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨).

وممَّن اختار العمومَ، وأنَّ المرادَ: ما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم: الزمخشري، وابن عطية، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.

أي: أليس في جَهنَّمَ مَأوًى ومُستَقَرٌّ لأولئك الَّذين كَفَروا؛ بكَذِبِهم على اللهِ، وتَكذيبِهم بالصِّدقِ لَمَّا جاءهم، وكذلك لِكُلِّ كافِرٍ باللهِ تعالى[1]؟

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الكاذِبَ المكَذِّبَ، وجِنايتَه وعُقوبتَه؛ ذكَرَ الصَّادِقَ المصَدِّقَ وثَوابَه[2].

= ابن عطية)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠).

قال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ أي: بما كان صادِقًا؛ سواءٌ في القرآنِ أو في السُّنَّةِ، فإنَّه داخلٌ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢-٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ ﴾.

أي: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصدَّقوا به: هم الَّذين تَتحَقَّقُ فيهم صِفةُ التَّقْوى لله تعالى[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١-٢٤٤).

قال ابن جرير: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّق به، وما ذلك؟ فقال بعضُهم: الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قالوا: والصِّدْقُ الَّذي جاء به: لا إلهَ إلَّا اللهُ، والَّذي صَدَّق به أيضًا هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والَّذي صَدَّقَ به: أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والصِّدْقُ: القرآنُ، والمُصَدِّقون به: المؤمنونَ...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ جبريلُ، والصِّدْقُ: القرآنُ الَّذي جاء به من عِنْدِ اللهِ، وصَدَّق به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: المؤمنون، والصِّدْقُ: القرآنُ، وهم المُصَدِّقون به ...). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٤، ٢٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ذكر البخاريُّ في «صحيحِه» تفسيرَ مجاهِدٍ، وهو أصَحُّ تفاسيرِ التَّابعينَ، قال: «﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾ القُرآن، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ المؤمنُ يجيءُ يومَ القيامةِ يقولُ: هذا الَّذي أعطَيْتَني عَمِلتُ بما فيه». فذكَرَ الصِّدقَ والمصَدِّقَ به مُثْنيًا عليه، وذكَرَ الكاذِبَ والمكَذِّبَ للحَقِّ، وهما نوعانِ مِن القَولِ مَلْعونانِ هما وأهلُهما). ((الاستقامة)) (١/ ٢٢٤، ٢٢٥). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٥) و(٩/ ١٥٢).

وقال ابنُ كثير: (وهذا القولُ عن مُجاهِدٍ يَشملُ كلَّ المؤمنينَ؛ فإنَّ المؤمنَ يقولُ الحقَّ ويَعمَلُ به، والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم أَوْلى النَّاسِ بالدُّخولِ في هذه الآيةِ على هذا التَّفسيرِ؛ فإنَّه جاء بالصِّدقِ، وصَدَّقَ المُرسَلينَ، وآمَنَ بما أُنزِل إليه مِن ربِّه والمؤمنونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (لَفظُ الآيةِ عامٌّ مُطلَقٌ، لا يَختَصُّ بأبي بَكرٍ ولا بعَليٍّ، بل كلُّ مَن دخَلَ في =

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَدَحَهم على تَقْواهم؛ قال في جوابِ مَن سأَلَ عن ثَوابِهم، لافِتًا القَولَ إلى صِفةِ الإحسانِ تعريفًا بمَزيدِ إكرامِهم[1]:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

= عُمومِها دخَل في حُكمِها، ولا رَيبَ أنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ وعَليًّا أحَقُّ هذه الأمَّةِ بالدُّخولِ فيها، لكِنَّها لا تختَصُّ بهم، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣] الآيةَ، فقد ذمَّ اللهُ سبحانه وتعالى الكاذِبَ على الله والمكذِّبَ بالصِّدقِ، وهذا ذمٌّ عامٌّ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ١٨٩، ١٩٠). ويُنظر: ((مقدمة في أصول التفسير)) لابن تيمية (ص: ٣٧).

وقال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه عَنى بقولِه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ كلَّ مَن دعا إلى توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلِه، والعملِ بما ابتُعِث به رسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مِن بيْنِ رسولِ الله وأتْباعِه والمؤمنينَ به، وأن يُقالَ: الصِّدقُ هو القرآنُ، وشَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، والمُصَدِّقُ به: المؤمنونَ بالقرآنِ، مِن جميعِ خَلْقِ الله كائنًا مَن كان، مِن نبيِّ الله وأتْباعِه...). ثم ذكَرَ حُجَّتَه في ترجيحِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ معادلٌ لقولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿فَمَنۡ﴾ هنالك للجميعِ والعُمومِ، فكذلك هاهنا هي للجنسِ أيضًا، كأنَّه قال: والفريقُ الَّذي جاء بعضُه بالصِّدقِ وصدَّق بعضُه، ويستقيمُ المعنى واللَّفظُ على هذا التَّرتيبِ ...، وهو أصْوَبُ الأقوالِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣١).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ في قولِه وعمَلِه، فدخل في ذلك الأنبياءُ ومَن قام مَقامَهم، ممَّن صدَق فيما قاله عن خبرِ الله وأحكامِه، وفيما فعَلَه مِن خِصالِ الصِّدقِ. ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالصِّدقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

أي: لأولئك المتَّقينَ عندَ رَبِّهم يومَ القيامةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم في الجنَّةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ ثَوابُ الَّذين أحسَنوا في الدُّنيا[٢].

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾.

أي: لِيُكفِّرَ[٣] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

قوله: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هم الَّذين أحسَنوا في عبادةِ الله، فعبَدوه كأنَّهم يَرَوْنه، فإن لم يَكونوا يَرَوْنه فإنَّه يَراهم، وأحسَنوا إلى عِبادِ الله. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٦).

قال ابن عاشور: (الإحسانُ: هو كمالُ التَّقْوى؛ لأنَّه فسَّره النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه» [البخاريُّ «٥٠»، ومسلم «٩»]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

(٣) قيل: التَّعليلُ هنا راجِعٌ إلى جزاء المحسِنينَ، أي: وجزى هؤلاء المحسِنينَ رَبُّهم بإحسانِهم؛ كي يُكَفِّرَ عنهم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملة: ابنُ جرير، ومكِّي، والكرماني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٤١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠١٤). =

اللهُ عن المُحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ[(١)].

= قال الرسعني: (قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ اللَّامُ مِن صِلةِ قولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[الزمر: ٣٤]). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢).

وقال أبو السعود: (﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ إلخ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ [الزمر: ٣٤]، لكنْ لا باعتِبارِ مَنطوقِه؛ ضرورةَ أنَّ التَّكفيرَ المذكورَ لا يُتصَوَّرُ كَوْنُه غايةً لِثُبوتِ ما يَشاؤونَ لهم في الآخرةِ، كيف لا وهو بعضُ ما سيَثبُتُ لهم فيها، بل باعتِبارِ فَحْواهُ؛ فإنَّه حيثُ لم يكنْ إخبارًا بما ثبت لهم فيما مَضَى -بل بما سيَثبُتُ لهم فيما سيأتي- كان في معنَى الوعدِ به). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

وقيل: التَّعليلُ راجِعٌ إلى الإحسانِ، أي: لَمَّا كان المحسِنُ مَن جَعَل أكبَرَ ذُنوبِه نُصبَ عَينَيه، وعَمِل على هَدْمِه؛ علَّل الإحسانَ بقَولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾، كأنَّه قال: المحسِنون الَّذين أحسَنوا لهذا الغَرَضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٧).

وقيل: اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ لامُ العاقبةِ، أي: عاقِبةُ التَّقْوى أن يُكفِّرَ اللهُ عنهم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوا. واستظهَر هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٨).

وقال النَّيسابوري: (قولُه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ ظاهِرُه تعلُّقُه بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾؛ فتكونُ لامَ العاقبةِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦).

ويحتمِلُ أن تكونَ للتَّعليلِ، بمعنى: أنَّهم اتَّقَوُا اللهَ؛ من أجْلِ التَّكفيرِ. ذكره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

قال ابنُ عاشور: (و﴿أَسۡوَأَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على ظاهرِ اسمِ التَّفضيلِ مِن اقتِضاءِ مُفَضَّلٍ عليه... ويجوزُ أن يكونَ «أسْوَأ» مَسْلوبَ المُفاضَلة). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

والقولُ بأنَّ أسْوَأَ اسمُ تفضيلٍ: هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، ومكِّي، وابن الجوزي، واختاره الرسعني، واستظهره أبو حيان، وهو اختيار الشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١). =

= وممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ أعمالِهم، فما ظَنُّك بغيرِ الأسْوَأِ، فإذا غفَر لهم ما هو الأسْوَأُ مِن أعمالِهم غفَر لهم ما دونَه بطريقةِ الأَوْلى: الرسعنيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١).

وقال الماوَرْدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ قبْلَ الإيمانِ والتَّوبةِ. ووَجْهٌ آخَرُ: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ مِنَ الصَّغائرِ؛ لأنَّهم يَتَّقونَ الكبائرَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧).

وانتقَد الرَّسْعَنيُّ هذَينِ الوَجهَينِ بأنَّه لا معنَى لهما؛ لأنَّ مَدلولَ الأوَّلِ أنَّ المُصَدِّقَ لا يَعمَلُ عَمَلًا يُوصَفُ بالأَسوَإِ، ولأنَّ الثَّانيَ مُشعِرٌ أنَّ المُصدِّقَ لا يَقَعُ في كبيرةٍ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢).

وقال الألوسي: (وقال غيرُ واحدٍ: «أفْعَلُ» على ما هو الشَّائعُ، والأسْوَأُ: الكفرُ السَّابقُ على التَّقْوى والإحسانِ، والمرادُ: تكفيرُ جميعِ ما سلَف منهم قبْلَ الإيمانِ مِن المعاصي بطريقٍ برهانيٍّ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦٠).

وذكر ابنُ عاشور أنَّه بناءً على هذا القولِ فالمرادُ بأسْوَأِ عَمَلِهم هو: أعظَمُه سُوءًا، وهو الشِّركُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

وقال الرَّسْعَني: (وقيل: الَّذي فَرَطَ منهم هو عندَهم الأسْوَأُ؛ لاستِعظامِهم المعصيةَ، والحَسَنُ الَّذي يَعمَلونَه هو عندَ الله الأحسَنُ؛ لحُسنِ إخلاصِهم فيه؛ فلذلك ذَكَر سَيِّئَهم بالأسْوَأِ، وحَسَنَهم بالأحسَنِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠).

وقال الألوسي: (لأنَّ التَّفضيلَ هنا مِن بابِ الزِّيادةِ المُطْلَقةِ مِن غيرِ نظرٍ إلى مُفَضَّلٍ عليه، نظرًا إلى وُصولِه إلى أقصى الغايةِ الكماليَّةِ، ثمَّ لَمَّا كانوا مُتَّقِينَ كامِلِي التُّقَى لم يكُنْ في عمَلِهم أسْوَأُ إلَّا فرضًا وتقديرًا). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦٠).

وممَّن نصَّ على أنَّ ﴿أَسْوَأَ﴾ بمعنى سَيِّئٍ، أي: أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ: جلالُ الدِّينِ المحلي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١١).

قال النسفي: (إضافةُ ﴿أَسْوَأَ﴾ و«أحسَن» مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما هو بعضُه مِن غيرِ تفضيلٍ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨).

وقال أبو السعود: (وإضافةُ الأسوإِ والأحسنِ إلى ما بعدَهما ليستْ مِن قبيلِ إضافةِ المفضَّلِ إلى المفضَّلِ عليه، بل مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه؛ للقصدِ إلى التَّحقيقِ والتَّوضيحِ، مِن غيرِ =

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما يَدُلُّ على دفعِ المَضارِّ عنهم؛ ذَكَر ما يدُلُّ على جَلْبِ أعظَمِ المنافِعِ إليهم[1].

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ويَجزيَهم اللهُ ثَوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ[2].

= اعتبارِ تفضيلِه عليه، وإنَّما المُعتبرُ فيهما مطلقُ الفضلِ والزِّيادة، لا على المضافِ إليه المعيَّنِ بخصوصِه...، وحمْلُ الزِّيادة على الحقيقةِ وإنْ أمكَنَ في الأوَّلِ [أي: قولِه: ﴿أَسْوَأَ﴾] بناءً على أنَّ تخصيصَ الأسْوَأِ بالذِّكرِ لبيان تكفيرِ ما دُونَه بطريقِ الأولويَّةِ ضرورةَ استِلزامِ تكفيرِ الأسْوَأِ لتكفيرِ السَّيِّئِ، لكنْ لَمَّا لم يكُنْ ذلك في الأحسَنِ كان الأحسَنُ نظْمَهما في سلكٍ واحدٍ من الاعتبارِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

وقال السعدي: (عَمَلُ الإنسانِ له ثَلاثُ حالاتٍ: إمَّا أسْوَأُ، أو أحسَنُ، أو لا أسْوَأُ ولا أحسَنُ؛ والقِسمُ الأخيرُ قِسمُ المباحاتِ وما لا يَتعَلَّقُ به ثَوابٌ ولا عِقابٌ، والأسْوَأُ: المعاصي كُلُّها، والأحسَنُ: الطَّاعاتُ كُلُّها؛ فبهذا التَّفصيلِ يَتبَيَّنُ معنى الآيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧).

قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ ﴿بِأَحْسَنِ﴾ أفعَلُ تفضيلٍ، فقيل: لِينظرَ إلى أحسَنِ طاعاتِه فيُجزى الباقي في الجزاءِ على قياسِه، وإن تخلَّف عنه بالتَّقصيرِ. وقيل: بأحسَنِ ثَوابِ أعمالِهم. وقيل: بأحسَنَ مِن عمَلِهم، وهو الجنَّةُ، وهذا يَنْبو عنه ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: يَجزيهم بأجرِ أحسَنِ الأعمالِ، وهي الجنَّةُ: الماوَرْديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧).

وقيل: المرادُ بالأحسَنِ: الأحسَنُ مِن الطَّاعاتِ؛ فثَمَّ حَسَنٌ وأحسَنُ منها، فإذا كان جزاءُ أحسَنِ أعمالِهم أنَّ لهم ما يَشاؤونَ عندَ رَبِّهم، كان جزاءُ ما هو دونَ الأحسَنِ مِن أعمالِهم جَزاءً دُونَ =

قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦، ٩٧].

= ذلك. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

وممَّن نصَّ على أنَّ أحْسَنَ هنا بمعنى حَسَنٍ، أي: أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ: جلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١١).

وقيل: المعنى: يَجزيهم بمحاسِنِ أعمالِهم، ولا يَجزيهم بمَساوئِها. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ الجوزي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٧٠).

وقيل: المرادُ بالأحسَنِ: الطَّاعاتُ كُلُّها. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

قال الشوكاني: (وإضافةُ الأحسَنِ إلى ما بَعْدَه ليست من إضافةِ المفَضَّلِ إلى المفَضَّلِ عليه، بل من إضافةِ الشَّيءِ إلى بَعضِه؛ قَصدًا إلى التَّوضيحِ، من غَيرِ اعتبارِ تَفضيلٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٠).

قال الزمخشري: (وأمَّا التَّفضيلُ فإيذانٌ بأنَّ... الحَسَنَ الَّذي يَعمَلونَه هو عندَ اللهِ الأحسَنُ؛ لحُسنِ إخلاصِهم فيه، فلذلك ذكَرَ... حَسَنَهم بالأحسَنِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨).

وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ يَعُدُّ لهم مَحاسِنَ أعمالِهم بأحسَنِها في زيادةِ الأجرِ وعِظَمِه؛ لفَرطِ إخلاصِهم فيها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٨).

قال الألوسي: (جُوِّزَ أن يكونَ المعنى: لَنَجزيَنَّهم بحَسَبِ أحسَنِ أفرادِ أعمالِهم، أي: لَنُعطيَنَّهم بمُقابَلةِ الفَردِ الأدنى مِن أعمالِهم ما نُعطيه بمُقابَلةِ الفَردِ الأعلى منها مِنَ الأجرِ الجَزيلِ، لا أنَّا نُعطي الأجرَ بحَسَبِ أفرادِها المُتفاوِتةِ في مَراتِبِ الحُسنِ بأنْ نَجزيَ الحَسَنَ منها بالحَسَنِ، والأحسَنَ بالأحسَنِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦١).

وقال ابنُ عثيمين: (بَشَّرهم بأنَّه يَجزيهم أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ، لا أنَّه يَجزيهم الحَسَنةَ بمِثلِها، بل أحسَنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أحسَنَ أحَدُكم إسلامَه، فكُلُّ حَسَنةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعفٍ، وكُلُّ سَيِّئةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بمِثلِها))[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- تجِدُ كثيرًا من المُنتَسِبينَ إلى عِلمٍ ودينٍ لا يَكذِبونَ فيما يَقولونَه، بل لا يَقولونَ إلَّا الصِّدقَ، لكِنْ لا يَقبَلونَ ما يُخبِرُ به غَيرُهم مِنَ الصِّدقِ، بل يَحمِلُهم الهَوى والجَهلُ على تَكذيبِ غَيرِهم وإن كان صادِقًا؛ إمَّا تكذيبِ نَظيرِه، وإمَّا تكذيبِ مَن ليس مِن طائفتِه. ونَفْسُ تَكذيبِ الصَّادِقِ هو مِنَ الكَذِبِ؛ ولهذا قرَنَه بالكاذِبِ على اللهِ، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: هو مَن شَأنُه الصِّدقُ في قَولِه وعَمَلِه وحالِه، فالصِّدقُ: في هذه الثَّلاثةِ؛ فالصِّدقُ في الأقوالِ: استِواءُ اللِّسانِ على الأقوالِ كاستِواءِ السُّنبُلةِ على ساقِها، والصِّدقُ في الأعمالِ: استِواءُ الأفعالِ على الأمرِ والمُتابعةِ كاستِواءِ الرَّأسِ على الجَسَدِ، والصِّدقُ في الأحوالِ: استِواءُ أعمالِ القَلبِ والجوارِحِ على الإخلاصِ، واستِفراغُ الوُسعِ، وبَذْلُ الطَّاقةِ؛ فبذلك يكونُ العَبدُ مِن الَّذين جاؤوا بالصِّدقِ، وبحَسَبِ كمالِ هذه الأُمورِ فيه وقيامِها به تكونُ صِدِّيقيَّتُه[3]، ولا يَكْفي صِدقُك، بل لا بدَّ مِن صدقِك وتصديقِك للصادِقينَ، فكثيرٌ مِن النَّاسِ

(١) رواه البخاري (٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٢٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٨).

يَصدُقُ، ولكنْ يَمنَعُه مِن التَّصديقِ كِبْرٌ أو حسدٌ أو غيرُ ذلك[(١)]، فلا بدَّ في المدحِ مِن الصِّدقِ والتَّصديقِ؛ فصِدقُه يدُلُّ على عِلمِه وعدلِه، وتصديقُه يدُلُّ على تَواضُعِه وعدَمِ استِكبارِه[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه الحَثُّ على الإحسانِ؛ والأمرُ بالإحسانِ والحَثُّ عليه كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ، والإحسانُ يَتَضَمَّنُ الإحسانَ في عبادةِ اللهِ تعالى، والإحسانَ إلى عبادِ اللهِ تعالى، والإحسانُ إلى عبادِ اللهِ تعالى يكونُ بالقولِ وبالفعلِ وبالجاهِ وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الإحسانِ، فلا تَدَّخِرْ وُسْعًا في بَذْلِ الإحسانِ إلى إخوانِك؛ فإنَّ ذلك ممَّا يكونُ سببًا لدُخولِ الجنَّةِ، ويكونُ أيضًا سببًا في عَونِ اللهِ تعالى لك؛ فإنَّ اللهَ تعالى في عَوْنِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ الكَذِبَ على اللهِ تعالى أظلَمُ أنواعِ الكَذِبِ، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ كَذِبًا علَيَّ ليس ككَذِبٍ على أحَدٍ!))[(٤)]، فما بالُكم بالكَذِبِ على اللهِ تعالى الَّذي أرسَلَه[(٥)]؟!

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة ((صحيحه)) (٤) من حديث المُغيرةِ بنِ شُعْبةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٧).

سؤالٌ، فـ (أظلمُ) صيغةُ تفضيلٍ، أي: أنَّه يفوقُ غيرَه، ويفضلُه في الظُّلمِ، وإذا كان المعنى: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾، فإنَّ هذا يُشكِلُ عليه آياتٌ أُخرى، كقولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، مما قد يُتوهَّمُ منه شِبهُ تعارضٍ.

الجوابُ مِن وجهَين:

أحدُهما: أنَّه لا تعارُضَ أصلًا بيْن الآياتِ؛ وإنَّما دلَّت الآياتُ على أنَّ كلَّ مَن ذُكِرَ في قولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ لا يُمكِنُ أنْ يَفوقَه أحدٌ مِن أهلِ الدُّنيا في الظُّلمِ، إلَّا أنَّهم جميعًا مُتساوونَ لا يَفوقُ بعضُهم بعضًا، وهمْ يَفوقون غيرَهم في الظُّلمِ، كما لو قلْتَ: ليس في هذا البلدِ أعلَمُ مِن زَيدٍ، وليس فيه أعلَمُ مِن عَمرٍو -وزيدٌ وعمرٌو مُستويانِ في العِلمِ-؛ فتكون صادقًا، ولا مُعارَضةَ بيْن قولَيك.

الوجهُ الثَّاني: أنَّها تَتخصَّصُ بِصِلاتِها، وعليه فيكونُ المعنى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [الأعراف: ٣٧]: أنَّه لا أحَدَ مِن جِنسِ المفترينَ أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كذِبًا، ولا أحَدَ مِن جِنسِ المانِعينَ أظْلَمُ ممَّن منَعَ مَساجِدَ اللهِ، ولا أحَدَ مِن جِنسِ المكذِّبينَ أظلَمُ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ وكذَّبَ بالصِّدْقِ... وهكذا[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وُجوبُ التَّحَرِّي في تفسيرِ القُرآنِ؛ لأنَّ المُفَسِّرَ للقُرآنِ شاهِدٌ على اللهِ تعالى بأنَّه أرادَ كذا وكذا، وقد

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢)، و(٣/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٧٤-٧٧).
والوجهُ الأوَّلُ مُخرَّجٌ على قاعدةِ: (نفْيُ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المُساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

يكونُ الأمرُ على خِلافِ ذلك، فيكونُ كاذِبًا على اللهِ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أنَّ مَنِ ادَّعى النُّبُوَّةَ وهو كاذِبٌ فهو مِن أكفرِ الكُفَّارِ، وأظلَمِ الظَّالِمينَ[٢].

٥- أنَّ مَن كَذَّبَ بالشَّيءِ المباشِرِ له فهو أعظمُ ممَّن كَذَّب بما سَمِع؛ لأنَّ الواسِطةَ بيْنَه وبيْنَ الواقعِ قد تُضْعِفُ مَقامَ الصِّدْقِ عندَه؛ لقَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾[٣].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ في قَولِه: ﴿مَثْوًى﴾ بَيانُ خَطَأِ ما يُطلِقُه كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ اليومَ: إذا مات الإنسانُ قالوا: ذَهَبَ إلى مَثواهُ الأخيرِ! فإذا جُعِلَ القَبرُ هو المَثوى الأخيرَ فلا بَعثَ، ولكِنَّ كَثيرًا مِنَ العامَّةِ يأخُذونَ الكَلِماتِ لا يُفَكِّرون في معناها، والمَثوى الأخيرُ هو إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ، وعلى هذا فيَجِبُ التَّنبُّهُ لهذه العبارةِ[٤]!

٧- قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ لا يَخْلُدُ في النَّارِ؛ لقولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، والمؤمنُ ليستِ النَّارُ مَثوًى له! بل إنْ عُذِّبَ في النَّارِ - على قَدْرِ ذَنْبِه - فمآلُه إلى الجنَّةِ[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فائدةٌ أصوليَّةٌ، وهي: أنَّ المَوصولَ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ فقد أخبَرَ عن الاسمِ المَوصولِ (الَّذي) -وهو اسمٌ مُفرَدٌ- بكلمةٍ دالَّةٍ على الجَمعِ، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولم يقُلْ: هو المُتَّقي، وذلك لأنَّ الاسمَ الموصولَ يُفيدُ العُمومَ، وإن كان مُفرَدًا[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ مَدْحُ مَن جاء بالصِّدقِ وصَدَّق بالحَقِّ الَّذي جاءه، وهذه حالُ مَن لم يَقبَلْ إلَّا الصِّدقَ، ولم يَرُدَّ ما يَجيئُه به غَيرُه من الصِّدقِ، بل قَبِلَه ولم يُعارِضْ بيْنَهما، ولم يَدفَعْ أحَدَهما بالآخَرِ[(٢)]، وأمَّا مَن لم يُصَدِّقْ بما يَشُكُّ فيه فلا حَرَجَ عليه[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ سُؤالٌ: هذا الوَعدُ يَدخُلُ فيه كُلُّ ما يَرغَبُ المكَلَّفُ فيه، فإنْ قيلَ: لا شَكَّ أنَّ الكَمالَ مَحبوبٌ لِذاتِه، مَرغوبٌ فيه لِذاتِه، وأهلُ الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّهم عُقَلاءُ، فإذا شاهَدوا الدَّرَجاتِ العاليةَ الَّتي هي للأنبياءِ وأكابِرِ الأَولياءِ، عَرَفوا أنَّها خَيراتٌ عاليةٌ، ودَرَجاتٌ كامِلةٌ، والعِلمُ بالشَّيءِ مِن حيثُ إنَّه كَمالٌ وخَيرٌ يُوجِبُ المَيلَ إليه، والرَّغبةَ فيه، وإذا كان كذلك فهم يَشاؤونَ حُصولَ تلك الدَّرَجاتِ لأنفُسِهم؛ فوَجَب حُصولُها لهم بحُكمِ هذه الآيةِ! وأيضًا فإنْ لم يَحصُلْ لهم ذلك المرادُ كانوا في الغُصَّةِ ووَحشةِ القَلبِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١، ٢٤٥).

قال الشنقيطي: (قد تَقرَّرَ عندَ العلماءِ أن لفظةَ «الَّذي» تأتي بمعنَى «الَّذين»، وإتيانُ «الَّذي» بمعنَى «الَّذين» أمْرٌ لا شَكَّ فيه، وهو كثيرٌ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ، وإيضاحُه: أنَّ لفْظَ «الَّذي» مُفْرَدٌ، وأنَّ معناها جَمْعٌ؛ لأنَّه اسمٌ مَوصولٌ، والمَوصولاتُ صِيَغُ عُمومٍ؛ تَعُمُّ كلَّ ما تَشملُه صِلاتُها، فقد يُراعَى لفظُ «الَّذي» فيُفرَدُ، وقد يُراعى معناه وهو شاملٌ لِكُلِّ ما تَشملُه صِلَتُه فيَعُمُّ، ويكونُ بمعنَى الجَمعِ. وإتيانُ «الَّذي» بمعنَى «الَّذين» في القرآنِ العظيمِ وفي كلامِ العربِ كثيرٌ جدًّا، فمِن أمثلتِه في القرآنِ العظيمِ: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ [البقرة: ١٧] أي: كمثلِ الَّذينَ اسْتَوْقَدُوا، بدليلِ قوله بعدَه يَليه: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وكقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ معناه: والَّذين جاؤوا بالصِّدقِ وصَدَّقُوا به، بدليلِ قوله بعدَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٥).

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يُزيلُ الحِقدَ والحَسَدَ عن قُلوبِ أهلِ الآخِرةِ، وذلك يقتَضي أنَّ أحوالَهم في الآخرةِ بخِلافِ أحوالِهم في الدُّنيا[١].

ويجوزُ أنَّ اللهَ يُلهِمُهم أنْ يَشاؤوا ما لا يتجاوزُ قَدْرَ ما عيَّن اللهُ مِن الدَّرجاتِ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الجنَّةِ مُتفاوِتونَ في الدَّرَجاتِ.

ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ ممَّا يقعُ تحتَ أنظارِهم في قُصورِهم، ويَحجُبُ اللهُ عنهم ما فوقَ ذلك بحيثُ لا يَسألون إلَّا ما هو مِن عطاءِ أمثالِهم، وهو عظيمٌ، ويَقلَعُ اللهُ مِن نفوسِهم ما ليس مِن حُظوظِهم.

ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ كنايةٌ عن سَعةِ ما يُعطَوْنَه[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أنَّهم سَلَّموا له في الأُولى ما يَشاءُ؛ فسَلَّم لهم في الأُخرى ما يَشاؤونَ[٣].

١٢- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥] فهؤلاء الصِّدِّيقونَ المُتَّقونَ قد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ لهم أعمالًا سَيِّئةً يُكَفِّرُها، ولا رَيبَ أنَّها ظُلمٌ للنَّفْسِ، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥]، فأخبَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

سُبحانَه عن صِفاتِ المتَّقينَ، وأنَّهم يقَعُ منهم ظُلمُ النَّفْسِ، والفاحِشةُ، لكِنْ لا يُصِرُّونَ على ذلك[(١)]. فليس مِن شرطِ أولياءِ اللهِ المُتَّقينَ ألَّا يَكونوا مُخْطِئينَ في بعضِ الأشياءِ خطأً مغفورًا لهم! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الصَّغائرِ مُطلقًا! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الكبائرِ أو الكفرِ الَّذي تَعْقُبُه التَّوبةُ! فقد وَصَفَهم اللهُ تعالى بأنَّهم هم المُتَّقونَ -والمُتَّقون هم أولياءُ اللهِ-؛ ومع هذا فأَخْبَرَ أنَّه يُكَفِّرُ عنهم أَسْوَأَ الَّذي عمِلوا[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ «أسوأُ» اسمُ تفضيلٍ، وهو على بابِه -وذلك على قولٍ-؛ فإذا كان اللهُ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ ما عَمِلوا، فما دونَه مِن بابِ أَولى، ويكونُ التَّعبيرُ بالأسْوَأِ مِن بابِ البِشارةِ لهم[(٣)]، وفيه دَلالةٌ على سُقوطِ العِقابِ عنهم على أكمَلِ الوُجوهِ، ومعنَى تكفيرِها أن يَستُرَها عليهم بالمَغفِرةِ[(٤)]، وقد عُلِمَ أنَّه إذا مُحِيَ الأكبَرُ انمحَى الأصغَرُ؛ لأنَّ الحَسَناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ؛ فلِلَّه دَرُّ أهلِ البَصائرِ، والإخلاصِ في الإعلانِ والسَّرائرِ[(٥)].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، وقولُه: ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ الخَطَراتِ الَّتي تَخطُرُ على القُلوبِ لا حُكمَ لها؛ وقد جاء الحديثُ مُؤَيِّدًا لذلك، فقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ تَجاوَزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تَعمَلْ أو تَتكلَّمْ))[(٦)].

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠). =

١٥- قال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فمَن كان في هذه الدَّارِ مُحسِنًا في وَقتٍ ما، يَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه؛ فهو في الآخِرةِ كُلَّ حينٍ يَراه[1]! قال القُشَيْريُّ: (ثمَّ أحسَنُ الأعمالِ عليها أحسَنُ الثَّوابِ، وأحسَنُ الثَّوابِ الرُّؤيةُ؛ فيَجِبُ أن تكونَ على الدَّوامِ)[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ بيانٌ وتَفسيرٌ للَّذين يكونُ بيْنَهم الخُصومةُ[3].

- وأفادَتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تَفريعَ ما بعدَها على ما قَبْلَها تَفريعَ القَضاءِ عن الخُصومةِ الَّتي في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؛ فالاختِصامُ كُنِّيَ به عن الحُكمِ بيْنَهم فيما خالَفوا فيه وأنْكَروهُ[4]. وقد كُنِّيَ عن كَونِهم مَدينينَ بتَحْقيقِ أنَّهم أظلَمُ؛ لأنَّ من العَدلِ ألَّا يُقَرَّ الظَّالِمُ على ظُلمِه، فإذا وُصِفَ الخَصمُ بأنَّه ظالِمٌ، عُلِمَ أنَّه مَحْكومٌ عليه[5].

= والحديث أخرجه البخاري (٥٢٦٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٧) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأيضًا في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ قد عُدِلَ عن صَوغِ الحُكمِ عليهم بصِيغةِ الإخْبارِ إلى صَوغِه في صُورةِ الاستِفْهامِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ السَّامِعَ لا يَسَعُه إلَّا الجَوابُ بأنَّهم أظلَمُ؛ فالاستِفهامُ كِنَايةٌ، مُرادٌ به أنَّهم أظلَمُ الظَّالِمِين، وأنَّه لا ظالِمَ أظلَمُ منهم، فآلَ مَعْناه إلى نَفيِ أنْ يكونَ فَريقٌ أظلَمَ منهم؛ فإنَّهم أتَوْا أصْنافًا مِن الظُّلمِ العَظيمِ: ظُلم الاعتداءِ على حُرمةِ الرَّبِّ بالكَذِبِ في صِفاتِه؛ إذْ زَعَموا أنَّ له شُرَكاءَ في الرُّبوبيَّةِ، والكَذِب عليه بادِّعاءِ أنَّه أمَرَهم بما هم عليه مِن الباطِلِ، وظُلمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَكْذيبِه، وظُلم القُرآنِ بنِسْبَتِه إلى الباطِلِ، وظُلمِ المُؤمنينَ بالأذى، وظُلم حَقائقِ العالَمِ بقَلْبِها وإفْسادِها، وظُلمِ أنفُسِهم بإقْحامِها في العذابِ الخالِدِ[1].

- وعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم إلى الإتيانِ بالموصولِ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وَجهِ كَونِهم أظلَمَ النَّاسِ، وإنَّما اقتُصِرَ في التَّعْليلِ على أنَّهم كَذَبوا على اللهِ، وكَذَّبوا بالصِّدقِ؛ لأنَّ هَذَينِ الكَذِبَينِ هُما جِماعُ ما أتَوْا به مِن الظُّلمِ[2].

- قولُه: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: وَقْتَ مَجيئِه، وهذا يدُلُّ على أنَّه كذَّبَ بالحَقِّ بمُجرَّدِ بُلوغِه إيَّاه بدُونِ مُهلةٍ، وفاجَأَهُ بالتَّكْذيبِ مِن غَيرِ فِكرٍ، ولا ارْتياءٍ، ولا نَظَرٍ، ومن غَيرِ وَقفةٍ لإعْمالِ رُؤيةٍ، ولا اهتِمامٍ بمَيْزٍ بيْنَ حقٍّ وباطِلٍ، بلْ وَقتَ مَجيئِه كذَّبَ به[3]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

- وجمُلةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضْمونِ جُملةِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: أنَّ ظُلمَهم أوجَبَ أنْ يَكونَ مَثْواهُم في جَهنَّمَ[١].

- والاستِفْهامُ ﴿أَلَيْسَ﴾ تَقْريريٌّ، وإنَّما وُجِّهَ الاستِفْهامُ إلى نَفْيِ ما المقصودُ التَّقْريرُ به، جَرْيًا على الغالِبِ في الاستِفْهامِ التَّقْريريِّ، وهي طَريقةُ إرْخاءِ العِنانِ للمُقرَّرِ بحيثُ يُفتَحُ له بابُ الإنكارِ، عِلمًا مِن المُتكلِّمِ بأنَّ المُخاطَبَ لا يَسَعُه الإنكارُ، فلا يَلبَثُ أنْ يُقِرَّ بالإثباتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستِفْهامُ إنْكارِيًّا؛ ردًّا لاعتقادِهم أنَّهم ناجُونَ مِن النَّارِ، الدَّالِّ عليه تَصميمُهم على الإعْراضِ عن التَّدبُّرِ في دَعْوةِ القُرآنِ[٢].

- وفيه تَوعُّدٌ للكافِرينَ تَوعُّدًا فيه احتِقارُهم على جِهةِ التَّوقيفِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ ممَّا قامَ فيه الظَّاهِرُ مَقامَ المُضمَرِ، أي: مَثوًى لهم، وفيه تَنبيهٌ على عِلَّةِ كَذِبهم وتَكْذيبِهم، وهو الكُفرُ[٤]، وأفاد الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ أيضًا العمومَ -أي أنَّه مَثْوًى له ولغيرِه مِن الكافرينَ-، وتسجيلَ الوصفِ على هؤلاء بأنَّهم كفَّارٌ[٥].

أو التَّعريفُ في (الكافِرينَ) للجِنْسِ المُفيدِ للاستِغْراقِ، فشَمِلَ الكافِرينَ المُتحَدَّثَ عنهم شُمولًا أوَّليًّا، وتكونُ الجُملةُ مُفيدةً للتَّذْييلِ أيضًا، ويكونُ اقتِضاءُ مَصيرِ الكافِرينَ المُتحَدَّثِ عنهم إلى النَّارِ ثابِتًا بشِبهِ الدَّليلِ الَّذي يعُمُّ مَصيرَ جَميعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦، ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢).

الجِنْسِ الَّذي هُمْ من أصْنافِه، وليس في الكلامِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ[(١)].

- والجَمْعُ في الكافِرينَ باعتِبارِ معْنَى (مَن) في قَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ فإنَّه يُرادُ به جَمْعٌ، كما أنَّ الإفْرادَ في الضَّمائرِ السَّابقةِ باعتِبارِ لَفظِها، أو لجِنْسِ الكَفَرةِ، وهُم داخِلونَ في الحُكمِ دُخولًا أوَّلِيًّا[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ صِلةُ مَوصول مَحْذوفٍ، تَقْديرُه: والَّذي صدَّقَ به، والقَرينةُ ظاهِرةٌ؛ لأنَّ الَّذي صَدَّقَ غَيرُ الَّذي جاءَ بالصِّدقِ؛ فالعَطفُ عَطفُ جُملةٍ كامِلةٍ، وليس عَطْفَ جُملةِ صِلةٍ[(٣)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ كِنايةٌ عن كَونِه صَلَواتُ اللهِ عليه صارَ صادِقًا بسَبَبِ القُرآنِ؛ وذلك أنَّه صَلَواتُ اللهِ عليه جاءَ بالصِّدقِ الَّذي هو القُرآنُ -على أحدِ الأوجُهِ في التَّفسيرِ-، وسُمِّيَ بالصِّدقِ مُبالَغةً، كما أشارَ إليه بقَولِه: ﴿بِالصِّدْقِ﴾ أي: بالأمْرِ الَّذي هو الصِّدقُ بعَينِه، أي: جاءَ بالقُرآنِ الَّذي هو مَحضُ الصِّدقِ، والحالُ أنَّه هو السَّبَبُ في صَيْرورتِه صادِقًا؛ لأنَّه مُعجِزةٌ، والمُعجِزةُ تَصْديقٌ من اللهِ الَّذي لا يُصَدِّقُ إلَّا الصَّادِقَ[(٤)].

- وقولُه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ مُعادِلٌ لِقَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾. وقَولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ مُقابِلٌ لِقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، و(الَّذي) جِنسٌ، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٥).

قال: والفريقُ الَّذي جاء بالصِّدقِ، ويدُلُّ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ فإنَّه جمْعٌ، كما أنَّ قولَه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُرادُ به جمْعٌ؛ ولذلك قال: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا ذَكَر الظَّالِمينَ بالكذِبِ ذَكَر أضْدادَهم الَّذين يُخاصِمونَهم عِندَ ربِّهم -وهم المُحسِنون- بالصِّدقِ، ولعلَّه أفْرَدَ الضَّميرَ إشارةً إلى قِلَّةِ المَوصوفِ بهذا الوصفِ مِن الصِّدقِ، وهذا الفريقُ هو الرُّسُلُ وأتْباعُهم؛ ولذلك حصَرَ التَّقْوى فيهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

- والضَّميرُ في (بِه) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ على (الصِّدقِ)، ويجوزُ أنْ يعودَ على (الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ)، والتَّصْديقُ بكِلَيْهما مُتلازِمٌ، وإذْ قد كان المُصَدِّقونَ بالقُرآنِ أو بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن ثَبَتَ له هذا الوَصْفُ كان مُرادًا به أصْحابُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهُم جمَاعةٌ، فلا تَقَعُ صِفَتُهم صِلةً (للَّذي)؛ لأنَّ أصْلَه للمُفرَدِ؛ فتَعيَّنَ تَأويلُه بـ (فَريقٍ)، وقَرينَتُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وإنَّما أُفرِدَ عائدُ المَوْصولِ في قَولِه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ رَعْيًا لِلَفْظِ (الَّذي)؛ وذلك كُلُّه مِن الإيجازِ[2].

وقيلَ: جِيءَ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ على الإفْرادِ، ثمَّ حُمِلَ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وحُكِمَ بقَولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، والتَّأويلُ أنْ يُقالَ: إنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إمامُ أُمَّتِه وقُدوَتُهم، وإنَّ مَجيئَه بالصِّدقِ وتَصْديقَه كمَجيئِهم به وتَصْديقِهم، كما يُقالُ لِرَئيسِ القَومِ وكَبيرِهم: يا فُلانُ، افْعَلوا، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨).

أي: مُوسى وقومَه، بدَليلِ قَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[(١)] [المؤمنون: ٤٩].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خَبرٌ عنِ اسْمِ المَوصُولِ (الَّذي). وجِيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو للبعيدِ -مع دُنُوِّ التَّحدُّثِ عنهم- لعُلُوِّ مرتبتِهم[(٢)]، وللعِنايةِ بتَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ. وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ يُفيدُ قَصْرَ جِنْسِ المُتَّقينَ على الَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصَدَّقَ به؛ لأنَّه لا مُتَّقِيَ يومَئذٍ غيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه، وكُلُّهم مُتَّقونَ، والمَعْنى: أولئك هُمُ الَّذين تحقَّقَ فيهم ما أُريدَ مِن إنْزالِ القُرآنِ الَّذي أُشيرَ إليه في قَولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[(٣)] [الزمر: ٢٨].

- وفي هذه الآيةِ والآيةِ السَّابِقةِ احتِباكٌ[(٤)]: فذَكَر الكَذِبَ والتَّكذيبَ أوَّلًا؛ دليلًا على الصِّدقِ والتَّصديقِ ثانيًا، والاتِّقاءَ وجزاءَه وما يَتْبَعُه ثانيًا؛ دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر في شِقِّ المُسيءِ أنْكأَ ما يكونُ مِن الكَذِبِ والتَّكذيبِ في أقبَحِ مَواضِعِه -ولا سيَّما عندَ العرَبِ-، وأسَرَّ ما يكونُ في شِقِّ المحسِنِ مِن استِقامةِ الطَّبعِ وحُسنِ الجَزاءِ[(٥)].

- وجُملةُ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم لَمَّا قُصِرَ عليهم جِنسُ المُتَّقينَ كان ذلك مُشعِرًا بمَزِيَّةٍ عَظيمةٍ، فكان يَقتَضي أنْ يَسأَلَ السَّامِعُ عن جَزاءِ هذه المَزِيَّةِ؛ فبُيِّنَ له أنَّ لهم ما يَشاؤُونَ عِندَ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

و﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ هو ما يُريدونَ ويَتَمنَّونَ، أي: يُعْطيهمُ اللهُ ما يَطلُبونَ في الجَنَّةِ. ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ كِنايةٌ عَن سَعةِ ما يُعطَوْنَه[1].

- وفي قَولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عُدِلَ عن اسْمِ الجَلالةِ إلى وَصْفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه يُعْطيهم عطاءَ الرُّبوبيَّةِ، والإيثارِ بالخَيرِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَنويهٌ بالوَعدِ الصَّادِقِ من اللهِ، والمُشارُ إليه هو ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾؛ لِمَا تَضمَّنَه مِن أنَّه جَزاءٌ لهم على التَّصْديقِ، وأُشيرَ إليه باسْمِ الإشارةِ؛ لِتضَمُّنِه تَعْظيمًا لِشَأنِ المُشارِ إليه[3].

- والمُرادُ بالمُحْسِنينَ: أولئك المَوْصوفونَ بأنَّهم المُتَّقونَ، وكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُؤْتى بضَميرِهم فيُقالَ: ذلك جَزاؤُهم؛ فوقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضْمارِ لإفادةِ الثَّناءِ عليهم بأنَّهم مُحسِنونَ، ونُبِّهَ بالظَّاهِرِ على العِلَّةِ المُقتَضِيةِ لِحُصولِ الثَّوابِ[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾ للتَّعْليلِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الَّذين أحْسَنُوا لِيُكفِّرَ، أو تَتعلَّقُ بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والمَعْنى: أنَّ اللهَ وَعَدَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨، ٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

وَعْدًا مُطلَقًا؛ لِيُكفِّرَ عنهم أَسْوَأَ ما عَمِلوهُ، أي: ما وَعَدَهُم بذلك الجزاءِ إلَّا لأنَّه أرادَ أنْ يُكفِّرَ عنهم سَيِّئاتِ ما عَمِلوا، والمَقْصودُ من هذا الخَبَرِ إعْلامُهم به؛ لِيَطمَئِنُّوا من عَدَمِ مُؤاخَذَتِهم على ما فَرَطَ منهم مِن الشِّرْكِ وأحْوالِه[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ...﴾ إظهارُ اسْمِ الجَلالةِ (الله) في مَوضِعِ الإضْمارِ بضَميرِ (ربِّهم)؛ لِزيادةِ تَمكُّنِ الإخبارِ بتَكْفيرِ سيِّئاتِهم تَمْكينًا لاطْمِئْنانِ نُفوسِهم بوَعْدِ ربِّهم، ولإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بمَضْمونِ الكلامِ[٢].

- وإضافةُ الأسْوَأِ والأحسَنِ إلى ما بَعْدَهما في قَولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قيل: هي من إضافةِ الشَّيءِ إلى بَعضِه؛ للقَصدِ إلى التَّحْقيقِ والتَّوْضيحِ مِن غَيرِ اعتِبارِ تَفْضيلِه عليه، والزِّيادةُ المُعتَبَرَةُ فيهما هي في الأوَّلِ بالنَّظَرِ إلى ما يَليقُ بحالِهم مِن استِعْظامِ سَيِّئاتِهم وإنْ قَلَّتْ، واستِصْغارِ حَسَناتِهم وإنْ جَلَّتْ، والثَّاني بالنَّظَرِ إلى لُطفِ أكرَمِ الأكْرَمينَ مِن استِكْثارِ الحَسَنةِ اليَسيرةِ، ومُقابَلَتِها بالمَثُوباتِ الكَثيرةِ[٣].

- والجَمْعُ بيْنَ صِيغتَيِ الماضي والمُستَقبَلِ في صِلةِ المَوْصولِ الثَّاني ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دُونَ الأوَّلِ ﴿ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ للإيذانِ باستِمْرارِهم على

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

الأعمالِ الصَّالحةِ بخِلافِ السَّيِّئةِ[١]، ودوامِهم على الخَيرِ مجدِّدينَ له وقتًا بعدَ وقتٍ؛ لأنَّه في طبائعِهم، فهم عَريقونَ في تعاطيه[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: يَجْزيهم أجْرًا على أحسَنِ أعْمالِهم، وإذا كان الجَزاءُ على العَمَلِ الأحسَنِ بهذا الوَعدِ، وهو ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ فدَلَّ على أنَّهم يُجازَونَ على ما هو دُونَ الأحسَنِ من مَحاسِنِ أعْمالِهم؛ بدَلالةِ إيذانِ وَصفِ (الأحسَنِ) بأنَّ عِلَّةَ الجَزاءِ هِيَ الأحسَنيَّةُ، وهي تَتضمَّنُ أنَّ لِمَعْنى الحُسنِ تأثيرًا في الجَزاءِ، فإذا كان جزاءُ أحسَنِ أعْمالِهم أنَّ لهم ما يَشاؤُونَ عِندَ ربِّهم، كان جزاءُ ما هو دُونَ الأحسَنِ من أعْمالِهم جزاءً دُونَ ذلك؛ بأنْ يُجازَوْا بزيادةٍ وتَنْفيلٍ على ما استَحَقُّوهُ على أحسَنِ أعْمالِهم بزيادةِ تَنعُّمٍ، أو كَرامةٍ، أو نَحوِ ذلك[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، بلَفظِ (الَّذي)، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، بلَفظِ (ما)؛ ووَجْهُه: أنَّ هذه السُّورةَ خُصَّتْ بـ (الَّذي)؛ لِيُوافِقَ ما قبْلَه، وهو: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وقبْلَه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾، وخُصَّت سُورةُ (النَّحلِ) بـ (ما) للمُوافَقةِ أيضًا، وهو قولُه: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النحل: ٩٥]، و﴿مَا عِندَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]؛ فتَلاءَمَ اللَّفظانِ في السُّورتينِ[١]. وقيل: لَمَّا كان مَقصودُ هذه السُّورةِ أخَصَّ مِن مَقصودِ سُورةِ (النَّحلِ)، وكانت (الَّذي) و(مَنْ) أقَلَّ إبهامًا مِن (ما)؛ قال: (الَّذي)، أي: العمَلُ الَّذي، وهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما هو بعْضُه، كخاتمِ فِضَّةٍ[٢].



(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

الآيات (٣٦-٤١)

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا
لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ
أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ
قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى
عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ
﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾: أي: اللهُ كافِيَّ، يُقالُ: أعطاني فأحْسَبَني، أيْ: كَفاني، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايةُ[1].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: طَريقتِكم الَّتي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك يا فُلانُ، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه[2].

﴿يُخْزِيهِ﴾: أي: يُذِلُّه ويُهينُه، وأصلُه هنا: الإبعادُ[3].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: أي: يَنزِلُ به، ويجِبُ عليه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيءِ، ومنه:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩- ٦١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠) و(٨/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٦٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٠).

حلَّ أي: نزَل؛ لأنَّ المسافِرَ يَشُدُّ ويَعقِدُ، فإذا نزل حَلَّ[1].

﴿بِوَكِيلٍ﴾: أي: حافِظٍ وكَفيلٍ، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غَيرِك في أمْرِك[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه كُلَّ سُوءٍ؟! ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ! ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه، ومَن يَهدِه اللهُ إلى الحَقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه، أليس اللهُ بعزيزٍ ذي انتِقامٍ مِن الكُفَّارِ والمكَذِّبينَ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما كان عليه هؤلاءِ المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولئِنْ سألْتَ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه. قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: أرَأَيْتُم الآلِهَةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دونِ اللهِ: هل تَقدِرُ أن تَكشِفَ عنِّي ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراده اللهُ بي، أو هل تَقدِرُ أن تمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أرادَها اللهُ بي؟!

قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يَكفيني اللهُ وَحْدَه، عليه وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُهدِّدَهم بسوءِ المصيرِ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طريقتِكم ومنهجِكم فأنا عامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به؛ فسوف تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عَذابٌ يُخزيه ويُذِلُّه، ومَن يَنزِلُ عليه عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثُمَّ يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فمَنِ اهتدَى فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه، ومَن ضَلَّ فإنَّما يَعودُ وَبالُ ذلك على نَفْسِه، وما أنتَ -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ضرَب اللهُ عزَّ وجلَّ مَثَلًا للمُشرِكينَ والمُؤمِنينَ بمَثَلِ رَجُلٍ فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ ورَجُلٍ خالِصٍ لِرَجُلٍ، كان ذلك المَثَلُ مُثيرًا لأنْ يقولَ قائِلُ المُشرِكينَ: لَتَتألَّبَنَّ شُركاؤُنا على الَّذي جاء يُحَقِّرُها ويَسُبُّها، ومُثيرًا لِحَمِيَّةِ المُشرِكينَ أنْ يَنتَصِروا لآلِهَتِهم، ورُبَّما أنْطَقَتْهم حَميَّتُهم بتَخْويفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا حَكى تَكْذيبَهم النَّبيَّ عَطَف الكَلامَ إلى ما هدَّدوه به وخوَّفوه مِن شَرِّ أصْنامِهم(١).

وأيضًا لَمَّا فُهِم مِن قولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢] أنَّ المشركينَ يُكَذِّبونَه، وكان مِن طبْعِ الآدَميِّ الاهتِمامُ بمِثلِ ذلك ولا سيَّما إذا كان المُكَذِّبُ كثيرًا وقَويًّا، وتقرَّر أنَّه سُبحانَه الحَكَمُ العدْلُ بيْنَ المُتخاصِمينَ وغيرِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولَزِمَ كلَّ سامِعِ الإقرارُ بالآخرةِ، وبشَّرَ المُحسِنينَ وحذَّرَ المُسيئينَ، وكان مِن المعلومِ أنَّهم يُحَذِّرونَه آلهتَهم كما يُحَذِّرُهم إلهَه؛ حَسُنَ كُلَّ الحُسنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢).

قولُه مُقِرًّا للكِفايةِ غايةَ الإقرارِ، ومُنكِرًا لِنَفْيِها كلَّ الإنكارِ(١):

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿عِبَادَهُ﴾ جَمعُ عَبدٍ، فيَدخُلُ فيهم كُلُّ مَن عبَدَ اللهَ مِن الأنبياءِ والمُؤمِنينَ. وقيل: المرادُ: عِبادُه الأنبياءُ(٢).

٢- قِراءةُ: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بالإفرادِ. قيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: يحتمِلُ أنَّه لَفظُ جِنسٍ يَشملُ جميعَ عبادِ اللهِ، فتَكونُ بمعنى القِراءةِ الأُولى(٣).

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

أي: أليس اللهُ كافيًا مَن قام بعُبوديَّتِه(٤) ....

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٨)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٨)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥).

(٤) قيل: المرادُ بـ﴿عَبْدَهُۥ﴾: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).
وقيل: المرادُ العُمومُ في كُلِّ مَن قام بعُبوديَّةِ اللهِ تعالى وأداءِ حُقوقِه، فكُلُّ مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإنَّ اللهَ تعالى كافيه. وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابن رجب، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، =

كلَّ سُوءٍ، وعاصِمًا له مِن كُلِّ كَيدٍ[١]؟

كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال الله سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ المقَدِّمةَ؛ رَتَّب عليها النَّتيجةَ المطلوبةَ؛ فإنَّه إذا ثبَت أنَّ اللهَ كافٍ عبْدَه، كان التَّخويفُ بغيرِ الله عبَثًا وباطلًا[٢].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ أنَّهم يَنالونَك بسُوءٍ[٣]!

= ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: مِن دونِ اللهِ مِن الأوثانِ والأصنامِ، أي: ممَّا يَعبُدون. ومِمَّن ذهب إلى هذا في الجُملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن الجوزي، وابن كثير، =

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أطنَبَ سُبحانَه في شَرحِ الوَعيدِ والوَعدِ، والتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ خَتَم الكَلامَ بخاتِمةٍ هي الفَصلُ الحَقُّ[1].

وأيضًا لَمَّا اشتمَلَت الآيةُ على مُهتَدِينَ وضالِّينَ؛ أخبَرَ أنَّ ذلك كُلَّه هو فاعِلُه[2].

وأيضًا لَمَّا كان مِنَ الحَقِّ الواضِحِ كالشَّمسِ أنَّ ما قالوه لا يَقولُه عاقِلٌ، وكان التَّقديرُ: «فقد أضَلَّهم اللهُ إهانةً لهم، وهداك إكرامًا لك»؛ بيَّنَ أنَّه سُبحانَه قسَرَهم

= والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: العمومُ؛ فمَن دونَ اللهِ يَشملُ الأصنامَ وغيرَها، كالجِنِّ، وذَوي السُّلطانِ، وغَيرِهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

قال القرطبي: (ويَدخُلُ في الآيةِ تخويفُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بكثرةِ جمعِهم وقوَّتِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

على ذلك؛ لِيَكونَ إضلالُه لهم آيةً، كما أنَّ هُداه لِمَن هداه آيةٌ؛ فقال مُخَفِّفًا عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إذهابِ نَفْسِه عليهم حَسَراتٍ، دامِغًا للقَدَريَّةِ[1]:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ فلا أحدَ يَهديه إليه[2].

كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ إلى الحَقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه عنه[3].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم تَبقَ شُبهةٌ ولا شَيءٌ من شَكٍّ أنَّ الهاديَ المُضِلَّ إنَّما هو اللهُ وَحْدَه، وأنَّه جَعَل شَيئًا واحِدًا سَبَبًا لضَلالِ قَومٍ -لِيَكونَ ضَلالُهم في الظَّاهِرِ عِلَّةً للنِّقمةِ- وهُدًى لآخَرينَ، فيَكونَ هُداهم سَبَبًا للنِّعمةِ؛ بلَغَ النِّهايةَ في الحُسنِ قَولُه[4]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٠).

أي: أليس اللهُ عَزيزًا في انتِقامِه مِن الكُفَّارِ، مَنيعَ الجَنابِ، قاهِرًا للعبادِ، وبعِزَّتِه يَكفي عَبْدَه ويَدفَعُ عنه مَكْرَ أعدائِه؛ ذا انتِقامٍ مِن الجاحِدينَ وحدانيَّتَه، المكَذِّبينَ رُسُلَه، العاصِينَ أمْرَه[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أطنَبَ تعالى في وعيدِ المُشرِكينَ، وفي وَعْدِ الموحِّدينَ؛ عاد إلى إقامةِ الدَّليلِ على تَزييفِ طريقةِ عَبَدةِ الأصنامِ[2].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو خالِقُهما[3].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

قال القرطبي: (وإذا كان اللهُ هو الخالِقَ، فكيف يُخَوِّفونك بآلهتِهم الَّتي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رَسولُ الله الَّذي خلَقَها، وخَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨).

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا أقَرُّوا بالخالقِ -وهو اللهُ سُبحانَه- أخْبَرهم أنَّه تَعالَى هو المُتصرِّفُ في نَبيِّه بما أرادَ؛ فإنَّ تلك الأصْنامَ الَّتي يَدْعونَها آلِهةً مِن دُونه لا تَكشِفُ ضُرًّا، ولا تُمسِكُ رَحْمةً، أي: صِحَّةً وسَعةً في الرِّزقِ ونحو ذلك[1].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ الَّذين أقَرُّوا بأنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ: أرأَيْتُم الآلِهةَ الَّتي تَدْعونَها مِن دُونِ اللهِ: هل تَقدِرُ على كَشْفِ ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراد اللهُ أن يُصيبَني به[2]؟

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: أو هل تَقدِرُ آلِهتُكم أن تَمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أراد اللهُ أن يُصيبَني بها[3]؟

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦، ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر أنَّه تعالى كافِيه، وأنَّ أصنامَهم لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ؛ أمَرَه تعالى أن يُعلِمُ أنَّه تعالى هو حَسْبُه، أي: كافيه[1].

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يَكفيني اللهُ وَحْدَه مِن كُلِّ شَيءٍ، فأنا أفَوِّضُ إليه جميعَ أُموري، وأعتَمِدُ عليه وَحْدَه دونَ غَيرِه؛ على اللهِ وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ في جَلْبِ مَصالِحِهم، ودَفْعِ مَضارِّهم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبلَغَهم اللهُ مِن المَوعِظةِ أقصَى مَبلَغٍ، ونَصَب لهم مِنَ الحُجَجِ أسْطَعَ حُجَّةٍ، وثَبَّت رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسَخَ تَثبيتٍ: لا جَرَمَ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُوادِعَهم مُوادَعةَ مُستَقرِبِ النَّصرِ، ويُواعِدَهم ما أُعِدَّ لهم مِن خُسرٍ[3].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طَريقتِكم ومَنهَجِكم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩).

وحالَتِكم الَّتي رَضِيتُموها لأنفُسِكم، وجمَدْتُم عليها[١]، أمَّا أنا فعامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ۝ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا

(١) قال الشوكاني: (﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالَتِكم الَّتي أنتم عليها، وتمكَّنْتُم منها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

قيل: المرادُ: ما هم عليه مِنَ الشِّركِ بالله تعالى. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

وقيل: المرادُ: ما هم عليه مِن العداوةِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

وقيل: المرادُ كِلا الأمْرَينِ، أي: ما هم عليه مِن الكُفرِ والعداوةِ والإيذاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: النسفيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (١/ ٥٣٩) و (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٢، ٢٨٣).

قال الشوكاني: (﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ أي: على حالتي الَّتي أنا عليها، وتمكَّنْتُ منها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾: على ما أنا عليه مِن الهدَى. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٨).

وقال الخازنُ: (﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ أي: بما أُمِرتُ به مِن إقامةِ الدِّينِ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٨).

وقال السعدي: (﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ على ما دعَوْتُكم إليه مِن إخلاصِ الدِّينِ لله تعالى وَحْدَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (أرادَ مِنْ ﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ أنَّه ثابِتٌ على عَمَلِه في نُصحِهم ودعوتِهم إلى ما يُنَجِّيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

مُّنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

﴿... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

أي: فسوفَ تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عذابٌ مِنَ اللهِ يُذِلُّه ويُهينُه(١).

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

أي: ومَن يَنزِلُ عليه في وَقتِه المحدَّدِ له عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه(٢).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى فَسادَ مَذاهِبِ المشركين؛ تارةً بالدَّلائِلِ، وتارةً بضَربِ الأمثالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٣-٢٨٥).

قال الشوكاني: (أي: يُهينُه ويُذِلُّه في الدُّنيا، فيَظهَرُ عندَ ذلك أنَّه المُبطِلُ، وخَصْمَه المُحِقُّ، والمرادُ بهذا العذابِ عذابُ الدُّنيا، وما حلَّ بهم مِن القَتلِ والأسْرِ، والقَهرِ والذِّلَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٣-٢٨٤).

والعذابُ المقيمُ هو عذابُ النَّارِ يومَ القيامةِ؛ فهم مُخلَّدونَ فيه. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

وتارةً بذِكرِ الوَعدِ والوَعيدِ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعظُمُ عليه إصرارُهم على الكُفرِ، وعَدَمُ إيمانِهم ورُجوعِهم إلى ما أنزَلَ اللهُ سبحانه وتَعالى عليه- أردَفَه بكَلامٍ يُزيلُ ذلك الحُزنَ العَظيمَ عن قَلبِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخْبَره أنَّه أنزَلَ عليه الكِتابَ -وهو القُرآنُ- بالحقِّ؛ لأجْلِ النَّاسِ؛ إذ فيه تَكاليفُهم(١).

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فتُنذِرُهم به، وتُبَيِّنُ لهم الهُدى(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

قَولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمِلُ معنيَين؛ الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الحَقِّ في أخباره وأحكامِه. والثَّاني: أنَّ نُزولَه حَقٌّ من عندِ اللهِ تعالى، ليس بباطِلٍ، بخِلافِ أخبارِ الكُهَّانِ الواردةِ مِن الشَّياطين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣).

قال البقاعي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُصاحِبًا له، لا يَقدِرُ الخَلقُ على أن يُزيحوا مَعنًى من معانيه عن قَصْدِه، ولا لَفظًا مِن ألفاظِه عن سَبيلِه وحَدِّه، بل هو مُعجِزٌ في معانيه -حاضِرةً كانت أو غائِبةً- ونُظومِه، وألفاظِه وأسماءِ سُوَرِه وآياتِه وجَميعِ رُسومِه؛ فلا بُدَّ مِن إتيانِ ما فيه مِن وَعدٍ ووَعيدٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥١٦).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تسَبَّبَ عن عِلمِ ذلك وُجوبُ المبادَرةِ إلى الإذعانِ له؛ لِفَوزِ الدَّارَينِ؛ حَسُنَ جِدًّا قَولُه تعالى -تَسليةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لعَظيمِ ما لَه مِنَ الشَّفَقةِ عليهم، وتهديدًا لهم-[1]:

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

أي: فمَن عَمِلَ بالقُرآنِ واتَّبَعه، فإنَّما يعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه[2].

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ في وَهمٍ أنَّه يَلحَقُ الدَّاعيَ بعدَ البَيانِ مِن إثمِ الضَّالِّ، وكان السِّياقُ لِتَهديدِ الضَّالِّينَ؛ زاد في التَّأكيدِ، فقال[3]:

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

أي: ومَن ضَلَّ عن الحَقِّ، فلم يُؤمِنْ بالقُرآنِ ويَتَّبِعْه؛ فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٦).

وضَرَرُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: وما أنتَ -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، ولا بمُراقِبٍ لأعمالِهم، ولا حَفيظٍ عليها، ولا مُحاسِبٍ لهم، وإنَّما عليك البَلاغُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- لله تعالى على العَبدِ عُبوديَّةُ الضَّرَّاءِ، وله عُبوديَّةٌ عليه فيما يَكرَهُ، كما له عُبوديَّةٌ فيما يُحِبُّ، وأكثَرُ الخَلقِ يُعطُونَ العُبوديَّةَ فيما يُحبُّونَ، والشَّأنُ في إعطاءِ العُبوديَّةِ في المَكارِهِ؛ فبِهِ تَفاوَتَتْ مراتِبُ العِبادِ، وبحَسَبِه كانت مَنازِلُهم عندَ اللهِ تعالى، فمَنْ كان عبدًا لله في الحالتَينِ، قائمًا بحَقِّه في المكروهِ والمحبوبِ؛ فذلك الَّذي تَناوَلَه قَولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فمَن قام بحُقوقِ اللهِ عليه فإنَّ اللهَ يَتكَفَّلُ له بالقِيامِ بجَميعِ مَصالِحِه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فمَن أراد أن يَتولَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥).

اللهُ حِفظَه ورِعايتَه في أمورِه كُلِّها فلْيُراعِ حُقوقَ اللهِ عليه، ومَن أراد ألَّا يُصيبَه شَيءٌ مِمَّا يَكرَهُ فلا يأتِ شَيئًا مِمَّا يَكرَهُه اللهُ منه. كان بَعضُ السَّلَفِ يَدورُ على المجالِسِ ويَقولُ: (مَن أحَبَّ أن تَدومَ له العافيةُ فلْيَتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ)[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الحَثُّ على تحقيقِ العبوديَّةِ للهِ تعالى؛ لأنَّك إذا حَقَّقْتَ العبوديَّةَ تَحقَّقَتْ لك الكِفايةُ، فإذا كانتِ الكفايةُ مُرَتَّبةً على وَصفِ العُبوديَّةِ حَصَل للعابدِ مِن هذه الكفايةِ بقَدْرِ عبوديَّتِه، على القاعدةِ «أنَّ الحُكمَ المُعَلَّقَ بوَصفٍ، يَقوَى بقُوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعْفِه»[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أنَّه جَرَت العادةُ أنَّ المُبطِلينَ يُخَوِّفونَ المُحِقِّينَ بالتَّخويفاتِ الكَثيرةِ، فحَسَمَ اللهُ مادَّةَ هذه الشُّبهةِ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٣]، فلَمَّا ثَبت أنَّ اللهَ كافٍ عَبْدَه، كان التَّخويفُ بغيرِ اللهِ عَبَثًا وباطِلًا[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَطْلُبُ الهدايةَ إلَّا من اللهِ تعالى؛ لأنَّه وحْدَه هو الَّذي يُضِلُّ ويَهدي؛ فتُطْلَبُ الهدايةُ منه؛ لأنَّه ليس المرادُ بهذه الآيةِ التَّيئيسَ مِن هدايةِ الخَلْقِ! ولكنَّ المرادَ الرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في هدايةِ الخَلْقِ[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الرَّدُّ على المُعتزِلةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٠).

الَّذين يَقولُونَ: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؛ يَهدي نَفْسَه، ويُضِلُّ نفْسَه، ولا عَلاقةَ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى في فِعلِه(١)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أنَّ هذه الدَّلائِلَ والبيِّناتِ لا تَنفَعُ إلَّا إذا خَصَّ اللهُ العَبدَ بالهدايةِ والتَّوفيقِ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يَقُلْ: «مُنتَقِمٌ»، ولم تأتِ «المُنتَقِمُ» في أسماءِ اللهِ تعالى في حديثٍ صحيحٍ، وإنَّما جاءتْ باسمِ الفاعلِ مُقيَّدةً، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فلم يَقُلْ: «إنَّا مُنتَقِمونَ»، فهو سبحانَه يُوصَفُ بالانتقام مُقيَّدًا، وقال تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِبِ انتقامٍ في مَوضِعِه، فاللهُ تعالى يُوصَفُ بأنَّ الانتِقامَ يَصدُرُ منه، لا أنَّه «مُنتَقِمٌ»؛ فـ«المُنتَقِمُ» ليس مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ لا مَقرونًا بالعَفوِ، ولا مُنفَرِدًا عنه، خِلافًا لِمَا ذَهَبَ إليه بعضُ العلماءِ مِن أنَّه إذا قُرِنَتْ بالعَفوِ فلا بأسَ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ مُقِرُّونَ بوُجودِ الإلهِ القادِرِ العالمِ الحَكيمِ الرَّحيمِ(٤)، وفيه أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ وَحْدَها لا يَنفَعُ العبدَ، ولا يُدْخِلُه في الإسلامِ، ودليلُ ذلك: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاتَلَ المُقرِّينَ بالرُّبوبيَّةِ، واستباحَ دِماءَهم ونِساءَهم وأموالَهم، ولو كان إقرارُهم بالرُّبوبيَّةِ وحْدَها نافعًا لَكانت دماؤُهم مَعصومةً، وأموالُهم مَعصومةً، وأهلوهم مَعصومينَ، وفي هذا ردٌّ على أولئكَ المتكلِّمِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

الَّذين يَجعَلونَ تَوحيدَ الألوهيَّةِ هو تَوحيدَ الرُّبوبيَّةِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَه بذلك تَبشيرًا له، وتَسليةً بأنَّه ستَكونُ العاقِبةُ له[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ مُقيمٌ لا يَنفَكُّ عنهم، ويَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ فيها ما دلَّ عليه القُرآنُ والسُّنَّةُ مِن أنَّ أهلَ النَّارِ مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنَّها لا تَفنَى، وأنَّ القَولَ بفَنائِها قَولٌ ضعيفٌ، بل باطِلٌ؛ لِمُخالَفتِه للكِتابِ والسُّنَّةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بيانُ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنزَلَه وهو كلامٌ، ليس ذاتًا مُعَيَّنةً كالحديدِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكالمواشي الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦]، فالقرآنُ كلامٌ، فإذا كان كلامًا فإنَّه لا يكونُ مَخلوقًا؛ لأنَّ الكلامَ صِفةُ المتكلِّمِ، والمتكلِّمُ به -وهو اللهُ- هو الأوَّلُ والآخِرُ، والظَّاهِرُ والباطِنُ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أَنزَلۡنَا﴾، والإنزالُ لا يكونُ إلَّا مِن عُلوٍّ[٥].

٩- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ قولُه تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧١، ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى أنزَل القرآنَ الكريمَ لمصلحةِ الخَلْقِ؛ وأنَّه لم يَنزِلْ ضِدَّ مَصالحِهم[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ عُمومُ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقولِه تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: «لقومِك» مثلًا! بل للنَّاسِ عمومًا[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَله! ووَجْهُ ذلك: أنَّه أضاف الاهتِداءَ والضَّلالَ إلى العَبدِ؛ فدلَّ هذا على أنَّه فِعلُه الَّذي اختارَ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ أنَّ الدَّاعيَ المُبَلِّغَ لِشَريعةِ اللهِ تعالى إذا بَلَّغَ على الوَجهِ الَّذي أُمِرَ به فقد بَرِئَتْ ذِمَّتُه، ولا يَلزَمُه شَيءٌ وراءَ ذلك، ووجْهُ الدَّلالةِ منها: أنَّه إذا كان إمامُ الدَّاعينَ المُبَلِّغينَ مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس وَكيلًا على النَّاسِ، ولا حفيظًا عليهم؛ فمَنْ دونَه مِن بابِ أَولى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ * وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾

- ما أحسَنَ هذا النَّظْمَ! وما ألْطَفَ مَوقِعَ مَعْنى الكِفايةِ، وتَخْصيصَ لَفظِ (العَبْدِ)، ووَصْفَ الأصْنامِ بالَّذين مِن دُونِه في هذا المقامِ! وما أدَقَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

التَّعْريضَ بحالِ عَبْدٍ يُثبِتُ مَعْبوداتٍ شَتَّى، ويَدَّعي كُلٌّ واحدٍ عُبودِيَّتَه، ويَبْقى هو مُتحيِّرًا ضائِعًا، وحالِ عَبدٍ لم يُثبِتْ إلَّا مَعْبودًا واحِدًا، فهو قائِمٌ بما كَلَّفَه، عارِفٌ بما يَرْضاهُ[(١)]!

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الهَمْزةُ في ﴿أَلَيْسَ﴾ للاستِفْهامِ التَّقْريريِّ؛ لأنَّ هَمْزةَ الإنكارِ إذا دَخَلَتْ على النَّفْيِ أثْبَتَتْه بطَريقِ المُبالَغةِ؛ فالاستِفْهامُ إنكارٌ عليهم ظَنَّهم أنْ لا حامِيَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ضُرِّ الأصْنامِ، فأُفيدَ مَعْنى إثباتِ الكفايةِ وتَقْريرِها[(٢)].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ تَمْهيدٌ لِقَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ قُدِّمَ عليه لِتَعْجيلِ مَساءةِ المُشرِكينَ بذلك، ويَستَتبِعُ ذلك تعجيلَ مَسَرَّةِ الرُّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ ضامِنٌ له الوِقايةَ. وأصْلُ النَّظْمِ: (ويُخوِّفونَكَ بالَّذين مِن دُونِ اللهِ واللهُ كافيك)؛ فغُيِّرَ مَجْرى النَّظمِ لهذا الغَرَضِ. ولكَ أنْ تَجعَلَ نَظْمَ الكَلامِ على تَرْتيبِه في اللَّفظِ؛ فتَجعَلَ جُملةَ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استِئْنافًا، وتَصيرُ جُملةُ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ حالًا[(٣)].

- وفيه تَسْليةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا قالتْ له قُرَيشٌ: إنَّا نَخافُ أنْ تَخبِلَكَ آلِهتُنا، ويُصيبَكَ مَضَرَّتُها لِعَيبِكَ إيَّاها[(٤)].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢، ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

- وحُذِفَ المَفْعولُ الثَّاني لـ (كَافٍ)؛ لِظُهورِ أنَّ المَقْصودَ كافِيكَ أذاهُم، فأمَّا الأصْنامُ فلا تَستطيعُ أذًى حتَّى يُكْفاهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- ووَقَعَ التَّعبيرُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالاسْمِ الظَّاهِرِ، وهو ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ دُونَ ضَميرِ الخِطابِ؛ لأنَّ المَقْصودَ تَوجيهُ الكَلامِ إلى المُشرِكينَ. وفي استِحْضارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصفِ العُبوديَّةِ، وإضافَتِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ مَعْنًى عَظيمٌ مِن تَشْريفِه بهذه الإضافةِ، وتَحْقيقِ أنَّه غيرُ مُسْلِمِه إلى أعْدائِه(٢)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والواوُ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يُمكِنُ أنْ تكونَ للحالِ؛ فتكونَ الجُملةُ حاليَّةً، والمَعْنى: (أليس اللهُ كافِيَكَ حالَ تَخْويفِهم إيَّاكَ؟)، هذا إذا أرادَ بالعَبدِ نَبيَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويجوزُ جعْلُها استِئْنافيَّةً؛ فتكونُ الجُملةُ مُستأنَفةً مَسوقةً لِتَفْنيدِ ما يَعمِدونَ إليه مِن تَخْويفٍ بالأصْنامِ(٣).

- والخِطابُ في قَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو الْتِفاتٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ العائِدِ على ﴿عَبۡدَهُۥ﴾، ونُكتةُ هذا الالتِفاتِ: هو تَمْحيضُ قَصْدِ النَّبيِّ بمَضْمونِ هذه الجُملةِ، بخِلافِ جُملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾(٤).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم خَوَّفوه مِن أصْنامِهم، وهي لا تَقدِرُ على نَفْعٍ ولا ضُرٍّ، ونَظيرُ هذا التَّخْويفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).

قَولُ قَومِ هُودٍ له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[1] [هود: ٥٤].

- وعبَّر عنهم وهُم حِجارةٌ بمَوْصولِ العُقلاءِ (الَّذينَ)؛ مُجاراةً للمُشركينَ؛ لِكَثْرةِ استِعْمالِ التَّعْبيرِ عنهم في الكَلامِ بصِيَغِ العُقَلاءِ؛ لأنَّهم يَعتَقِدونها مُدْرِكةً[2].

- قولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الآيةَ، وجُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾؛ قُصِدَ مِن هذا الاعتِراضِ أنَّ ضَلالَهم داءٌ عَياءٌ -أي: صَعبٌ لا دواءَ له، كأنَّه أعيا الأطبَّاءَ-؛ لأنَّه ضَلالٌ مُكوَّنٌ في نُفوسِهم وجِبِلَّتِهم قد ثَبَّتَتْه الأيَّامُ، ورَسَّخَه تعاقُبُ الأجيالِ، فرانَ بغِشاوَتِه على ألْبابِهم[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أُريدَ مِن نَفيِ الهادي نَفيُ حُصولِ الاهتِداءِ؛ فكُنِّيَ عن عَدَمِ حُصولِ الهُدَى بانتِفاءِ الهادي؛ لأنَّ عَدَمَ الاهتِداءِ يَجعَلُ هادِيَهم كالمَنْفيِّ، ونَظيرُ ذلك قَولُه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، والآيتانِ مُتَساوِيَتانِ في إفادةِ نَفْيِ جِنسِ الهادي، إلَّا أنَّ إفادةَ ذلك هُنا بزِيادةِ (مِنْ) تَنْصيصًا على نَفيِ الجِنْسِ، وفي آيةِ (الأعْرافِ) ببِناءِ ﴿هَادِىَ﴾ على الفَتْحِ بعدَ (لا) النَّافِيَةِ للجِنْسِ؛ فإنَّ بِناءَ اسْمِها على الفَتحِ مُشعِرٌ بأنَّ المُرادَ نَفيُ الجِنْسِ نصًّا، والاختِلافُ بيْنَ الأُسلُوبَينِ تَفنُّنٌ في الكَلامِ، وهو مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ.

وتَقْديمُ ﴿لَهُۥ﴾ هنا على ﴿هَادِىَ﴾؛ للاهتِمامِ بضَميرِهم في مَقامِ نَفْيِ الهادي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠) و(٢١/ ١٤٧) و(٢٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤).

لهم؛ لأنَّ ضَلالَهم المَحْكيَّ هنا بالِغٌ في الشَّناعةِ؛ إذْ بَلَغ بهم حَدَّ الطَّمَعِ في تَخْويفِ النَّبيِّ بأصْنامِهم في حالِ ظُهورِ عَدَمِ اعتِدادِه بأصْنامِهم لِكُلِّ مُتأمِّلٍ من حالِ دَعْوَتِه، وإذْ بَلَغ بهم اعتِقادَ مَقدِرةِ أصْنامِهم، مع الغَفْلةِ عن قُدْرةِ الرَّبِّ الحَقِّ، بخِلافِ آيةِ (الأعْرافِ)؛ فإنَّ فيها ذِكْرَ إعْراضِهم عن النَّظَرِ في مَلَكوتِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو ضَلالٌ دُونَ ضَلالِ التَّخْويفِ مِن بأسِ أصْنامِهم[١].

- والَّذي اقتضَى جُملةَ ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ هنا: أنَّ الكَلامَ اقْتَضى فَريقَينِ: فَريقًا مُتمسِّكًا باللهِ القادرِ على النَّفْعِ والضُّرِّ، وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنونَ، وفريقًا آخَرَ مُسْتَمسِكًا بالأصْنامِ العاجزةِ عن الأمْرَينِ؛ فلمَّا بُيِّنَ أنَّ ضَلالَ الفَريقِ الثَّاني ضَلالٌ مَكينٌ، ببَيانِ أنَّ هُدى الفَريقِ الآخَرِ راسِخٌ مَتينٌ؛ فلا مَطمَعَ للفَريقِ الضَّالِّ بأنْ يَجُرُّوا المُهتَدِينَ إلى ضَلالِهِم[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ تَعْليلٌ لإنكارِ انتِفاءِ كِفايةِ اللهِ عن ذلك كإنْكارِ أنَّ اللهَ عَزيزٌ ذو انتِقامٍ؛ فلذلك فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قَبْلَها[٣].

- والاستِفْهامُ تَقْريريٌّ؛ لأنَّ العِلمَ بعِزَّةِ اللهِ مُتقرِّرٌ في النُّفوسِ؛ لاعتِرافِ الكُلِّ بإلَهيَّتِه، والإلهيَّةُ تَقتَضي العِزَّةَ، ولأنَّ العِلمَ بأنَّه مُنتقِمٌ مُتقرِّرٌ من مُشاهَدةِ آثارِ أخْذِه لِبَعضِ الأُمَمِ مِثلِ عادٍ وثَمودَ، فإذا كانوا يُقِرُّونَ للهِ بالوَصفَينِ المَذكُورَينِ، فما عليهم إلَّا أنْ يَعلَموا أنَّه كافٍ عَبْدَه بعِزَّتِه، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على إصابةِ عَبدِه بسُوءٍ، وبانتِقامِه من الَّذين يَبتَغونَ لِعَبدِه الأذَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

- وفيه وَعيدٌ لِقُريشٍ، ووَعْدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّه يَنتقِمُ لهم منهم، ويَنصُرُهم عليهم(١).

- وإظهارُ الاسْمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوقعِ الإضْمارِ؛ لِتَحْقيقِ مَضْمونِ الكَلامِ، وتَربيةِ المَهابةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فالواوُ اعتِراضيَّةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْطوفًا على جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهو تَمْهيدٌ لِمَا يأتي بَعْدَه من قَولِه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قُصِدَ به التَّوطِئةُ إليه بما لا نِزاعَ فيه؛ لأنَّهم يَعترِفونَ بأنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في عَظائمِ الأُمورِ، أي: خلَقَهُما وما تَحْويانه(٣).

- وجاءَتْ جُملةُ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أُسلوبِ حِكايةِ المُقاوَلةِ والمُجاوَبةِ لِكَلامِهم المَحْكيِّ بجُملةِ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ ولذلك لم تُعطَفِ الثَّانيةُ بالواوِ ولا بالفاءِ، والمَعْنى: لَيَقولُنَّ اللهُ، فقُلْ تَبْكيتًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ(٤).

- والفاءُ مِن ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ لِتَفْريعِ الاستِفْهامِ الإنْكاريِّ على جَوابِهم، تَفْريعًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

يُفيدُ مُحاجَّتَهم على لازِمِ اعتِرافِهم بأنَّ اللهَ هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا تَفْريعُ الإلْزامِ على الإقْرارِ، والنَّتيجةِ على الدَّليلِ؛ فإنَّهم لَمَّا أقَرُّوا بأنَّه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ يَلزَمُهم أنْ يُقِرُّوا بأنَّه المُتصرِّفُ فيما تَحْويه السَّمَواتُ والأرضُ[1].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا﴾ أنَّه لَمَّا كان السَّائلُ النَّصوحُ يَنبغي له أن يُنَبِّهَ الخَصْمَ على محلِّ النُّكتةِ؛ لِيَنتبِهَ مِن غفلتِه فيَرجِعَ عن غلطتِه؛ عبَّر بأداةِ ما لا يَعقِلُ (ما) عن مَعبوداتِهم بعدَ التَّعبيرِ عنها سابقًا بأداةِ الذُّكورِ العُقلاءِ (الَّذِينَ) [الزمر: ٣٦]؛ بيانًا لِغَلَطِهم[2].

- وفي قولِه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ جيءَ بحَرفِ (هل) في جَوابِ الشَّرطِ -وهي للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ-؛ تأْكيدًا لِمَا أفادَتْه هَمْزةُ الاستِفْهامِ، مع ما في (هَلْ) من إفادةِ التَّحْقيقِ[3].

- وضَميرُ (هُنَّ) في قولِه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ عائِدٌ إلى (مَا) المَوْصولةِ، وكذلك الضَّمائِرُ المُؤنَّثةُ الوارِدةُ بَعْدَه ظاهِرةٌ ومُستَتِرةٌ؛ إمَّا لأنَّ ما صَدَقَ[4] (مَا) المَوْصولةِ هُنا أحْجارٌ غَيرُ عاقِلةٍ، وجَمْعُ غَيرِ العُقَلاءِ يَجْري على اعتِبارِ التَّأنيثِ، ولأنَّ ذلك يُصيِّرُ الكَلامَ مِن قَبيلِ الكَلامِ المُوجَّهِ بأنَّ آلِهتَهم كالإناثِ لا تَقدِرُ على النَّصْرِ؛ ففيه تَضْعيفٌ وتَعْجيزٌ عمَّا طالَبَهم به مِن كَشْفِ الضُّرِّ وإمْساكِ الرَّحْمةِ؛ لأنَّ الأُنوثةَ مِن بابِ اللِّينِ والرَّخاوةِ، كما أنَّ الذُّكورةَ مِن بابِ الشِّدَّةِ والصَّلابةِ، كأنَّه قال: الإناثُ اللَّاتي هُنَّ اللَّاتُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧).
(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٢١٥).

والعُزَّى ومَناةُ أضعَفُ ممَّا تَدَّعُونَ لَهُنَّ وأعجَزُ، وفيه تَهكُّمٌ أيضًا[١].

- والجَوابُ في هذا الاستِخْبارِ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ مَحْذوفٌ؛ وإنَّما تُرِكَ الجوابُ لاستِغناءِ السَّامعِ بمَعرفةِ ذلك، ودَلالةِ ما ظهَرَ مِن الكلامِ عليه، والتَّقْديرُ: فإنَّهم سَيَقولونَ: لا تَقدِرُ على شَيءٍ مِن ذلك[٢].

- وعُدِلَ عن تَعديةِ فِعْلِ الإرادةِ للضُّرِّ والرَّحمةِ في قولِه: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ إلى تَعديَتِه لِضَميرِ المُتكلِّمِ، مع أنَّ مُتعلَّقَ الإراداتِ المَعاني دُونَ الذَّواتِ؛ فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (إنْ أرادَ ضُرِّي أو أرادَ رَحْمَتي)؛ وذلك لِقَصْدِ الاهتِمامِ بالمُرادِ به؛ لإيصالِ المُرادِ إليه حتَّى كأنَّ ذاتَه هي المُرادُ لِمَنْ يُريدُ إيصالَ شَيءٍ إليه[٣].

- وأيضًا إنَّما فَرَض إرادةَ الضُّرِّ وإرادةَ الرَّحْمةِ في نَفْسِه دُونَ أنْ يقولَ: (إنْ أرادَكُم)؛ لأنَّ الكَلامَ مُوجَّهٌ إلى ما خَوَّفوه مِن ضُرِّ أصْنامِهم إيَّاه؛ فأُمِرَ بأنْ يُقرِّرَهم أوَّلًا بأنَّ خالِقَ العالَمِ هو اللهُ وَحْدَه، ثُمَّ يقولَ لهم بعدَ التَّقْريرِ: فإذا أرادني خالِقُ العالَمِ الَّذي أقرَرْتُم به بضُرٍّ مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ أو غَيرِ ذلك مِن النَّوازِلِ، أو برَحْمةٍ مِن صِحَّةٍ أو غِنًى أو نَحوِهما، هل هؤلاءِ اللَّاتي خَوَّفْتُموني إيَّاهُنَّ كاشِفاتٌ عَنِّي ضُرَّه أو مُمْسِكاتٌ رَحْمَتَه؟ وأيضًا لِمَا فيه مِن الإيذانِ بإمْحاضِ النَّصيحةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧، ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٢)، =

- قولُه: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ لَمَّا أَلْقَمَهمُ الحَجَرَ وقَطَعَهم حتَّى لا يُجيبوا بكلمةٍ، قال: حَسْبيَ اللهُ كافيًا لِمَعَرَّةِ أَوْثانِكُم، عليه يَتوكَّلُ المُتوكِّلُون. وفيه تَهكُّمٌ؛ لأنَّه لا مَعَرَّةَ للأَوْثانِ[1].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أُعيدَ الأَمْرُ بالقَولِ، ولم يَنتظِمْ ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ في جُملةِ الأمْرِ الأوَّلِ؛ لأنَّ هذا المَأْمورَ بأنْ يقولَه ليس المَقْصودُ تَوْجيهَه إلى المُشرِكينَ؛ فإنَّ فيما سَبَقه مَقنَعًا من قِلَّةِ الاكتِراثِ بأصْنامِهم، وإنَّما المَقْصودُ أنْ يكونَ هذا القَولُ شِعارَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جَميعِ شُؤونِه، وفيه حَظٌّ للمُؤمِنينَ معه حاصِلٌ مِن قَولِه: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإعادةُ فِعلِ ﴿قُلۡ﴾ للتَّنبيهِ على استِقْلالِ هذا الغَرَضِ عن الغَرَضِ الَّذي قَبْلَه[2].

- والحَسْبُ: الكافي، وحُذِفَ المُتعلِّقُ في هذه الجُملةِ لِعُمومِ المُتعلِّقاتِ، أي: حَسْبِيَ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ حالٍ، والمُرادُ بقَولِه اعتِقادُه، ثمَّ تَذَكُّرُه، ثمَّ الإعلانُ به؛ لِتَعْليمِ المُسلِمينَ، وإغاظةِ المُشرِكينَ[3].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ يجوزُ أنْ تَكونَ ممَّا أُمِرَ بأنْ يَقولَه تَذكُّرًا مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَعْليمًا للمُسلِمينَ، فتكونَ الجُملةُ تَذْييلًا للَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها أعَمُّ منها باعتِبارِ القائلِينَ؛ لأنَّ (حَسْبيَ اللهُ) يَؤولُ إلى مَعْنى: تَوكَّلتُ على اللهِ، أي: حَسْبي أنا، وحَسْبُ كُلِّ مُتوكِّلٍ، أي: كُلِّ مُؤمِنٍ يَعرِفُ

= ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩، ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

اللهَ حقَّ مَعرِفَتِه، ويَعتَمِدُ على كِفايَتِه دُونَ غَيرِه؛ فتَعْريفُ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للعُمومِ العُرفيِّ[(١)]، أي: المُتوكِّلونَ الحَقيقيُّونَ؛ إذْ لا عِبْرَةَ بغَيرِهم. ويجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ مِن كَلامِ اللهِ تعالى خاطَبَ به رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يَأمُرْه بأنْ يَقولَه؛ فتَكونَ الجُملةُ تَعْليلًا للأمْرِ بقَولِ: حَسْبِيَ اللهُ، أي: اجْعَلِ اللهَ حَسْبَكَ؛ لأنَّ أهْلَ التَّوكُّلِ يَتوكَّلونَ على اللهِ دُونَ غَيرِه، وهُمُ الرُّسُلُ والصَّالِحونَ، فكُنْ مِثلَهم في ذلك[(٢)].

- وتَقْديمُ المَجْرورِ ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿يَتَوَكَّلُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ لأنَّ أهْلَ التَّوكُّلِ الحَقيقيِّينَ لا يَتوكَّلونَ إلَّا على اللهِ تعالى، وذلك تَعْريضٌ بالمُشرِكينَ؛ إذِ اعْتَمَدوا في أُمورِهم على أصْنامِهم[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

- لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿قُلْ﴾ على جُملةِ ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ لِدَفعِ

---

(١) العُموم العُرْفي: هو نقْلُ العُرفِ للَّفظِ مِن معناه اللُّغَويِّ، واستِعمالُه في معنًى أعَمَّ منه وتكرَّر استِعمالُه فيه، حتَّى شاع فأصبحَ حقيقةً عُرفيَّةً، ومِن صِيَغ الدَّلالةِ على العموم عُرفًا دونَ اللغة: صيغةُ (أكل) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]؛ فالمعنى اللُّغويُّ لِلَفظةِ (أكل) واضحٌ، لكنَّه غيرُ مرادٍ للشَّارعِ هنا، وإنَّما أراد ما هو أعَمُّ منه عُرْفًا، وهو أنَّ كلَّ إتلافٍ لمالِ الغيرِ وحقِّه، وكلَّ تجاوُزٍ عليه بدونِ مُسَوِّغٍ شرعيٍّ، فهو مُحرَّمٌ كحُرمةِ الأكْلِ بالمعنى اللُّغويِّ دونَ إذنِ صاحِبِه، أو بدونِ حقٍّ. يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول)) لأبي الوليد الباجي (ص: ٥)، ((المحصول في علم الأصول)) للفخر الرازي (١/ ٥١٦)، ((مفتاح الوصول)) لأبي عبد الله التلمساني (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَوهُّم أنْ يَكونَ أمْرُه ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ لِقَصدِ إبلاغِه إلى المُشرِكينَ، ولأنَّها انتِقالٌ مِن غَرَضِ الدَّعوةِ والمُحاجَّةِ إلى غَرَضِ التَّهْديدِ، وابْتَدَأَ المَقولُ بالنِّداءِ بوَصفِ القَومِ؛ لِمَا يُشعِرُ به مِن التَّرقيقِ لِحالِهم، والأَسَفِ على ضَلالِهم؛ لأنَّ كَونَهم قَومَه يَقتَضي ألَّا يَدَّخِرَهم نُصحًا[1].

- قولُه: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ كان مُقتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (فإنِّي عاملٌ على مَكانتي)، وإنَّما حُذِفَ؛ للاختصارِ، ولِما فيه مِن زيادةِ الوعيدِ، والإيذانِ بأنَّ حالَه لا تقِفُ، وتَزدادُ كلَّ يومٍ قوَّةً وشِدَّةً؛ لأنَّ اللهَ ناصِرُه ومُعِينُه، ومُظهِرُه على الدِّين كلِّه، والدَّليلُ على أنَّ في تَرْكِ ذِكرِ (مَكانتي) زيادةً في الوعيدِ والإنذارِ، وأنَّ حالَه لم تزَلْ في التَّزايُدِ إلى الأبدِ قولُه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ * مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾، وكيف أنَّه تَوعَّدَهم بكَونِه مَنْصورًا عليهم، غالبًا عليهم في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّهم إذا أتاهُمُ الخِزيُ والعَذابُ فذاك عِزُّه وغَلَبَتُه، مِن حيثُ إنَّ الغَلَبةَ تَتِمُّ له بعِزِّ عَزيزٍ مِن أوْليائِه، أو بِذُلِّ ذَليلٍ مِن أعدائِه، وكان مِن حَقِّ الظَّاهِرِ أنْ يقولَ: (فسوفَ تَعْلَمونَ مَكانَتي وأنِّي غالِبٌ عليكم في الدُّنيا والآخرةِ)؛ فوُضِعَ مَوضِعَ (عَذابِ الدُّنيا) قَولُه: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أي: عذابٌ مُخزٍ له، وهو يومُ بدرٍ، ووُضِعَ موضعَ (عَذابِ الآخِرَةِ) قَولُه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾، أي: يَنزِلُ عليه أو يحِلُّ عليه -حُلولَ الدَّينِ الَّذي لا انفكاكَ عنه- عذابٌ دائمٌ، وهو عذابُ النَّارِ؛ فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مُتعلَّقٍ يَصلُحُ أنْ يَتعلَّقَ بعامِلٍ مع الاختِصارِ؛ فإنَّ مُقابَلَته بقَولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩، ٢٠).

عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ يدُلُّ على أنه أرادَ من ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أنَّه ثابتٌ على عَمَلِه في نُصحِهم ودَعْوَتِهم إلى ما يُنجيهم، وأنَّ حَذْفَ ذلك مُشعِرٌ بأنَّه لا يَقتصِرُ على مِقْدارِ مَكانَتِه وحالَتِه، بل حالُه تَزْدادُ كُلَّ حينٍ قُوَّةً وشِدَّةً، لا يَعْتريها تَقْصيرٌ، ولا يُثبِّطُها إعْراضُهم، وهذا من مُستَتْبَعاتِ الحَذفِ[١].

- وأُسنِدَ فِعلُ ﴿يَأْتِيهِ﴾ إلى العَذابِ المُخْزي؛ لأنَّ الإتيانَ مُشعِرٌ بأنَّه يُفاجِئُهم كما يَأْتي الطَّارِقُ، وكذلك إسنادُ فِعْلِ (يَحِلُّ) إلى العَذابِ المُقيمِ؛ لأنَّ الحُلولَ مُشعِرٌ بالمُلازَمةِ والإقامةِ معهم، وهو عذابُ الخُلودِ؛ ولذلك يُسمَّى مَنزِلُ القَومِ (حِلَّةً)، ويُقالُ للقَومِ القاطِنينَ غَيرِ المُسافِرينَ: هُمْ حِلالٌ، فكان الفِعلُ مُناسِبًا لِوَصْفِه بالمُقيمِ[٢].

- وتَنْوينُ ﴿عَذَابٌ﴾ في المَوضِعَينِ؛ للتَّعْظيمِ المُرادِ به التَّهْويلُ[٣].

- وتَعدِيةُ فِعْلِ (يَحِلُّ) بحَرفِ (على)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هنا: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ لِيكونَ التَّهْديدُ بعَذابٍ خِزيٍ في الدُّنيا، وعَذابٍ مُقيمٍ في الآخِرةِ؛ فأمَّا قَولُه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، فلم يُذكَرْ فيها العَذابُ؛ لأنَّها جاءَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤) و(٥/ ٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعدَ تَهْديدِهم بقَولِه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1] [الأنعام: ١٣٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

- قيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ...﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بأنْ يقولَ لهم: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، المُفيدِ مُوادَعَتَهم، وتَهْوينَ تَصْميمِ كُفْرِهم عليه، وتَثْبيتَه على دَعْوتِه، والمَعْنى: لأنَّا نَزَّلْنا عليك الكِتابَ بالحَقِّ لِفائِدةِ النَّاسِ[2].

- واللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للعِلَّةِ، أي: لأَجْلِ النَّاسِ. وفي الكَلامِ مُضافٌ مَفْهومٌ ممَّا تُؤذِنُ به اللَّامُ مِن مَعْنى الفائِدةِ والنَّفعِ، أي: لِنَفعِ النَّاسِ، أو ممَّا يُؤذِنُ به التَّفْريعُ في قَولِه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ...﴾ إلخ[3].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: لَسْتَ مأمورًا بإرغامِهم على الاهتِداءِ، فصِيغَ الخَبرُ في جُملةٍ اسميَّةٍ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ حُكمِ النَّفيِ[4].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ خُولِفَ بيْنَه وبيْنَ قَولِه في صَدرِ السُّورةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢]؛ لأنَّ تلك في غَرَضِ التَّنويهِ بشَأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ إنزالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢).

الكِتابِ إليه، وأمَّا هنا فالمعنى: أنَّ مَن ضلَّ فلمْ يَهتَدِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَلالُه على نفْسِه، وما عليه مِن ضَلالِهم تَبِعةٌ[(١)].

- وأيضًا تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ في آخِرِ سُورةِ (يُونس): ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٨]، وفي آخِرِ سُورةِ (النَّمْلِ) في قَولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]، ولكِنْ جِيءَ في تَينِكَ الآيتَينِ بصِيغةِ قَصرِ الاهتِداءِ على نَفْسِ المُهْتدي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، وتُرِك ذلك في هذه السُّورةِ، حيث قال: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَينِكَ الآيتَينِ وارِدَتانِ بالأمْرِ بمُخاطَبةِ المُشركينَ؛ فكان المَقامُ فيهما مُناسِبًا لإفادةِ أنَّ فائِدةَ اهتدائِهم لا تَعودُ إلَّا لأنفُسِهم، أي: ليستْ لي مَنفَعةٌ مِن اهتِدائِهم، خلافًا لهذه الآيةِ؛ فإنَّها خِطابٌ مُوجَّهٌ مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس فيها حالُ مَن يُنزَّلُ مَنزِلةَ المُدِلِّ باهْتدائِه. أمَّا قَولُه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فصِيغةُ القَصرِ فيه لِتَنْزيلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أسَفِه على ضَلالِهم المُفْضِي بهم إلى العَذابِ، مَنزِلةَ مَن يَعودُ عليه مِن ضَلالِهم ضُرٌّ؛ فخُوطِبَ بصِيغةِ القَصرِ، وهو قَصرُ قَلبٍ[(٢)] على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ ولذلك اتَّحدَتِ الآياتُ الثَّلاثُ في الاشتِمالِ على القَصرِ بالنِّسْبةِ لجانِبِ ضَلالِهم؛ فإنَّ قَولَه في سُورةِ (النَّمْلِ): ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] في مَعْنى قولِه هنا: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

ليس ضَلالُكُم علَيَّ؛ فإنَّما أنا مِن المُنذِرينَ، وهذه نُكَتٌ مِن دَقائِقِ إعْجازِ القُرآنِ[1].

- وقيل: إنَّما قال هنا: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ بحذفِ (فإنَّما يَهْتدي) -المذكورِ في (يُونس) و(الإسراء)-؛ اكتِفاءً بما ذكَرَه بقولِه قبْلُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٦).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ
عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ
٤٢ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ
٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤
وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿شُفَعَآءَ﴾: جَمْعُ شَفيعٍ، والشَّفاعةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ: إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ والشَّفْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مقارنةِ الشيئينِ[(١)].

﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾: أي: انقَبَضَت ونفَرَت، يُقالُ: اشمأَزَّ الرَّجُلُ اشمِئزازًا: انقبَض، واجتَمَع بَعضُه إلى بَعضٍ[(٢)].

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: أي: يَفرَحونَ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا كمالَ قدرتِه، ونفاذَ مشيئتِه: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها، ويَتوفَّى اللهُ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها، في نَومِهم؛ فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالمَوتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم، ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ الدُّنيا، إنَّ في ذلك لَعَلاماتٍ وعِظاتٍ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى منكرًا على المشركينَ: أمِ اتَّخَذ أولئك المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ؟

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يردَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا ولا تَعقِلُ؟!

ثُمَّ يأمرُ نبيَّه أنْ يُخبِرَهم أنَّ الشَّفاعةَ للهِ وَحْدَه، فيقولُ: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: لله وَحْدَه الشَّفاعةُ جَميعًا، فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شيئًا منها، وهو وَحْدَه يأذَنُ بها لِمَن شاء، له سُبحانَه وتعالى وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، ثمَّ إليه وَحْدَه تُرجَعونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه أحوالَ هؤلاء المشركينَ عندَما يُذكَرُ وحْدَه، فيقولُ: وإذا ذُكِرَ اللهُ تعالى وَحْدَه دونَ غَيرِه من المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكين، وإذا ذُكِرَت آلِهتُهم اشتدَّ فرَحُهم واستَبْشَروا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَيَّن تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّ الهِدايةَ والضَّلالَ لا يَحصُلانِ إلَّا مِنَ اللهِ تعالى؛ وذلك لأنَّ الهِدايةَ تُشبِهُ الحياةَ واليَقَظةَ، والضَّلالَ يُشبِهُ الموتَ والنَّومَ، وكما أنَّ الحياةَ واليَقَظةَ -وكذلك الموتُ والنَّومُ- لا يَحصُلانِ إلَّا بتخليقِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وإيجادِه؛ فكذلك الهدايةُ والضَّلالُ لا يَحصُلانِ إلَّا مِنَ الله تعالى، ومَن عَرَف هذه الدَّقيقةَ فقد عَرَف سِرَّ اللهِ تعالى في القَدَرِ، ومَن عَرَف سِرَّ اللهِ تعالى في القَدَر هانت عليه المصائِبُ؛ فيَصيرُ التَّنبيهُ على هذه الدَّقيقةِ سَبَبًا لِزَوالِ ذلك الحُزنِ عن قَلبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهذا وَجهُ النَّظمِ في الآيةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى أنَّه أنزَلَ الكتابَ على رسولِه بالحقِّ للنَّاسِ؛ نَبَّه على آيةٍ مِن آياتِه الكُبْرى تدُلُّ على الوَحدانيَّةِ، لا يَشْرَكُه في ذلك صَنَمٌ ولا غيرُه، فقال[٢]:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾.

أي: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٠، ٢١، ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣، ٢٤).

قال القرطبي: (اختلَف النَّاسُ من هذه الآيةِ في النَّفْسِ والرُّوحِ؛ هل هما شَيءٌ واحدٌ أو شَيْئانِ؟ ... والأظهرُ أنَّهما شَيءٌ واحدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦١).

وقال أبو حيَّان: (الَّذي يدُلُّ عليه الحديثُ واللُّغةُ أنَّ النَّفْسَ والرُّوحَ مُترادِفانِ، وأنَّ فِراقَ ذلك مِن الجسدِ هو الموتُ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (الأنفُسُ هاهنا هي الأرواحُ قَطعًا). ((الروح)) (ص: ١٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (الأنفُسُ: جمعُ نَفْسٍ، وهي الشَّخصُ والذَّاتُ؛ قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، وتُطلَقُ على الرُّوحِ الَّذي به الحياةُ والإدراكُ، ومعنى التَّوفِّي يَتعلَّقُ بالأنفُسِ على =

﴿وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَا﴾.

أي: ويَتوفَّى اللهُ في المنامِ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾.

أي: فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالموتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم في الدُّنيا(٢).

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم، فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ

= كِلا الإطلاقَينِ، والمعنى: يَتوفَّى النَّاسَ الَّذين يَموتون؛ فإنَّ الَّذي يُوصَفُ بالموتِ هو الذَّاتُ لا الرُّوحُ، وإنَّ توَفِّيَها سَلْبُ الأرواحِ عنها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤).

قال ابنُ عطيَّة: (يكفيك أنَّ في هذه الآيةِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَنا حينَ شاء، ورَدَّها علينا حينَ شاء» في حديث بلالٍ في الوادي؛ فقد نَطَقَت الشَّريعةُ بقَبضِ الرُّوحِ والنَّفْسِ في النَّومِ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فظاهِرٌ أنَّ التَّفصيلَ والخَوضَ في هذا كُلِّه عَناءٌ، وإن كان قد تعَرَّضَ للقَولِ في هذا ونحوِه أئمَّةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣، ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((شرح حديث النزول)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٠، ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

الدُّنيا[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أوى أحَدُكم إلى فِراشِه فلْيَأخُذْ داخِلةَ إزارِه[٢]، فلْيَنفُضْ بها فِراشَه، ولْيُسَمِّ اللهَ؛ فإنَّه لا يَعلَمُ ما خَلَفَه بَعْدَه على فِراشِه[٣]، فإذا أراد أن يَضْطَجِعَ فلْيَضْطَجِعْ على شِقِّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

قال ابنُ القَيِّم: (أحَدُ القَولَين في الآيةِ... أنَّ المُمسَكةَ مَن تُوُفِّيَت وفاةَ الموتِ أوَّلًا، والمُرسَلةَ مَن تُوُفِّيَت وفاةَ النَّوم، والمعنى على هذا القَولِ: أنَّه يَتَوفَّى نَفْسَ الميِّتِ فيُمسِكُها ولا يُرسِلُها إلى جَسَدِها قبْلَ يَومِ القيامةِ، ويتوفَّى نَفْسَ النَّائِمِ ثمَّ يُرسِلُها إلى جَسَدِه إلى بَقيَّةِ أجَلِها فيَتَوفَّاها الوَفاةَ الأُخرى.

والقَولُ الثَّاني في الآيةِ: أنَّ المُمسَكةَ والمُرسَلةَ في الآيةِ كِلاهما تُوُفِّيَ وَفاةَ النَّوم؛ فمَن استكمَلَت أجَلَها أمسَكَها عِندَه، فلا يَرُدُّها إلى جَسَدِها، ومَن لم تَستكمِلْ أجَلَها رَدَّها إلى جَسَدِها لِتَستكمِلَه. واختار شيخُ الإسلام هذا القولَ، وقال: عليه يدُلُّ القُرآنُ والسُّنَّةُ، قال: فإنَّه سُبحانَه ذَكَر إمساكَ الَّتي قضَى عليها المَوتَ مِن هذه الأنفُسِ الَّتي تَوَفَّاها وَفاةَ النَّومِ، وأمَّا الَّتي توَفَّاها حين مَوْتِها فتلك لم يَصِفْها بإمساكٍ ولا بإرسالٍ، بل هي قِسمٌ ثالِثٌ.

والَّذي يَترجَّحُ هو القَولُ الأوَّلُ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ بوفاتَين: وَفاةٍ كُبرى، وهي وفاةُ المَوتِ، ووَفاةٍ صُغرى، وهي وَفاةُ النَّومِ، وقَسَّم الأرواحَ قِسْمَين: قِسمًا قَضَى عليها بالموتِ فأمسَكَها عِندَه، وهي الَّتي تَوفَّاها وفاةَ الموتِ، وقِسمًا لها بقيَّةُ أجَلٍ، فرَدَّها إلى جَسَدِها إلى استِكمالِ أجَلِها، وجَعَل سُبحانَه الإمساكَ والإرسالَ حُكمَينِ للوَفاتَينِ المذكورتَينِ أوَّلًا؛ فهذه مُمسَكةٌ، وهذه مُرسَلةٌ، وأخبَرَ أنَّ الَّتي لم تَمُتْ هي الَّتي تَوَفَّاها في مَنامِها، فلو كان قد قَسَّم وَفاةَ النَّومِ إلى قِسمَينِ: وَفاةِ موتٍ، ووَفاةِ نَومٍ؛ لم يَقُلْ: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾؛ فإنَّها مِن حينِ قُبِضَت ماتت، وهو سُبحانَه قد أخبَرَ أنَّها لم تَمُتْ، فكيف يقولُ بعدَ ذلك ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾؟!). ((الروح)) (ص: ٢٠). ويُنظر: ((شرح حديث النزول)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

(٢) داخِلةَ إزارِه: أي: طَرَفَ الإزارِ المُتَدَلِّي الدَّاخِلَ إلى البَدَنِ، الَّذي يَلِي الجَسَدَ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عبيد (٤/ ٧٠)، ((تفسير الموطأ)) للقَنازِعي (٢/ ٧٦١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٣٧).

(٣) أيْ: ما صارَ بعْدَه خَلَفًا وبَدَلًا عنه إذا غابَ. وقيل: معناه: لا يَدْري ما وَقَع في فِراشِه بعدَما =

الأيمَنِ، ولْيَقُلْ: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبِّي، بك وضَعْتُ جنبي، وبك أرفَعُه، إنْ أمسَكْتَ نَفْسي فاغفِرْ لها، وإنْ أرسَلْتَها فاحفَظْها بما تحفَظُ به عِبادَك الصَّالِحينَ))[١].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أوَى إلى فِراشِه قال: باسمِك أموتُ وأحْيا، وإذا قام قال: الحَمدُ لله الَّذي أحيانَا بعدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))[٢].

وعن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سِرْنا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيْلَةً، فقال: بعضُ القومِ: لو عَرَّسْتَ[٣] بنا يا رسولَ اللهِ، قال: أخافُ أنْ تَناموا عن الصَّلاةِ، قال بلالٌ: أنَا أُوقِظُكم، فاضْطَجَعوا، وأسْنَد بلالٌ ظهرَه إلى راحِلَتِه، فغَلَبَتْه عَيْناهُ فنام، فاسْتَيْقَظ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد طَلَع حَاجِبُ الشَّمْسِ، فقال: يا بلالُ، أينَ ما قُلْتَ؟ قال: ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُها قَطُّ، قال: إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حِينَ شاءَ، ورَدَّها عليكم حِينَ شاءَ، يا بلالُ، قُمْ فأَذِّنْ بالنَّاسِ بالصَّلاةِ، فتوَضَّأَ، فلَمَّا ارْتَفَعت الشَّمسُ وابياضَّتْ، قام فصَلَّى))[٤].

وفي روايةٍ عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حينَ شاء، ورَدَّها حينَ شاء، فقَضَوا حوائِجَهم، وتَوَضَّؤُوا إلى أن طَلَعَت الشَّمسُ وابيَضَّتْ، فقام فصَلَّى))[٥].

= خَرَج مِنه مِنْ تُرابٍ أو قَذاةٍ أو هَوامَّ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٦/ ١٨٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٢٧).

(١) رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٣١٢).

(٣) التعريسُ: نزولُ المسافرِ لغيرِ إقامةٍ، وأصلُه نزولُ آخرِ الليلِ للنَّومِ والراحةِ، ويُستعمَلُ في كلِّ وقتٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٥) و(٢/ ٦٧).

(٤) رواه البخاري (٥٩٥).

(٥) رواه البخاري (٧٤٧١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في هذا التَّوَفِّي للأرواح وإمساكِها وإرسالِها: لَعَلاماتٍ ودَلائِلَ، وعِبَرًا وعِظاتٍ للَّذينَ يَتفكَّرونَ في شأنِها، فيَستَدِلُّونَ بها على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وعلى تَحقُّقِ وُقوعِ البَعثِ... وغَيرِ ذلك[1].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتِقالٌ مِن تَشنيعِ إشراكِهم إلى إبطالِ مَعاذيرِهم في شِركِهم؛ ذلك أنَّهم لَمَّا دمَغَتْهم حُجَجُ القُرآنِ باستِحالةِ أن يكونَ لله شُرَكاءُ؛ تمحَّلوا تأويلًا لشِركِهم، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] كما حُكِيَ عنهم في أوَّلِ هذه السُّورةِ، فلمَّا استُوفِيَت الحُجَجُ على إبطالِ الشِّركِ؛ أقْبَلَ هنا على إبطالِ تأويلِهم منه، ومَعذرتِهم[2].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾.

أي: أمِ اتَّخَذ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ في قَضاءِ حاجاتِهم[3]؟

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢).

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا، ولا تَعقِلُ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى أنْ يكونَ لأصْنامِهم شَيءٌ مِن الشَّفاعةِ في عُمومِ نَفيِ مِلْكِ شَيءٍ مِن المَوْجوداتِ عن الأصْنامِ، قُوبِلَ بقَولِه: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أي: الشَّفاعةُ كُلُّها للهِ، وأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ ذلك لهم؛ لِيَعلَموا أنَّ الشَّفاعةَ لا يَملِكُها إلَّا اللهُ[2].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: للهِ وَحْدَه الشَّفاعةُ، ومَرجِعُها كُلِّها إليه؛ فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شَيئًا منها، وهو وَحْدَه مَن يأذَنُ بها إنْ شاء، لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣١١-٣١٤).
قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾: أنَّهم غيرُ مالكينَ لشَيءٍ مِن الأشياءِ، وتَدخُلُ الشَّفاعةُ في ذلك دخولًا أوَّليًّا، ﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ شيئًا؛ لأنَّها جماداتٌ لا عقلَ لها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، =

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ فيهما كما يُريدُ؛ فاعبُدوا اللهَ المالِكَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي يَقدِرُ على نَفْعِكم وضَرِّكم، ولا تَعبُدوا غَيْرَه مِمَّا لا يَملِكُ شَيئًا[(١)].

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: ثُمَّ إلى اللهِ مَصيرُكم يومَ القيامةِ لا إلى غَيرِه، فيَحكُمُ بيْنَكم، ويُجازي كُلًّا منكم[(٢)].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَلَّ على أنَّ شُفَعاءَهم ليسَت بأهلٍ للشَّفاعةِ، وعلى أنَّ الأمرَ كُلَّه مَقصورٌ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥).

عليه، وختَم بأنَّه لا بُدَّ مِن الرُّجوعِ إليه المُقتَضي لِأنْ تُصرَفَ الهِمَمُ كُلُّها نَحوَه، وتُوَجَّهَ العزائِمُ جَميعُها تِلْقاءَه، ولأنَّه لا يُخشَى سِواه، ولا يُرجَى غيرُه- ذكَرَ حالًا مِن أحوالِهم[1].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: وإذا أُفرِدَ اللهُ تعالى وَحْدَه بالذِّكرِ دُونَ غَيرِه مِنَ المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكينَ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وتمعَّرَت وُجوهُهم ونَفَروا؛ كراهيةً لِتَوحيدِ اللهِ سُبحانَه[2].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ * وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧١، ٧٢].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

أي: وإذا ذُكِرَت آلِهتُهم بالخَيرِ اشتَدَّ فَرَحُهم، وظَهَر السُّرورُ على وُجوهِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٩، ٣٣٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه الحَثُّ على التَّفَكُّرِ، وأنَّه مِفتاحُ العِلمِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالواجِبُ أن تُطلَبَ الشَّفاعةُ مِمَّن يَملِكُها، وهو اللهُ تعالى، وأن تُخلَصَ له العِبادةُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ المُتوفِّيَ هو اللهُ فقط، وتأكَّد هذا بقَولِه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، وبقَولِه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وبقَولِه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ثُمَّ إنَّ اللهَ تعالى قال في آيةٍ أُخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال في آيةٍ ثالثةٍ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

الجوابُ: أنَّ المتوفِّيَ في الحقيقةِ هو اللهُ، إلَّا أنَّه تعالى أسنَدَ في عالَمِ الأسبابِ كُلَّ نَوعٍ مِن أنواعِ الأعمالِ إلى مَلَكٍ مِن الملائِكةِ؛ فأسنَد قَبضَ الأرواحِ إلى مَلَكِ الموتِ -وهو رئيسٌ وتحتَه أتْباعٌ وأعْوانٌ- فأُضيفَ التَّوفِّي في هذه الآيةِ إلى اللهِ تعالى بالإضافةِ الحَقيقيَّةِ، وفي الآيةِ الثَّانيةِ إلى مَلَكِ الموتِ؛ لأنَّه هو الرَّئيسُ في هذا العَمَلِ، وإلى سائِرِ الملائِكةِ؛ لأنَّهم هم الأتْباعُ لِمَلَكِ الموتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٧). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣، ٣٧٤) و(٦/ ١٨٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٨٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أنَّه سُبحانَه سَوَّى في الاسمِ بيْنَ الوفاتَينِ مع اختِلافِ المَعنَيَينِ، وفيه حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ في امتِناعِهم مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ غَيرِه إذا خالَفَه في بَعضِ صِفاتِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴾ أنَّ الرُّوحَ مخلوقةٌ؛ ودلَّ لذلك: أنَّها تُوصَفُ بالوفاةِ والقبضِ والإمساكِ والإرسالِ؛ وهذا شأنُ المخلوقِ المُحدَثِ المَرْبوبِ[٢]، ودلَّ أيضًا على أنَّها جِسمٌ قائمٌ بنفْسِه؛ مُخالِفٌ جوهرُه جوهرَ البدنِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ يَظهَرُ مِن التَّقديرِ -الَّذي هدَى إليه قطعًا السِّياقُ- أنَّ النَّفْسَ الَّتي تنامُ هي الَّتي تموتُ، وهي الرُّوحُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّائمَ قد خرَجت الرُّوحُ مِن جسَدِه، ونحنُ نعلمُ قطعًا أنَّ الرُّوحَ في جسَدِه، ألَا ترَى أنَّه يَتنفَّسُ ويرَى الرُّؤْيا، وذلك لا يكونُ إلَّا مع قيامِ الرُّوحِ[٥]؟

والجوابُ عنه: أنَّ انفِصالَ رُوحِ النَّائمِ عنه، ورُجوعَها إليه، سمَّاه اللهُ تعالى وفاةً، ويُسمَّى مَوتًا وحياةً، كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ إذا استيقظ مِن منامِه: ((الحمدُ لله الَّذي أحيانا بعدَ ما أماتنا، وإليه النُّشورُ))[٦]، ومع هذا فلا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٦) أخرجه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه. =

يُنافي ذلك أن يكونَ النَّائمُ حيًّا[١].

وقيل: إنَّ النَّفْسَ على وجهَينِ؛ أحدُهما: النَّفْسُ المميِّزةُ الَّتي تكونُ لها إدراكُ الأشياءِ. والآخَرُ: هي النَّفْسُ الَّتي بها الحياةُ.

ويُقالُ: للإنسانِ نفْسٌ ورُوحٌ، فعندَ النَّومِ تخرُجُ النَّفْسُ وتبقَى الرُّوحُ، وهذا القولُ قريبٌ مِن السَّابقِ[٢].

٦- قَولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ فيه أنَّ النَّومَ وَفاةٌ؛ ويَشهَدُ لذلك قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[٣] [الأنعام: ٦٠].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ إثباتُ وَصْفِ اللهِ تعالى بالإمساكِ والإرسالِ؛ فهو يُمْسِكُ ويُرْسِلُ[٤].

٨- قال تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: يَمنَعُها أن تَرجِعَ إلى الحياةِ. وإطلاقُ الإمساكِ على بقاءِ حالةِ الموتِ تَمثيلٌ لِدَوامِ تلك الحالةِ، ومِن لَطائِفِه أنَّ أهلَ الميِّتِ يَتمَنَّونَ عَوْدَ مَيِّتِهم لو وَجَدوا إلى عَودِه سَبيلًا، ولكِنَّ اللهَ لم يَسمَحْ لِنَفْسٍ ماتت أن تَعودَ إلى الحياةِ[٥]، إلَّا ما استُثْنِيَ ممَّا أخبَرَ اللهُ عنه؛ كقتيلِ

= وأخرجه أيضًا (٦٣٢٥) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البَراءِ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٢٥). ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

بني إسرائيلَ وغيرِه مِن الألُوفِ الَّذين خرَجوا مِن ديارِهم حذَرَ الموتِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ رَدٌّ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمونَ: أنَّ المَقتولَ مَيِّتٌ بغَيرِ أجَلِه، وقاتِلَه قاطِعٌ حياتَه الموهوبةَ له مِن عندِ رَبِّه[1]!

١٠- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، جَعَل اللهُ ما تدُلُّ عليه حالَتَا المَوتِ والنَّومِ مِن دَلائِلَ آياتٍ كثيرةً؛ لأنَّهما حالَتانِ عَجيبَتانِ، ثمَّ في كُلِّ حالةٍ تَصرُّفٌ يُغايِرُ التَّصرُّفَ الَّذي في الأُخرى؛ ففي حالةِ المَوتِ سَلْبُ الحَياةِ عن الجِسمِ، وبقاءُ الجِسمِ كالجَمادِ، ومَنعٌ مِن أنْ تَعودَ إليه الحَياةُ، وفي حالةِ النَّومِ سَلبُ بَعضِ الحَياةِ عن الجِسْمِ حتَّى يَكونَ كالميِّتِ، وما هو بميِّتٍ، ثمَّ مَنْحُ الحَياةِ أنْ تَعودَ إليه، دَوالَيْكَ إلى أنْ يَأتِيَ إبَّانُ سَلْبِها عنه سَلْبًا مُستَمِرًّا[2].

١١- قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فأخبَرَ أنَّ الشَّفاعةَ لِمَن له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو اللهُ وَحْدَه؛ فهو الَّذي يَشفَعُ بنَفْسِه إلى نَفْسِه؛ لِيَرحَمَ عَبْدَه، فيَأذَنَ هو لِمَن يَشاءُ أن يَشفَعَ فيه؛ فصارت الشَّفاعةُ في الحقيقةِ إنَّما هي له، والَّذي يَشفَعُ عِندَه إنَّما يَشفَعُ بإذْنِه له وأمْرِه بعدَ شفاعتِه سُبحانَه إلى نَفْسِه، وهي إرادتُه مِن نَفْسِه أن يَرحَمَ عَبْدَه. وهذا ضِدُّ الشَّفاعةِ الشِّركيَّةِ الَّتي أثبَتَها هؤلاء المُشرِكونَ ومَن وافَقَهم، وهي الَّتي أبطَلَها اللهُ سُبحانَه في كتابِه، بقَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقَولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦).

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾[١] [البقرة: ٢٥٤].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فيه إقامةُ الحُجَّةِ العَقليَّةِ في مُجادَلةِ الخَصمِ، فإذا كانوا لا يَملِكونَ شَيئًا، فكيف تَتَّخِذونَهم شُفَعاءَ وتَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى[٢]؟!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ، ووَجْهُ إثباتِها: أنَّه لولا وُجودُها ما صحَّ أنْ يقولَ تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾، وفيه أيضا ردٌّ على المُعتزِلةِ والخَوارجِ؛ لأنَّ المُعتزِلةَ والخوارِجَ يُنكِرونَ الشَّفاعةَ في أهلِ الكبائرِ، سواءٌ أدَخَلوا النَّارَ أم لم يَدْخُلوها؛ وذلك لأنَّ أهلَ الكبائرِ عندَ المُعتزِلةِ والخوارجِ مُخَلَّدون في النَّارِ، لكِنَّهم عندَ الخوارجِ كفَّارٌ، وعندَ المُعتزِلةِ لا مُؤمِنونَ ولا كافِرونَ، بل في مَنزِلةٍ بيْنَ مَنزِلَتينِ[٣]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ بصيغةِ الحَصرِ، سؤالٌ: أنَّه كيف قال ذلك مع أنَّ للأنبياءِ والعُلَماءِ والشُّهَداءِ والأطفالِ شَفاعةً؟

الجَوابُ: أنَّ معناه أنَّ أحدًا لا يَملِكُها إلَّا بتَمليكِه سبحانَه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[٤] [الأنبياء: ٢٨].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أنَّه لا أحدَ يَشْفَعُ إلَّا بإذْنِ اللهِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٦). ويُنظر أيضًا: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٤٤٩).

تعالى، ووجْهُه: أنَّه إذا كانتِ الشَّفاعةُ خاصَّةً باللهِ؛ فإنَّها لا تكونُ إلَّا منه وإليه[(١)].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ إثباتُ شَفاعاتٍ مُتعَدِّدةٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾؛ لأنَّ «جميعًا» تَقتضي أن يكونَ هناك شَيءٌ مَجموعٌ؛ فهناك شفاعةٌ في الدُّنيا، وشفاعةٌ في الآخرةِ، وشفاعةٌ في جلبِ نفْعٍ، وشفاعةٌ في دفعِ ضُرٍّ[(٢)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذكُرُ الشَّيءَ مُنذِرًا بلازمِه؛ لأنَّ مُجَرَّدَ الرُّجوعِ ليس فيه شَيءٌ يُذكَرُ، لكِنَّ المرادَ الرُّجوعُ الَّذي يَحصُلُ به الحِسابُ والجَزاءُ[(٣)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أنَّ استِبشارَهم بالاقتِصارِ على ذِكْرِ أصنامِهم مُؤذِنٌ بأنَّهم يُرجِّحونَ جانِبَ الأصنامِ على جانِبِ اللهِ تعالى[(٤)]، ويدُلُّ على شدَّةِ تَعَلُّقِ هؤلاء بأصنامِهم، حيثُ يَكرَهون ما يُضادُّها مِن التَّوحيدِ، وإذا ذُكِرَتْ هذه الأصنامُ استَبْشَروا[(٥)]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ...﴾ الآيةَ، يَصلُحُ هذا أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٢).

مَثَلًا لحالِ ضَلالِ الضَّالِّينَ وهُدى المُهتدينَ، نَشَأ عن قَولِه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، والمَعْنى: أنَّ استِمْرارَ الضَّالِّ على ضَلالِه قد يَحصُلُ بعدَه اهتداءٌ، وقد يُوافيه أجَلُه وهو في ضَلالِه؛ فضُرِبَ المَثَلُ لذلك بنَومِ النَّائِمِ قد تَعقُبُه إفاقةٌ، وقد يموتُ النَّائِمُ في نَومِه، وهذا تَهْوينٌ على نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ برَجاءِ إيمانِ كَثيرٍ ممَّن هُمْ يَومَئذٍ في ضَلالٍ وشِركٍ كما تحقَّقَ ذلك، فتكونُ الجُملةُ تَعْليلًا للجُملةِ قَبْلَها، ولها اتِّصالٌ بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ انتِقالًا إلى استِدْلالٍ على تفرُّدِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في الأَحْوالِ؛ فإنَّه ذُكِرَ دَليلُ التَّصرُّفِ بخَلْقِ الذَّواتِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قَولِه: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٥، ٦]، ثمَّ دَليلُ التَّصرُّفِ بخَلقِ أحوالِ ذَواتٍ، وإنشاءِ ذَواتٍ مِن تلك الأحْوالِ، وذلك مِن قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]، وأعقَبَ كُلَّ دَليلٍ بما يَظهَرُ فيه أثَرُه مِن المَوعِظةِ والعِبْرةِ والزَّجْرِ عن مُخالَفةِ مُقتَضاهُ، فانتَقَلَ هنا إلى الاستِدلالِ بحالةٍ عَجيبةٍ من أحوالِ أنفُسِ المَخْلوقاتِ، وهي حالةُ المَوتِ، وحالةُ النَّومِ، وقد أنبَأَ عن الاستِدْلالِ قَولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فهذا دَليلٌ للنَّاسِ مِن أنفُسِهم؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئْنافًا ابتِدائيًّا للتَّدرُّجِ في الاستِدْلالِ، ولها اتِّصالٌ بجُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٥] وجُملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الزمر: ٢١] المُتقدِّمَتَينِ. وعلى كِلَا الوَجْهَينِ أفادتِ الآيةُ إبرازَ حَقيقَتَينِ عَظيمَتَينِ مِن نَواميسِ

الحَياتَينِ النَّفْسيَّةِ والجَسَديَّةِ(١).

- وقولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... ﴾ فيه تَقْديمُ اسْمِ الجَلالةِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ؛ لإفادةِ تَخْصيصِه بِمَضْمونِ الخَبَرِ، أي: اللهُ يَتوَفَّى الأنفُسَ لا غَيْرُه، فهو قَصرٌ حَقيقيٌّ(٢)؛ لإظهارِ فَسادِ أنْ أشْرَكوا به آلِهةً لا تَملِكُ تَصرُّفًا في أحْوالِ النَّاسِ(٣).

- وقولُه: ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ عبَّر عن جمعِ الكثرةِ بجمعِ القلَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّها -وإن تجاوَزت الحصرَ- فهي كنفسٍ واحدةٍ(٤).

- والفاءُ في ﴿فَيُمْسِكُ﴾ فاءُ الفَصيحةِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ يَقتَضي مِقدارًا يُفصِحُ عنه الفاءُ؛ لِبَيانِ تَوَفِّي النُّفوسِ في المنامِ(٥).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُستأنَفةٌ كما تُذكَرُ النَّتيجةُ عَقِبَ الدَّليلِ، أي: إنَّ في حالةِ الإماتةِ والإنامةِ دَلائلَ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ، وأنَّه المُستَحِقُّ للعِبادةِ دُونَ غيرِه، وأنْ ليس المَقْصودُ مِن هذا الخَبَرِ الإخْبارَ باختِلافِ حالَتَيِ المَوتِ والنَّومِ، بلِ المَقْصودُ التَّفكُّرُ والنَّظَرُ في مَضرِبِ المَثَلِ، وفي دَقائِقِ صُنعِ اللهِ، والتَّذْكيرُ بما تَنْطَوي عليه مِن دَقائِقِ الحِكْمةِ الَّتي تَمُرُّ على كُلِّ إنسانٍ كُلَّ يَومٍ في نَفْسِه، وتَمُرُّ على كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ في آلِهم، وفي عَشائِرِهم، وهم مُعرِضون عمَّا في ذلك مِن الحِكَمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

وبَديعِ الصُّنعِ[١].

- وتَأْكيدُ الخَبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَنْزيلِ مُعظَمِ النَّاسِ مَنزِلةَ المُنكِرِ لتلك الآياتِ؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم في أحْوالِهم على مُقتَضى ما تدُلُّ عليه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾

- (أَمْ) في قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ مُنقَطِعةٌ -تُقدَّرُ بـ (بل) والهمزةِ-، وهي للإضرابِ الانتِقاليِّ، انتِقالًا مِن تَشْنيعِ إشْراكِهم إلى إبطالِ مَعاذيرِهم في شِرْكِهم[٣].

- والاستِفْهامُ الَّذي تُشعِرُ به (أَمْ) -فإنَّها بمعنى: (أَبَلْ)- هو للإنكارِ والتَّقْريرِ والتَّوْبيخ، بمَعْنى أنَّ تَأويلَهم وعُذرَهم مُنكَرٌ كما كان المُعْتذَرُ عنه مُنكَرًا، فلم يَقْضُوا بهذه المَعذِرةِ وَطَرًا[٤].

- قَولُه: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ الهَمْزةُ في ﴿أَوَلَوۡ﴾ للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ؛ لإنكارِ الواقِعِ واستِقْباحِه والتَّوْبيخِ عليه، ومَدْخولُها مَحْذوفٌ، تَقْديرُه: (أَيشْفَعونَ؟!)، والمَعْنى: أَيَشْفَعونَ في حالةِ كَونِهم لا يَملِكون ولا يَعقِلون، وذلك عامُّ النَّقصِ، فكيف يَشفَعُ هؤلاءِ؟! ولذلك أتْبَعه بما اشْتَمَل على الاسْمِ الجامِعِ والمِلْكِ على الإطلاقِ دُنيا وأُخرى مِن غَيرِ مُنازِعٍ فيه، حيثُ قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦، ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ. أو هي هَمْزةٌ للاستِفْهامِ؛ لإنكارِ وُقوعِ الشَّفاعةِ منهم، ونفْيِ ذلك عنهم، على أنَّ المُرادَ بَيانُ أنَّ ما فَعَلوا ليس مِن اتِّخاذِ الشُّفَعاءِ في شَيءٍ؛ لأنَّه فَرعُ كَونِ الأوْثانِ شُفَعاءَ، وذلك أظهَرُ المُحالاتِ، فالمُقدَّرُ حينَئذٍ غَيرُ ما قُدِّرَ أوَّلًا. وعلى أيِّ تَقْديرٍ كان، فالواوُ للعَطْفِ على شَرطيَّةٍ قد حُذِفَتْ؛ لِدَلالةِ المَذْكورةِ عليها، أي: أيَشْفَعونَ لو كانُوا يَملكونَ شَيئًا، ولو كانُوا لا يَملِكونَ... إلخ، وجَوابُ (لو) مَحْذوفٌ؛ لِدَلالةِ المَذْكورِ عليه(١).

- وأفادَ تَنْكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ في سِياقِ النَّفيِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ عُمومَ كُلِّ ما يُملَكُ؛ فيَدخُلُ في عُمومِه جَميعُ أنْواعِ الشَّفاعةِ(٢).

- ولَمَّا كانتِ الشَّفاعةُ أمْرًا مَعْنويًّا، كان مَعْنى مِلكِها تَحْصيلَ إجابَتِها. والكَلامُ تَهكُّمٌ؛ إذ كيف يَشفَعُ مَن لا يَعقِلُ؟! فإنَّه لِعَدَمِ عَقْلِه لا يُتصوَّرُ خُطورُ مَعْنى الشَّفاعةِ عِندَه، فَضْلًا عن أنْ تَتوجَّهَ إرادَتُه إلى الاستِشْفاعِ؛ فاتِّخاذُهم شُفَعاءَ مِن الحَماقةِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- في قولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ تَقْديمُ الخَبَرِ المَجْرورِ ﴿لِّلَّهِ﴾ على المُبتَدَأِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ. واللَّامُ للمِلْكِ، أي: قَصرُ مِلْكِ الشَّفاعةِ على اللهِ تعالى، لا يَملِكُ أحَدٌ الشَّفاعةَ عِندَه(٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨).

- و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن الشَّفاعةِ مُفيدةٌ للاستِغْراقِ، أي: لا يَشِذُّ جُزْئِيٌّ مِن جُزْئيَّاتِ حَقيقةِ الشَّفاعةِ عن كَونِه مِلْكًا للهِ، وقد تأكَّدَ بلازِمِ هذه الحالِ ما دلَّ عليه الحَصرُ مِن انتِفاءِ أنْ يكونَ شَيءٌ مِن الشَّفاعةِ لِغَيرِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَقْريرٌ لِما قبْلَه وتأْكيدٌ، أي: له مِلْكُهما، وما فيهما من المَخْلوقات[٢].

- وجُملةُ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِتَعْميمِ انفرادِ اللهِ بالتَّصرُّفِ في السَّمَواتِ والأرضِ، الشَّامِلِ للتَّصرُّفِ في مُؤاخَذةِ المَخْلوقاتِ، وتَسْييرِ أُمورِهم؛ فمَوقِعُها موقعُ التَّذْييلِ المُفيدِ لِتَقْريرِ الجُملةِ الَّتي قَبْلَه وزِيادةٌ، فإذا كان ذلك المُلكُ له، فلا يَستَطيعُ أحَدٌ صَرْفَه عن أمْرٍ أرادَ وُقوعَه إلى ضِدِّ ذلك الأمْرِ في مُدَّةِ وُجودِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذا إبطالٌ لِأنْ تَكونَ لآلِهَتِهِم شَفاعةٌ لهم في أحْوالِهم في الدُّنيا[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ على ما قبْلَه؛ للإشارةِ إلى إثْباتِ البَعْثِ، وإلى أنَّه لا يَشفَعُ أحَدٌ عِندَ اللهِ بعدَ الحَشْرِ إلَّا مَن أَذِنَ له اللهُ بذلك[٤].

- وأيضًا لَمَّا أخبرَ أنَّه له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، هدَّدَهم بقولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فيَعلَمونَ أنَّهم لا يَشفَعونَ، ويَخيبُ سَعيُكم في عِبادَتِهم[٥].

- وحَرفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ كشَأنِها في عَطفِ الجُمَلِ؛ ذلك لأنَّ مَضْمونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٨).

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أنَّ للهِ مُلكَ الآخرةِ كما كان له مُلكُ الدُّنيا، ومُلكُ الآخِرةِ أعظَمُ؛ لِسَعةِ مَمْلوكاتِه وبَقائِها[1].

- وتَقْديمُ ﴿إِلَيْهِ﴾ على ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ للاهتِمامِ والتَّقَوِّي، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[2]، وللدَّلالةِ على الحصرِ؛ إذِ المعنى: إليه لا إلى غيرِه[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣]؛ فحَكَى اللهُ تعالى عنهم ذلك إنكارًا وتَعجُّبًا، ولإظهارِ تَناقُضِهم في أقْوالِهم المُشعِرِ بأنَّ ما يَقولونَه أقضيةٌ سُفُسطائيَّةٌ[4] يَقولونَها للتَّنصُّلِ مِن دَمَغاتِ الحُجَجِ الَّتي جَبَهَهم بها القُرآنُ؛ فإنَّهم يَعتَذِرون تارَةً على إشْراكِهم بأنَّ شُركاءَهُم شُفَعاءُ لهم عِندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣٤١).

(٤) السُّفِسْطائيَّةُ: فرقةٌ يونانيَّةٌ قديمةٌ، وهم أصنافٌ ثلاثةٌ: فمِنهم الَّذين ينفون حقائقَ الاشياءِ كلَّها، ومنهم الَّذين شكُّوا في وجودِ الحقائقِ، ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ حقائقَ الاشياءِ تابعَةٌ للاعتقادِ، وصحَّحوا جميعَ الاعتقاداتِ معَ تضادِّها وتنافيها. يُنظر: ((الفرق بين الفرق)) للبغدادي (ص: ٣١١)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ١٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ١٠٧٣).

والسَّفْسَطَةُ: هي قياسٌ مركَّبٌ مِن الوهميَّاتِ، والغرضُ منه تغليطُ الخصمِ وإسكاتُه. وهي كلمةٌ يونانيَّةٌ معناها: الغلطُ، والحِكمةُ المُمَوَّهَةُ. والغلطُ يقعُ بوجوهٍ كثيرةٍ: مِن جهةِ اللفظِ، أو من جهةِ المعنَى، أو مِن طريقِ الحذفِ والإضمارِ، أو في تركيبِ المقدِّماتِ الوهميَّةِ مكانَ القطعيَّةِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تقريب الوصول)) لابن جزي (ص: ١٤٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١١٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٣٥٣).

اللهِ، وهذا يَقتَضي أنَّهم مُعتَرِفونَ بأنَّ اللهَ هو إلَهُهم وإلهُ شُرَكائِهم، ثُمَّ إذا ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ واحِدٌ، أو ذَكَر المُسلِمونَ كَلِمةَ (لا إلَهَ إلَّا اللهُ)؛ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُهم مِن الاقتِصارِ على ذِكْرِ اللهِ، فلا يَرضَونَ بالسُّكوتِ عن وَصفِ أصْنامِهم بالإلهيَّةِ! وذلك مُؤذِنٌ بأنَّهم يُسَوُّونَها باللهِ تعالى[١].

- وقولُه: ﴿وَحۡدَهُ﴾ على القولِ بأنَّه مَصدَرٌ، أي: هو مَفْعولٌ مُطلَقٌ لِفعلِ (ذُكِرَ)؛ لِبَيانِ نَوعِه، أي: ذِكْرًا وَحْدًا، أي: لم يُذكَرْ مع اسْمِ اللهِ أسماءُ أصْنامِهم. وإضافةُ المَصدَرِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لاشْتِهارِ المُضافِ إليه بهذا الوَحْدِ[٢].

- ونبَّهَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى بوَضعِ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ على أنَّهم إنَّما اشْمَأَزُّوا لأنَّهم رَكَنوا إلى اللَّذَّاتِ العاجِلةِ، وانْغَمَسوا في الشَّهَواتِ النَّفْسانيَّةِ، فإذا سَمِعوا بأنْ لا إلَهَ إلَّا هو وَحْدَه، واسْتَلزَمَ ذلك العِبادةَ والتَّجافِيَ عن دارِ الغُرورِ، والإنابةَ إلى دارِ الخُلودِ؛ ظَهَرَتْ آثارُ الكآبةِ على وُجوهِهم، وانقَبَضَتْ قُلوبُهم، وضاقتْ صُدورُهم، وإذا ذُكِرَتِ الأصْنامُ مالتْ قُلوبُهم إلى اللَّذَّاتِ العاجِلةِ، واسْتَبْشَروا وفَرِحوا[٣].

- والتَّعْبيرُ عنِ المُشرِكينَ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّهم عُرِفوا بهذه الصِّلةِ بيْنَ النَّاسِ، مع قَصدِ إعادةِ تَذْكيرِهم بوُقوعِ القيامةِ[٤].

- والتَّعْبيرُ عن آلِهَتِهم بـ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، دُونَ لَفظِ: (شُرَكائِهم أو شُفَعائِهم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استِبْشارِهم بذلك الذِّكرِ هو أنَّه ذِكْرُ مَنْ هُم دُونَ اللهِ، أي:

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

ذِكرٌ مُناسِبٌ لهذه الصِّلةِ، أي: هو ذِكرٌ خالٍ عن اسْمِ اللهِ، فالمَعْنى: وإذا ذُكِر شُرَكاؤُهُم دُونَ ذِكْرِ اللهِ إذا هُمْ يَستَبْشِرون(١).

- قَولُه: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كَلِمةُ (إِذَا) لِلمُفاجَأةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يُعاجِلُهم الاستِبْشارُ حِينَئذٍ مِن فَرْطِ حُبِّهم آلِهَتَهم؛ ولذلك جِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: مُستَبشِرونَ؛ لإفادةِ تَجدُّدِ استِبْشارِهم(٢).

- وقد بُولِغَ في بَيانِ حالَيهم القَبيحَتَينِ بمُقابَلةِ الاشْمِئْزازِ بالاستِبْشارِ مقابلةً كامِلةً؛ لأنَّ الاشمئزازَ غايةُ الكراهيةِ، والاستبشارُ غايةُ الفرحِ، والاشْمِئْزازُ: امتِلاءُ القَلبِ غَمًّا وغَيظًا، فيَظهَرُ أثَرُه، وهو الانقباضُ في الوَجهِ، والاستِبْشارُ: امتِلاؤُه سُرورًا، فيَظهَرُ أثَرُه، وهو الانبِساطُ والتَّهلُّلُ في الوَجهِ(٣).

- والاقتِصارُ على التَّعرُّضِ لِهَذَينِ الذِّكْرينِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ لأنَّهما أظهَرُ في سُوءِ نِيَّاتِ المُشرِكينَ نَحوَ اللهِ تعالى، وفي بُطلانِ اعتِذارِهِم بأنَّهم ما يَعبُدونَ الأصْنامَ إلَّا لِيُقَرِّبوهُم إلى اللهِ، ويَشْفَعوا لهم عِندَه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

الآيات (٤٦-٤٨)

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتَدِئَهما، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[١].

﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾: أي: لَبَذَلوا ذلك افتِداءً مِن النَّارِ، والفِدَى والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ عن النَّائبةِ بما يَبذُلُه عنه، وافْتَدى: إذا بذَلَ ذلك عن نفْسِه، والافتِداءُ: جَعْلُ أحدِ الشَّيئينِ بدَلًا مِن الآخَرِ، وأصلُ (فدي) هنا: أنْ يُجْعَلَ شَيءٌ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[٢].

﴿يَحْتَسِبُونَ﴾: أي: يَظُنُّونَ، مِن حَسِبْتُ، أي: ظَنَنْتُ، والحِسْبانُ: الظَّنُّ، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كَذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِنَ الأمورِ الكائنةِ[٣].

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وآمِرًا له بتفويضِ الأمورِ إليه: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: اللَّهُمَّ خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ، عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظهَرَ لهم، أنتَ وَحْدَك تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما للمشركينَ مِن سوءِ المصيرِ، فيقولُ: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ ما في الأرضِ جَميعًا ومِثلَه معه، لَقَدَّموه فِداءً لأنفُسِهم مِنَ العذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ، وظهَرَ لهم يومَ القيامةِ مِن عذابِ اللهِ ما لم يَخطُرْ ببالِهم، وظهَرَ لهم سَيِّئاتُ ما عَمِلوا في الدُّنيا، وأحاط بالكافِرينَ العذابُ الَّذي كانوا يَسْخَرونَ منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ ما تقدَّمَ مِن السُّورةِ مُشعِرًا بالاختِلافِ بيْنَ المشركينَ والمؤمنينَ، وبأنَّ المشركينَ مُصمِّمون على باطِلِهم على ما غمَرَهم مِن حُجَجِ الحقِّ دونَ إغناءِ الآياتِ والنُّذُرِ عنهم؛ أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَ هذا القَولَ؛ تَنفيسًا عنه مِن كَدَرِ الأسى على قَومِه، وإعذارًا لهم بالنِّذارةِ، وإشعارًا

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦).

لهم بأنَّ الحَقَّ في جانِبِهم مُضاعٌ، وأنَّه لا يُجدي فيهم إنذارُه واجتِهادُه، وأنَّ الأجدَرَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتارَكَتُهم، وأنْ يُفَوِّضَ الحُكمَ في خِلافِهم إلى الله(١).

وأيضا لَمَّا أخبَرَ عن سَخافةِ عُقولِهم باشمِئزازِهم مِن ذكرِ اللهِ، واستبشارِهم بذِكرِ الأصنامِ؛ أمَرَه أن يدعوَ بأسماءِ اللهِ العُظمى -مِنَ القُدرةِ، والعِلمِ، ونِسبةِ الحُكمِ إليه-؛ إذ غَيرُه لا قُدرةَ له، ولا عِلمَ تامٌّ، ولا حُكمَ، وفي ذلك وَصفٌ لحالِهم السَّيِّئِ، ووعيدٌ لهم، وتَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- داعيًا ربَّك وَحْدَه: يا اللهُ يا خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ على غَيرِ مثالٍ سابِقٍ(٣).

﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾.

أي: يا عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظهَرَ لهم، فلا يخفَى عليك شَيءٌ مِن ذلك(٤).

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((يا رَسولَ اللهِ، مُرْني بكَلِماتٍ أقولُهنَّ إذا أصبحْتُ وإذا أمسَيتُ. قال: قُل: اللَّهُمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَليكَه، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أعوذُ بك مِن شَرِّ نَفْسي، وشَرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه. قال: قُلْها إذا أصبَحْتَ، وإذا أمسَيْتَ، وإذا أخذْتَ مَضْجَعَك))[١].

﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: أنتَ وَحْدَك تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختلِفونَ فيه في الدُّنيا[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٠٦٧) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٣٣٩٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٦٩٩)، وأحمد (٧٩٦١).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (٦٩٢)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: ١٢٨)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٦٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٦٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٤).

قال الشوكاني: (معنى ﴿تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾: تُجازي المحسِنَ بإحسانِه، وتُعاقِبُ المُسيءَ بإساءتِه؛ فإنَّه بذلك يَظهَرُ مَن هو المحِقُّ، ومَن هو المُبطِلُ، ويرتَفِعُ عِندَه خلافُ المختَلِفينَ، وتَخاصُمُ المُتخاصِمينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٦).

وقال ابن عاشور: (الحُكمُ يَصدُقُ بحُكمِ الآخِرةِ، وهو المحقَّقُ الَّذي لا يُخلَفُ، ويَشملُ حُكمَ الدُّنيا بنَصرِ المحِقِّ على المُبطِلِ إذا شاء اللهُ أن يُعَجِّلَ بَعضَ حُكمِه بأن يُعَجِّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٥).

ومعنى قولِه تعالى: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: قيل: اختِلافُهم في الهُدى والضَّلالةِ. وقيل: اختِلافُهم في الحُقوقِ والمظالِمِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٠).

عن أبي سَلَمةَ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، قال: ((سألْتُ عائِشةَ أمَّ المؤمِنينَ: بأيِّ شَيءٍ كان نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَفتَتِحُ صَلاتَه إذا قام مِنَ اللَّيلِ؟ قالت: كان إذا قام مِنَ اللَّيلِ افتتَحَ صَلاتَه: اللَّهُمَّ ربَّ جِبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنت تَحكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ، اهدِني لِما اختُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهدي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ))[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه الحاكِمُ بيْنَ عِبادِه، وذكَرَ مَقالةَ المُشرِكينَ وشناعتَها؛ كأنَّ النُّفوسَ تشَوَّفَت إلى ما يَفعَلُ اللهُ بهم يومَ القيامةِ، فأخبَرَ أنَّ لهم سُوءَ العَذابِ، أي: أشَدَّه وأفْظَعَه، كما قالوا أشَدَّ الكُفرِ وأشْنَعَه[2].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ جَميعَ ما في الأرضِ وضِعْفَ ذلك معه، لَقَدَّموه فِداءً يَفدُونَ به أنفُسَهم للنَّجاةِ من العَذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٠-٣٤٢).

ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

أي: وظَهَر للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ مِن أمرِ اللهِ وعَذابِه الَّذي أعدَّه لهم: ما لم يكُنْ يَخطُرُ ببالِهم، ولم يَقَعْ لهم في ظُنونِهم، وقد كانوا يَحكُمونَ لأنفُسِهم بغَيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

أي: وظَهَرَ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ السَّيِّئاتُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥).

قيل: المرادُ: تَبدو لهم نَفْسُ سَيِّئاتِهم فيَرَونَها في كتُبِهم إذا أُعطُوها بشَمائِلِهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: الجزاءُ، أي: يَظهَرُ لهم عِقابُ ما كَسَبوه. وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ، ومكِّي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، =

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: وأحاط بالكافِرينَ ولَزِمَهم عذابُ اللهِ الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه في الدُّنيا(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ تحذيرُ المرءِ من المخالَفةِ؛ لأنَّه إذا آمَنَ بأنَّ اللهَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ؛ فسوف يَحْذَرُ؛ لأنَّه مهما عَمِل فاللهُ تعالى عالِمٌ به(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التَّحذيرُ من الظُّلْمِ؛ لأنَّ ذِكْرَ هذا يعني: التَّحذيرَ منه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التَّوسُّلُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بأفعالِه(٤).

٢- قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في تفويضِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الحُكمَ في خِلافِهم إلى اللَّه إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي فوَّض أمْرَه إلى اللهِ هو الواثِقُ بأحَقِّيَّةِ دِينِه، المُطمَئِنُّ بأنَّ التَّحكيمَ يُظهِرُ حَقَّه، وباطِلَ خَصمِه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ تسليةُ المؤمنينَ؛ لِكَونِ اللهِ تعالى يَحكُمُ بيْنَهم فيما يَختلِفون فيه مع الكفَّارِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧] دَلالةً على أنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على كُنودِ نَفْسِه -أي: مُبالَغتِه في الكُفرِ- وهذه بخِلافِ الآيةِ الشَّاهِدِ عِندَنا!

الجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ شَهادةَ الإنسانِ بأنَّه كَنودٌ هي شَهادةُ حالِه بظُهورِ كُنودِه، والحالُ رُبَّما تكفي عن المَقالِ.

الثَّاني: أنَّ شَهادتَه على نَفْسِه بذلك هي يومَ القيامةِ، كما يدُلُّ له قَولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الثَّالثُ: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ راجِعٌ إلى رَبِّ الإنسانِ المذكورِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وعليه فلا إشكالَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٩).

الآيةِ، ولكِنْ رُجوعُه إلى الإنسانِ أظهَرُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾[1] [العاديات: ٨].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّهم لَيسُوا بمُؤمِنينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ لا يَستَهزِئُ بوَعيدِ ربِّه، وإنِ اغْتَرَّ بذَنْبِه؛ فهؤلاء هُم اليَهودُ والنَّصارى ومَن يرَى مِن الكُفَّارِ أنَّ عمَلَه الَّذي يَتقرَّبُ به إلى اللهِ يُجازَى عليه بخَيرٍ، فيَبدو له مِن ربِّه خِلافُ ما قَدَّرَ[2]!

٦- قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ رُبَّما ظَنَّ الإنسانُ أنَّه على الاعتِقادِ الحَقِّ، والعَمَلِ الصَّالِح، ثمَّ إنَّه يومَ القيامةِ يَظهَرُ له أنَّ اعتِقادَه كان ضَلالًا، وعمَلَه كان ذَنْبًا؛ فهناك تَحصُلُ الخَجالةُ العَظيمةُ، والحَسرةُ الكامِلةُ، والأسَفُ الشَّديدُ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ تهويلٌ للأمرِ بإبهامِه؛ لِيَكونَ ضِدَّ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾[4] [السجدة: ١٧].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ إثباتُ الكَسبِ للعبدِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! فنقولُ لهم: بلِ الإنسانُ غيرُ مُجبَرٍ، وعمَلُه من كَسْبِه[5].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّ الاستِهزاءَ باللهِ تعالى وآياتِه: سَبَبٌ للعذابِ، وهو كُفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ؛ لِقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم﴾[1] [التوبة: ٦٥، ٦٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- جُعِلَ هذا الدُّعاءُ مُعتَرِضًا بيْنَ كَلامَينِ؛ اهتِمامًا به، وتَوكيدًا لِلوَعيدِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ ...﴾ ابتُدِئَ خِطابُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِرَبِّه بالنِّداءِ؛ لِأنَّ المَقامَ مَقامُ تَوجيهٍ وتَحاكُمٍ. وإجراءُ الوَصفَينِ على اسمِ الجَلالةِ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لِمَا فيهما مِنَ المُناسَبةِ بخُضوعِ الخَلقِ كُلِّهم لِحُكمِه، وشُمولِ عِلْمِه لِدَخائِلِهم مِن مُحِقٍّ ومُبطِلٍ[3].

- ووَصْفُ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُشعِرٌ بِصِفةِ القُدرةِ، وتَقديمُه قبْلَ وصْفِ العِلْمِ؛ لِأنَّ شُعورَ النَّاسِ بقُدرَتِه سابِقٌ على شُعورِهم بعِلْمِه، ولأنَّ القُدرةَ أشَدُّ مُناسَبةً لِطَلَبِ الحُكمِ؛ لأنَّ الحُكمَ إلزامٌ وقَهرٌ، فهو مِن آثارِ القُدرةِ مُباشرةً[4].

- قَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدُّعاءِ، والمَعنى: احكُمْ بَيْنَنا[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتَ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿تَحْكُمُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أيْ: أنتَ لا غَيرُكَ، وإذْ لم يكُنْ في الفَريقَينِ مَن يَعتَقِدُ أنَّ غيرَ اللهِ يَحكُمُ بيْنَ النّاسِ في مِثلِ هذا الاختِلافِ فيَكونَ الرَّدُّ عليه بمُفادِ القَصرِ؛ تَعَيَّنَ أنَّ القَصرَ مُستعمَلٌ كِنايةً تَلويحيَّةً عن شِدَّةِ شَكيمَتِهم في العِنادِ، وعَدَمِ الإنصافِ والانصياعِ إلى قَواطِعِ الحُجَجِ، بحيث إنَّ مَن يَتطَلَّبُ حاكمًا فيهم لا يَجِدُ حاكمًا فيهم إلَّا اللهَ تعالى. وهذا أيضًا يُومِئُ إلى العُذرِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قِيامِه بأقصَى ما كُلِّفَ به؛ لأنَّ هذا القَولَ إنَّما يَصدُرُ عمَّن بَذَلَ وُسْعَه فيما وَجَبَ عليه، فلَمَّا لَقَّنَه رَبُّه أنْ يَقولَه كان ذلك في مَعنى: إنَّكَ أبلَغْتَ وأدَّيتَ الرِّسالةَ، فلم يَبْقَ إلَّا ما يَدخُلُ تَحتَ قُدرةِ اللهِ تعالى الَّتي لا يُعجِزُها الألِدَّاءُ أمثالُ قَومِكَ، وفيه تَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه وَعيدٌ لِلمُعانِدينَ[٢].

- والعُدولُ عنِ الإضمارِ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ في قَولِه: ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (بَيْنَنا)؛ لِمَا في ﴿عِبَادِكَ﴾ مِنَ العُمومِ؛ لأنَّه جَمعٌ مُضافٌ، فيَشملُ الحُكمَ بَيْنَهم في قَضيَّتِهم هذه، والحُكمَ بيْنَ كُلِّ مُختَلِفينَ؛ لِأنَّ التَّعميمَ أنسَبُ بالدُّعاءِ والمُباهَلةِ[٣].

- والإتيانُ بفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ صِلةً لـ﴿مَا﴾ المَوصولةِ؛ لِيَدُلَّ على تَحَقُّقِ الاختِلافِ، وكَونُ خَبَرِ (كانَ) مُضارِعًا تَعريضٌ بأنَّه اختِلافٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١، ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١).

مُتَجَدِّدٌ؛ إذْ لا طَماعِيَةَ في ارْعِواءِ المُشرِكينَ عن باطِلِهم[1].

- وتَقديمُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾؛ لِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع الاهتِمامِ بالأمْرِ المُختَلَفِ فيه[2].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ سِيقَ الكَلامُ في الأمْرِ بالدُّعاءِ في الأسماءِ الحُسْنى، والأمْرِ بالتَّفويضِ في الحُكمِ بَيْنَهم إلى اللهِ تَعالى، وأُدمِجَ فيه مَعانٍ أربَعةٌ؛ أحَدُها: قَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾، دَلَّ على الاختِصاصِ؛ لِأنَّه مِن قَبيلِ: أنتَ عَرَفتَ، وأفادَ أنَّه تَعالى هو وَحْدَه يَحكُمُ بيْنَهم، فدَلَّ ذلك على شِدَّةِ شَكيمَتِهم في الكُفرِ والعِنادِ، وهو كِنايةٌ. وثانيها: اعتِذارٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِأنَّ هذا القَولَ إنَّما يَصدُرُ عمَّن بَذَلَ وُسْعَه فيما وَجَبَ عليه، أيْ: أبلَغتَ وأدَّيتَ ما عليكَ، بَقِيَ الآنَ على مَن هو أحكَمُ الحاكِمينَ هو وَحْدَه يَحكُمُ بَيْنَهم. وثالِثُها: تَسليةٌ له صَلَواتُ اللهِ عليه؛ لِأنَّه كانَ حَريصًا على إيمانِ القَومِ؛ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]، وهذه الآيةُ كالمُتارَكةِ والمُوادَعةِ واليَأْسِ مِن إيمانِهم، واليَأْسُ إحدى الرَّاحَتَينِ. ورابِعُها: وَعيدٌ لهم، ولا وَعيدَ بَعْدَه؛ فقولُه: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دَلَّ على القُدرةِ التَّامَّةِ، وقَولُه: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ دَلَّ على العِلْمِ الشَّامِلِ، وأنَّه عالِمٌ بما ظَهَرَ منهم وما بَطَنَ، فيُجازيهم عليه، وقَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ دَلَّ على القَضاءِ الحَقِّ والحُكمِ العَدلِ، واللهُ أعلَمُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ نَمَطٍ مِن أنماطِ الهَولِ الَّذي يَنتَظِرُهم، والعَذابِ الشَّديدِ الَّذي أُعِدَّ لهم، ولِبَيانِ آثارِ الحُكمِ الَّذي استَدعاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وغايةِ شِدَّتِه وفَظاعَتِه[١]. أو عَطفٌ على جُملةِ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الزمر: ٤٦] إلَخ؛ لِأنَّها تُشيرُ إلى أنَّ الحَقَّ في جانِبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ الحُكمَ سَيَكونُ على المُشرِكينَ، فأعقَبَ ذلك بتَهويلِ ما سيَكونُ به الحُكمُ بأنَّه لو وَجَدَ المُشرِكونَ فِديةً منه بالِغةً ما بَلَغتْ لَافتَدَوْا بها[٢].

- وإنْ جُعِلَ قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عامًّا، كانتِ الآيةُ اعتِراضًا بَعْدَ اعتِراضٍ. وإذا جُعِلَ مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ، كان استِطرادًا بعدَ اعتِراضٍ[٣].

- وقولُه: ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَشملُ كُلَّ عَزيزٍ عليهم مِن أهليهم وأموالِهم، بل وأنْفُسِهم؛ فهو أهوَنُ مِن سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ، ووَجهُ التَّهويلِ في ذلك هو ما يَستَلزِمُه مِلكُ هذه الأشياءِ مِنَ الشُّحِّ بها في مُتَعارَفِ النُّفوسِ[٤].

- وتَضَمَّنَ حَرفُ الشَّرطِ (لو) أنَّ كَونَ ما في الأرضِ لهم مُنتَفٍ؛ فأفادَ أنْ لا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

فِداءَ لهم مِن سُوءِ العَذابِ، فهذا وَعيدٌ شَديدٌ، وإقناطٌ كُلِّيٌّ لهم مِنَ الخَلاصِ[١].

- وعُطِفَ على هذا التَّأييسِ تَهويلٌ آخَرُ في عِظَمِ ما يَنالُهم مِنَ العَذابِ، وهو ما في المَوصولِ مِن قَولِه: ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ مِنَ الإيهامِ الَّذي تَذهَبُ فيه نَفْسُ السَّامِعِ إلى كُلِّ تَصويرٍ مِنَ الشِّدَّةِ[٢].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ابتِدائيَّةٌ، أيْ: ظَهَرَ لهم مِمَّا أعَدَّ اللهُ لهمُ الَّذي لم يَكونوا يَظُنُّونَه. والاحتِسابُ: مُبالَغةٌ في الحِسابِ، بمَعنى الظَّنِّ، مِثلَ: اقتَرَبَ بمَعنى قَرُبَ، والمَعنى: ما لم يَكونوا يَظُنُّونَه، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه مُتَجاوِزًا أقصى ما يَتخَيَّلُه المُتَخَيِّلُ حينَ يَسمَعُ أوصافَه؛ فلا التِفاتَ في هذه الكِنايةِ إلى كَونِهم كانوا مُكَذِّبينَ بالبَعثِ، فلَمْ يَكُنْ يَخطُرُ ببالِهم[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ عَطفٌ على ما تَقَدَّمَ، ويُمكِنُ أنْ يَكونَ الكَلامُ مُستَأنَفًا مَسوقًا لِإبرازِ وَعيدِهم في أبلَغِ ما يَكونُ الوَعيدُ والتَّهديدُ[٤].

- و﴿سَيِّئَاتُ﴾ جَمْعُ سَيِّئةٍ، وهو وَصفٌ أُضيفَ إلى مَوصوفِه، وهو المَوصولُ ﴿مَا كَسَبُوا﴾، أيْ: مَكسوباتهمُ السَّيِّئات، وتَأنيثُها باعتِبارِ شُهرةِ إطلاقِ السَّيِّئةِ على الفَعلةِ، وإنْ كان فيما كَسَبوه ما هو مِن فاسِدِ الاعتِقادِ؛ كاعتِقادِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٩).

الشُّرَكاءِ للهِ، وإضمارِ البُغضِ لِلرَّسولِ والصَّالِحينَ، والأحقادِ والتَّحاسُدِ، فجَرى تأنيثُ الوَصفِ على تَغليبِ السَّيِّئاتِ العَمليَّةِ -مِثلَ الغَضَبِ والقَتلِ والفَواحِشِ- تَغليبًا لَفظيًّا؛ لِكَثرةِ الاستِعمالِ(١).

- وأُوثِرَ فِعلُ ﴿كَسَبُواْ﴾ على فِعلِ (عَمِلوا)؛ لِقَطعِ تَبرُّمِهم مِنَ العَذابِ بتَسجيلِ أنَّهمُ اكتَسَبوا أسبابَه بأنْفُسِهم(٢).

- قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يحتملُ أن يكونَ هذا على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: حاقَ بهم جزاءُ ما كانوا به يَسْتهزِئونَ، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ دونَ حذفٍ، ومعناه: حاقَ بهم العذابُ الَّذي كانوا به يَستهزِئونَ(٣).

- وقيل: الباءُ في قَولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّةِ(٤).

- وتَقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ به، ولِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣]؛ ووَجهُ ذلك: أنَّ ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ في هذه السُّورةِ وَقَع بيْنَ ألفاظِ الكَسبِ، وهو ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وما تَبِعَه مِن ذِكرِ السَّبَبِ بَعْدَها في قَولِه: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الزمر:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥٠، ٥١]، وأمَّا في سُورةِ (الجاثيةِ) فوَقَع بيْنَ ألفاظِ العَمَلِ، وهي ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، و﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعْدَه ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية: ٣٣]؛ فخُصَّتْ كُلُّ سُورةٍ بما اقتَضاه طَرَفاه[١].

وقيل غيرُ ذلك[٢].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١١٧، ١١١٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٨، ٢١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٦-٤٢٨).

الآيات (٤٩-٥٢)

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ
هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ
مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾: أي: مَلَّكْناه وأعطَيْناه، وأصلُه: يدُلُّ على تعهُّدِ الشَّيءِ[١].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: اختبارٌ، وابتلاءٌ، وامتحانٌ، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[٢].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[٣].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: فإذا أصاب الإنسانَ ضَرَرٌ أو كَربٌ دَعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ما أصابه، ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً منَّا قال: إنَّما أُعطيتُ ذلك على عِلمٍ! بل هذه النِّعمةُ فِتنةٌ له، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ ذلك.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى المصيرَ السَّيِّئَ لقائلِ تلك المقالةِ، فيقولُ: قد قال هذه المقالةَ مَنْ سبقَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، فما أغْنَى عنهم ما كَسَبوه شَيئًا من العَذابِ. فحَلَّ عليهم عِقابُ كَسبِهم، والَّذين ظَلَموا من كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا عِقابُ كَسبِهم، وما هم بمُعجِزينَ اللهَ تعالى؛ فهو قادِرٌ على عِقابِهم.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا عظيمَ قدرتِه، وبديعَ حكمتِه: أوَلَمْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه حكايةُ طريقةٍ أُخرَى مِن طرائقِهم الفاسدةِ[1]، فبَعْدَ أنْ حكَى عن المشركينَ بعضَ هَنَواتِهم[2] ....

= للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨).

(٢) الهَنَوات: خِصالُ سُوءٍ. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٣٦٦).

الفاسِدةِ- حكَى عنهم هَناةً أخرَى[(١)].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، وأخبَرَ عن ظُهورِ هذا لهم؛ عَلَّلَه بأنَّهم كانوا يَفعَلونَ ما لم يَكُنْ في العادةِ يُتوقَّعُ منهم، وهو مُجازاةُ الإحسانِ بالإساءةِ، وقد كانوا جَديرينَ بضِدِّه؛ فقال[(٢)]:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾.

أي: فإذا أصاب الإنسانَ[(٣)] ضَرَرٌ وشِدَّةٌ وكَربٌ دعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ذلك[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً مِن غِنًى أو عافيةٍ أو غَيرِ ذلك، قال: إنَّما أُعطِيتُ ذلك على عِلمٍ[(٥)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٧).

(٣) قيل: المرادُ: جِنسُ الإنسانِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

قال أبو السعود: (إخبارٌ عن الجنسِ بما يَفعَلُه غالبُ أفرادِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن حالةِ الإنسانِ وطبيعتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: كُلُّ مُشرِكٍ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ؛ أنَّه أُوتِيَ تلك النِّعمةَ على عِلمٍ، إنَّما هذه النِّعمةُ الَّتي أنعَمْنا بها عليه بلاءٌ واختبارٌ[(١)]!

= القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

قيل: معنى قَولِه: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾: أي: على عِلمٍ مِنِّي بطُرُقِ اكتِسابِها. واستظهر هذا المعنى ابنُ جُزَي، وذهب إليه البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٦).

وقيل: المعنى: على عِلمٍ من اللهِ بأنِّي له أهلٌ، ومُستَحِقٌّ له؛ لِشَرَفي، ورِضاه بعَمَلي، وكَرَمي عليه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٣٤).

وممَّن جمع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (يحتمِلُ أنْ يريدَ: على عِلمٍ مِنِّي بوَجهِ المكاسِبِ والتِّجاراتِ، وغير ذلك. قاله قَتادةُ؛ ففي هذا التَّأويلِ إعجابٌ بالنَّفْسِ، وتعاطٍ مُفرِطٌ، ونحوُ هذا. ويحتمِلُ أن يريدَ: على عِلمٍ مِنَ الله فيَّ، وشَيءٍ سَبَق لي، واستِحقاقٍ حُزتُه عندَ اللهِ لا يَضُرُّني معه شَيءٌ؛ ففي هذا التَّأويلِ اغترارٌ باللهِ تعالى، وعَجزٌ وتَمَنٍّ على اللهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وممَّن قال بأنَّ الفِتنةَ هنا عائِدةٌ على النِّعمةِ الَّتي خَوَّله اللهُ تعالى إيَّاها: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لجَهلِهم لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ يُعطي النِّعَمَ لِعبادِه؛ فِتنةً لهم[1].

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كُفَّارُ قُرَيشٍ مَقصودينَ بهذا قَصدًا عَظيمًا، وإن كان شامِلًا بإطلاقِه غَيرَهم مِن الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ قال مُوَضِّحًا لذلك[2]:

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: قد قال هذه المقالةَ -إنَّما أُوتِيتُه على عِلمٍ- وادَّعى هذه الدَّعوَى: مَنْ سلَف مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ[3].

= (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وقيل: المرادُ بالفِتنةِ: قَولُه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

قال الرازي: (و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ هم قارونُ وقومُه، حيثُ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، وقومُه راضونَ به، فكأنَّهم قالوها. ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ في الأُمَمِ الخاليةِ قائِلونَ مِثْلَها). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٩).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: قد قال هذه المَقالةَ -يعني قولَهم لنعمةِ اللهِ الَّتي خَوَّلهم =

كما قال تعالى حاكيًا عن قارونَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

أي: فما دفَع عنهم ما كَسَبوه شَيئًا مِن العَذابِ لَمَّا جاءَهم(١).

= وهم مشركونَ: أُوتيناه على عِلْمٍ عِندَنا- ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني: الَّذينَ مِن قَبلِ مشركي قُريشٍ مِن الأُمَمِ الخاليةِ لِرُسُلِها؛ تكذيبًا منهم لهم، واستِهزاءً بهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: الشِّركُ والكفرُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٠).

وقيل: المرادُ: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن أموالٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعالبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

وقيل: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن أموالٍ وأولادٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦).

وقيل: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن المالِ والجاهِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

وقيل: المرادُ: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن مَتاعِ الدُّنيا. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، والنسفي، وأبو =

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١)﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

أي: فأصابَهم جزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، وحلَّ عليهم وَبالُ ما كَسَبوه[1].

كما قال تعالى عن قارونَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

أي: والَّذين ظَلَموا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا وَبالُ ما كَسَبوه[2].

﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: ولن يُعجِزوا اللهَ فيَغلِبوه أو يَفُوتُوه ويَسبِقُوه بالهَربِ في الأرضِ؛ فلا يَقدِرَ على عِقابِهم[3]!

ثمَّ أقام سبحانَه الدَّليلَ على عظيمِ قدرتِه، وبديعِ حكمتِه، فقال[4]:

= السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قال البِقاعي: (تسبَّب عن عدَمِ الإغناءِ أنَّه أصابَهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: وَبالُ ذلك، وما يَسوءُ من آثارِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ٢٠).

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾.

أي: أوَلَم يَعلَمْ أولئك الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم أُوتُوا النِّعَمَ على عِلمٍ: أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم[١]؟

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: إنَّ في توسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، وتَضييقِه على مَن يَشاءُ: لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، فيَستَدِلُّونَ بها على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى حِكمتِه ورَحمتِه، وتفَرُّدِه بالتَّصَرُّفِ في أرزاقِ عِبادِه، وغيرِ ذلك[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ اللُّجوءُ إلى اللهِ تعالى؛ حيثُ إنَّ جميعَ ما كَسَبه مِن مالٍ أو جاهٍ، أو ولدٍ أو زوجةٍ، أو غيرِه: لا يُغْني عنه مِن اللهِ تعالى شَيئًا، فلا يُرجَعُ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[٣]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ أنَّ المشركين في زمانِنا الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

يَدْعُون مع اللهِ تعالى غيرَه أشَدُّ شِرْكًا مِن السَّابِقينَ؛ لأنَّ السَّابِقينَ إنَّما كانوا يُشرِكون في الرَّخاءِ، وإذا مَسَّهم الضُّرُّ لَجَؤُوا إلى اللهِ تعالى، أمَّا اللَّاحِقون فإنَّهم يُشرِكون في حالِ الشِّدَّةِ كما يُشرِكون في حالِ الرَّخاءِ إذا أصابَهم الضُّرُّ؛ فيُنادُون: يا فُلانُ! يا فلانُ! يا فلانُ! فهذا أشدُّ شِرْكًا مِن الأوَّلِينَ، وهذا أيضًا مخالِفٌ للفِطرةِ الَّتي فُطِرَ النَّاسُ عليها؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَلْجَأُ عندَ الشدائدِ إلَّا بمَن يُؤمِنُ أنَّه يَكْشِفُ هذه الشدائدَ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَبتَلي بالنِّعَم كما يَبتَلي بالنِّقَم؛ وقد قال سُلَيمانُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠][2]، وأكثرُ النَّاسِ غافِلونَ عن هذه المسألةِ؛ أي: عن كَونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يَبْتَلِيهم بالنِّعَم، فيَظُنُّون أنَّ النِّعَمَ دليلٌ على الرِّضا، فيَستمِرُّونَ في معاصيهم، وقد يكونُ هذا مِن بابِ الاستِدراجِ بالنِّعَم حتَّى يَهْلِكَ الإنسانُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وصحَّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ))[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه أنَّ عَمَلَ الإنسانِ كَسْبٌ له، وفيه ردٌّ على الجبريةِ الذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عملِه؛ فليس كسبًا له؛ ولا يُضافُ إليه[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ وسيلةٌ للاهتِداءِ ومعرفةِ الآياتِ، وإذا كان هذا الحُكْمُ مُعَلَّقًا على هذا الوصفِ؛ فإنَّ القاعدةَ: أنَّ ما عُلِّقَ على وَصْفٍ فإنَّه يَقوى بقوَّتِه، ويَضْعُفُ بضَعْفِه، فكُلَّما قَوِيَ الإيمانُ ظَهَرَ للإنسانِ مِن آياتِ اللهِ تعالى ما لم يَظْهَرْ له مع ضَعفِ الإيمانِ، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَتْ معرفةُ الإنسانِ وإدراكُه للآياتِ الَّتي يُنْزِلُها اللهُ عزَّ وجلَّ مِن الوَحيِ؛ والَّتي يُقَدِّرُها مِن القضاءِ[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصَّ المؤمِنُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه هو الَّذي يَتدَبَّرُ الآياتِ ويَنتفِعُ بها، ويَعلَمُ أنَّ سَعةَ الرِّزقِ قد تكونُ مَكرًا واستِدراجًا، وتَقتيرَه رِفْعةً وإعظامًا[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عُطِفَتْ هذه الآيةُ بالفاءِ هاهنا، وعُطِفَ مِثلُها في أوَّلِ السُّورةِ بالواوِ، وفي ذلك وَجْهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ الفاءَ لِتَفريعِ هذا الكلامِ على قولِه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] الآيةَ، وما بيْنَهما اعتراضٌ مُسلسَلٌ بعضُه مع بعضٍ للمُناسَباتِ. وتَفريعُ ما بعْدَ الفاءِ تَفريعُ وَصْفِ بعْضٍ مِن غرائبِ أحوالِهم على بعْضٍ، وهل أغرَبُ مِن فَزَعِهم إلى اللهِ وَحْدَه بالدُّعاءِ إذا مَسَّهمُ الضُّرُّ وقد كانوا يَشمَئِزُّونَ مِن ذِكرِ اسمِه وَحْدَه؟! فهذا تَناقُضٌ مِن أفعالِهم وتَعكيسٌ؛ فإنَّه تَسَبُّبُ حَديثٍ على حَديثٍ، وليس تَسَبُّبًا على الوُجودِ. وهذه النُّكتةُ هي الفارِقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٤، ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧).

بيْن العَطفِ بالفاءِ هنا وعَطفِ نَظيرِها بالواوِ في قَولِه أوَّلَ السُّورةِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]؛ فإنَّها لم تَقَعْ مُسَبَّبةً، بل ناسَبَتْ ما قَبْلَها، فعُطِفتْ عليه بالواوِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الَّذي يَظهَرُ في الرَّبطِ: أنَّه لَمَّا قال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الزمر: ٤٧] الآيةَ، كان ذلك إشعارًا بما يَنالُ الظَّالِمينَ مِن شِدَّةِ العَذابِ، وأنَّه يَظهَرُ لهم يَومَ القِيامةِ مِنَ العَذابِ ما لم يَكُنْ في حِسابِهم؛ أَتبَعَ ذلك بما يدُلُّ على ظُلْمِ الإنسانِ وبَغْيِه؛ إذْ كان إذا مَسَّه ضُرٌّ دعا رَبَّه، فإذا أحسَنَ إليه لم يَنسِبْ ذلك إليه[١]!

- والمقصودُ بالتَّفريعِ هو قولُه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾، وأمَّا ما بعْدَه فتَتميمٌ واستطرادٌ[٢].

- تَقدَّمَ نَظيرُ صَدْرِ هذه الآيةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ﴾ [الزمر: ٨] الآيةَ، والمرادُ بالإنسانِ كلُّ مُشرِكٍ -على قولٍ-؛ فالتَّعريفُ تَعريفُ الجِنسِ، والمُرادُ جَماعةٌ مِنَ الناسِ، وهم أهلُ الشِّركِ؛ فهو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ، والمُخالَفةُ بَيْنَ الآيَتَينِ تَفَنُّنٌ، ولِئَلَّا تَخلُوَ إعادةُ الآيةِ مِن فائِدةٍ زائِدةٍ كما هو عادةُ القرآنِ في القصصِ المكرَّرةِ[٣].

- وتَخصيصُ ذِكرِ الإنسانِ مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لِلتَّلويحِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٤، ٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَولِه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[1] [عبس: ١٧].

- وتَذكيرُ ضَميرِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وإنْ كان عائِدًا إلى ﴿نِعْمَةً﴾؛ لِأنَّ مَعناها مُذَكَّرٌ، وهو الإنعامُ والإحسانُ أو المالُ، أو المَعنى: شَيئًا مِنَ النِّعمةِ، أو لِأنَّها تَشتَمِلُ على مُذَكَّرٍ ومُؤَنَّثٍ، فغُلِّبَ المُذَكَّرُ، أو على تَأويلِ حِكايةِ مَقالَتِهم بأنَّها صادِرةٌ منهم في حالِ حُضورِ ما بيْنَ أيديهم مِن أنواعِ النِّعَمِ، فهو مِن عَودِ الضَّميرِ إلى ذاتٍ مُشاهَدةٍ، فالضَّميرُ بمَنزِلةِ اسمِ الإشارةِ، كقَولِه: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤][2]. وقيل غيرُ ذلك[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خُولِفَ بيْنَ هذه الآيةِ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وبيْنَ آيةِ سُورةِ (القَصَص) في قَولِه: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فلم يَذكُرْ هنا ﴿عِندِىٓ﴾؛ لِأنَّ المُرادَ بالعِلمِ هنا مُجرَّدُ الفِطنةِ والتَّدبيرِ -على قول في التفسيرِ-، وأُريدَ هنالك عِلْمٌ خاصٌّ به، قيل: هو الَّذي اكتَسب قارونُ بسببِ معرفتِه به مالًا عظيمًا، وأمَّا ما هنا فهو العِلْمُ الَّذي يُوجَدُ في جَميعِ أهلِ الرَّأيِ والتَّدبيرِ، والمَعنى: أنَّه يَقولُ ذلك إذا ذَكَّرَه بنعمةِ اللهِ عليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو أحَدُ المُؤمِنينَ، وبذلك يَظهَرُ مَوقعُ صيغةِ الحَصرِ؛ لِأنَّه قَصَدَ قَلْبَ كَلامِ مَن يَقولُ له: إنَّ ذلك مِن رَحمةِ اللهِ به[4].

- قولُه: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ حَرفُ (بَلْ) لِلإضرابِ الإبطاليِّ، إضرابٌ عن

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥، ٣٦).

دَعْواه أنَّه إنَّما أُوتيَ على عِلْمٍ، بل تلك النِّعمةُ فِتنةٌ -على قولٍ-، أيْ: مِحنةٌ وابتِلاءٌ له أيَشكُرُ أمْ يَكفُرُ، وهو رَدٌّ لِمَا قالَه، وتَغييرُ السَّبكِ؛ لِلمُبالَغةِ فيهِ، والإيذانِ بأنَّ ذلك ليس مِن بابِ الإيتاءِ المُنبِئِ عنِ الكَرامةِ، وإنَّما هو أمْرٌ مُبايِنٌ له بالكُلِّيَّةِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿قَدْ قَالَهَا ...﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضمونِ ﴿هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ لأنَّ بَيانَ مَغَبَّةِ الَّذين قالوا هذا القولَ في شأْنِ النِّعمةِ الَّتي تَنالُهم، يُبيِّنُ أنَّ نِعمة هؤلاء كانتْ فِتنةً لهم(٢).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ لِتَفريعِ عَدَمِ إغناءِ ما كَسَبوه على مَقالَتِهم تلك؛ فإنَّ عَدَمَ الإغناءِ مُشعِرٌ بأنَّهم حَلَّ بهم مِنَ السُّوءِ ما شَأنُ مِثلِه أنْ يَتطَلَّبَ صاحِبُه الافتِداءَ منه، فإذا كان ذلك السُّوءُ عَظيمًا لم يَكُنْ له فِداءٌ؛ ففي الكَلامِ إيجازُ حَذفٍ يُبيِّنُه قَولُه بَعْدَه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، فالفاءُ فيها مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أيْ: تَسَبَّبَ على انتِفاءِ إغناءِ الكَسبِ عنهم حُلولُ العِقابِ بهم، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ في تَرتيبِ الجُمَلِ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١] مُقدَّمةً على جُملةِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنَّ الإغناءَ إنَّما يُترَقَّبُ عِندَ حُلولِ الضَّيرِ بهم، فإذا تَقرَّرَ عَدَمُ الإغناءِ يُذكَرُ بَعْدَه حُلولُ المُصيبةِ، فعُكِسَ التَّرتيبُ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لِقَصدِ التَّعجيلِ بإبطالِ مَقالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قائِلِهم ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩]، أيْ: لو كان لِعِلْمِهم أثَرٌ في جَلبِ النِّعمةِ لهم لَكانَ له أثَرٌ في دَفعِ الضُّرِّ عنهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ: جَزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، أو جزاءُ أعمالِهم، وسَمَّاه سَيِّئةً؛ لِأنَّه في مُقابَلةِ أعمالِهمُ السَّيِّئةِ؛ رَمْزًا إلى أنَّ جَميعَ أعمالِهم كذلك[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ فبَعْدَ أنْ وصَفَ أكثرَهم بانتفاءِ العِلمِ بأنَّ الرَّحمةَ لهم فِتنةٌ وابتلاءٌ، عطَفَ عليه إنكارَ انتفاءِ عِلمِهم بذلك، وإهمالَهم النَّظَرَ في الأدلَّةِ المفيدةِ للعِلمِ، وصَمَّهم آذانَهم عن الآياتِ الَّتي تُذكِّرُهم بذلك، حتَّى بَقُوا في جَهالةٍ مُركَّبةٍ، وكان الشَّأنُ أنْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ ويَقدِرُ، أي: يُعطي الخيرَ مَن يَشاءُ، ويمنعُ مَن يَشاءُ[٣].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ لِلإنكارِ على المُشرِكينَ في انتِفاءِ عِلْمِهم بذلك؛ لأنَّهم تَسبَّبوا في انتِفاءِ العِلمِ، فالإنكارُ عليهم يَتضَمَّنُ توبيخًا. واقتُصِرَ في الإنكارِ على إنكارِ انتِفاءِ العِلمِ بأنَّ بَسْطَ الرِّزقِ وقَدْرَه مِن فِعلِ اللهِ تعالى؛ لِأنَّه أدْنى لمُشاهَدَتِهم أحوالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨).

قَومِهم، فكمْ مِن كادٍّ غيرُ مَرزوقٍ، وكم مِن آخَرَ يَجيئُه الرِّزقُ مِن حيث لا يَحتَسِبُ(١)!

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جُعِل في ذلك آياتٌ كثيرةٌ؛ لِأنَّ اختِلافَ أحوالِ الرِّزقِ الدَّالَّة على أنَّ التَّصرُّفَ بيَدِ اللهِ تعالى يُنبئُ عن بَقيَّةِ الأحوالِ، فتَحصُلُ في ذلك آياتٌ كثيرةٌ دالَّةٌ على انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في نفْسِ الأمرِ(٢).

- قولُه: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جُعِلتِ الآياتُ لِقَومٍ يُؤمِنونَ وخُصُّوا بالذِّكرِ؛ لِأنَّ المُؤمِنينَ قد عَلِموا ذلك وتَخَلَّقوا به، ولم تَكُنْ فيه آياتٌ لِلمُشرِكينَ الغافِلينَ عنه(٣).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وقال في سُورةِ (الرُّوم): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [الروم: ٣٧]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه في (الزُّمَر) اتَّصل بقولِه: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وبعْدَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فحَسُنَ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾. وأمَّا في سُورةِ (الرُّومِ)؛ فلأنَّ بَسْطَ الرِّزقِ هو ممَّا يُشاهَدُ ويُرى؛ فجاء في تلك السُّورةِ على ما يَقْتَضيهِ اللَّفظُ والمعنى، مع فصاحةِ التَّفنُّنِ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨، ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٢٩٤، ٢٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٩).

الآيات (٥٣-٥٩)

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ
ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ
جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْرَفُوا۟﴾: أي: تَجاوَزُوا الحدَّ في العِصيانِ، وأصلُه: يدُلُّ على تَعدِّي الحَدِّ[1].

﴿تَقْنَطُوا۟﴾: أي: تَيْأَسوا، والقُنوطُ: اليأسُ مِنَ الخيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِن الشَّيءِ[2].

﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾: أي: ارجِعوا وأقْبِلوا، والإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللهِ بالإخلاصِ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه[3].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، =

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾: الحسرةُ: النَّدمُ، والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يُمكِنُ ارتجاعُه، والتَّلهُّفُ عليه، وقيل: الحسرةُ شِدَّةُ النَّدامةِ، حتَّى يبقَى النَّادمُ كالحَسيرِ من الدَّوابِّ، وهو الَّذي لا مَنفعةَ فيه، وأصلُ (حسر): كشفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكِشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[(١)].

﴿فَرَّطتُ﴾: أي: قَصَّرتُ، وأصلُ (فرط): يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه[(٢)].

﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: أي: جانِبِه تعالى، أو أمْرِه، أو حَقِّه[(٣)].

﴿كَرَّةٗ﴾: أي: رَجعةً إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ[(٤)].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦).

قال القرطبي: (والأصلُ «يا حَسْرَتِي»، فأُبْدِل مِن الياءِ أَلِفٌ؛ لأنَّها أخفُّ وأمكَنُ في الاستِغاثةِ بمدِّ الصَّوتِ، ورُبَّما ألْحَقوا بها الهاءَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

المعنى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى عن اليأسِ مِن رحمتِه، ويَفتحُ لعِبادِه بابَ رحمتِه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِعباديَ الَّذين أسرَفوا على أنفُسِهم، وأكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ: لا تَيأَسُوا مِن رَحمةِ اللهِ، إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ كُلَّها؛ إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الغفورُ الرَّحيمُ، وارجِعوا -أيُّها النَّاسُ- إلى رَبِّكم، وتُوبوا إليه، واستَسلِموا له مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ، ثمَّ لا تُنصَرونَ.

ثمَّ يأمُرُ تعالى باتِّباعِ أوامرِ القرآنِ ونواهيه، فيقولُ: واتَّبِعوا القُرآنَ، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه؛ مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً، وأنتم لا تَشعُرونَ؛ لئلَّا تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحَسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا حَسرتي على ما ضَيَّعتُ وقَصَّرتُ في حقِّ اللهِ، والحالُ أنِّي كنتُ مِن السَّاخِرينَ، أو تقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِن المتَّقينَ، أو تَقولَ نَفْسٌ حينَ تَرى العذابَ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا، فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ.

فيَقولُ اللهُ تعالى: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ فكَذَّبتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها، وكُنتَ مِن الكافِرينَ بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَدَّد تعالى على الكفَّارِ وذَكَر ما أعدَّ لهم مِن العذابِ، وأنَّهم لو كان لأحدِهم ما في الأرضِ ومِثلَه معه لافْتَدى به مِن عذابِ اللهِ؛ ذَكَر ما في إحسانِه

مِن غُفرانِ الذُّنوبِ إذا آمَن العبدُ ورَجَع إلى اللهِ(١)، فلَمَّا أطنَبَ سُبحانَه في الوَعيدِ؛ أردَفَه بشَرحِ كَمالِ رَحمتِه وفَضلِه وإحسانِه في حَقِّ العَبيدِ(٢)، وهذا على عادةِ هذا الكِتابِ المجيدِ مِن مُداواةِ النُّفوسِ بمَزيجِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ(٣).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الَّذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كَفَّارةً، فنزَل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزَلت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾))(٤).

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- مُبلِّغًا عن اللهِ أنَّه يقولُ(٥): يا عباديَ الَّذين أكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ بالكُفرِ أو المعاصي، فأثقَلوا أنفُسَهم بالآثامِ: لا يَنقَطِعْ رَجاؤُكم وتَيأَسُوا مِن رحمةِ اللهِ، مُعتَقِدينَ أنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩).

(٤) رواه البخاري (٤٨١٠) واللَّفظُ له، ومسلم (١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٦).

قال السعدي: (﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها الرَّسولُ ومَن قام مَقامَه مِن الدُّعاةِ لدينِ الله، مُخبِرًا للعِبادِ عن ربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٦، ١٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤١، ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٦-٣٦٩).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَستُرُ الذُّنوبَ كُلَّها، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لو لم تُذْنِبوا لَذَهَب اللهُ بكم، ولَجاءَ بقَومٍ يُذْنِبون، فيَستغفِرونَ اللهَ فيَغفِرُ لهم))[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١١/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٩، ٣٧٠).

قال البِقاعي: (سبَقَ منه القَولُ؛ أنَّه إنَّما يَغفِرُ الشِّركَ بالتَّوبةِ عنه، وأمَّا غيرُه فيَغفِرُه إن شاء بتَوبةٍ، وإن شاء بلا تَوبةٍ، ولا يَقدِرُ أحَدٌ أن يَمنَعَه مِن شَيءٍ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (هذه المغفِرةُ تقتَضي أسبابًا أُجمِلَت هنا، وفُصِّلَت في دلائِلَ أخرى مِن الكِتابِ والسُّنَّة؛ منها قَولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وتلك الدَّلائِلُ يَجمَعُها أنَّ للغُفرانِ أسبابًا تَطرأُ على المُذنِبِ، ولولا ذلك لَكانت المؤاخَذةُ بالذُّنوبِ عَبَثًا يُنَزَّهُ عنه الحكيمُ تعالى، كيف وقد سمَّاها ذُنوبًا وتوعَّد عليها، فكان قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ دعوةً إلى تطلُّبِ أسبابِ هذه المغفرةِ، فإذا طلَبها المذنِبُ عَرَف تفصيلَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩).

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ لو بلَغَتْ ذُنوبُك عَنانَ[١] السَّماءِ ثمَّ استَغفَرْتَني غفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ إنَّك لو أتيْتَني بقُرابِ[٢] الأرضِ خَطايا ثمَّ لَقيتَني لا تُشرِكُ بي شَيئًا لَأتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[٣].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه البالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم[٤].

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآيةُ السَّابقةُ فيها فُسحةٌ عَظيمةٌ للمُسرِفِ؛ أتْبَعَها بأنَّ الإنابةَ -وهي

(١) عَنانَ السَّماءِ: أي: سَحابَها وما علا منها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٢٠).

(٢) بقُرابِ الأرضِ: أي: بمِثْلِها وقدرِها، أو: بما يقاربُ ملأَها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٣٤)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٣١).

صحَّح الحديثَ ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٠)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤٤٢)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ٤٠٠): (إسنادُه لا بأس به).

والحديثُ أخرجه من طريقٍ آخَرَ ابنُ شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (١٧٩)، والضياءُ في ((الأحاديث المختارة)) (٤/ ٣٩٩).

وصحَّح إسنادَه الضياءُ المقدسيُّ، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((هداية الحيارى)) (٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧١-٣٧٣).

الرُّجوعُ- مَطلوبةٌ مأمورٌ بها، ثمَّ توعَّدَ مَن لم يَتُبْ بالعَذابِ؛ حتَّى لا يَبقَى المرءُ كالمُمِلِّ مِن الطَّاعةِ، والمتَّكِلِ على الغُفرانِ دونَ إنابةٍ[(١)]!

وأيضًا لَمَّا فَتَح لهم بابَ الرَّجاءِ؛ أعْقَبه بالإرشادِ إلى وسيلةِ المغفرةِ[(٢)].

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾.

أي: وارجِعوا -أيُّها النَّاسُ- إلى رَبِّكم، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه وَحْدَه، واستَسلِموا واخضَعوا له، وانقادُوا إليه[(٣)].

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عَذابُ اللهِ على كُفرِكم به، ومَعصيتِكم إيَّاه، ثمَّ لا يَنصُرُكم ناصِرٌ[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا الخِطابُ يأخُذُ كُلُّ فَريقٍ منه بنصيبٍ؛ فنَصيبُ المُشرِكينَ الإنابةُ إلى التَّوحيدِ، واتِّباعُ دينِ الإسلامِ. ونصيبُ المؤمنينَ منه التَّوبةُ إذا أسرَفوا على أنفُسِهم، والإكثارُ مِن الحَسَناتِ، وأمَّا الإسلامُ فحاصِلٌ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٩).

ﭐلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإنابةِ والإسلامِ إليه كأنَّه قيل: ما الإنابةُ والإسلامُ؟ وما جزئيَّاتُها وأعمالُها؟ فأجابَ تعالى بقولِه[1]:

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

أي: واتَّبِعوا القُرآنَ فصَدِّقوا أخبارَه، واتَّعِظوا واعتَبِروا بقَصَصِه وأمثالِه، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه، وكِلُوا مُتشابِهَه إلى عالِمِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٦).

قيل: المرادُ بـ﴿ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ ﴾: القرآنُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ جُزَي، وأبو حيان، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

وقيل: المرادُ: الأمرُ باتِّباعِ القُرآنِ الَّذي هو أحسَنُ ما نَزَل مِن كُتُبِ اللهِ، واتِّباعِ أحاسِنِ ما فيه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩١).

قال ابن عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ ﴾ معناه: أنَّ القُرآنَ العزيزَ تضَمَّنَ عَقائِدَ نَيِّرةً، وأوامِرَ ونَواهيَ مُنجيةً، وعِداتٍ على الطَّاعاتِ والبِرِّ، وحُدودًا على المعاصي، ووَعيدًا على =

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً وأنتم غافِلونَ لا تَشعُرونَ بمَجيئِه[1].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم سُبحانَه بالعَذابِ؛ بَيَّن تعالى أنَّ بتَقديرِ نُزولِ العَذابِ عليهم ماذا يَقولون؛ فحَكى اللهُ تعالى عنهم ثلاثةَ أنواعٍ مِن الكَلِماتِ[2].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لِئَلَّا[3] تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا ندامَتي على ما

= بَعضِها؛ فالأحسَنُ أن يَسلُكَ الإنسانُ طَريقَ التَّفَهُّمِ والتَّحصيلِ، وطَريقَ الطَّاعةِ والانتِهاءِ، والعَفوِ في الأُمورِ ونَحوِ ذلك، فهو أحسَنُ من أن يَسلُكَ طَريقَ الغَفلةِ والمَعصيةِ فيُجزَى، أو يَقَعَ تحتَ الوَعيدِ، فهذا المعنى هو المقصودُ بـ﴿أَحْسَنَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٧).

وفي معنى الآيةِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

وقد سبق ذِكرُ الخِلافِ في معنى قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨] (ص: ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٦).

(٣) قال الشوكاني: (قال البَصريُّونَ: أيْ: حَذَرًا أنْ تقولَ. وقال الكوفيُّونَ: لئَلَّا تقولَ. قال المُبَرِّدُ: بادِروا خَوْفَ أنْ تقولَ، أو حَذَرًا من أنْ تقولَ نفْسٌ. وقال الزَّجَّاجُ: خَوْفَ أنْ تَصيروا إلى حالٍ تقولونَ فيها: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٨).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ «أَنْ» في موضعِ نصبٍ، أي: كراهةَ =

قصَّرتُ في حَقِّ اللهِ، وضَيَّعتُ مِن العملِ بما أمَرني به(١).

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّني كُنتُ مِن السَّاخِرينَ مِن أمْرِ اللهِ وكِتابِه، ورَسولِه والمُؤمِنينَ(٢).

= ﴿أَن تَقُولَ﴾... وقيل: أيْ: مِن قبلِ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾؛ لأنَّه قال قبْلَ هذا: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: وأنِيبوا إلى ربِّكم، وأسلِموا له؛ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾، بمعنى: لئلَّا تقولَ نفْسٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣).

وذكر البِقاعي أنَّ هذ الجملةَ تعليلٌ للإقبالِ على الاتِّباعِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣٧).

وجعل ابنُ عاشورٍ قولَه: ﴿أَن تَقُولَ﴾ تَعْليلًا للأوامرِ في قولِه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ [الزمر: ٥٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٧- ٣٩٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (...لا يُعرَفُ عالِمٌ مَشهورٌ عند المُسلمينَ، ولا طائِفةٌ مَشهورةٌ مِن طوائفِ المُسلِمينَ: أثبَتوا لله جَنبًا نظيرَ جَنبِ الإنسانِ، وهذا اللَّفظُ جاء في القُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، فليس في مجرَّدِ الإضافةِ ما يَستلزِمُ أنْ يكونَ المضافُ إلى الله صِفةً له... وفي القُرآنِ ما يُبيِّنُ أنَّه ليس المرادُ بالجَنبِ ما هو نَظيرُ جَنْبِ الإنسانِ؛ فإنَّه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، والتَّفريطُ ليس في شَيءٍ مِن صفاتِ الله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ إذا قال: فلانٌ قد فَرَّط في جَنبِ فُلانٍ أو جانِبِه، لا يريدُ به أنَّ التَّفريطَ وقَعَ في شَيءٍ مِن نَفْسِ ذلك الشَّخصِ، بل يريدُ به أنَّه فَرَّط في جِهتِه وفي حَقِّه). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٤٥، ١٤٦). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧﴾.

أي: ولِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِن الَّذين اتَّقَوه فأطاعوه، واجتَنَبوا الشِّركَ به، ومَعصيتَه[1].

= (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٠، ٤٠١).

قال قَتادةُ: (فلمْ يَكْفِه أنْ ضَيَّع طاعةَ اللهِ، حتَّى جعَل يَسْخَرُ بأهلِ طاعةِ اللهِ!). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٨، ٤٠٩).

قال القرطبي: (هذا القولُ: لو أنَّ اللهَ هداني لاهتَدَيْتُ: قَولٌ صِدقٌ، وهو قريبٌ مِن احتِجاجِ المُشرِكينَ فيما أخبَرَ الرَّبُّ جلَّ وعزَّ عنهم في قَولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ فهي كَلِمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢).

وقال الألوسي: (وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالإرشادِ والدَّلالةِ الموصولةِ؛ بناءً على أنَّه الأنسَبُ بالشَّرطيَّةِ، والمُطابِقُ للرَّدِّ بقولِه سبحانه: ﴿بَلَىٰ ...﴾ إلخ، ... وأيًّا ما كان فالظَّاهِرُ أنَّ هذه المقالةَ في الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٣).

وقال السعدي: (﴿لَوۡ﴾ في هذا الموضعِ للتَّمنِّي، أي: لَيتَ أنَّ الله هداني فأكونَ مُتَّقيًا له، فأسْلَمَ مِن العِقابِ، وأستحِقَّ الثَّوابَ، وليست ﴿لَوۡ﴾ هنا شرطيَّةً؛ لأنَّها لو كانت شرطيَّةً لَكانوا مُحتجِّينَ بالقضاءِ والقدَرِ على ضلالِهم، وهو حُجَّةٌ باطلةٌ، ويومَ القيامةِ تَضمَحِلُّ كلُّ حجَّةٍ باطلةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٨).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ أهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِن الجَنَّةِ، فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هداني، فيَكونُ عليه حَسْرةٌ، وكُلُّ أهلِ الجَنَّةِ يرى مَقعَدَه مِنَ النَّارِ، فيَقولُ: لولا أنَّ اللهَ هداني، فيكونُ له شُكرٌ))[١].

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالَ النَّفْسِ في الاعترافِ بالبُطلانِ، ثمَّ الفَزَعِ إلى الزُّورِ والبُهتانِ؛ أتْبَعَه التَّمنِّيَ الَّذي لا يُفيدُ غيرَ الخُسرانِ، فقال[٢]:

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾.

أي: أو لِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ حينَ ترَى عذابَ اللهِ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٤) مختصرًا، وأحمد (١٠٦٥٢) واللَّفظُ له.
صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٧٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٤٠٢): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٤٥١٤)، وصَحَّح شعيبُ الأرناؤوطُ إسنادَه على شرط البخاريِّ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤١١-٤١٣).

﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ مُكَذِّبًا له: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ الدَّالَّةُ على الحَقِّ، فكَذَّبْتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها واتِّباعِها، وكنتَ في الدُّنيا من الكافِرينَ بها؛ فلا عُذرَ لك(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَقْنَطَ من رحمةِ اللهِ -وإنْ عَظُمَتْ ذنوبُه-، ولا أنْ يُقَنِّطَ النَّاسَ من رحمةِ اللهِ(٢)، فقولُه: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ نهيٌ، والأصلُ في النَّهيِ التَّحريمُ، والقُنوطُ مِن رحمةِ اللهِ من كبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّه ظَنٌّ ما لا يَليقُ باللهِ جلَّ وعلا؛ فإنَّ اللَّائقَ باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ مَن لَجأ إليه فإنَّه أكرمُ الأكرمينَ لا يُخَيِّبُه، فإذا قَنَطْتَ مِن رحمتِه فقد اسْتَهَنْتَ بحقِّه سُبحانَه وتعالى(٣). وهذا النَّهيُ عن القُنوطِ يَقتضي الأمرَ بالرَّجاءِ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ فيه وُجوبُ الإخلاصِ لله(٥)، وأنَّه من دونِ إخلاصٍ لا تُفيدُ الأعمالُ الظَّاهرةُ والباطنةُ شيئًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

﴿ بَلَىٰ ﴾ جوابُ النَّفيِ؛ لأنَّ معنى قولِه: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ أنَّه ما هداني! فلا جَرَمَ حَسُنَ ذِكرُ لفظةِ ﴿ بَلَىٰ ﴾ بعدَه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ كلُّ هذا حَثٌّ على المُبادَرةِ وانتِهازِ الفُرصةِ[1]، فمتى واتَتْكَ الفرصةُ فلا تُضَيِّعْها[2].

٤- في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الحذرُ من نزولِ العذابِ عندَ المخالَفةِ، فلا أحدَ يأْمَنُ عذابَ اللهِ تعالى! فالإنسانُ إذا لم يتُبْ إلى اللهِ تعالى مبادرةً؛ فإنَّ العذابَ ربما يَنْزِلُ به[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُفَرِّطَ سيَتَحَسَّرُ على تفريطِه، ويَنبني على هذه الفائدة: أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ حازمًا ذا نشاطٍ وقوَّةٍ؛ حتَّى لا تَفوتَه الأمورُ، ثمَّ بعدَ ذلك يَنْدَمُ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ على الرَّحمةِ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه سَمَّى المُذنِبَ بـ«العبد»، والعُبوديَّةُ مُفسَّرةٌ بالحاجةِ والذِّلَّةِ والمَسكَنةِ، واللَّائِقُ بالرَّحيمِ الكَريمِ إفاضةُ الخَيرِ والرَّحمةِ على المِسكينِ المُحتاجِ.

الثَّاني: أنَّه تعالى أضافهم إلى نَفْسِه بياءِ الإضافةِ، فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

وشَرَفُ الإضافةِ إليه يفيدُ الأمْنَ مِنَ العذابِ.

الثَّالِثُ: أنَّه تعالى قال: ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ومعناه: أنَّ ضررَ تلك الذُّنوبِ ما عاد إليه، بل هو عائِدٌ إليهم، فيَكفيهم مِن تلك الذُّنوبِ عَودُ مَضارِّها إليهم، ولا حاجةَ إلى إلحاقِ ضرَرٍ آخَرَ بهم!

الرَّابعُ: أنَّه قال: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، نَهاهم عن القُنوطِ، فيَستلزِمُ هذا أمرًا بالرَّجاءِ، والكريمُ إذا أمَرَ بالرَّجاءِ فلا يَليقُ به إلَّا الكرَمُ.

الخامِسُ: أنَّه تعالى قال أوَّلًا: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، وكان المُتبادرُ أن يقولَ: «لا تقنَطوا مِن رحمتي»، لكِنَّه ترَكَ هذا اللَّفظَ، وقال: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ قَولَه: «الله» هو أعظَمُ أسماءِ اللهِ وأجَلُّها، فالرَّحمةُ المضافةُ إليه يجِبُ أن تكونَ أعظَمَ أنواعِ الرَّحمةِ والفَضلِ.

السَّادِسُ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ كان المُتبادرُ أن يقولَ: «إنَّه يغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا»، ولكِنَّه لم يقُلْ ذلك، بل أعاد اسمَ اللهِ، وقَرَن به لَفظةَ «إنَّ» المفيدةَ لأعظَمِ وُجوهِ التَّأكيدِ، وكُلُّ ذلك يدُلُّ على المبالغةِ في الوَعدِ بالرَّحمةِ.

السَّابعُ: أنَّه لو قال: ﴿يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ لَكان المقصودُ حاصِلًا، لكِنَّه أردَفَه باللَّفظِ الدَّالِّ على التَّأكيدِ، فقال: ﴿جَمِيعًا﴾، وهذا أيضًا مِن المؤكِّداتِ.

الثَّامِنُ: أنَّه وَصَف نَفسَه بكَونِه غَفورًا، ولَفظُ الغَفورِ يُفيدُ المبالغةَ.

التَّاسِعُ: أنَّه وَصَف نَفْسَه بكَونِه رَحيمًا، والرَّحمةُ تفيدُ فائِدةً على المغفِرةِ؛ فكان قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ إشارةً إلى إزالةِ مُوجِباتِ العِقابِ، وقَولُه: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إشارةً إلى تحصيلِ مُوجِباتِ الرَّحمةِ والثَّوابِ.

العاشِرُ: أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، ومعناه: أنَّه لا غَفورَ

ولا رَحيمَ إلَّا هو، وذلك يُفيدُ الكَمالَ في وَصفِه سُبحانَه بالغُفرانِ والرَّحمةِ؛ فهذه الوُجوهُ العَشَرةُ مَجموعةٌ في هذه الآيةِ، وهي بأسْرِها دالَّةٌ على كَمالِ الرَّحمةِ والغُفرانِ[1].

٢- قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ﴾ عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بهذا الأمرِ -أي: بإبلاغِ عبادِه أنَّه يَغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا-؛ حيث أمَرَ نبيَّه أمرًا خاصًّا بأنْ يُبْلِغَ النَّاسَ هذه القَضيَّةَ، فالقرآنُ كلُّه أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبلِّغَه؛ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكنْ هناك أشياءُ خاصَّةٌ يَنُصُّ اللهُ عليها أنْ يُبلِّغَها، وهذا يقتضي العنايةَ بها[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الأمرُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ بأنْ يُوَجِّهَ هذا الخِطابَ العَظيمَ لخُصوصِ المُسرِفينَ؛ ففيه دَلالةٌ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ جَلَّ وعلا، فلم يقُلْ: «الَّذين آمَنوا»، ولا «الَّذين أخلَصوا»، خَصَّ به المُسرِفينَ على أنفُسِهم[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ الكبائرَ لا تُغفَرُ[4]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: دَلالةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٥).

على أنَّ المُسرِفينَ ليس لهم أن يَقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ، مع أنَّه جاءت آيةٌ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]؟

الجوابُ: أنَّ الإسرافَ يكونُ بالكُفرِ، ويكونُ بارتكابِ المعاصي دونَ الكُفرِ؛ فآيةُ ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الإسرافِ الَّذي هو كُفرٌ، وآيةُ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ في الإسرافِ بالمعاصي دونَ الكُفرِ.

ويُجابُ أيضًا بأنَّ آيةَ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فيما إذا لم يَتوبوا، وأنَّ قَولَه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ فيما إذا تابوا(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ...﴾ الآيةَ: دَلالةٌ على غُفرانِ جميعِ الذُّنوبِ، مع أنَّه دَلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ مِن الذُّنوبِ ما لا يُغفَرُ، وهو الشِّركُ باللهِ تعالى؟

الجوابُ: أنَّ آيةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] مُخصِّصةٌ لهذه. وقال بَعضُ العُلَماءِ: هذه مُقيَّدةٌ بالتَّوبةِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾؛ فإنَّه عَطفٌ على قَولِه: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾، وعليه فلا إشكالَ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أفهَمَ تَقييدُ الإسرافِ بأنَّه على أنفُسِهم أنَّ الإسرافَ على الغَيرِ لا يُغفَرُ إلَّا بالخُروجِ عن عُهدةِ ذلك الغَيرِ(٣).

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ومادةُ «الغفرِ» ترجِعُ إلى السَّترِ؛ وهو يَقتَضي وُجودَ المستورِ واحتياجَه للسَّترِ؛ فدلَّ ﴿يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ على أنَّ الذُّنوبَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٤).

ثابتةٌ -أي: المؤاخَذةُ بها ثابتةٌ- واللهُ يَغفِرُها، أي: يُزيلُ المؤاخَذةَ بها وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، أي: لا يُعجِزُه أن يَغفِرَ جَميعَ الذُّنوبِ مهما بلغ جميعُها مِن الكَثرةِ؛ لأنَّه شديدُ الغُفرانِ، شَديدُ الرَّحمةِ؛ فبَطَل بهذه الآيةِ قَولُ المُرجِئةِ: إنَّه لا يَضُرُّ مع الإيمانِ شَيءٌ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّ أحكامَ اللهِ تعالى مِن مُقتَضى أسمائِه وصِفاتِه، وأحكامُه هنا جَزائيَّةٌ؛ فلِكَونِه غفورًا رَحيمًا كان ذا مَغفِرةٍ، فغَفَر لِمَن تابَ[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إثباتُ اسمَينِ مِن أسماءِ اللهِ تعالى عَظيمَينِ، يَقترِنانِ كَثيرًا في القُرآنِ؛ هما: «الغفور» و«الرَّحيم»، ووَجْهُ اقترانِهما: أنَّ بالأوَّلِ زَوالَ المكروهِ. وبالثَّاني: حُصولَ المطلوبِ؛ فيَتكَوَّنُ مِن اجتِماعِهما وَصْفٌ زائِدٌ على الوَصفِ عندَ انفرادِهما؛ لأنَّه إذا انفردَ «الغفورُ» استفَدْنا المغفِرةَ منه، وإنِ انفرَدَ «الرَّحيمُ» استفَدْنا الرَّحمةَ، لكِنْ إذا اجتَمَعا استفَدْنا فائِدةً جديدةً، وهي: أنَّ مَغفِرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مَقرونةٌ برَحمتِه، فهو جامِعٌ بيْن المَغفرةِ والرَّحمةِ[٣].

١١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الإنسانَ بعدَ التَّوبةِ قد يكونُ خَيرًا منه قبْلَها، وقبْلَ فِعْلِ الذَّنْبِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ تَقتَضي عَطاءً جديدًا، وهذا هو المُشاهَدُ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذَكَر عن آدَمَ أنَّه لَمَّا عصَى ربَّه وغَوى وتابَ، قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وهذه المَنقَبةُ -وهي الاجتِباءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٣).

والهِدايةُ- لم تُذكَرْ له قَبْلُ[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فيه وُجوبُ الإنابةِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّ الأصلَ في الأمرِ الوُجوبُ إلَّا بدليلٍ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ كَشْفَ العذابِ والعُقوباتِ يَكونُ بالمُسارَعةِ في الطَّاعاتِ، والمُسارَعةِ إلى التَّوبةِ والنَّداماتِ، ويَدخُلُ في هذا المعنى ما نُدِبَ إليه النَّاسُ مِن إحداثِ التَّوبةِ، والتَّقدُّمِ في الطَّاعةِ إذا أرادوا الخُروجَ إلى الاستِسقاءِ في حينِ الجَدْبِ والقَحْطِ؛ وذلك أنَّ مَنْعَ القَطْرِ لا يكونُ إلَّا بسخْطةٍ، ولا السُّقْيا إلَّا برَحمةٍ، فإذا قَدَّموا الطَّاعاتِ كانوا أقرَبَ إلى الإجاباتِ، وأجدَرَ برَفعِ العُقوباتِ[٣].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه وُجوبُ اتِّباعِ القرآنِ، وتحريمُ اتِّباعِ غيرِه؛ لأنَّه إذا وَجَب اتِّباعُ القرآنِ؛ فضِدُّه حرامٌ، ولكنْ إذا قال قائلٌ: هل تقولون: إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا شرعٌ لنا؟

فالجوابُ: على القَولِ بأنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا ما لم يأتِ شرْعُنا بخِلافِه، فنحن نَتَّبِعُه لا لأنَّه شرْعُ مَن قبْلَنا، ولكنْ لأنَّ شَرْعَنا دَلَّنا على العملِ به[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ الثَّناءُ على القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّه أحسَنُ ما أُنْزِلَ إلى العِبادِ؛ في ذاتِه، وفي أخبارِه، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

أحكامِه، وفي آثارِه؛ فلَمْ تَنَلْ أُمَّةٌ العِزَّةَ والكرامةَ كما نالَتْه هذه الأُمَّةُ بما آتاها اللهُ تعالى مِن القرآنِ(١).

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: عالِجوا أنفُسَكم وكلِّفوها أنْ تَتَّبِعَ ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، ولَمَّا كان هذا شَديدًا على النَّفْسِ رَغَّب فيه بقَولِه تعالى -بمظهَرِ صِفةِ الإحسانِ مَوضِعَ الإضمارِ-: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾، أي: الَّذي لم يَزَلْ يُحسِنُ إليكم، وأنتم تُبارِزونَه بالعظائِمِ(٢)!

١٧- قولُه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا من أعلَى(٣).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أنَّ إنزالَ القرآنِ إلينا من كمالِ ربوبيَّتِه تعالى، حيثُ أضاف إنزالَه إلى نفْسِه بوصفِ الرُّبوبيَّةِ، فمِن كمالِ ربوبيَّتِه تعالى لِخَلْقِه وتربيتِه لهم أنْ نَزَّلَ إليهم هذا القرآنَ(٤).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وُجوبُ العملِ بما في القرآنِ؛ لأنَّه نَزَل مِن الرَّبِّ، والرَّبُّ له السُّلطانُ الكاملُ على خَلْقِه، ومُقتضى رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لنا: أنْ نعملَ بما أنزَل إلينا(٥).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أنَّ التَّقْوى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٥).

سببٌ للنَّجاةِ مِن العذابِ(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي ﴾ إبطالُ الاحتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ إرسالَ الرُّسُلِ حُجَّةً، ولو كان القَدَرُ حُجَّةً لصاحِبِه لم يَبطُلْ بإرسالِ الرُّسُلِ(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- الكلامُ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الزَّواجِرَ السَّابقةَ تُثيرُ في نُفوسِ المُواجَهينَ بها خاطِرَ التَّساؤُلِ عن مَسالِكِ النَّجاةِ، فتَتَلاحَمُ فيها الخَواطِرُ المَلَكيَّةِ والخَواطِرُ الشَّيطانيَّةُ، إلى أنْ يُرْسِيَ التَّلاحُمُ على انتِصارِ إحدى الطَّائِفتَينِ، فكان في إنارةِ السَّبيلِ لها ما يُسَهِّلُ خَطْوَ الحائِرينَ في ظُلُماتِ الشَّكِّ، ويَرتَفِقُ بها ويُواسيها بعْدَ أنْ أثخَنَتْها جُروحُ التَّوبيخِ والزَّجرِ والوَعيدِ، ويُضَمِّدُ تلك الجِراحةَ، والحَليمُ يَزجُرُ ويَلينُ، وتُثيرُ في نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَشيةَ أنْ يُحيطَ غَضَبُ اللهِ بالَّذين دَعاهم إليه فأعرَضوا، أو حَبَّبَهم في الحَقِّ فأبغَضوا، فلَعَلَّه لا يَفتَحُ لهم بابَ التَّوبةِ، ولا يقبَلُ منهم بعدَ إعراضِهم أَوْبةً، ولا سيَّما بعْدَ أنْ أمَرَه بتَفويضِ الأمْرِ إلى حُكمِه المُشتَمِّ منه تَرَقُّبُ قَطعِ الجِدالِ وفَصمِه، فكانَ أمْرُه لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُناديَهم بهذه الدَّعوةِ تَنفيسًا عليه، وتَفتيحًا لِبابِ الأَوْبةِ إليه. فهذا كلامٌ يَنحَلُّ إلى استئنافَينِ؛ فجُملةُ ﴿قُلۡ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ ما تَرقَّبَه أفضلُ النَّبيِّينَ صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٦).

عليه وسلَّمَ، أي: بلِّغْ عنِّي هذا القولَ. وجُملةُ ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مِن خِطابِ اللهِ لهم(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ فيه إقبالُه سُبحانه عليهم، وفي ذلك مُنتَهى الاطمِئنانِ لهم؛ لِمَحوِ ما سَبَقَ لهم مِن ذُنوبٍ وأوضارٍ، والإشعارِ بأنَّ أمامَهم مَندوحةٌ مِنَ الوَقتِ لِاستِدراكِ ما فَرَطَ، ورَأْبِ ما انصَدَع. وفيه نِداؤُهم، وفي ذلك مِنَ التَّودُّدِ إليهم والتَّلَطُّفِ بهم ما يُهيبُ بذَوي المُسْكةِ مِنَ العُقولِ منهم إلى المُبادَرةِ بالإنابةِ والرُّجوعِ بالتَّوبة. وفيه إضافتُهم إليه إضافةَ تَشريفٍ لهم، وأنَّهم خُلَقاءُ بآصِرةِ العُبوديَّة، يَمُتُّونَ بها إليه سُبحانَه، وذلك كافٍ لِمُقابَلَتِهم ذلك بالمِثلِ وإعلانِ التَّوبة؛ لِلازدِلافِ إليه بها(٢).

- والخِطابُ بقَولِه: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تَمهيدٌ بإجمالٍ يأتي بَيانُه في الآياتِ بَعْدَه مِن قَولِه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وبَعْدَ هذا؛ فعُمومُ (عِبادِيَ) وعُمومُ صِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ يَشملُ أهْلَ المَعاصي مِنَ المُسلِمينَ، وإنْ كان المَقصودُ الأصليُّ مِنَ الخِطاب المُشرِكينَ، على عادةِ الكَلامِ البَليغِ مِن كَثرةِ المَقاصِدِ والمعاني الَّتي تُفرَّغُ في قَوالِبَ تَسَعُها(٣).

- ولَعلَّ وجْهَ ثُبوتِ الياءِ في ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ في هذه الآيةِ دُونَ نَظيرِها -وهو قَولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]-: أنَّ الخِطابَ هنا لِلَّذين أسرَفوا، وفي مُقَدِّمَتِهمُ المُشرِكونَ، وكُلُّهم مَظِنَّةُ تَطَرُّقِ اليأْسِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩- ٤١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٠)،

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٠، ٤١).

رَحمةِ اللهِ إلى نُفوسِهم، فكان إثباتُ ياءِ المُتَكلِّم في خِطابِهم زيادةَ تَصريحِ بعَلامةِ التَّكَلُّمِ؛ تَقويةً لِنسبةِ عُبودِيَّتِهم إلى اللهِ تَعالى؛ إيماءً إلى أنَّ شَأنَ الرَّبِّ الرَّحمةُ بعِبادِه[1].

- وفِعلُ (أسْرَفَ) الأكثَرُ أنْ يُعدَّى إلى مُتعلَّقِه بحَرْفِ (في)، وتَعديتُه هنا بـ (على)؛ لأنَّ الإكثارَ هنا مِن أعمالٍ تَتحمَّلُها النَّفْسُ وتَثقُلُ بها، وذلك مُتعارَفٌ في التَّبِعاتِ والعُدْوانِ، تقول: أكثَرْتُ على فُلانٍ؛ فمعنى ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أنَّهم جَلَبوا لأنفُسِهم ما تُثقِلُهم تَبِعَتُه؛ لِيَشملَ ما اقْتَرَفوه مِن شِركٍ وسيِّئاتٍ[2].

- وإضافةُ الرَّحمةِ إلى اللهِ الْتِفاتٌ مِن ضَميرِ المُتكلِّمِ إلى الاسمِ الغائبِ؛ لأنَّ في إضافتِها تَخصيصًا للرَّحمةِ بالاسم الكريم، وبيانًا لِسَعةِ الرَّحمةِ؛ إذْ أُضيفَتْ إلى اللهِ الَّذي هو أَعظَمُ الأسماءِ؛ لأنَّه العَلَمُ المُحتَوي على مَعاني جميعِ الأسماءِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تَعليلٌ للنَّهي عن اليأْسِ مِن رَحمةِ اللهِ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وَضْعُ اسمِ الجَلالةِ (الله) مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لدَلالتِه على أنَّه المُستَغْني والمُنعِمُ على الإطلاقِ. وفيه التَّأكيدُ بـ (الجميعِ)[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وهو تعليلٌ على المُبالَغةِ وإفادةِ الحَصرِ[١].

- وإبرازُ الجُملةِ مِن قولِه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُؤكَّدةً بـ (إنَّ) وبضميرِ الفَصلِ (هو) المُقتَضي -عِندَ البعضِ- الحَصرَ، وبالصِّفتَينِ المُودَعتَينِ (الغفور - الرحيم): مُبالَغةٌ في الوعدِ بالغُفرانِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

- في قولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إيذانٌ بوعيدٍ قريبٍ إنْ لم يُنِيبوا ويُسلِموا كما يُلمِحُ إليه فِعلُ ﴿يَأْتِيَكُمُ﴾. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو يَقتَضي أنَّهم إنْ لم يُنِيبوا ويُسلِموا يأتِهمُ العَذابُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالإيضاحِ[٤]؛ فلِقائلٍ أنْ يَقولَ: لِمَ لَمْ يُعطَفْ ﴿تُنصَرُونَ﴾ على ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ﴾ المنصوبِ؟ **والجوابُ عن هذا الإشكالِ**: أنَّه أرادَ -وهو أعلَمُ- العِدَةَ بإخبارِهم أنَّه لن يَنصُرَهم أبدًا في الاستِقبالِ ما داموا مُصِرِّينَ على عدَمِ الإنابةِ، مُحجِمينَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٤) الإيضاح: هو أن يَذكُرَ المتكلِّمُ كلامًا في ظاهِرِه لَبسٌ، ثمَّ يوضِّحَه في بقيَّةِ كلامِه، والإشكالُ الَّذي يحلُّه الإيضاحُ يكونُ في معاني البديعِ مِن الألفاظِ وفي إعرابِها. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ٢٣).

الإسلامِ[1].

- وأَتَى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالةِ على المُهْلةِ، يعني: مهما طَلَبْتُم مِن ناصرٍ، وطالَتْ مُدَّةُ طلبِكم للنَّاصرِ- فإنَّكم لن تَجِدوا مَن يَنصُرُكم مِن عذابِ اللهِ تعالى[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ لا يَتعارَضُ هذا مع كَونِ القرآنِ كلِّه حَسَنًا، فـ(أحسَنُ) اسمُ تَفضيلٍ مُستعمَلٌ في معنَى كامِلِ الحُسنِ. وإضافةُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ إلى ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، ومَعناهُ: أحسَنَ وَحْيٍ، وهو القرآنُ كلُّه، أو: أحسَنَ القرآنِ؛ آياتِه المُحْكَماتِ، أو آياتِه الَّتي تَضمَّنَتْ أمْرَ طاعةٍ أو إحسانٍ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾

- السِّرُّ في تَنكيرِ النَّفْسِ في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ التَّقليلُ؛ لأنَّ المُرادَ بها بعضُ الأنفُسِ، وهي نفْسُ الكافرِ، وأنَّها نفْسٌ مُتَميِّزةٌ مِنَ الأنفُسِ بهذه السِّمةِ مِنَ اللَّجاجِ في الكُفرِ، ورُبَّما أُريدَ بها التَّكثيرُ، كقولِ القائلِ: رُبَّ بلدٍ قطَعْتُ، ورُبَّ بطَلٍ قارَعْتُ، وهو يَقصِدُ بلادًا وأبطالًا[4].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير =

- قولُه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ فيه تَشبيهُ الحسرةِ بالعاقلِ الَّذي يُنادَى لِيُقْبِلَ، أي: هذا وقتُكِ فاحضُري. والنِّداءُ مِن رَوادِفِ المُشَبَّهِ به المَحذوفِ، ومعنَى نداءِ الحسرةِ: أي: يا حَسرَتي احضُري؛ فأنا مُحتاجٌ إليكِ، أي: إلى التَّحسُّرِ. وشاعَ ذلك في كلامِهم حتَّى صارتْ هذه الكَلِمةُ كالمَثَلِ لشِدَّةِ التَّحسُّرِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ تَعديةُ الحَسرةِ بحرفِ الاستِعلاءِ (على) كما هو غالِبُها؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ التَّحسُّرِ مِن مَدخولِ (عَلَى)[٢].

- قولُه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ جنبُ اللهِ: كِنايةٌ

= أبي حيان)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥).

قال الزَّجَّاجُ: (إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحسرةِ، والحسرةُ ممَّا لا يُجيبُ؟ فالفائدةُ في مُناداتِها كالفائدةِ في مُناداةِ ما لا يعقلُ؛ لأنَّ النِّداءَ بابُ تنبيهٍ. إذا قلتَ: يا زَيْدُ، فإنْ لم تكُنْ دَعَوْتَه لِتُخاطبَه لِغيرِ النِّداءِ فلا معنى للكلامِ، إنَّما تقولُ: يا زَيدُ، فتُنَبِّهُه بالنِّداءِ، ثمَّ تقولُ له: فعَلْتَ كذا وافعَلْ كذا، وما أحبَبْتَ ممَّا له فيه فائدةٌ، ألَا ترى أنَّك تقولُ لِمَن هو مُقْبِلٌ عليك: «يا زَيدُ، ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!»، ولو قلتَ له: «ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!» كنتَ قد بلَغْتَ في الفائدةِ ما أفهَمْتَ به، غيرَ أنَّ قولَك: «يا زَيدُ» أوْكَدُ في الكلامِ، وأبلَغُ في الإفهامِ. وكذا إذا قلتَ للمُخاطَبِ: «أنا أعجَبُ ممَّا فَعَلْتَ» فقد أفَدْتَه أنَّك مُتعجِّبٌ، ولو قلتَ: «واعَجَباه ممَّا فعلْتَ، ويا عَجَباه أتَفْعَلُ كذا وكذا!» كان دعاؤُك العجَبَ أبلَغَ في الفائدةِ، والمعنى: يا عَجَبُ أقْبِلْ؛ فإنَّه مِن أوقاتِك، وإنَّما نداءُ العَجَبِ تنبيهٌ لِتمكُّنِ عِلمِ المُخاطَبِ بالتَّعجُّبِ مِن فِعلِه. وكذلك إذا قلتَ: «وَيْلٌ لِزَيدٍ، أو: وَيْلَ زَيدٍ لِمَ فعَلَ كذا وكذا؟!» كان أبلَغَ. وكذلك في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، وكذلك: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾، وكذلك: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

فيها مُبالَغةٌ، والجَنْبُ: الجانِبُ، يُقالُ: أنا في جَنبِ فُلانٍ وجانِبِه وناحيتِه، وفُلانٌ لَيِّنُ الجَنبِ والجانِبِ، ثمَّ قالوا: فَرَّطَ في جَنبِه وفي جانِبِه، يُريدونُ: في حَقِّه، أي: شأنِ اللهِ وصِفاتِه ووَصاياهُ، وقيل غيرُ ذلك[1].

- وجملةُ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ النَّدامةِ على ما فاتَها مِن قَبولِ ما جاءَها به الرَّسولُ مِنَ الهُدى فكانتْ تَسخَرُ منه، والجُملةُ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿فَرَّطتُ﴾، أي: فرَّطْتُ في جَنبِ اللهِ تَفريطَ السَّاخِرِ لا تَفريطَ الغافِلِ، وهذا إقرارٌ بصورةِ التَّفريطِ. وقيل: الجملةُ استِئنافُ إخبارٍ عن نفْسِه بما كان عليه في الدُّنيا[2].

وقولُه: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في الدَّلالةِ على اتِّصافِهم بالسُّخريةِ مِن أنْ يُقالَ: وإنْ كنتُ لَساخِرةً[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ * أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ حُكيَ كَلامُ النَّفْسِ في ذلك المَوقفِ على تَرتيبِه الطَّبيعيِّ في جَوَلانِه في الخاطِرِ بالابتِداءِ بالتَّحسُّرِ على ما أَوقعَتْ فيه نفْسَها، وهذا مِنَ الكِنايةِ عن التَّفجُّعِ والنَّدَمِ على ما فَرَّطَتْ فيه مِن طاعةِ اللهِ، ثمَّ بالاعتِذارِ والتَّنصُّلِ طَمَعًا أنْ يُنَجِّيَها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٧).

ذلك، ثمَّ بتَمنِّي أنْ تَعودَ إلى الدُّنيا لتَعمَلَ الإحسانَ، فهذا التَّرتيبُ في النَّظمِ هو أَحْكَمُ تَرتيبٍ، ولو رُتِّب الكَلامُ على خِلافِه لَفاتَتِ الإشارةُ إلى تَوَلُّدِ هذه المعاني في الخاطِرِ حينَما يأتيهِمُ العَذابُ[١].

- وتَكرارُ حَرفِ (أو) في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ﴾ للتَّنويعِ لِمَا تَقولُه النَّفْسُ في ذلك اليَومِ العَصيبِ، وللدَّلالةِ على أنَّ أقوالَهم لا تَخْلو منه تَحيُّرًا وتَعلُّلًا بما لا طائلَ تَحتَه، ولا يُسفِرُ عن فائدةٍ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ حَرفُ (بَلَى) حَرفٌ لإبطالِ مَنفيٍّ أو فيه رائحةُ النَّفيِ؛ لقَصدِ إثباتِ ما نُفِيَ قَبْلَه؛ فتَعَيَّنَ أنْ تَكونَ هنا جوابًا لقولِ النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لِمَا تَقتَضيه ﴿لَوْ﴾ الَّتي استُعمِلَتْ للتَّمنِّي مِن انتِفاءِ ما تَمنَّاهُ، وهو أنْ يَكونَ اللهُ هَداهُ لِيَكونَ مِنَ المُتَّقينَ، أي: لم يَهْدِني اللهُ فلمْ أتَّقِ[٣].

- وجملةُ ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ تفصيلٌ للإبطالِ وبَيانٌ له، وهو مِثلُ الجَوابِ بالتَّسليمِ بعْدَ المَنعِ، أي: هَداكَ اللهُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد قُوبِلَ كَلامُ النَّفْسِ بجَوابٍ يُقابِلُه على عددِ قَرائنِه -أي: فِقَرِه-[1] الثَّلاثِ؛ وذلك بقولِه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، وهذا مُقابِلُ ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، ثمَّ بقولِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾، وهو مُقابِلُ قَولِها: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أي: ليست نِهايةُ أمْرِك التَّفريطَ، بلْ أعظَمَ منه وهو الاستِكبارُ، ثمَّ بقولِه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا مُقابِلُ قَولِ النَّفْسِ: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ فهذه قَرائنُ ثلاثٌ، والمعنَى: أنَّ اللهَ هَداكَ في الدُّنيا بالإرشادِ بآياتِ القرآنِ، فقابَلْتَ الإرشادَ بالتَّكذيبِ والاستِكبارِ والكُفرِ بها؛ فلا عُذرَ لك[2].

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ جاء الجوابُ على طَريقةِ النَّشرِ المُشَوَّشِ بعْدَ اللَّفِّ[3] رَعْيًا لمُقتَضى ذلك التَّشويشِ، وهو أنْ يَقَعَ ابتداءُ النَّشرِ بإبطالِ الأهَمِّ ممَّا اشتمَلَ عليه اللَّفُّ، وهو ما ساقُوهُ على معنَى التَّنصُّلِ والاعتِذارِ مِن قَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لقَصدِ المُبادَرةِ بإعلامِهم بما يَدحَضُ مَعذِرتَهم، ثمَّ عاد إلى إبطالِ قَولِهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فأبطَلَ بقولِه: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، ثمَّ أكمَلَ بإبطالِ قَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] بقولِه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ولم يأتِ جَوابٌ عن قولِ النَّفْسِ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]؛ لأنَّه إقرارٌ. ولو لم يُسلَكْ هذا الأُسلوبُ في النَّشرِ لهذا اللَّفِّ لَفاتَ التَّعجيلُ بدَحْضِ المَعذِرةِ، ولَفاتَتْ مُقابَلةُ القَرائنِ الثَّلاثِ المُجابِ

(١) القرائنُ القرآنيَّةُ: جمْعُ قرينةٍ، وهي الفقرةُ ذاتُ الفاصِلةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).
(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٦٢).

عنها بقَرائنَ أمثالِها؛ لِما عَلِمتَ مِن أنَّ الإبطالَ رُوعيَ فيه قَرائنُ ثلاثٌ على وِزانِ أقوالِ النَّفْسِ، وأنَّ ترتيبَ أقوالِ النَّفْسِ كان جاريًا على التَّرتيبِ الطَّبيعيِّ، فلو لم يُشَوَّشِ النَّشرُ لَوَجَبَ أنْ يُقتَصَرَ فيه على أقَلَّ مِن عدَدِ قَرائنِ اللَّفِّ، فتَفوتَ نُكتةُ المُقابَلةِ الَّتي هي شأنُ الجِدالِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

الآيات (٦٠-٦٦)

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً، وأصلُ (ثوي): يدلُّ على الإقامةِ[(١)].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: أي: بفَوزِهم ومَنجاتِهم وفَلاحِهم، والفَوزُ: الظَّفَرُ بالخَيرِ مع حُصولِ السَّلامةِ، وأصلُه: يدُلُّ على النَّجاةِ[(٢)].

﴿مَقَالِيدُ﴾: أي: مَفاتيحُ، وقيل: هي الخَزائِنُ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَحفَظُ الأشياءَ وتَحوزُها، وقيل: أصلُها كلمةٌ فارسيةٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، =

﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾: أي: لَيَبْطُلَنَّ؛ فالحَبَطُ: البُطلانُ والألمُ، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفِخَ بطنُها فتَموتَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ويومَ القيامةِ ترَى المُشرِكينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ وُجوهُهم مُسْودَّةٌ، أليس في جَهنَّمَ مُستَقَرٌّ للمُتكبِّرينَ؟

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المؤمنينَ، فيقولُ: ويُنجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى، بفَوزِهم: بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، ودُخولِهم جَنَّتَه، لا يُصيبُهم في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا هم يَحزَنونَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، له سُبحانَه وَحْدَه خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ ومفاتيحُها. والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ أولئك هم الخاسِرونَ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يوبِّخَ الكافرينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعبادةِ غيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ؟!

ثمَّ يُحذِّرُ سبحانَه مِن الشِّركِ أبْلَغَ تحذيرٍ، فيقولُ: ولقد أُوحِيَ إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِن الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك، ولَتَكونَنَّ من

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩، ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤).

ومقاليدُ جمعٌ وَاحِدُه مقليدٌ ومقلادٌ ومقلدٌ، ويُقالُ: هو جمعٌ لا واحِدَ له مِن لفظِه. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

الخاسِرينَ، بل اعبُدِ اللهَ وَحْدَه -يا مُحمَّدُ- وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مَقالةَ الكافِرِ؛ ذكَرَ ما يَعرِضُ له يومَ القيامةِ مِن الإنذارِ بسُوءِ مُنقَلَبِه، وفي ضِمنِه وعَيدٌ لِمُعاصِريه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾.

أي: وتَرى[2] يومَ القيامةِ المُشرِكينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ -بادِّعاءِ أنَّ له شَريكًا أو وَلَدًا، أو زعْمِ أنَّه شرَع شَيئًا وهو لم يَشرَعْه، إلى غيرِ ذلك- وُجوهُهم قد اسودَّتْ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٥).

(٢) قال الألوسي: (الخِطابُ إمَّا لسَيِّدِ المُخاطَبينَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإمَّا لِكُلِّ مَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٤).

ممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٦٨).

وممَّن اختار أنَّ الخِطابَ لغيرِ مُعَيَّن: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠).

قال السعدي: (الكَذِبُ على اللهِ يَشمَلُ: الكَذِبَ عليه باتِّخاذِ الشَّريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، والإخبارَ عنه بما لا يَليقُ بجَلالِه، أو ادِّعاءَ النُّبُوَّةِ، أو القَولَ في شَرعِه بما لم يَقُلْه، والإخبارَ بأنَّه قالَه وشَرَعَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

أي: أليس في جهنَّمَ مَقامٌ ومُستَقَرٌّ للَّذين تكَبَّروا عن الحَقِّ، فأعرَضوا عن توحيدِ اللهِ، وقَبولِ شَرعِه، وامتَنَعوا عن طاعتِه في أمْرِه ونَهْيِه[١]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ. قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً. قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ[٢]، وغَمْطُ النَّاسِ[٣]))[٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[٥] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ من

= وقال البِقاعي: (ويَدخُلُ فيه كُلُّ مَن تكَلَّم في الدِّينِ بجَهلٍ، وكلُّ مَن كَذَب وهو يَعلَمُ أنَّه كاذِبٌ، في أيِّ شَيءٍ كان؛ فإنَّه مِن حيثُ إنَّ فِعلَه فِعلُ مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَذِبَه أو لا يَقدِرُ على جَزائِه، كأنَّه كَذَب على اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٢) بطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) الغَمْطُ: الازدِراءُ والاحتِقارُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٩٠).

(٤) رواه مسلم (٩١).

(٥) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ -وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ- في الصِّغَرِ والحَقارة. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٢).

كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسمَّى «بُولَسَ»، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ[١]، يُسْقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ[٢]))[٣].

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ حالةَ المتكَبِّرينَ؛ ذكَرَ حالةَ المتَّقينَ، فقال[٤]:

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾.

أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوُا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى، بفوزِهم: بنَجاتِهم مِن النَّارِ، ودُخولِهم الجنَّةَ[٥].

---

(١) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغةِ، كأنَّ هذه النَّارَ لفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٢) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ، وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) واللَّفظُ له، وأحمد (٦٦٧٧).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٩٢)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٥٧)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢).

قال ابنُ عاشور: (الباءُ للمُلابَسةِ، أي: مُتلَبِّسينَ بالفَوزِ، أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: بسَبَبِ ما حَصَلوا عليه مِنَ الفَوزِ. ويجوزُ أن تكونَ المفازةُ اسمًا للفَلاةِ، سُمِّيَت مفازةً باسمِ مكانِ الفَوزِ، أي: النَّجاةِ، وتأنيثُها بتأويلِ البُقعةِ، وسَمَّوْها مَفازةً باعتبارِ أنَّ مَن حَلَّ بها سَلِمَ مِن أن يَلحَقَه عَدُوُّه، وعلى هذا المعنى فالباءُ بمعنى «في». والمفازةُ: الجنَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٦].

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

= وقال ابن الجوزي في معنى ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: (وفيها للمفسِّرينَ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: بفضائِلِهم، قاله السُّدِّيُّ. والثَّاني: بأعمالِهم، قاله ابنُ السَّائِبِ، ومُقاتِلٌ. والثَّالثُ: بفَوزِهم مِن النَّارِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بنَجاتِهم بأعمالِهم الحسَنةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثَّعلبيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بفَلاحِهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بمكانِ فَوزِهم مِن الجنَّةِ: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١).

وقيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بسَبَبِ ما سبَقَ لهم من السَّعادةِ والفَوزِ عند الله تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١).

وقال الزمخشري: (﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفَلاحِهم، يُقالُ: فاز بكذا؛ إذا أفلَحَ به، وظَفِرَ بمُرادِه منه. وتفسيرُ المَفازةِ قولُه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كأنَّه قيل: ما مَفازَتُهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: يُنجِّيهم بنَفْيِ السُّوءِ والحزنِ عنهم. أو بسببِ مَنْجاتِهم، مِن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: بمَنجاةٍ منه، لأنَّ النَّجاةَ مِن أعظَمِ الفَلاحِ، وسببُ مَنجاتِهم العملُ الصَّالحُ؛ ولهذا فسَّر ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما المَفازةَ بالأعمالِ الحسَنةِ. ويجوزُ: بسببِ فَلاحِهم؛ لأنَّ العملَ الصَّالحَ سببُ الفَلاحِ، وهو دُخولُ الجنَّةِ. ويجوزُ أن يُسمَّى العملُ الصَّالحُ في نفْسِه مَفازةً؛ لأنَّه سببُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم عدُّوا أنفُسَهم في مَفازةٍ بعيدةٍ مَخوفةٍ، فوقَفوا فيها عن كلِّ عمَلٍ إلَّا بدليلٍ؛ لئلَّا يَمشوا بغيرِ دليلٍ فيهلِكوا، فأدَّتْهم تَقْواهم إلى الفوزِ، -وهو الظَّفَرُ بالمُرادِ- وزمانِه ومكانِه الَّذي سُمِّيَتِ المَفازةُ به تَفاؤُلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤٣).

أي: لا يُصيبُ المتَّقينَ في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا يُصيبُهم حُزنٌ أبدًا[١].

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٣].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أطال الكلامَ في شَرحِ الوَعدِ والوَعيدِ؛ عاد إلى دَلائِلِ الإلهيَّةِ والتَّوحيدِ، فقال[٢]:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه خالِقُ الأشياءِ كُلِّها، فهو ربُّها ومالِكُها، والمتفَرِّدُ بالتَّصَرُّفِ فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتَهم مِن آرابِ الدُّنيا، إذْ صاروا إلى كرامةِ اللهِ، ونعيمِ الجِنانِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبرُ، بل هم آمِنونَ مِن كلِّ فزَعٍ، مُزَحْزَحونَ عن كُلِّ شرٍّ، مُؤمَّلون كُلَّ خَيرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، ومُدَبِّرٌ له(١).

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أزِمَّةُ الأمورِ بيَدِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شَريكَ له، فعِندَه وَحْدَه خَزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ ومفاتيحُها، وهو المُنفَرِدُ بتَدبيرِها والتَّصَرُّفِ فيها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣١).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهِدٌ: المَقاليدُ هي: المفاتيحُ... وقال السُّدِّيُّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ. والمعنى على كِلا القولَينِ: أنَّ أزِمَّةَ الأمورِ بيَدِه، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢).

وقال ابن جرير: (يعني تعالَى ذِكرُه بقولِه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: له مفاتيحُ خزائِنِ السَّمواتِ والأرضِ، وبيَدِه مَغاليقُ الخيرِ والشَّرِّ ومفاتيحُها، فما يَفْتَحْ مِن رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يُمْسِكْ فلا مُرسِلَ له مِن بَعدِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يدُ اللهِ مَلْأى لا تَغيضُها[١] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ[٢]، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن مِن عَظَمتِه ما يَقتَضي أن تَمتلِئَ القُلوبُ له إجلالًا وإكرامًا؛ ذكَرَ حالَ مَن عَكَس القَضيَّةَ فلم يَقدُرْه حَقَّ قَدْرِه[٤]!

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ وحُجَجِه الدَّالَّةِ عليه -سُبحانَه- وعلى وَحدانيَّتِه: أولئك هم الَّذين خَسِروا نَصيبَهم مِنَ الخَيرِ الَّذي بيَدِ اللهِ تعالى؛ فهم مَخذولونَ في الدُّنيا عن الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، مُخَلَّدونَ يومَ القيامةِ في النَّارِ، مَحرومونَ مِن دُخولِ الجنَّةِ[٥].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

---

(١) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٨٦).

(٢) سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) واللفظ له، ومسلم (٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٣).

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعِبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ بعَظَمتِه وباستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨، ٩].

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

أي: ولقد أُوحِيَ إليك -يا مُحمَّدُ- وأُوحِيَ إلى الَّذين مِن قَبْلِك مِنَ الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك الصَّالِحُ، فلا يُثيبُك اللهُ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨، ٥٩).

قال الشوكاني: (هذا الكلامُ مِن بابِ التَّعريضِ لِغَيرِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه قد عَصَمَهم عن الشِّركِ، ووَجْهُ إيرادِه على هذا الوَجهِ: التَّحذيرُ والإنذارُ للعِبادِ مِن الشِّركِ؛ لأنَّه إذا كان مُوجِبًا لإحباطِ عَمَلِ الأنبياءِ على الفَرضِ والتَّقديرِ، فهو مُحبِطٌ لعَمَلِ غَيرِهم مِن أُمَمِهم بطَريقِ الأَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤).

وقال القاسمي: (وإطلاقُ الإحباطِ هنا يَستَدِلُّ به مَن ذَهَب إلى أنَّ الرِّدَّةَ مُبطِلةٌ للعَمَلِ مُطلَقًا، كالحَنَفيَّةِ. وغيرُهم يرَى الإحباطَ مُقيَّدًا بالاستمرارِ عليه إلى الموتِ، وأنَّه هو المُحبِطُ في =

كما قال الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

= الحقيقة، وأنَّه إنَّما ترَك التَّقييدَ به اعتِمادًا على التَّصريح به في آيةٍ أخرى، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٥).

وممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مُقيَّدةٌ بالموتِ على الشِّركِ، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]: ابنُ تيميَّة، والشوكاني. يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا الرِّدَّةُ عن الإسلام بأن يَصيرَ الرَّجُلُ كافِرًا مُشرِكًا أو كِتابيًّا، فإنَّه إذا مات على ذلك حَبِطَ عَمَلُه باتِّفاقِ العُلَماءِ، كما نَطَق بذلك القُرآنُ في غيرِ مَوضِعٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقَولِه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وقَولِه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقَولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. ولكنْ تنازَعوا فيما إذا ارتَدَّ ثمَّ عاد إلى الإسلامِ: هل تَحبَطُ الأعمالُ الَّتي عَمِلَها قبْلَ الرِّدَّةِ أم لا تَحبَطُ إلَّا إذا مات مُرتدًّا؟ على قولَينِ مَشهورَينِ، هما قَولانِ في مَذهَبِ الإمامِ أحمَدَ. والحُبوطُ: مَذهَبُ أبي حنيفةَ ومالكٍ. والوُقوفُ: مَذهَبُ الشَّافعيِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٥٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٢).

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾.

أي: ولَتكونَنَّ -إنْ أشرَكْتَ باللهِ- مِن جُملةِ الَّذين خَسِروا ثوابَ أعمالِهم، واستحقُّوا عذابَ اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾.

أي: بَلِ(٢) اعبُدِ اللهَ وَحْدَه -يا مُحمَّدُ- دونَ ما سِواه مِن الآلهةِ، مُخلِصًا له في عِبادتِك(٣).

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت عِبادتُه لا يُمكِنُ أن تَقَعَ إلَّا شُكرًا؛ لِما له مِن عُمومِ النِّعَمِ سابِقًا ولاحِقًا -وشُكرُ المُنعِمِ واجِبٌ- نَبَّه على ذلك(٤).

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) قيل: ﴿ بَلِ ﴾ لإبطال مَضمونِ جُملة ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾، أي: بل لا تُشرِكْ، أو لإبطالِ مَضمونِ جُملةِ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩، ٦٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩، ٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٨).

أي: وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ لله على نِعَمِه بالأعمالِ الصَّالِحةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجْلاه! قالت عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّكَبُّرِ، وأنَّ عُقوبةَ المُتكبِّرين دُخولُ النَّارِ، بل إذا كان التَّكَبُّرُ تكبُّرًا مُطلَقًا فإنَّ عُقوبتَه السُّكنى في النَّارِ، والخُلودُ في النَّارِ، أمَّا مَن تَكَبَّرَ مُطلَقَ تَكَبُّرٍ فهذا لا يُحكَمُ له بالخُلودِ في النَّارِ؛ لأنَّه قد يَتَكبَّرُ عن بَعضِ الحَقِّ، أو يتَكبَّرُ على الخَلقِ؛ فلا يَستَحِقُّ الخُلودَ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ فيه التَّرغيبُ في هذا الوصفِ الجليلِ الَّذي هو التَّقْوى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفْتُ نَظَرِ الإنسانِ إلى ألَّا يَستعينَ إلَّا بالله تعالى، ولا يَسألَ إلَّا اللهَ تعالى، ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّه هو الَّذي له مَقاليدُ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإذًا لا تَلتفِتْ إلى غيرِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ فيه وُجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ تعالى؛ والإخلاصُ للهِ تعالى هو مِن شُكْرِ اللهِ؛ لأنَّه أعقَبَ قولَه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ بقولِه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فيه وُجوبُ الشُّكرِ على كلِّ أحدٍ[2]، وكما أنَّ اللهَ تعالى يُشكَرُ على النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ، كصِحَّةِ الجِسمِ وعافيتِه، وحُصولِ الرِّزقِ وغَيرِ ذلك؛ كذلك يُشكَرُ ويُثْنَى عليه بالنِّعَمِ الدِّينيَّةِ، كالتَّوفيقِ للإخلاصِ والتَّقْوى. بل نِعَمُ الدِّينِ هي النِّعَمُ على الحقيقةِ، وفي تدبُّرِ أنَّها مِنَ اللهِ تعالى، والشُّكرِ للهِ عليها: سَلامةٌ مِن آفةِ العُجبِ الَّتي تَعرِضُ لكثيرٍ مِن العامِلينَ؛ بسَبَبِ جَهْلِهم[3]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ فكما سَوَّدوا وَجْهَ الحَقِّ بالكَذِبِ، سَوَّد اللهُ وُجوهَهم؛ جزاءً مِن جنسِ عَمَلِهم[4].

٢- الحاكِمُ والمُفتي والشَّاهِدُ: كُلٌّ مِنهم مُخبِرٌ عن حُكمِ اللهِ؛ فالحاكِمُ مُخبِرٌ مُنفِّذٌ، والمُفتي مُخبِرٌ غيرُ مُنفِّذٍ، والشَّاهِدُ مُخبِرٌ عن الحُكمِ الكَونيِّ القَدَريِّ المُطابِقِ للحُكمِ الدِّينيِّ الأمْريِّ؛ فمَنْ أخبَرَ منهم عمَّا يَعلَمُ خِلافَه فهو كاذِبٌ على اللهِ عَمدًا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، ولا أظلَمَ مِمَّن كَذَب على اللهِ وعلى دينِه، وإنْ أخبَروا بما لم يَعلَموا فقد كَذَبوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢٨).

على اللهِ جَهلًا وإنْ أصابوا في الباطِنِ، وأخبَروا بما لم يأذَنِ اللهُ لهم في الإخبارِ به، وهم أسْوَأُ حالًا مِن القاذِفِ إذا رأى الفاحِشةَ وَحْدَه فأخبَرَ بها؛ فإنَّه كاذِبٌ عندَ اللهِ، وإن أخبَرَ بالواقعِ؛ فإنَّ اللهَ لم يأذَنْ له في الإخبارِ بها إلَّا إذا كان رابِعَ أربعةٍ، فإنْ كان كاذِبًا عندَ اللهِ في خبرٍ مُطابِقٍ لِمَخْبَرِه؛ حيثُ لم يأذَنْ له في الإخبارِ به، فكيف بمَن أخبَرَ عن حُكمِه بما لم يَعلَمْ أنَّ اللهَ حَكَمَ به، ولم يأذَنْ له في الإخبارِ به؟! وهذه الآياتُ وإن كانت في حَقِّ المُشرِكينَ والكُفَّارِ فإنَّها مُتناوِلةٌ لِمَن كَذَب على اللهِ في تَوحيدِه ودِينِه، وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ولا تَتناوَلُ المُخطِئَ المأجورَ إذا بَذَل جُهْدَه واستَفرَغَ وُسْعَه في إصابةِ حُكمِ اللهِ وشَرْعِه؛ فإنَّ هذا هو الَّذي فَرَضه اللهُ عليه، فلا يَتناوَلُ المُطيعَ للهِ وإنْ أخطَأ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أنَّ هؤلاء النَّاجينَ لا يَمَسُّهُم سوءٌ في المستقبَلِ؛ ولا يَحزَنونَ على شَيءٍ مَضَى؛ وبذلك يَتِمُّ نعيمُهم؛ لأنَّ النَّعيمَ يَنْقُصُ إذا أصاب الإنسانَ هَمٌّ أو غَمٌّ للمُستقبَلِ، ويَنْقُصُ أيضًا إذا أصابَه حُزْنٌ على الماضي، أمَّا إذا عَرَف أنَّه كَسَبَ الماضيَ، وأنَّه لن يَنالَه سوءٌ في المستقبَلِ؛ فسوف يَتِمُّ له النَّعيمُ[2].

٤- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هذا عامٌّ مَحفوظٌ لا يَخرُجُ عنه شَيءٌ مِن العالَمِ؛ أعيانِه وأفعالِه، وحَرَكاتِه وسَكَناتِه، وليس مخصوصًا بذاتِه وصِفاتِه؛ فإنَّه الخالِقُ بذاتِه وصِفاتِه، وما سِواه مخلوقٌ له، واللَّفظُ قد فَرَّق بيْن الخالِقِ والمخلوقِ، وصِفاتُه سُبحانَه داخِلةٌ في مُسمَّى اسمِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه اسمٌ للإلهِ المَوصوفِ بكُلِّ صِفةِ كَمالٍ، المنزَّهِ عن كُلِّ صِفةِ نَقصٍ ومِثالٍ، والعالَمُ قِسْمانِ:

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٧).

أعيانٌ وأفعالٌ، وهو الخالقُ لأعيانِه، وما يَصدُرُ عنها مِن الأفعالِ، كما أنَّه العالِمُ بتفاصيلِ ذلك؛ فلا يَخرُجُ شَيءٌ منه عن عِلمِه، ولا عن قُدرتِه، ولا عن خَلْقِه ومَشيئتِه[(١)].

٥- استدَلَّ الجَهميَّةُ على قَولِهم الباطِلِ بخَلقِ القُرآنِ، بقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، قالوا: والقُرآنُ شَيءٌ! فأجابهم السَّلَفُ بأنَّ القُرآنَ كَلامُه، وكلامُه مِن صِفاتِه، وصِفاتُه داخِلةٌ في مُسمَّى اسمِه؛ كعِلْمِه وقُدرتِه وحياتِه، وسَمْعِه وبصَرِه، ووَجْهِه ويدَيه؛ فليس اللهُ اسمًا لِذَاتٍ لا نَعْتَ لها ولا صِفةَ ولا فِعلَ، ولا وَجْهَ ولا يَدينِ؛ ذلك إلهٌ مَعدومٌ مَفروضٌ في الأذهانِ، لا وُجودَ له في الأعيانِ[(٢)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ الإنسانَ خالقُ أفعالِه. ووجهُ الرَّدِّ: أنَّ أفعالَ العِبادِ شَيءٌ مِن الأشياءِ؛ فتَكونُ داخِلةً في العُمومِ[(٣)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ هذه العِبارةُ وما أشبَهَها ممَّا هو كثيرٌ في القُرآنِ: تدُلُّ على أنَّ جَميعَ الأشياءِ -غيرَ اللهِ- مَخلوقةٌ؛ ففيها ردٌّ على كُلِّ مَن قال بقِدَمِ بَعضِ المَخلوقاتِ، كالفلاسِفةِ القائِلينَ بقِدَمِ الأرضِ والسَّمَواتِ، وكالقائِلينَ بقِدَمِ الأرواحِ، ونحوِ ذلك مِن أقوالِ أهلِ الباطِلِ المتضَمِّنةِ تَعطيلَ الخالِقِ عن خَلْقِه[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أنَّ أعمالَ العبادِ مَخلوقةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ فِعلَ العَبدِ لو وَقَع بتَخليقِ العبدِ لَكان ذلك الفِعلُ غيرَ مَوكولٍ إلى اللهِ تعالى؛ فلم يَكُنِ اللهُ تعالى وكيلًا عليه، وذلك يُنافي عُمومَ الآيةِ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما خَلَقَ؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ أنَّه خَلَق كلَّ شيءٍ بَيَّنَ أنَّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، وهذا يدُلُّ على عنايةِ اللهِ تبارَك وتعالى بخَلْقِه(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه المقَدِّمةُ تُشيرُ إلى أنَّ اللهَ تعالى هو مُعطي ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ومِن أعظَمِ ذلك النُّبوَّةُ وهَدْيُ الشَّريعةِ؛ فإنَّ جَهْلَ المُشركينَ بذلك هو الَّذي جرَّأهم على أنْ أنكَروا اختِصاصَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرِّسالةِ دُونَهم، واختِصاصَ أتْباعِه بالهُدى، فقالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾(٣) [الأنعام: ٥٣]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أنَّه إذا كان المشركونَ يُحاوِلونَ أنْ يُشْرِكَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فما بالُك بأتْباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟! فإنَّهم سوفَ يُحاوِلونَ أنْ يَجعلوهم مُشركينَ أكثَرَ مِن مُحاوَلتِهم إشراكَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَتفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: الحذرُ مِن دعاةِ الشِّركِ والكفرِ، الَّذين يُحاوِلونَ بكلِّ ما يَستطيعونَ أنْ يُضَلِّلُوا المُسلِمينَ، ويَعمَلونَ على إخراجِهم مِن دينِهم(٤).

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٩).

في تَقدير فَرضِ وُقوعِ الإشراكِ مِنَ الرَّسولِ والَّذينَ مِن قَبْله مع تَحقُّقِ عِصمَتِهم: التَّنبيهُ على عِظَمِ أمْرِ التَّوحيد، وخَطَرِ الإشراكِ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ أعلى الدَّرجاتِ في الفَضلِ لو فُرِضَ أنْ يَأتيَ عليها الإشراكُ لَمَا أَبقَى منها أثرًا، ولَدَحَضَها دَحْضًا[1]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أنَّ الشِّركَ -والعِياذُ باللهِ- مَحبَطةٌ للعَمَلِ، وأنَّه يُبطِلُ جَميعَ أعمالِ الإنسانِ[2]، ويُستدَلُّ بهذه الآيةِ على حُبوطِ عَمَلِ المرتَدِّ مِن صلاةٍ وغَيرِها[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أنَّ في نُبُوَّةِ جَميعِ الأنبياءِ أنَّ الشِّركَ مُحبِطٌ لجَميعِ الأعمالِ، كما قال تعالى في سورةِ (الأنعام) لَمَّا عدَّدَ كثيرًا مِن أنبيائِه ورُسُلِه؛ قال عنهم: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4] [الأنعام: ٨٨].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ سُؤالٌ: كيف صَحَّ هذا الكلامُ مع عِلمِ اللهِ تعالى أنَّ رُسُلَه لا يُشرِكونَ ولا تَحبَطُ أعمالُهم؟! **الجوابُ**: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩).

قال ابنُ العربي: (إنَّه بيانٌ أنَّ الكُفرَ يُحبِطُ العمَلَ كيف كان، ولا يَعني به الكُفرَ الأصليَّ؛ لأنَّه لم يكُنْ فيه عَمَلٌ يُحبَطُ، وإنَّما يعني به أنَّ الكُفرَ يُحبِطُ العَمَلَ الَّذي كان مع الإيمانِ... وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى ذلك بقَولِه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، فمَن كَفَر مِن أهلِ الإيمانِ حَبِطَ عَمَلُه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

على سَبيلِ الفَرضِ، والمُحالاتُ يَصِحُّ فَرْضُها[1]، وهو شرطٌ، والشَّرطُ لا يَقتضي جَوازَ الوُقوعِ، كقولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٨١] على القولِ بأنَّ (إنْ) شرطيَّةٌ، وقولِه: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٧]، وقولِه: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الآيةَ[2] [الزمر: ٤].

وقيل: الخِطابُ في قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ كالخِطابِ العامِّ المُوجَّهِ لجميعِ النَّاسِ وإن كان لفظُه مفردًا، كما هو معروفٌ، كقولِ طَرَفةَ بنِ العبدِ[3]:

ستُبْدي لك الأيَّامُ ما كنتَ جاهلًا ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ[4]

فإنَّ هذا الخِطابَ لَفْظُه كأنَّه مُفرَدٌ، ومعناه عامٌّ موجَّهٌ لكلِّ مَن يصِحُّ منه الخِطابُ[5].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ عطْفٌ على إحْدَى الجُمَلِ المُتقدِّمةِ المُتعلِّقةِ بعَذابِ المُشركينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأحسَنُ أنْ يَكونَ عَطفًا على جملةِ ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١]، أي: في الدُّنيا كما أصابَ الَّذينَ مِن قَبْلِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٧) و (٤/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((ديوان طرفة بن العبد)) (ص: ٢٩).

(٤) قوله: (ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ) معناه: يأتيك بالخبرِ مَن لم تَسألْه عن ذلك. يُنظر: ((شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات)) لأبي بكر الأنباري (ص: ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٨٦).

ويَومَ القيامةِ تَسْوَدُّ وُجوهُهم، فيَجوزُ أنْ يَكونَ اسْوِدادُ الوُجوهِ حقيقةً جَعَلَه اللهُ عَلامةً لهم، وجعَلَ بَقيَّةَ النَّاسِ بخِلافِهم، وقد جعَلَ اللهُ اسْوِدادَ الوُجوهِ يَومَ القيامةِ عَلامةً على سوءِ المَصيرِ، كما جعَلَ بَياضَها عَلامةً على حُسنِ المَصيرِ[١]. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ عبَّرَ بالسَّوادِ عن ارْبِدادِ[٢] وُجوهِهم، وغالِبِ همِّهم، وظاهِرِ كآبَتِهم[٣].

- و﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هُمُ الَّذينَ نَسَبوا إليه ما هو مُنَزَّهٌ عنه مِنَ الشَّريكِ وغيرِ ذلك مِن تَكاذيبِ الشِّركِ؛ فـ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هُمُ الَّذينَ ظَلَموا، الَّذينَ ذُكِروا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، وُصِفوا أوَّلًا بالظُّلْمِ، ثمَّ وُصِفوا بالكَذِبِ على اللهِ في حكايةٍ أخرى؛ فليس قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ[٤].

- وجملةُ ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ الاستِئنافِ البَيانيِّ لجُملةِ ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾، ولتَعليلِ اسْوِدادِ وُجوهِهم؛ لأنَّ السَّامعَ يَسألُ عن سببِ اسْوِدادِ الوُجوهِ، فيُجابُ بأنَّ في جَهنَّمَ مَثْواهُم، يعني: لأنَّ السَّوادَ يُناسِبُ ما سيَلْفَحُ وُجوهَهم مِن مَسِّ النَّارِ، فأُجيبَ بطريقةِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ لتَقريرِ ما قَبْلَه مِن رُؤيتِهم كذلك، بتَنزيلِ السَّائلِ المُقدَّرِ مَنزِلةَ مَن يَعلَمُ أنَّ مَثْواهُم جهنَّمُ، فلا يَليقُ به أنْ يَغفُلَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٩).

(٢) الارْبِدادُ والرُّبْدَة: الغُبْرةُ، أو لَونٌ إلى الغُبْرةِ، وقيل: هو لونٌ بيْن السَّوادِ والغُبْرةِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢٤٦)، ((تاج العروس)) للزَّبِيدي (٨/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠).

مُناسَبةِ سَوادِ وُجوهِهم لِمَصيرِهم إلى النَّارِ؛ فإنَّ للدَّخائلِ عَناوينَها[١].

- وتعريفُ المُتكبِّرينَ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للاستِغراقِ، ووَصْفُهم بالمُتكبِّرينَ إيماءٌ إلى أنَّ عِقابَهم بتَسويدِ وُجوهِهم كان مُناسِبًا لكِبريائِهم؛ لأنَّ المُتكبِّرَ إذا كان سَيِّئَ الوَجهِ انكسَرَتْ كِبرياؤُه؛ لأنَّ الكِبرياءَ تَضعُفُ بمِقدارِ شُعورِ صاحِبِها بمَعرفةِ النَّاسِ نَقائصَه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ...﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] إلى آخِرِها، أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذينَ اتَّقوا مِن جهنَّمَ؛ لأنَّهم ليسوا بمُتكبِّرينَ، وهذا إيذانٌ بأنَّ التَّقْوى تُنافي التَّكبُّرَ؛ لأنَّ التَّقوى كمالُ الخُلُقِ الشَّرعيِّ، وتَقتَضي اجتِنابَ المَنْهيَّاتِ، وامتِثالَ الأمرِ في الظَّاهرِ والباطِنِ. والكِبْرُ مرَضٌ قَلْبيٌّ باطِنيٌّ، فإذا كان الكِبْرُ مُلْقيًا صاحِبَه في النَّارِ بحُكمِ قَولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، فضِدُّ أولئك ناجُون منها وهُمُ المُتَّقونَ؛ إذِ التَّقْوى تَحولُ دُونَ أسبابِ العِقابِ الَّتي منها الكِبْرُ، فالَّذينَ اتَّقوا هُم أهْلُ التَّقْوى وهي مَعروفةٌ؛ ولذلك ففِعلُ ﴿اتَّقَوْا﴾ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ لا يُقدَّرُ له مَفعولٌ[٣].

- وإضافةُ مَفازةٍ إلى ضَميرِهم في قولِه: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠، ٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥١، ٥٢).

كِنايةٌ عن شِدَّةِ تَلَبُّسِهم بالفَوزِ حتَّى عُرِفَ بهم، كما يُقالُ: فازَ فَوْزَ فُلانٍ، وهذه الإضافةُ لتَعريفِها بهم، أي: المَفازةِ الَّتي عَلِمتُم أنَّها لهم، وهي الجَنَّةُ، وقد عُلِم ذلك مِن آياتٍ وأخبارٍ؛ منها قولُه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[1] [النبأ: ٣١ - ٣٣].

- وجملةُ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مُبيِّنةٌ ومُفسِّرةٌ لجُملةِ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾، كأنَّه قيل: ما مَفازَتُهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: يُنَجِّيهم بنَفْيِ السُّوءِ والحُزنِ عنهم؛ لأنَّ نَفْيَ مَسِّ السُّوءِ هو إنجاؤُهم، ونَفْيَ الحُزنِ عنهم نَفْيٌ لأثَرِ المَسِّ السُّوءِ، وهي حالٌ مُفيدةٌ لكَونِ نَجاتِهم أو فَوْزِهم بالجَنَّةِ غَيْرَ مَسبوقةٍ بمَساسِ العَذابِ والحُزنِ[2].

- وجيءَ في جانبِ نَفْيِ السُّوءِ بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ لأنَّ ذلك لنَفْيِ حالةِ أهْلِ النَّارِ عنهم، وأهْلُ النَّارِ في مَسٍّ مِنَ السُّوءِ مُتَجدِّدٍ، وجيءَ في نَفْيِ الحُزنِ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأنَّ أهْلَ النَّارِ أيضًا في حُزنٍ وغَمٍّ ثابتٍ لازمٍ لهم. ومِن لَطيفِ التَّعبيرِ هذا التَّفَنُّنُ؛ فإنَّ شأنَ الأَسْواءِ الجسَديَّةِ تَجدُّدُ آلامِها، وشأنَ الأكدارِ القَلبيَّةِ دَوامُ الإحساسِ بها[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] في ذِكرِ تَمسُّكِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والرُّسلِ مِن قَبْلِه بالتَّوحيدِ، ونَبْذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

الشِّركِ والبَراءةِ منه، والتَّصلُّبِ في مَقاوَمتِه، والتَّصميمِ على قَطعِ دابِرِه. وجُعِلَتِ الجُمَلُ الثَّلاثُ مِن قَولِه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُقدِّماتٍ تؤيِّدُ ما يَجيءُ بَعْدَها مِن قولِه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾[1] [الزمر: ٦٤].

- وجيءَ بجملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ مَعطوفةً؛ لِأنَّ مَدلولَها مُغايِرٌ لِمَدلولِ الَّتي قَبْلَها مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾. والوكيلُ: المُتصرِّفُ في شَيءٍ بدُونِ تَعقُّبٍ، ولَمَّا لم يُعَلَّقْ بذلك الوَصفِ شَيءٌ عُلِم أنَّه مَوكولٌ إليه جِنسُ التَّصرُّفِ وحقيقتُه الَّتي تَعُمُّ جميعَ أفرادِ ما يُتصَرَّفُ فيه؛ فعَمَّ تَصَرُّفُه أحوالَ جميعِ المَوجوداتِ مِن تقديرِ الأعمالِ والآجالِ والحرَكاتِ، وهذه المُقدِّمةُ تَقتَضي الاحتياجَ إليه بالإمدادِ، فهُمْ بعْدَ أنْ أوجَدَهم لم يَستَغْنوا عنه لَمحةً ما[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- جملةُ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جيءَ بها مَفصولةً؛ لأنَّها تُفيدُ بيانَ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها مِن قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ فإنَّ الوكيلَ على شَيءٍ يَكونُ هو المُتصرِّفَ في العطاءِ والمنعِ[3].

- وفيها مَزيدُ دَلالةٍ على الاستِقلالِ والاستِبدادِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يَدخُلُها ولا يَتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيَدِه مَفاتيحُها؛ فهي كِنايةٌ عن حِفظِ ذَخائرِها، فذَخائرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأرضِ عَناصِرُها ومَعادِنُها وكَيفيَّاتُ أجوائِها وبِحارِها، وذَخائرُ السَّمواتِ سَيْرُ كَواكِبِها وتَصرُّفاتِ أرواحِها في عَوالِمِها وعَوالِمِنا وما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى، ولَمَّا كانت تلك العناصِرُ والقُوى شَديدةَ النَّفعِ للنَّاسِ، وكان النَّاسُ في حاجةٍ إليها؛ شُبِّهَتْ بنَفائسِ المَخزوناتِ[١].

- وقَدَّمَ الخَبَرَ في قَولِه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾، وتقديمُ الخَبَرِ يُفيدُ الحصرَ، أي: أنَّ المُدَبِّرَ للسَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ تعالى وحْدَه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ للدَّلالةِ على أنَّه مُهَيمِنٌ على العبادِ، مُطَّلِعٌ على أفْعالِهم، مُجازٍ عليها، وقد جُعِلَ مُتَّصِلًا بما يليه على أنَّ كُلَّ شَيءٍ في السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ خالِقُه، وفاتِحُ بابِه، والَّذين كَفَروا وجَحَدوا أنْ يكونَ الأمْرُ كذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٣].

- وتَغْييرُ النَّظْمِ من التَّعْبيرِ بالجُمْلةِ الفِعْليَّةِ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ...﴾ إلى التَّعْبيرِ بالجُمْلةِ الاسميَّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّ العُمْدةَ في فَلاحِ المُؤمِنينَ فَضْلُ اللهِ، فلذا جعَلَ نجاتَهم مُسنَدةً له تعالى، غيرَ ثابتةٍ قبْلَ ذلك بالاستِحقاقِ والأعمالِ، بخلافِ هلاكِ الكفرةِ؛ فإنَّهم قدَّموه لأنفُسِهم بما اتَّصَفوا به مِن الكفرِ والضَّلالِ، كما أنَّ فيه التَّصْريحَ بالوَعْدِ والتَّعْريضَ بالوعيدِ، حيثُ قيل: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولم يُقَلِ: الهالِكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢).

أو المعَذَّبونَ أو نحوَه[1].

وقيل: لَمَّا كان التَّقديرُ: فالَّذين آمَنوا باللهِ، وتقبَّلوا آياتِه أولئك هم الفائزونَ، عطَف عليه قولَه الَّذي اقتضاه سياقُ التَّهديدِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تَخْصيصُ الخَسارِ بهم؛ لأنَّ غيرَهُم ذو حظٍّ مِن الرَّحْمةِ والثَّوابِ، مع ما في اسْمِ الإشارةِ مِن البُعدِ، فهُمُ البُعَداءُ الَّذين كَفَروا، فإنَّهم خَسِروا نُفوسَهُم وكُلَّ شَيءٍ يَتَّصِلُ بها على وَجهِ النَّفعِ؛ لأنَّ كُفرَهم أقبَحُ الكُفرِ مِن حيث إنَّه مُتعلِّقٌ بأظهَرِ الأشياءِ، وهي الآياتُ الظَّاهِرةُ[3].

- وكذلك جملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تَحتمِلُ الاعتِراضَ، ولكنَّ اقتِرانَها بالواوِ بعْدَ نَظائِرِها يُرَجِّحُ أنْ تَكونَ الواوُ فيها عاطفةً، وأنَّها مَقصودةٌ بالعَطفِ على ما قَبْلَها؛ لأنَّ فيها زيادةً على مُفادِ الجُملةِ قَبْلَها، وهي مُقدِّمةٌ مَقصودٌ بها تَجهيلُ الَّذينَ كَفَروا الَّذينَ هُم ضِدُّ المَقصودِ مِن هذه المُقدِّماتِ مِنَ الاهتِداءِ؛ فإنَّ الاستِدلالَ على الحقِّ بإبطالِ ضِدِّه ضَربٌ مِن ضُروبِ الاستِدلالِ؛ لأنَّ الاستِدلالَ يَعودُ إلى تَرغيبٍ وتَنفيرٍ، فإذا كان الَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ خاسِرينَ؛ لا جَرَمَ كان الَّذينَ آمَنوا بآياتِ اللهِ هُمُ الفائزينَ[4].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تُقابِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

جُملةَ ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ [الزمر: ٦١] المُنتقَلَ منها إلى هؤلاء الآياتِ، وهي مع ذلك مُفيدةٌ إنذارَهم وإضْعافَ آرائِهم؛ لأنَّ مَوقِعَها بعْدَ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ -وهي آياتٌ دالَّةٌ على أنَّ اللهَ واحِدٌ- يَقتَضي التَّنديدَ عليهم في عدَمِ الاهتِداءِ بها[١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وُصِف (الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) بأنَّهمُ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾؛ لأنَّهم كَفَروا بآياتِ مَن له مَقاليدُ خَزائنِ الخَيرِ، فعَرَّضوا أنفُسَهم للحِرمانِ ممَّا في خَزائنِه، وأَعظَمُها خَزائنُ خَيرِ الآخرةِ[٢].

- والإخبارُ عن (الَّذِينَ كَفَرُوا) باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم خَسِروا لأجْلِ ما وُصِفوا به قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهو الكُفرُ بآياتِ اللهِ[٣].

- وتَوسُّطُ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾؛ لإفادةِ حَصرِ الخَسارةِ فيهم، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٤] بناءً على عدَمِ الاعتِدادِ بخَسارةِ غَيرِهم بالنِّسبةِ إلى خَسارتِهم؛ فخَسارتُهم أعظَمُ خَسارةٍ[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ هو نَتيجةُ المُقدِّماتِ السَّابقة، وهو المَقصودُ بالإثباتِ؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ لتَفريعِ الكلامِ الَّذي أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَه على الكلامِ المُوحَى به إليه لِيَقرَعَ به أسماعَهم؛ فإنَّ الحقائقَ المُتقدِّمةَ موَجَّهةٌ إلى المُشرِكينَ، فبَعْدَ تَقرُّرِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٦).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

عِندَهم وإنذارِهم على مُخالَفةِ حالِهم لِما تَقتَضيهِ تلك الحقائقُ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يوجِّهَ إليهم هذا الاستِفهامَ الإنكاريَّ مُنوَّعًا على ما قَبْلَه؛ إذْ كانت أنفُسُهم قد خَسِئَتْ بما جَبَهَها مِنَ الكلامِ السَّابقِ تأييسًا لهم مِن محاولةِ صَرفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّوحيدِ إلى عِبادةِ غَيرِ اللهِ[١].

- وتَوسُّطُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾ في قولِه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ اعتِراضٌ بيْن التَّفريعِ والمُفرَّعِ عنه؛ لتَصييرِ المَقامِ لخِطابِ المُشرِكينَ خاصَّةً بعْدَ أنْ كان مَقامُ الكَلامِ قَبْلَه مَقامَ البَيانِ لكلِّ سامعٍ مِنَ المؤمِنينَ وغَيرِهم؛ فكان قولُه: ﴿قُلْ﴾ هو الواسِطةَ في جَعلِ التَّفريعِ خاصًّا بهم، وهذا مِن بَديعِ النَّظمِ ووَفرةِ المَعاني، وهو حقيقٌ بأنْ يُسمَّى (تلوينَ البِساطِ). و﴿تَأْمُرُونِّي﴾ اعتِراضٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أمَروه به عَقِيبَ ذلك وقالوا: استَلِمْ بعضَ آلهَتِنا ونؤمِنْ بإلهِكَ؛ لفَرطِ غَباوَتِهم[٢].

- قولُه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ لَمَّا كان الأمرُ بعِبادةِ غَيرِ اللهِ لا يَصدُرُ إلَّا مِن غَبيٍّ جاهِلٍ، ناداهُم بالوَصفِ المُقتَضي ذلك، فقال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[٣].

- ونداؤُهم بوَصفِ الجاهِلينَ في قولِه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ تَقريعٌ لهم بعْدَ أنْ وُصِفوا بالخُسرانِ؛ ليُجمَعَ لهم بيْنَ نَقصِ الآخرةِ ونَقصِ الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزِلةَ اللَّازِم، كأنَّ الجهلَ صار لهم سَجيَّةً، فلا يَفقَهونَ شَيئًا؛ فهُم جاهِلونَ بما أفادَتْه الدَّلائلُ مِنَ الوَحدانيَّةِ الَّتي لو عَلِموها لَمَا أَشرَكوا، ولَمَا دَعَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى اتِّباعِ شِركِهم، وهُم جاهِلونَ بمَراتِبِ النُّفوسِ الكامِلةِ جَهلًا أَطمَعَهم أنْ يَصرِفوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّوحيدِ، وأنْ يَستَزِلُّوه بخُزَعْبلاتِهم وإطماعِهم إيَّاهُ أنْ يَعبُدوا اللهَ إنْ هو شارَكَهم في عِبادةِ أصنامِهم، يَحسَبونَ الدِّينَ مُساوَمةً ومُغابَنةً وتَطفيفًا[(١)]!

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلامٌ واردٌ على طريقةِ الفَرضِ؛ لتَهْييجِ الرُّسلِ وإقناطِ الكَفَرةِ، والإيذانِ بغايةِ شَناعةِ الإشراكِ وقُبْحِه. وإطلاقُ الإحباطِ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ مِن خَصائصِهم؛ لأنَّ شِركَهم أَقبَحُ، أو يَكونَ على التَّقييدِ بالمَوتِ، كما صُرِّح في قَولِه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وعَطْفُ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من عَطفِ المُسبَّبِ على السَّبَبِ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ المعنَى: ولَتَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ بسَببِ حُبوطِ العمَلِ. ويَحتمِلُ: ولتَكونَنَّ في الآخرةِ مِن جُملةِ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أنفُسَهم إنْ مِتَّ على الرِّدَّةِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ غضَبُ اللهِ على الرَّسولِ أشَدَّ، فلا يُمهلَه بعْدَ الرِّدَّةِ، ألَا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[(٢)] [الإسراء: ٧٥].

- وهذه الآيةُ تمثيلٌ لحالِ مَن أشرَكَ بعْدَ التَّوحيدِ؛ فإنَّ الإشراكَ قد طَلَب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢).

به مُبتَكِروهُ زيادةَ القُرْبِ مِنَ اللهِ إذْ قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فكان حالُهم كحالِ التَّاجِرِ الَّذي طلَبَ الزِّيادةَ على ما عِندَه مِنَ المالِ، ولكنَّه طلَبَ الرِّبحَ مِن غَيرِ بابِه، فباءَ بخُسرانِه وتَبابِه(١).

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ إنْ قيلَ: المُوحَى إليهم جماعةٌ؛ فكيف قال: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾ على الإفرادِ؟

قيل: لأنَّ معناه: أُوحِيَ إليك: لَئِنْ أشركْتَ ليَحبطَنَّ عمَلُك، وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِثلُه؛ فيكون فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: ولقد أُوحيَ إليك لئنْ أَشرَكْتَ، وكذلك أُوحِيَ إلى الَّذينَ مِن قَبْلِكَ. أو أُوحيَ إليك وإلى كُلِّ واحدٍ منهم: لئنْ أشركتَ. وقيل: فيه إضمارُ نائبِ الفاعلِ، تَقديرُه: ولقد أُوحيَ إليك وإلى الَّذينَ مِن قَبلِكَ التَّوحيدُ، ثمَّ ابتَدأَ فقال: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾(٢).

- والتَّاءُ في ﴿أَشۡرَكۡتَ﴾ تاءُ الخِطابِ لكلِّ مَن أُوحيَ إليه بمَضمونِ هذه الجُملةِ مِنَ الأنبياءِ؛ فتَكونُ الجُملةُ بَيانًا لِما أُوحيَ إليه وإلى الَّذينَ مِن قَبْلِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتَكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾، ويكونَ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ اعتِراضًا؛ لأنَّ البَيانَ تابِعٌ للمُبَيَّنِ عُمومُه ونحوه. وأيًّا ما كان فالمَقصودُ بالخِطابِ تَعريضٌ بقَومِ الَّذي أُوحيَ إليه؛ لأنَّ فَرْضَ إشراكِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مُتوقَّعٍ(٣).

- وقولُه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨).

إلى قولِه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ تأييدٌ لأمرِ النَّبيِّ بأنْ يَقولَ للمُشرِكينَ تلكَ المَقالةَ مَقالةَ إنكارٍ أنْ يَطمَعوا منه في عِبادةِ اللهِ، بأنَّه قَولٌ استَحَقُّوا أنْ يُرْمَوا بِغلظتِه؛ لأنَّهم جاهِلونَ بالأدِلَّةِ، وجاهِلونَ بنفْسِ الرَّسولِ وزَكائِها. وأعقَبَ بأنَّهم جاهِلونَ بأنَّ التَّوحيدَ هو سُنَّةُ الأنبياءِ، وأنَّهم لا يَتطَرَّقُ الإشراكُ حوالَيْ قُلوبِهم، فالمَقصودُ الأهَمُّ مِن هذا الخبَرِ التَّعريضُ بالمُشركينَ إذْ حاوَلوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الاعتِرافِ بإلهيَّةِ أصنامِهم. وتأكيدُ الخبَرِ بلامِ القَسَمِ وبحَرفِ (قد) تأكيدٌ لِمَا فيه مِنَ التَّعريضِ للمُشرِكينَ[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (بل) لإبطالِ مَضمونِ جملةِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾، أي: بلْ لا تُشرِكْ. أو لإبطالِ مَضمونِ جملةِ ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾؛ فهو رَدٌّ لِما أَمَروهُ به مِن استِلامِ بعضِ آلهتِهم[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ يَظهَرُ أنَّها تَفريعٌ على التَّحذيرِ مِن حَبطِ العمَلِ ومِنَ الخُسرانِ، فحصَلَ باجتِماعِ (بل) والفاءِ في صَدرِ الجُملةِ أنْ جَمعَتْ غَرَضَينِ: غرَضَ إبطالِ كلامِهم، وغرضَ التَّحذيرِ مِن أحوالِهم، وهذا وَجْهٌ رَشيقٌ[3].

- قولُه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فيه تقديمُ المَعمولِ ﴿ٱللَّهَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

على ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾؛ لإفادةِ القَصرِ والاختِصاصِ، كما تَقدَّمَ في قولِه في هذه السُّورةِ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ [الزمر: ١٤] أيْ: أعبُدُ اللهَ لا غَيْرَه، وهذا في مَقامِ الرَّدِّ على المُشركينَ كما تَضمَّنَه قولُه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، ولولا دَلالةُ التَّقديمِ على القَصرِ والاختِصاصِ لم يَكُنْ ردًّا لِما أمَروه به؛ فإنَّهم لم يأمُروه بتركِ عبادةِ اللهِ، بل باستلامِ آلهتِهم والشِّركِ[1].

- قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أيْ: إنعامَه عليك، وفيه إشارةٌ الى مُوجبِ الاختِصاصِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾
وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: أي: ومَا عظَّموا اللهَ حقَّ عظمتِه، ولا وصَفوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى، ولا نزَّهوه عمَّا لا يليقُ به، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[١].

﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: أي: مَقبوضةٌ له، والقَبْضُ: تَناولُ الشَّيءِ بجَميعِ الكَفِّ، وأصلُ (قبض): يَدُلُّ على شَيءٍ مأْخوذٍ وتَجمُّعٍ في شَيءٍ[٢].

﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾: مِن الطَّيِّ الذي هو ضِدُّ النَّشرِ، وأصل (طوي): يدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتَّى يُدرَجَ بعْضُه في بعضٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص ٦٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٥).

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[(١)].

﴿فَصَعِقَ﴾: أي: مات، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شَدَّةِ صَوتٍ[(٢)].

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾: أي: أضاءتْ، يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ؛ إذا طَلَعت، وأشْرَقَت؛ إذا أضاءتْ، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ وفتْحٍ[(٣)].

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: أي: جُوزِيَتْ مُكَمَّلًا، والتَّوفيةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وقَضاؤُه وافيًا لا نَقْصَ فيه، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى وَحْدانيَّتَه، وعظَمتَه، وكَمالَ قُدرتِه، وما عليه المشركونَ مِن جَهالةٍ، فيقولُ: وما عَظَّم المُشركونَ اللهَ سُبحانَه حَقَّ تَعظيمِه؛ حيثُ عَبَدوا معه غَيرَه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها سُبحانَه يومَ القِيامةِ، والسَّمَواتِ السَّبعَ كُلَّها يَطْويها اللهُ تعالَى بيَدِه اليُمنى، تَنزَّه اللهُ وعَلا عُلُوًّا عَظيمًا عن شِركِ أولئك المُشرِكينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سُبحانَه بعضَ مَشاهدِ يومِ القِيامةِ، فيقولُ: ونُفِخَ في البُوقِ يومَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير الطبري)) (٢٠/ ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

القِيامةِ نَفخةٌ، فصَعِقَ بها أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نُفِخَ فيه نَفخةٌ ثانيةٌ فإذا الذين صَعِقوا قيامٌ يَنظُرونَ، وأضاءتْ أرضُ المَحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تَجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه، ووُضِعَت كُتُبُ أعمالِ العبادِ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم، وجِيءَ بالنَّبيِّين وبالذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعمالِهم، وحَكَم اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم رَبُّهم شَيئًا، ووَفَّى اللهُ كُلَّ نفسٍ جَزاءَ عَمَلِها مِن خيرٍ أو شَرٍّ، واللهُ أعلَمُ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكَى سُبحانَه عن المُشرِكينَ أنَّهم أمَروا الرَّسولَ بعِبادةِ الأصنامِ، ثمَّ إنَّه تعالَى أقام الدَّلائِلَ على فَسادِ قَولِهم، وأمَرَ الرَّسولَ بأنْ يَعبُدَ اللهَ ولا يَعبُدَ شَيئًا آخَرَ سِواه؛ بَيَّن أنَّهم لو عَرَفوا اللهَ حَقَّ مَعرفتِه لَما جَعَلوا هذه الأشياءَ الخَسيسةَ مُشارِكةً له المَعبوديَّةَ، فقال[(١)]:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

أي: وما عظَّم المُشرِكونَ اللهَ كما يَنْبغي له؛ حيثُ عَبَدوا معه غَيرَه، ولم يَصِفُوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٧)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٦٣، ١٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٧).

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالَى أنَّهم ما عَظَّموه تَعظيمًا لائِقًا به، أردَفَه بما يدُلُّ على كَمالِ عَظَمتِه، ونِهايةِ جَلالتِه[1].

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: ما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها بيَدِه يومَ القِيامةِ[2].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ يَقبِضُ يومَ القِيامةِ الأرضَ، وتكونُ السَّمَواتُ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ!))[3].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٨٦، ٧٨٧)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) للموصلي (ص: ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد وَرَدتْ أحاديثُ كثيرةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بهذه الآيةِ الكريمةِ، والطَّريقُ فيها وفي أمثالِها مَذهبُ السَّلَفِ، وهو إمْرارُها كما جاءَتْ مِن غيرِ تَكييفٍ ولا تَحْريفٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٣).

وقال ابنُ عُثَيْمين ردًّا على مَن فسَّر القبضَ بالملكِ والتَّصرُّف، قال: (وفي هذا نظرٌ ظاهرٌ، بل هذا تحريفٌ؛ لأنَّ الملكَ والتَّصرُّفَ... يومَ القيامةِ وقبْلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ القبضةَ بمعنى المقبوضةِ التي تكونُ في اليدِ تُحيطُ بها اليدُ، فالصَّوابُ المُتعيِّنُ أن يُقالَ: المرادُ بالقبضةِ أنَّها في قبضةِ يدِه عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٨).

أي: والسَّمَواتُ السَّبعُ كُلُّها يَطويها اللهُ بيَدِه اليُمنى[(١)].

كما قال تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾[الأنبياء: ١٠٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السَّمَواتِ بيَمينِه، ثمَّ يَقولُ: أنا المَلِكُ، أين مُلوكُ الأرضِ؟!))[(٢)].

وعن مُجاهِدٍ قال: قال ابنُ عبَّاس: ((أتَدْري ما سَعةُ جَهنَّمَ؟ قُلتُ: لا، قال: أجَلْ، واللهِ ما تَدري! حدَّثَتْني عائِشةُ أنَّها سَألَت رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن قَولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾، قالت: قُلتُ: فأينَ النَّاسُ يَومَئذٍ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: على جِسرِ جَهنَّمَ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٠-٤٥٢).

قال ابنُ تَيميَّةَ: (لم يَكُنِ العَرشُ داخلًا فيما يُقبَضُ ويُطوَى ويُبدَّلُ ويُغيَّرُ، كما قال في الآيةِ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ * فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ * وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٤ - ١٧]. ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤١) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٣)، وأحمد (٢٤٨٥٦).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه). وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٦٣٠)، وصحَّح الحديثَ ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٩/ ١٧٨)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤١)، وصحَّح إسناده شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤٨٥٦).

وأخرجه من طريقٍ آخَرَ وبلفظٍ مُقاربٍ: التِّرمذيُّ (٣٢٤٢) عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها أنَّها قالت: ((يا رَسولَ الله ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾، فأين المؤمِنونَ يومَئذٍ؟! قال: على الصِّراطِ يا عائِشةُ)). =

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء حَبْرٌ[١] إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا محمَّدُ -أو يا أبا القاسِمِ- إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ يومَ القِيامةِ على إصْبَعٍ، والأرَضينَ على إصْبَعٍ، والجِبالَ والشَّجَرَ على إصْبَعٍ، والماءَ والثَّرَى على إصْبَعٍ، وسائِرَ الخَلقِ على إصْبَعٍ، ثمَّ يَهُزُّهنَّ، فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ! فضَحِكَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعجُّبًا ممَّا قال الحَبرُ؛ تصديقًا له، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾))[٢].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تَنزَّه اللهُ وعَلا عن شِركِ المُشرِكينَ عُلُوًّا عَظيمًا[٣].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّفهم تعالَى مِن عَظَمتِه؛ خَوَّفهم بأحوالِ يومِ القِيامةِ، ورَغَّبَهم ورَهَّبَهم[٤].

وأيضًا لَمَّا قَدَّرَ كَمالَ عَظَمتِه بما سَبَق ذِكرُه؛ أردَفَه بذِكرِ طَريقةٍ أُخرَى تدُلُّ

= قال الترمذيُّ: (حسنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٣١٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٢).

(١) الحَبْر: العالِم، والمرادُ هنا حَبْرٌ من أحبارِ اليَهودِ آنذاكَ. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٨/ ٣١٥، ٣١٦)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٢٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

أيضًا على كَمالِ قُدرتِه وعَظَمتِه، وذلك بشَرحِ مُقَدِّماتِ يوم القِيامةِ؛ لأنَّ نَفْخَ الصُّورِ يكونُ قبْلَ ذلك اليَومِ، فقال(١):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ويُنفَخُ في البُوقِ العَظيمِ يومَ القِيامةِ نَفخةٌ يَموتُ بها أهلُ السَّمَواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن استَثناه اللهُ منهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤، ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قيل: هذه النَّفخةُ: هي النَّفخةُ الأُولى. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جَرير، والسعدي، وعِندَه أنَّهما نَفختانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قال السعديُّ: (هذه النَّفخةُ الأولى نَفخةُ الصَّعقِ، ونَفخةُ الفَزَعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وقيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ مِن نَفَخاتٍ ثلاثٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميةَ، وابن كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وهي التي يَموتُ بها الأحياءُ مِن أهلِ السَّمَواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقال أيضًا: (أوَّلُ ذلك نَفخةُ الفَزَعِ، ثمَّ يَعقُبُها نَفخةُ الصَّعقِ حينَ يَصعَقُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء الله، ثمَّ بَعدَها نَفخةُ القيامِ لرَبِّ العالَمينَ، والبَعثِ والنُّشورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

وقيل: هي النَّفخةُ الثَّالِثةُ مِن أربعِ نَفَخاتٍ، والأُولى مِن نفْخَتينِ خاصَّتينِ بيَوم القِيامة بعْدَ وقوعِ البَعثِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصَّعقِ هنا: الموتُ: ابنُ جَرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقيل: المرادُ بالصَّعقِ هنا: الغَشْيُ، أي: يَقَعُ الخَلقُ مَغشيًّا عليهم دونَ مَوتٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٣). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((استَبَّ رَجُلانِ: رجُلٌ مِن المُسلِمينَ، ورجُلٌ مِن اليَهودِ؛ قال المُسلِمُ: والذي اصْطفَى محمَّدًا على العالَمينَ، فقال اليهوديُّ: والذي اصْطفَى موسَى على العالَمينَ، فرَفَع المُسلِمُ يَدَه عِندَ ذلك فلَطَم وَجْهَ اليَهوديِّ، فذهَبَ اليَهوديُّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرَه بما كان مِن أمْرِه وأمْرِ المُسلِمِ، فدعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُسلِمَ، فسَأَله عن ذلك، فأخبَرَه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تُخَيِّروني على مُوسى؛ فإنَّ النَّاسَ يَصعَقونَ يومَ القِيامةِ فأَصعَقُ معهم، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفيقُ، فإذا مُوسى باطِشٌ[(١)] جانِبَ العَرشِ! فلا أدْري أكان فيمَن صَعِقَ فأفاقَ قَبْلي، أو كان ممَّن استَثنى اللهُ!))[(٢)].

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

أي: ثمَّ يُنفَخُ في البُوقِ نَفخةٌ ثانيةٌ[(٣)]، ....

= قال السَّعديُّ: (﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غُشِيَ أو ماتَ، على اختِلافِ القَولينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

واختلَف المفسِّرون فيمَن استثنَى اللهُ تعالى من الصَّعقِ؛ فقال القاسميُّ: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: مِن خَواصِّ الملائكةِ، أو مِن الشُّهَداءِ، رُوِيَ ذلك عن بَعضِ التابعين. وقال قَتادةُ: قد استثنى اللهُ، واللهُ أعلمُ إلى ما صارتْ ثُنْيَتُه. وهذا هو الوَجهُ؛ إذ لا يُصارُ إلى بَيانِ المُبهَماتِ إلَّا بقاطعٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٠).

(١) باطِشٌ: أي: آخِذٌ بقُوَّةٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٤٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) قيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي نفخةُ البَعثِ والنُّشورِ، وإحياءِ العِبادِ مِن القُبورِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَريرٍ، والماوَرْديُّ، وأبو السُّعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٩).

وقيل: هي نَفخةُ البَعثِ، ولكِنَّها الثَّالثةُ بعْدَ نَفختَيِ الفَزَعِ ثمَّ الصَّعقِ. وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ =

فإذا الذين صَعِقوا قدْ قاموا يَنظُرونَ(١).

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

أي: وأضاءت أرضُ المحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه(٢).

كما قال تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

= كَثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦) وَ(٨/ ٢١١).

وقيل: هي النَّفخةُ الرَّابعةُ التي يُفيقُ بها العِبادُ مِن غَشْيَتِهم، وهي الثَّانيةُ مِن نفْختَين بعْد البَعثِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٣، ٥٥٨- ٥٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٩، ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٩، ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥، ٦٦).

واختلَف المفَسِّرون في معنى ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ فقيل: يَقلِبون أبصارَهم في الجِهاتِ نظَرَ المبهوتِ إذا فاجأهُ خطْبٌ. وممَّن اختاره الزَّمخشريُّ، وابنُ عادلٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٧).

وقيل: يَنظُرونَ إلى أهوالِ يوم القِيامة. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: النَّظَرُ هنا بمعنى الإبصارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حَيُوا حَياةً كاملةً لا غِشاوةَ معها على أبْصارِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥).

وقيل: هذا النَّظَرُ بمعنى الانتظارِ، أي: يَنتَظِرون أمْرَ اللهِ فيهم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والخازن. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القِيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ[١]، كقُرصةِ النَّقِيِّ[٢]، ليس فيها عَلَمٌ[٣] لأحَدٍ))[٤].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنامُ، ولا يَنْبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لَأحْرَقَت سُبُحاتُ[٥] وَجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه))[٦].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، قال: قُلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَسَألْتُه. فقال: عن أيِّ شَيءٍ كُنتَ تَسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هلْ رأيتَ رَبَّك؟ قال أبو ذَرٍّ: قدْ سألتُ، فقال: ((رأيتُ نُورًا))[٧].

(١) عَفْراءَ، أي: غيرِ شَديدةِ البَياضِ، بلْ يَضرِبُ بياضُها إلى الحُمرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٢) كقُرصَةِ النَّقِيِّ: القُرصةُ: الرَّغيفُ، والنَّقِيُّ: هو الدَّقيقُ المنخولُ المُنظَّفُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٣) عَلَمٌ: أي: عَلامةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠) واللفظ له.

قال البخاري: (قالَ سهلٌ أوْ غيرُه: «ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ»).

قال ابن حجر: (وقَع هذا الكلامُ الأخيرُ لمسلمٍ... مدرجًا بالحديثِ، ولفظُه: «ليس فيها علمٌ لأحدٍ»). ((فتح الباري)) (١١/ ٣٧٥).

(٥) سُبُحاتُ: جَمعُ سُبْحَةٍ: أيْ: أنوارُ وَجْهِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٦٦).

(٦) رواه مسلم (١٧٩).

(٧) رواه مسلم (١٧٨).

ومعْنَى قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ: ((رَأَيْتُ نُورًا)): أنَّه رَأَى الحجابَ؛ ففي ((صحيح مسلم)) (١٧٩) أيضًا عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِي اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حِجابُه النُّورُ، لوْ كَشَفه لَأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه =

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

أي: وأُحضِرَت كُتُبُ أعْمالِ العِبادِ يومَ القِيامةِ، ووُضِعَتْ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم بما فيها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

أي: وجِيءَ بالنَّبِيِّينَ لِيَسألَهم رَبُّهم عمَّا أجابَتْهم به أُمَمُهم، وجِيءَ بالَّذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعْمالِهم(٢).

= مِن خَلْقِه))، وجاء في رِوايةٍ لحديثِ أبي ذَرٍّ عندَ مسلم أيضًا (١٧٨): ((نُورٌ أنَّى أرَاهُ)): أي: النُّورُ الَّذي هو الحجابُ يَمنَعُ مِن رُؤيَتِه سُبحانَه؛ فأنَّى أرَاهُ؟ أي: فكَيْفَ أراهُ والنُّورُ حِجابٌ بيْني وبيْنَه يَمنَعُني مِن رُؤيتِه؟! وهذا صَريحٌ في نفْيِ رُؤيةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم رَبَّه بعَيْني رأسِه في الدُّنيا. يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٨)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٥-٤٦٧).
وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالكِتابِ: كُتُبَ الشَّرائعِ الَّتي شَرَعها اللهُ للعِبادِ على ألْسِنةِ الرُّسلِ، ويَكونَ إحضارُها شاهِدةً على الأُمَمِ بتَفاصيلِ ما بَلَّغَه الرُّسلُ إليهم؛ لئلَّا يَزعُموا أنَّهم لم تَبلُغْهمُ الأحكامُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢، ٢٨٣)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

اختلَف المفَسِّرون في المرادِ بالشُّهداءِ هنا؛ فقيل: همْ أُمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَشهَدونَ للرُّسُلِ في تَبليغِهم رِسالةَ اللهِ إلى أُمَمِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ جَرير، ومَكِّي، والقُرْطبيُّ، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢-٢٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢- ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤).

وقيل: الشُّهَداءُ هم الملائكةُ الحَفَظةُ الذين يُحصُونَ أعمالَ العِبادِ مِن خيرٍ وشَرٍّ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ كَثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: عَطاءٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤).

وقيل: الشُّهَداءُ من الملائكة والمؤمنين، وممَّن اختاره: البيضاوي، وأبو السُّعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣).

وقيل: هم الملائكةُ، وأعضاءُ الإنسان، والأرضُ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقيل: هم الرُّسُلُ مِن البَشَرِ الذين أُرسِلوا إلى الأُمَم؛ لأنَّه لا يُقضَى بيْنَ الأُمَّةِ حتى يأتيَ رَسولُها، كما قال تعالَى في سُورةِ (يونس): ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وممَّن ذهَب إلى هذا القول: الشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٨).

قال الشِّنقيطيُّ: (قدْ بيَّن تعالى أنَّ الشَّهيدَ على كُلِّ أمَّةٍ مِن أنفُسِ الأمَّة؛ فدَلَّ على أنَّه ليس مِن الملائكةِ، وذلك في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[النحل: ٨٩]، والرُّسُلُ مِن أنفُسِ الأُمَمِ، كما قال تعالَى في نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالَى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٦٨).

وقيل: هم الذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣). =

كما قال تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُجاءُ بنُوحٍ يومَ القِيامةِ، فيُقالُ له: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ يا رَبِّ، فتُسألُ أمَّتُه: هلْ بلَّغَكم؟ فيقولونَ: ما جاءَنا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن شُهودُك؟ فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيُجاءُ بكم، فتَشهَدونَ. ثمَّ قرأَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عَدْلًا، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]))(١).

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: ويَحكُمُ اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم شَيئًا؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بما لم يَعمَلْه، أو يُحَمِّلُه ذَنْبَ غَيرِه، أو يَنقُصُه مِن أجْرِه، أو يَزيدُ في سَيِّئاتِه(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٦٢).

(١) رواه البخاري (٧٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٨-٤٦٩).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

أي: ويُوَفِّي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ جَزاءَ عَمَلِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المرادُ بالشُّهَداءِ إقامةَ الحُقوقِ على ما يَتعارَفُه العِبادُ، وكان ذلك ربَّما أوهَمَ نَقْصًا في العِلمِ؛ قال[2]:

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ مِنَ النَّبيِّينَ والشُّهَداءِ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا، وسيُجازيهم يومَ القِيامةِ بحَسَبِ أفعالِهم[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أنَّه يَجِبُ أنْ يُعَظِّمَ اللهُ تعالَى حَقَّ تَعظيمِه بقَدْرِ المُستطاعِ؛ لقولِه تبارَك وتعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣).
قال السَّمرْقَنديُّ: (أخبَرَ أنَّه لم يَدْعُ الشُّهَداءَ لِيَشهَدوا بما يَعلَمون، بل هو أعلَمُ بما يَفعَلونَ، وإنَّما يَدْعو الشُّهَداءَ لِتأكيدِ الحُجَّةِ عليهم). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله تعالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وإلَّا فمَن الذي يُحصي أنْ يُعظِّمَ اللهَ تعالَى حَقَّ تَعظيمِه، على الوَجهِ الذي أرادَه اللهُ عزَّ وجلَّ[١]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ رُوِي عن بعضِ السَّلفِ أنَّه قال: (مَن أراد أنْ يُشاهِدَ يوْمَ القيامةِ -يعني: بقَلْبِه- فلْيَقرأْ آخِرَ سُورةِ الزُّمَرِ)[٢].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ الحذرُ مِن العَمَلِ بما لا يُرضي اللهَ تعالَى؛ لأنَّ اللهَ تعالَى يَعلَمُ ذلك، والإنسانُ الحَيُّ القَلبِ لا شَكَّ أنَّه سيَخجَلُ إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالَى يَعلَمُ عَمَلَه، فعَمِلَ ما لا يُرضِيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾، قولُه تعالَى: ﴿ جَمِيعًا ﴾ حالٌ، وهي دالَّةٌ على أنَّ المرادَ بالأرضِ الأَرَضونَ السَّبعُ؛ فإنَّ هذا التَّأكيدَ لا يحسُنُ إدخالُه إلَّا على الجمْعِ، ويَشهَدُ لذلك قولُه الآتي: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾، ولأنَّ الموضعَ مَوضعُ تَعظيمٍ، فهو مُقتضٍ للمبالَغةِ، والمعنى: الأَرَضونَ جميعًا ذواتُ قبضتِه؛ يَقبِضُهنَّ قبْضةً واحدةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٤٣)، ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٤٣).

قال البِقاعيُّ: (لمَّا كان ما يُدْرِكون منها مِن السَّعةِ والكِبَرِ كافيًا في العظَمةِ، وإنْ لم يُدرِكوا أنَّها سَبعٌ؛ أكَّد بما يَصلُحُ لجميعِ طَبَقاتِها؛ تَنبيهًا للبُصراءِ على أنَّها سَبعٌ مِن غيرِ تَصريحٍ به فقال: ﴿ جَمِيعًا ﴾). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤٩).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾، وقَولُه تعالَى: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه إثباتُ اليَدِ للهِ تعالَى[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه تَنبيهٌ على عَظَمتِه سُبحانَه، وحَقارةِ الأفعالِ العِظامِ الَّتي تَتحَيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قُدرتِه، ودَلالةٌ على أنَّ تَخريبَ العالَمِ أهْوَنُ شَيءٍ عليه[(٢)].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الصَّعْقَ شاملٌ لكلِّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ تعالَى، وهمْ أقلُّ ممَّن يَصْعَقُون؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ المُسْتَثْنَى يكونُ أقلَّ مِن المُسْتَثْنى منه[(٣)].

٥- قال تعالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قِيامَهم يَحصُلُ عقِبَ هذه النَّفخةِ الأخيرةِ في الحالِ، مِن غيْرِ تَراخٍ؛ لأنَّ الفاءَ تدُلُّ على التَّعقيبِ[(٤)].

٦- قَولُه تعالَى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فيه إثباتُ النُّورِ صِفةً للهِ تعالَى[(٥)].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أنَّ الأنوارَ الموجودةَ تَذهَبُ يومَ القِيامةِ وتَضمَحِلُّ -وهو كذلك-؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أخبَرَ أنَّ الشَّمسَ تُكوَّرُ، والقَمَرَ يُخسَفُ، والنُّجومَ تَندَثِرُ، ويكونُ النَّاسُ في ظُلْمةٍ، فتُشرِقُ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٠)، ويُنظر: ((صفات الله)) للسقَّاف (ص: ٣٥٦).

ذلك الأرضُ بنُورِ رَبِّها عندما يَتجَلَّى ويَجيءُ للفَصلِ بيْنهم، وذلك اليومَ يَجعَلُ اللهُ للخَلقِ قُوَّةً، ويُنشِئُهم نَشأةً يَقوَونَ على ألَّا يُحرِقَهم نُورُه سُبحانَه وتعالَى، ويَتمَكَّنونَ أيضًا مِن رُؤيتِه؛ وإلَّا فنُورُه تعالَى عَظيمٌ، لو كشَفَه لَأحرَقَت سُبُحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه انتفاءُ الظُّلمِ في ذلك اليوم، وانتفاءُ الظُّلمِ هنا ليس المرادُ به نفْيَ الظُّلمِ فقط، بلِ المرادُ به إثباتُ كَمالِ العدْلِ الذي ليس فيه ظُلمٌ بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ فيه عَدْلُ اللهِ تعالَى في جَزائِه؛ لِقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زِيادةً ولا نَقصًا، ويُؤكِّدُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ فإذا كان أعلمَ بما يفعَلونَ، وهو حَكَمٌ عَدْلٌ، عُلِمَ أنَّه لن يَنْقُصَ الإنسانَ مِن أجْرِه شَيئًا(٣).

١٠- لَمَّا بيَّن اللهُ تعالَى أنَّه يَحضُرُ في مَحفِلِ القيامةِ جميعُ ما يُحتاجُ إليه في فصْلِ الحكوماتِ وقطْعِ الخُصوماتِ؛ بيَّن تعالَى أنَّه يُوصَلُ إلى كلِّ أحدٍ حقُّه، وعبَّر تعالَى عن هذا المعنى بأربعِ عباراتٍ؛ أوَّلُها قولُه تعالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، وثانيها قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وثالثُها قولُه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: وُفِّيَت كلُّ نفْسٍ جَزاءَ ما عَمِلَت، ورابعُها قولُه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، يعني أنَّه تعالَى إذا لم يكُنْ عالمًا بكَيفيَّاتِ أحوالِهم، فلعلَّه لا يَقْضي بالحقِّ لأجْلِ عدَمِ العلمِ، أمَّا إذا كان عالمًا بمَقاديرِ أفعالِهم وبكَيْفيَّاتِها امتنَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٦).

دُخولُ الخطأِ في ذلك الحكمِ، فثَبَتَ أنَّه تعالَى عبَّر عن هذا المقصودِ بهذه العباراتِ المختلفةِ، والمقصودُ المبالغةُ في تَقْرِيرِ أنَّ كلَّ مُكلَّفٍ فإنَّه يَصِلُ إلى حقِّه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على جُملةِ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ويكونَ قولُه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلخ مُعترِضًا بيْن الجُملتَينِ، اقتَضاها التَّناسُبُ مع جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

ويَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]؛ فتكونَ جُملةُ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وجُملةُ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كِلْتاهُما مَعطوفتَينِ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. والمعنى هو هو، إلَّا أنَّ الحالَ أوضَحُ إفصاحًا عنه.

ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ عَطْفَ غَرَضٍ على غَرَضٍ انتُقِلَ به إلى وَصْفِ يومِ القيامةِ وأحوالِ الفَريقَينِ فيه، وجُملةُ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ اعتراضًا(٢).

- وهذا الأسلوبُ مِن بابِ الكِنايةِ؛ لأنَّ تَعظيمَكَ الشَّيءَ، واحترامَكَ إيَّاهُ، وقِيامَك بواجِبِه؛ مُستلزِمٌ لتَقديرِك إيَّاهُ في نفْسِكَ حَقَّ تَقْديرِه، وهو مُستلزِمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠، ٦١).

لأنْ تكونَ قدْ عَرَفْته حَقَّ مَعرفتِه[(١)].

- والإخبارُ عن الأرضِ بهذا المَصدرِ ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ الَّذي هو بمعنَى المَفعولِ، أي: مَقبوضةٌ، كالخَلْقِ بمعنَى المَخلوقِ؛ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالمعنَى المَصدريِّ؛ لأنَّ المَوضِعَ مَوضِعُ تَفخيمٍ، فهو مُقتَضٍ المُبالَغةَ، وإنَّما صِيغَ لها وَزنُ المَرَّةِ؛ تَحقيرًا لها في جانبِ عَظَمةِ مُلكِ اللهِ تعالَى، والقَبضةُ تدُلُّ على تَمامِ التَّمكُّنِ مِنَ المَقبوضِ، وأنَّ المَقبوضَ لا تَصرُّفَ له ولا تَحرُّكَ[(٢)].

- وقَدَّمَ الأرضَ على السَّمواتِ؛ لمُباشَرتِهم بها، ومَعرفتِهم بحَقيقتِها[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ انتقالٌ مِن إجْمالِ عَظَمةِ القُدرةِ يومَ القيامةِ إلى تَفصيلِها؛ فالجُملةُ مِن عَطفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ومُناسَبةُ العَطفِ ظاهِرةٌ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ عبَّرَ بالماضي في قولِه: ﴿وَنُفِخَ﴾ وقولِه: ﴿فَصَعِقَ﴾؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ. وابتُدِئَت الجُملةُ بحَديثِ النَّفخِ في الصُّورِ؛ إذْ هو مِيقاتُ يَومِ القيامةِ وما يَتقدَّمُه من مَوتِ كلِّ حَيٍّ على وَجْهِ الأرضِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٦).

- قولُه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لَمَّا كان المقامُ للتَّهويلِ، وكان التَّصريحُ أهوَلَ، أعاد الفاعلَ بلفْظِه فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (ثُمَّ) حَرفُ عَطفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي؛ لِبُعْدِ ما بيْن النَّفختَينِ. ويَجوزُ أنْ تُفيدَ مع ذلك المُهلةَ المُناسِبةَ لِما بيْن النَّفختَينِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ إنَّما ذُكِرَتِ النَّفخةُ الأُخرَى في هذه الآيةِ، ولم تُذكَرْ في قولِه في سُورةِ (النَّمل): ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لأنَّ تِلك في غَرَضِ المَوعظةِ بفَناءِ الدُّنيا، وهذه الآيةَ في غَرَضِ عَظَمةِ شَأنِ اللهِ في يومِ القِيامةِ، وكذلك وَصْفُ النَّفخةِ بالواحِدةِ في سُورةِ (الحاقَّة): ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٥]، وذُكِرَتْ هنا نَفختانِ(٣).

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ضَميرُ (هُمْ) عائدٌ على مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ فيما بَقِيَ مِن مَفهومِه بعْدَ التَّخصيصِ بـ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، و(إذَا) للمُفاجأةِ؛ للتَّنبيهِ على سُرعةِ حُلولِ الحَياةِ فيهم، وقِيامِهم إثْرَه(٤).

- وجُملةُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالٌ، وفائدةُ هذه الحالِ الدَّلالةُ على أنَّهم حَيُوا حَياةً

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كاملةً لا غِشاوةَ معها على أبصارِهم، أي: لا دَهَشَ فيها[(١)]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ التَّعريفُ في الأرضِ تَعريفُ العَهدِ الذِّكريِّ الضِّمنيِّ؛ فقدْ تَضمَّنَ قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أنَّهم قِيامٌ على قَرارٍ؛ فإنَّ القِيامَ يَستَدعي مَكانًا تَقومُ فيه تلك الخَلائقُ، وهو أرضُ الحَشرِ، وليس المرادُ الأرضَ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا؛ قال تعالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] [إبراهيم: ٤٨].

- قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافةُ (رَبٍّ) إلى ضَميرِ الأرضِ لتَشريفِ المُضافِ إليه[(٣)]، وإضافةُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى إلى شَيءٍ مُعَيَّنٍ تَقتَضي تَعظيمَ هذا الشَّيءِ[(٤)].

- وفي قَولِه: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ عَدَل الكَلامَ عن الاسمِ الأعظَمِ (الله) إلى صِفةِ الإحسانِ ﴿رَبِّهَا﴾؛ لغَلَبةِ الرَّحمةِ، لا سِيَّما في ذلك اليَومِ؛ فإنَّه لا يَدخُلُ أحَدٌ الجنَّةَ إلَّا بها[(٥)].

- وتعريفُ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ في قولِه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥، ٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٦، ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦١).

وُضِعَتِ الكُتُبُ، وهي صَحائفُ أعْمالِ العِبادِ، أُحضِرَتْ للحِسابِ بما فيها مِن صالحٍ وسَيِّئٍ، وأُعطِيَ كلُّ واحدٍ كِتابَه وصَحائفَ أعمالِه المُدَوَّنةَ فيها حَسناتُه أو سَيِّئاتُه، ووُحِّدَ على اسمِ الجنسِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ له كِتابٌ على حِدَةٍ. والوَضعُ: الحَطُّ، والمُرادُ به هنا: الإحضارُ، والآيةُ تَهديدٌ جاءَ في سِياقِ الخبَرِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أيْ: جُوزِيَتْ على أعْمالِها جَزاءً مُكَمَّلًا، واللهُ أعلَمُ بما يَفعَلونَ؛ فلا يَحتاجُ إلى كاتِبٍ ولا شاهِدٍ، وفي ذلك وَعيدٌ وزِيادةُ تَهديدٍ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ مُضافٌ مَحذوفٌ، أي: جَزاءَ ما عَمِلَتْ؛ لظُهورِ أنَّ ما عَمِلَه المرءُ لا يُوَفَّاهُ بعْدَ أنْ عَمِلَه، وإنَّما يُوفَّى جَزاءَه[٣].

- وعُبِّرَ بالماضي في قولِه: ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾، ﴿وَوُضِعَ﴾، ﴿وَجِاْيٓءَ﴾، ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ لأنَّه مُحَقَّقُ الوُقوعِ[٤].

- قيل: في قَولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ احتِباكٌ[٥]؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((فتح الرحمن في تفسير القرآن)) للأنصاري (٦/ ٨٩)، ((روح البيان)) (٨/ ١٤٠) للخلوتي الحنفي، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٦٤- ٦٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٧).

فإنَّ ذِكرَ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أولًا يدُلُّ على ما فَعَلت ثانيًا، وذِكرُ (ما يَفعَلون) ثانيًا يدُلُّ عليه ما يَفعَلونَ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّ ما ذُكِر أوْفَقُ للمُرادِ مِن نفْيِ الظُّلمِ على حُكمِ الوَعدِ بالعدْلِ والفضلِ؛ لأنَّ فيه الجزاءَ على كلِّ ما بُنِي على عِلمٍ، وأمَّا المُشْتهَى فما ذكَر أنَّه يُجازَى عليه! بلِ اللهُ يَعلَمُه[1].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٤).

وقدْ فرَّق البِقاعيُّ بيْن العَملِ والفِعلِ هنا؛ فقال: (﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: مِن الحَسناتِ، لذلك عبَّر بالعَملِ الذي لا يكونُ إلَّا مع العِلم... ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ممَّا عُمِل به بداعيةٍ مِن النفْسِ، سواءٌ كان مع مُراعاةِ العِلمِ أوْ لا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٦٤).

الآيتان (٧١-٧٢)

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسِيقَ﴾: أي: وحُشِر، والسَّوْقُ يَقْتَضي الحثَّ على المَسيرِ بعُنْفٍ، وهو الغالبُ فيه(١).

﴿زُمَرًا﴾: أي: جَماعاتٍ وأفْواجًا مُتفرِّقةً، وأصلُ (زمر) هنا: يدُلُّ على جِنْسٍ مِن الأصواتِ، واشتُقَّت الزُّمرةُ -بمعْنى الجماعةِ- مِن هذا؛ لأنَّها إذا اجْتَمَعتْ كانَتْ لها جَلَبَةٌ(٢).

﴿حَقَّتْ﴾: أي: وجَبَت، والحقُّ نَقيضُ الباطلِ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ تعالَى مُبيِّنًا مَصيرَ الكافرينَ وما يَقولُه لهم خَزَنةُ جَهنَّمَ: وسِيقَ الكُفَّارُ يَومَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفرِّقةً، حتَّى إذا جاؤُوا جَهنَّمَ فُتِحَت لهم أبْوابُها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير الطبري)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

السَّبعةُ، وقال لهمْ خزَنةُ جهنَّمَ: ألمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم يقرؤُونَ عليكمْ آياتِ ربِّكم، ويُخوِّفونكم لِقاءَ يومِ القِيامةِ؟

قال الَّذين كَفَروا مُجيبينَ خَزَنةَ جَهنَّمَ: بلَى! قدْ كان ذلك، ولكنْ وَجَب عَذابُ اللهِ على الكافِرينَ. قيل لهمْ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبدًا؛ فبِئسَ مَقامُ المتكَبِّرينَ نارُ جَهنَّمَ!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى أشياءَ مِن أحوالِ يومِ القيامةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ بَيَّن بعْدُ كَيفيَّةَ أحوالِ الفَريقَينِ، وما أفضَى إليه كُلُّ واحدٍ منهما[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالَى حُكمَه بيْنَ عِبادِه الذينَ جمَعَهم في خَلْقِه ورِزقِه وتَدبيرِه، واجتِماعَهم في الدُّنيا، واجتِماعَهم في مَوقِفِ القِيامةِ؛ فرَّقَهم تعالَى عندَ جَزائِهم، كما افترَقوا في الدُّنيا بالإيمانِ والكُفرِ، والتَّقوى والفُجورِ[2].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

أي: ويُساقُ الكُفَّارُ يوْمَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفرِّقةً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، =

كما قال تعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

أي: حتَّى إذا بلَغَ الكُفَّارُ جهنَّمَ فُتِحَت لهمْ أبْوابُها السَّبعةُ فَجأةً فَوْرَ وُصولِهم[١].

قال تَعالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٩).

قال الرسعني: (سَوْق الكفار: طردُهم إلى النَّارِ، وزجرُهم بأبلغِ ما يكونُ مِن العنفِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٧٩).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿زُمَرًا﴾: جماعاتٌ متفرِّقةٌ: أبو عُبَيدة، وابنُ عطيَّةَ، وجلالُ الدِّين المحلِّي، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

قال السعديُّ: (ويُساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فِرَقًا مُتفرِّقةً، كلُّ زُمرةٍ معَ الزُّمْرةِ التي تُناسِبُ عَمَلَها، وتُشاكِلُ سَعْيَها، يَلعَنُ بَعضُهم بعضًا، ويَبرَأُ بَعضُهم من بعضٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (إنَّما جُعِلوا زُمَرًا؛ لاختلافِ دَرَجاتِ كُفرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٩-٤٨٠).

قيل: يُساقُ كُفَّارُ كُلِّ أمَّةٍ على حِدَةٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مُقاتِلُ بنُ سُليمان، والثَّعلبيُّ، والبَغَويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٠-٤٨١).

مَّقۡسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾.

أي: وقال لهم خَزَنةُ جَهنَّمَ القائِمونَ عليها، الموكَّلونَ بها: ألَمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم[1] يقرؤُونَ عليكم آياتِ رَبِّكم التي أنْزَلَها إليكم[2]؟

(١) قيل: المرادُ: مِن جِنسِكم البَشَريِّ. وممَّن قال بهذا المعنى: السَّمَرْقنديُّ، ومكِّيٌّ، وابنُ عطيَّةَ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ كَثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨).

وعبَّر عن ذلك المعنى مُقاتِلُ بن سُلَيمان، والواحديُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والبغويُّ، والشَّوكانيُّ؛ بقولِهم: مِن أنفُسِكم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

وقيل: المرادُ: مِن قَومِكم، فتَعرِفونَ صِدْقَهم وأمانَتَهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٧).

قال ابنُ عُثَيمين: (يقولُ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾، وهذا أبلَغُ مِن أن يُقالَ: مِن أنفُسِكم؛ فمُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قُرَيشٍ مِن بَني هاشِم، يَعرِفونَه ويَعرِفونَ أباه ويَعرِفونَ أجدادَه، ويَصِفونَه بالأمينِ ويَثِقونَ به... ولهذا قال تعالَى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]: مِن جِنسِهم؛ لأنَّ الرَّسولَ ليس مَلَكًا، وقال تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة: ٢]؛ لأنَّه مِنَ العَرَبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

وقال السعديُّ -والظاهرُ أنَّه جمَع بينَ القولَين-: (﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: مِن جِنسِكم تَعرِفونَهم، وتَعرِفونَ صِدقَهم، وتَتمكَّنونَ مِن التَّلقِّي عنهم؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٠-٤٨٢).

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

أي: ويُخَوِّفونَكم ويُحَذِّرونكم شَرَّ يَومِ القِيامةِ، ومَصيرَكم إليه؛ فتَستَعِدُّوا له بالتَّقوى[1]؟

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: قال الذين كَفَروا مُجيبينَ خَزَنةَ جَهنَّمَ: بلَى! قدْ أتَتْنا رسُلٌ منَّا يقرؤُونَ علينا وَحْيَ رَبِّنا، ويُنذِرونَنا يوْمَ القِيامةِ، ولكِنْ كذَّبْناهم، ووَجَبتْ كَلِمةُ العذابِ -في عِلمِ اللهِ السَّابقِ- على الكافِرينَ به وبآياتِه ورُسُلِه[2].

قال ابن عاشور: (التِّلاوةُ: قِراءةُ الرِّسالَةِ والكتابِ؛ لأنَّ القارِئَ يَتْلو بعضَ الكلامِ ببَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

وقال ابن كثير: (﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أيْ: يُقيمونَ عليكم الحُجَجَ والبراهينَ على صِحَّةِ ما دَعَوْكم إليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

قيل: معنى ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: وجَبَت كَلِمةُ اللهِ أنَّ عَذابَه لأهلِ الكُفرِ به. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال ابنُ كَثير: (﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولكنْ كذَّبْناهم وخالَفْناهم؛ لِمَا سَبَق إلينا من الشِّقوةِ الَّتي كنَّا نَستَحِقُّها حيثُ عَدَلْنا عن الحقِّ إلى الباطلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (أي: الكَلِمةُ المُقتَضيةُ من اللهِ تعالَى تَخليدَهم في النَّارِ، وهي عِبارةٌ عن قَضائه السَّابِقِ لهم بذلك، وهي التي في قَولِه تعالَى لإبليسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣). =

كما قال الله تعالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: فيُقالُ لهم: ادْخُلوا أبوابَ جهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثينَ فيها أبدًا، لا يَنقَطِعُ عنكم

= وممَّن فسَّر الكلمةَ بقولِه تعالَى لإبليسَ في سُورةِ (ص): مُقاتلُ بنُ سُليمان، والثَّعلبيُّ، والسَّمعانيُّ، والكرمانيُّ، والبَغويُّ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٢١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

قال الشِّنْقيطيُّ: (المرادُ بالكَلمةِ هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلَّتْ على ذلك آياتٌ من كِتابِ اللهِ تعالى؛ كقَولِه تعالَى في آخِرِ سُورةِ «هودٍ»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقولِه تعالَى في «السَّجدةِ»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدةُ: ١٣]. وقولِه تعالى في أُخْرَياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧) بتصرف. ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

عَذابُها، ولا أنتمْ تُخرَجونَ منها[١].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان سَببُ كُفرِهم بالآياتِ هو التَّكبُّرَ؛ قالوا لهم[٢]:

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

أي: فبِئْسَ المَقامُ والمُستقَرُّ للمُتكَبِّرينَ عن الحَقِّ، نارُ جَهنَّمَ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالَى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أنَّهم تكَبَّروا عن الحَقِّ، فجازاهم اللهُ مِن جِنسِ عَمَلِهم بالإهانةِ والذُّلِّ والخِزْيِ[٤]، وفي ذلك التَّحذيرُ مِن الكِبْرِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ مِن أصحابِ النَّارِ، فالنَّارُ مَثْوَى أهلِ الكِبْرِ، وأمَّا أهلُ التَّواضُعِ فمَأْواهم الجنَّةُ؛ فالمتواضِعون للحَقِّ وللخَلْقِ هؤلاء في الجنَّةِ، والمتكبِّرون عن الحقِّ وعن الخَلْقِ هؤلاء مَثْواهم النَّارُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال السعديُّ: (كلُّ طائفةٍ تَدخُلُ مِن البابِ الذي يُناسِبُها ويُوافِقُ عَمَلَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (دخولُ البابِ: وُلوجُه لوُصولِ ما وراءَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أنَّ أبوابَ جهنَّمَ لا تُفتحُ إلَّا إذا جاءَتْ هذه الزُّمَرُ، كسائرِ أبوابِ السُّجونِ؛ فإنَّها لا تَزالُ مُغْلقةً حتَّى يَأتِيَ أصحابُ الجرائمِ الذين يُسْجَنون فيها، فتُفتَحُ ثم تُغلَقُ عليهم[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أنَّه لا وُجوبَ قَبْلَ مَجيءِ الشَّرعِ؛ لأنَّ الملائِكةَ بَيَّنوا أنَّه ما بَقِيَ لهم عِلَّةٌ ولا عُذرٌ بعْدَ مَجيءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، ولو لم يكُنْ مَجيءُ الأنبياءِ شَرطًا في استِحقاقِ العَذابِ لَمَا بَقِيَ في هذا الكلامِ فائدةٌ[٢]؛ فالآيةُ دلَّتْ على أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ إلَّا مَن أرْسَل إليه رَسولًا تَقومُ به الحُجَّةُ عليه، ودلَّ على ذلك أيضًا قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقولُه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، إلى غيرِ ذلك مِن النُّصوصِ[٣].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه قدْ أقامَ الحُجَّةَ على خَلْقِه برُسُلِه، وقال تعالَى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩]، إلى غيرِ ذلك[٤].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ فيه تَمامُ الحُجَّةِ على بَني آدمَ بإرسالِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).

الرُّسُلِ منهم؛ لأنَّهم لوْ كانوا مِن غيْرِ الجِنسِ لم تَتِمَّ الحُجَّةُ، فإذا كانوا مِن الجِنسِ نَفْسِه، بلْ مِن القَبيلةِ نَفْسِها، تَمَّتِ الحُجَّةُ(١).

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أنَّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ مِن الوحْيِ حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى سَمَّاها آياتٍ، والآيةُ: العلامةُ المعيَّنَةُ لِمَا دَلَّتْ عليه؛ فهي حُجَّةٌ مُلْزِمةٌ لكلِّ مَن سَمِعها(٢).

٦- اجتماعُ العذابِ القَلْبيِّ والبَدَنيِّ على أهلِ النَّارِ؛ أمَّا البَدَنيُّ فظاهِرٌ، وأمَّا القَلْبيُّ فما يَحْصُلُ لهم مِن التَّوبيخِ والتَّقريعِ، كما في قَولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ...﴾، والتَّوبيخُ ليْس بالأمرِ الهَيِّنِ -لا سيَّما في مِثلِ هذا الحالِ-؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بهذه النِّعمةِ في حالٍ لا يَتمكَّنونَ مِن استدراكِ ما فات، كان ذلك أشَدَّ حَسْرةً، والعِياذُ باللهِ(٣)!

٧- قولُه تعالَى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فيه أنَّه ما مِن رَسولٍ إلَّا وقدْ أتَى بكِتابٍ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه سُبحانَه وتعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقولُه تعالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لكنَّنا لا نَعْلَمُ كلَّ كِتابٍ أُوتِيَه رَسولٌ! فالذي نَعرِفُه: التَّوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبُورُ، وصُحفُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والقُرآنُ(٤).

٨- قَولُه تعالَى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فيه بَيانُ مُقتَضَى رُبوبيَّةِ اللهِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).

أنَّها رُبوبيَّةٌ مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ، فلوْ أنَّ اللهَ تعالَى ترَكنا هَمَلًا، لم تكُنْ رُبوبيَّتُه تامَّةً، لكِنَّه سُبحانَه وتعالَى لم يَترُكْنا هَمَلًا، بلْ أرسَلَ إلينا الرُّسُلَ؛ فتَمَّتْ بذلك الرُّبوبيَّةُ التي كان مُقتضاها هِدايةَ الخَلْقِ(١).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أنَّ جميعَ أهلِ النَّارِ قدْ أنْذَرَتْهم الرُّسلُ في دارِ الدُّنيا؛ فعَصَوْا أمْرَ ربِّهم(٢)؛ فـ﴿بَلَىٰ﴾ حرْفُ جَوابٍ لإثباتِ النَّفيِ المُصَدَّرِ بالاستفهامِ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ﴾، وأفاد إقرارَ المُكَذِّبين في ذلك اليومِ إقرارًا كاملًا(٣).

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في هذه الآيةِ وأمثالِها أنَّهم لَمَّا سُئِلوا اعترَفوا وأقَرُّوا بما كانوا فيه، وأخْبَروا بالواقعِ، وأيضًا في القُرآنِ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على إنكارِهم وحَلِفِهم على الإنكارِ، كقَولِه عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]! فهذه الآياتُ تدُلُّ على إنكارِهم لِما جاؤوا به مِن الكُفرِ، وتلك تدُلُّ على إقرارِهم!

والجوابُ: أنَّه قدْ سُئِلَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما عن ذلِك، فأجاب: أنَّهم إذا رأَوا أنَّ أهلَ الشِّركِ لا خَلاصَ لهم، قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، فعِندَ ذلك يَختِمُ اللهُ على ألْسِنتِهم، وتَشهَدُ أيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَ(٤)،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٦).

(٤) عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (جاء رجُلٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ، فقال: أشْياءُ تَختلِفُ علَيَّ في القُرآنِ، فقال: ما هو؟ أشَكٌّ في القُرآنِ؟! قال: ليس بالشَّكِّ، ولكنَّه اخْتِلافٌ. قال: فهاتِ ما اختلَفَ عليك من ذلك. قال: أسمَعُ اللهَ يقولُ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]؛ فقدْ كتَموا. فقال ابنُ عبَّاسٍ: أمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فإنَّهم لمَّا رَأَوْا يومَ القيامةِ أنَّ اللهَ =

قال تعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]... فهذه الأسرارُ التي تُقالُ ويُفصِحُ عنها إنَّما هي لأيْديهم وألسِنَتِهم وجُلودِهم، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] [فصلت: ٢٢].

وأيضًا فإنَّ يومَ القِيامةِ يومٌ طويلٌ، والأحوالُ فيه مُختلِفةٌ؛ فتارةً يُقِرُّونَ، وأُخرَى يَجْحَدونَ، وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ خَوفِهم، واضطرابِ أحوالِهم؛ فإنَّ مَن عَظُمَ خَوفُه كَثُرَ الاضطرابُ في كَلامِه[2].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ تَنفيذٌ للقَضاءِ الذي جاء في قولِه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠]؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك ونَتيجتَه إيداعُ المُجْرمينَ في العِقابِ، وإيداعُ الصَّالحينَ في دارِ الثَّوابِ. وابتُدِئَ في الخبَرِ بذِكرِ مُستحِقِّي العِقابِ؛

= يَغفِرُ لأهْلِ الإسْلامِ، ويَغفِرُ الذُّنوبَ، ولا يَغفِرُ شِركًا، ولا يَتعاظَمُه ذَنْبٌ أنْ يَغفِرَه؛ جحَدَ المُشرِكونَ فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ رَجاءَ أنْ يَغفِرَ لهم، فختَم على أفْواهِهم، وتكلَّمتْ أيْديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعمَلونَ، فعِندَ ذلك ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]). أخرَجَه عبدُ الرَّزَّاقِ في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ومن طريقِه ابنُ جَرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥١).

لأنَّه الأهمُّ في هذا المقامِ؛ إذْ هو مَقامُ إعادةِ الموعظةِ والتَّرهيبِ للذين لم يَتَّعِظوا بما تَكرَّرَ في القُرآنِ مِن العِظاتِ مِثلِ هذه، فأمَّا أهلُ الثَّوابِ فقدْ حصَلَ المقصودُ منهم، فما يُذكَرُ عنهم فإنَّما هو تَكريرُ بِشارةٍ وثَناءٍ[(١)].

- قولُه: ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾، وأغْنى ذِكرُ ﴿إِذَا﴾ عن الإتيانِ بـ (لمَّا) التَّوقيتيَّةِ، والتَّقديرُ: فلمَّا جاؤوها فُتِحَت أبوابُها، أي: وكانتْ مُغلقةً؛ لِتُفتَحَ في وُجوهِهم حِينَ مَجيئِهم فَجْأةً تَهويلًا ورُعْبًا[(٢)].

- قولُه: ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ قُرِئَ ﴿فُتِّحَتۡ﴾ بتَشديدِ التَّاءِ[(٣)]؛ للمُبالَغةِ في الفتْحِ[(٤)].

- والاستفهامُ الموجَّهُ مِن خَزَنةِ جهنَّمَ إلى أهلِ النَّارِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ استفهامٌ تَقريريٌّ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والزَّجْرِ والتَّقريعِ، كما دلَّ عليه قولُهم بعْدَه: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، و﴿مِّنكُمۡ﴾ صِفةٌ لـ﴿رُسُلٞ﴾، والمقصودُ مِن الوَصْفِ التَّورُّكُ عليهم؛ لأنَّهم كانوا يَقولون: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[(٥)] [القمر: ٢٤].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ أُسْنِدَت التِّلاوةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨، ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

(٣) قرَأ عاصمٌ وحمْزةُ والكِسائيُّ وخَلَف بالتخفيفِ هنا وفي الآيةِ (٧٣)، وقرَأ الباقونَ بالتَّشديدِ فيهما. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٥)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

إلى جَميعِ الرُّسلِ وإنْ كان فيهم مَن ليْس له كِتابٌ، على طَريقةِ التَّغليبِ[١].

- وأُضِيف اليوْمُ إليهم في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾؛ لأنَّ المرادَ لِقاءُ وقْتِكم هذا، وهو وقْتُ دُخولِهم النَّارَ، لا يومُ القِيامةِ، واستِعمالُ لفْظِ اليومِ والأيَّامِ في أوقاتِ الشِّدَّة مُستفيضٌ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لم يُعطَفْ فِعلُ ﴿قَالُواْ﴾ على ما قبْلَه؛ لأنَّه جاء في مَعرِضِ المقاوَلةِ في المُحاوَراتِ[٣].

- مَحلُّ الاستِدراكِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هو ما طُوِيَ في الكلامِ ممَّا اقْتَضى أنْ تَحِقَّ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ؛ وذلك بإعراضِهم عن الإصغاءِ لأمْرِ الرُّسلِ، فالتَّقديرُ: ولكنْ تَكبَّرْنا وعانَدْنا، فحَقَّتْ كَلِمةُ العذابِ على الكافرينَ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: علينا؛ فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضعَ الضَّميرِ، فصرَّحوا بالوصْفِ المُوجِبِ لهمُ العِقابَ، وللدَّلالةِ على اختِصاصِ ذلك بالكَفَرةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ فيه إبهامُ القائلِ؛ لِتَهويلِ المَقُولِ[١].

وقيل: حُذِف الفاعلُ في قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ كأنَّ الكونَ كلَّه نطَق بذلك وقالَه لهم، حتَّى تقولَه أعضاؤُهم وأرواحُهم وأرضُهم وسَماؤُهم[٢]، وكلُّ مَن رآهم وعَلِم حالَهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم مُستحِقُّون للعَذابِ؛ ولهذا لم يُسنِدْ هذا القولَ إلى قائلٍ معيَّنٍ، بلْ أطْلَقه؛ لِيدُلَّ على أنَّ الكونَ شاهدٌ عليهم بأنَّهم مُستحِقُّونَ ما هُمْ فيه بما حكَم العدْلُ الخبيرُ عليهمْ به[٣]. وقيل: عبَّر بالمبنيِّ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّهم وصَلوا إلى أقصَى ما يكونُ مِن الذُّلِّ؛ بحيثُ إنَّهم يَمتثِلونَ قوْلَ كلِّ قائلٍ جَلَّ أو قَلَّ[٤]!

- والمَخصوصُ بالذَّمِّ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: بِئسَ مَثْوَى المتكبِّرين جهنَّمُ، ووُصِفوا بالمتكبِّرين؛ لأنَّهم أعْرَضوا عن قَبولِ الإسلامِ تَكبُّرًا عن أنْ يَتَّبِعوا واحِدًا منْهم[٥].

- وفي الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ فتحتَ قَوْلِ خَزَنةِ النَّارِ لأهْلِها: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، وقَوْلِ خَزَنةِ الجنَّةِ لأهلِها: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ سِرٌّ لَطيفٌ ومعْنًى بَديعٌ لا يَخفَى على المتأمِّلِ، وهو أنَّها لَمَّا كانتْ النَّارُ دارَ العُقوبةِ، وأبوابُها أفظَعَ شَيءٍ، وأشَدَّه حَرًّا، وأعظَمَه غمًّا، يَستَقبِلُ فيها الدَّاخِلُ من العذابِ ما هو أشَدُّ منها، ويَدْنو مِن الغَمِّ والخِزْيِ والحُزنِ والكَرْبِ بدُخولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٤-٦٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

الأبوابِ، فقِيلَ: ادخُلوا أبوابَها؛ صَغارًا لهم، وإذلالًا وخِزيًا، ثمَّ قيل لهم: لا يَقتَصِرْ بكمْ على مُجرَّدِ دُخولِ الأبوابِ الفَظيعةِ، ولكِنْ وَراءَها الخُلودُ في النَّارِ. وأمَّا الجنَّةُ فهي دارُ الكَرامةِ، والمَنزِلُ الذي أعَدَّه اللهُ لأوليائِه؛ فبُشِّروا مِن أوَّلِ وَهْلةٍ بالدُّخولِ إلى المقاعِدِ والمنازِلِ والخُلودِ فيها[١].



(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

الآيات (٧٢-٧٥)

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَتَبَوَّأُ﴾: أي: نَنزِلُ ونَسكُنُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿فَنِعْمَ﴾: نِعْمَ: كَلِمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ، وهي مُقابِلُ (بِئْسَ) التي للذَّمِّ[2].

﴿حَآفِّينَ﴾: أي: مُحيطينَ ومُطيفِينَ بحافَتَيه، وأصلُ (حفف): يدُلُّ على إطافةِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى مَصيرَ المتَّقينَ، وما يَقولونَه عِندَما يَرونَ النَّعيمَ المقيمَ الذي أعَدَّه لهم، فيَقولُ: وسِيقَ الذين اتَّقَوا رَبَّهم إلى الجنَّةِ أفْواجًا وجَماعاتٍ، حتَّى إذا جاؤُوا الجنَّةَ، وفُتِحَت لهم أبْوابُها، وقال خَزَنةُ الجنَّةِ للمُتَّقِينَ: تَحيَّةٌ وأمَنَةٌ مِنَ اللهِ لكم، طِبتُم، فادخُلوا الجنَّةَ، ماكِثينَ فيها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٥).

وقال المتَّقون: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا به، وملَّكَنا أرضَ الجنَّةِ نتَّخِذُ منها سَكنًا حيثُ نُحِبُّ، ونَنزِلُ في أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها؛ فنِعمَ ثَوابُ العامِلينَ الجنَّةُ!

وترَى الملائِكةَ مُحيطِينَ بعَرشِ الرَّحمنِ يُنزِّهون ربَّهم مِن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بحَمدِه تعالَى، وحَكَم اللهُ بيْن عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ. وقيل: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح سُبحانَه أحوالَ أهلِ العِقابِ في الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ شَرَح أحوالَ أهلِ الثَّوابِ في هذه الآيةِ، فقال[1]:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾.

أي: ويُساقُ يوْمَ القِيامةِ الذين اتَّقَوا رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ واجتِنابِ ما نهَى: إلى الجنَّةِ أفواجًا وجَماعاتٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦، ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال الرسعني: (سوقُ المتقينَ: سوقُ مراكِبِهم إسراعًا بهم إلى ما أُعِدَّ لهم مِن الكرامةِ في الجنَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٧٩).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿زُمَرًا﴾ أي: جَماعةً بعدَ جماعةٍ: المقرَّبون، ثمَّ الأبرارُ، ثمَّ الذين يَلُونَهم، =

كما قال تعالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوَّلَ زُمرةٍ يَدخُلونَ الجنَّةَ على صُورةِ القَمرِ ليلةَ البدْرِ، والذين يَلونَهم على أشَدِّ كَوكبٍ دُرِّيٍّ[١] في السَّماءِ إضاءةً؛ لا يَبولون، ولا يَتغوَّطون، ولا يَمتَخِطونَ، ولا يَتْفُلونَ، أمشاطُهم الذَّهَبُ، ورَشْحُهم[٢] المِسكُ، ومَجامِرُهم الأَلُوَّةُ[٣]، وأزواجُهم الحُورُ العِينُ، أخلاقُهم على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ[٤]، على صُورةِ أبيهم آدمَ؛ سِتُّونَ ذِراعًا في السَّماءِ))[٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

أي: حتَّى إذا بلَغَ المتَّقونَ الجنَّةَ، وفُتِحت لهمْ أبوابُها[٦].

= ثمَّ الذين يَلُونَهم، كلُّ طائفةٍ مع مَن يُناسِبُهم: الأنبياءُ مع الأنبياءِ، والصِّدِّيقونَ مع أشكالِهم، والشُّهداءُ مع أضرابِهم، والعُلَماءُ مع أقرانِهم، وكُلُّ صِنفٍ مع صِنفٍ، كُلُّ زُمرةٍ تُناسِبُ بَعضُها بعضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

(١) دُرِّيٍّ: أي: مُضيءٍ مُتلالِئٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) رَشْحُهم: أي: عَرَقُهم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٢١).

(٣) مَجامِرُهم الأَلُوَّةُ: المجامِرُ: جَمعُ مِجمَرةٍ، وهي المِبخَرةُ، سُمِّيَت مجمَرةً لأنَّها يُوضَعُ فيها الجَمرُ لِيَفوحَ به ما يُوضَعُ فيها مِنَ البَخورِ، والأَلُوَّةُ: العُودُ الهِنديُّ، جُعِلَت مَجامِرُهم نَفْسَ العُودِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٤).

(٤) على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ: رُوِيَ (خُلُق) بضَمِّ الخاءِ واللَّامِ، أي: أنَّهم على قَلبٍ واحِدٍ، أخلاقُهم مُتساويةٌ في الحُسنِ والكَمالِ، ورُوِي (خَلْق): بفَتحِ الخاء وتَسكينِ اللَّامِ، أي: أنَّهم في سِنٍّ واحدةٍ، مُتشابِهونَ فيما بيْنهم في الخِلْقةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٧٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٨١)، ((الكوكب الوهاج)) للهرري (٢٥/ ٤٩٤).

(٥) رواه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) واللفظ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١، ٧٢). =

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى عليه وسلَّم قال: ((ما

= اختلَف المفسِّرون في جَوابِ ﴿إِذَا﴾ في هذه الآيةِ؛ فقيل: مَحذوفٌ، تَقديرُه: دَخَلوها. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والزَّجَّاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦٤).

وقيل: المحذوفُ تقديرُه: سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفَرِحوا. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢١).

وعلى هذين الوَجهَين فتكونُ الجملةُ مِنْ قَولِه: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ.

وقيل: الواوُ للعَطفِ على الجوابِ المحذوفِ، تَقديرُه: حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٨).

وقيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾ قَولُه: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، والواوُ زائِدةٌ، وهو رأيُ الكوفيِّينَ والأخفَشِ. أو الجوابُ قَولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ على زيادةِ الواوِ أيضًا، أي: حتى إذا جاؤُوها قال لهم خَزَنَتُها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٤٧).

قال القُرطبيُّ: (قد قيل: إنَّ زيادةَ الواوِ دَليلٌ على أنَّ الأبوابَ فُتِحَت لهم قبْل أنْ يأتُوا؛ لكَرامتِهم على اللهِ تعالى، والتَّقديرُ: حتى إذا جاؤوها وأبوابُها مُفتَّحةٌ؛ بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، وحُذِفت الواوُ في قِصَّةِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم وَقَفوا على النَّارِ وفُتِحَت بعْد وُقوفِهم؛ إذلالًا وتَرويعًا لهم. ذكَره المهْدويُّ، وحكَى معناه النَّحَّاسُ قَبْلَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٥). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧، ١٨)، ((تفسير المهدوي)) (٥/ ٥٣٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (دعْوَى أنَّ أبوابَها فُتِحت قبْلَ مَجيئِهم دَعوى لا يُسعِفُها الدَّليلُ؛ بل الدليلُ على خِلافِها؛ لأنَّهم إذا جاؤوها لا يَجدونها مَفتوحةً، بل يَجدونَها مُغْلقةً، ثم يَشفَعُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن تُفتَح الأبوابُ لأهلِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠١).

وقيل: إنَّ هذه واوٌ تُسمَّى (واوَ الثَّمانيةِ) تَدخُلُ على ما هو ثامِنٌ: إمَّا لأنَّه ثامِنٌ في التَّعدادِ، نَحوُ قَولِه تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ فإنَّه الوَصفُ الثَّامِنُ في التَّعدادِ، وإمَّا لأنَّ فيه مادةَ ثمانيةٍ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فقالوا في ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾: جيءَ بالواوِ؛ لأنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ. يُنظر ما قيل في هذه (الواو): ((مغني اللبيب)) لابن هشام الأنصاري (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢).

مِنكم مِن أحدٍ يَتوضَّأُ فيَبلُغُ -أو فيُسبِغُ- الوُضوءَ، ثمَّ يقولُ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبدُ اللهِ ورَسولُه؛ إلَّا فُتِحَت له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ، يَدخُلُ مِن أيِّها شاءَ))(١).

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((في الجنَّة ثَمانيةُ أبوابٍ، فيها بابٌ يُسمَّى الرَّيَّانَ، لا يَدخُلُه إلَّا الصَّائِمونَ))(٢).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((آتي بابَ الجنَّةِ يومَ القِيامةِ فأستفتِحُ، فيَقولُ الخازِنُ: مَن أنت؟ فأقولُ: مُحمَّدٌ، فيقولُ: بك أُمِرتُ لا أفتَحُ لأحدٍ قَبْلَك))(٣).

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وقال خَزَنةُ الجَنَّةِ المُوكَّلونَ بها للمُتَّقينَ: تَحيَّةٌ وأمَنةٌ مِنَ اللهِ لكم، فلا يَنالُكم شَرٌّ ولا مَكروهٌ(٤).

﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

أي: طابَت أعْمالُكم وأقْوالُكم، فصَلَحْتُم لِسُكنى الجنَّةِ، فادخُلوها ماكِثينَ فيها أبدًا(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٧) واللفظ له، ومسلِم (١١٥٢).

(٣) رواه مسلم (١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (هذا خبرٌ وليس دُعاءً، فيما يَظهَرُ... فكأنَّها تُخبِرُهم بأنَّهم حَلَّ عليهم السَّلامُ؛ لأنَّ الجنَّةَ هي دارُ السَّلامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((زاد =

قال تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٢، ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

في قولِه تعالى: ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أقْوالٌ؛ منها: طابَ لكمُ المُقامُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

ومنها: طِبْتُم بطاعةِ اللهِ، قاله مُجاهِدٌ.

ومنها: أنَّهم طُيِّبوا قَبْلَ دُخولِ الجنَّةِ بالمَغْفرةِ، واقتُصَّ من بَعْضِهم لِبَعضٍ، فلمَّا هُذِّبوا قالت لهمُ الخَزَنةُ: طِبْتُم، قاله قَتادةُ. واقْتِصاصُ بَعضِهم من بَعضٍ وتَهْذيبُهم قبْلَ دُخولِ الجنَّةِ ورَد فيه حَديثُ أبي سَعيدٍ عندَ البُخاريِّ (٦٥٣٥).

ومنها: كُنْتم طيِّبينَ في الدُّنْيا، قاله الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجَوزي)) (٤/ ٢٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٦٤).

ممَّنِ اخْتارَ أنَّ المرادَ: طابَ لكمُ المُقامُ: العُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير العُليمي)) (٦/ ٩٢).

وممَّنِ اخْتار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: طِبْتم من دَنَسِ المعاصي، وطَهُرتم مِن خَبَثِ الخَطايا: الرازيُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والشَّوكانيُّ، والقاسِميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٨).

قال السعديُّ: (﴿ طِبْتُمْ ﴾؛ أي: طابَت قُلوبُكم بمَعرفةِ اللهِ ومَحبَّتِه وخَشيَتِه، وألسِنَتُكم بذِكْرِه، وجَوارِحُكم بطاعَتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ: طَابَتْ أعْمَالُكم في الدُّنيا، فطَابَ اليَومَ مَثْوَاكُم: ابنُ جَريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٣٩٠).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقولُه: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾: أي: طابَتْ أعْمالُكم وأقْوالُكم، وطابَ سَعْيُكم فطابَ جَزاؤُكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٢).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ ﴿ طِبْتُمْ ﴾: أي أعْمالًا، ومُعتَقدًا، ومُستَقرًّا، وجَزاءً: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥).

وسلَّم: ((يَخلُصُ المؤمِنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسُون على قَنطرةٍ[(١)] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[(٢)] لِبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّة؛ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَأَحَدُهم أَهدَى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[(٣)].

وعن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الجنَّةُ لا يَدخُلُها إلَّا نَفْسٌ مُسلِمةٌ))[(٤)].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٧٤﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾.

أي: وقال المُتَّقونَ: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا مِنَ الثَّوابِ على طاعتِه في الدُّنيا، فأنجَزَه لنا في الآخِرةِ[(٥)].

كما قال تعالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) القَنطرةُ: الجِسْرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنةِ والنارِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٥٢٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(٢) فيُقَصُّ: أي: يُمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخْذِ القِصاصِ، وهو أنْ يَفعلَ به مِثلَ فِعلِه؛ مِن قتْلٍ، أو قَطعٍ، أو ضرْبٍ، أو جرْحٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٥).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٩).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

أي: وملَّكَنا اللهُ أرضَ الجنَّةِ[1] نَسكُنُ منها حيثُ نُحِبُّ ونَشْتَهي، ونَنزِلُ في

(١) قال الماوَرْديُّ: (في هذه الأرضِ قَوْلانِ؛ أحَدُهما: أرضُ الجنَّةِ...، الثاني: أرضُ الدُّنْيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مُقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعْلبيُّ، والسَّمْعانيُّ، وابنُ عَطيَّةَ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، والسعديُّ، وغَيرُهم، ونسَبَه الماوَرْديُّ لأكثَرِ المُفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ -في رِوايةِ عَطاءٍ-، وأبو العاليةِ، وأبو صالحٍ، وقَتادةُ، ومُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وسَعيدُ بنُ جُبيرٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣).
لكنْ قال ابنُ عُثَيْمين: (وهذا التَّفسيرُ يَرِدُ عليه أمْرانِ:
الأمرُ الأوَّلُ: أنَّ الأرضَ إذا أُطلِقَت فهي الأرضُ المقابِلةُ للسَّماءِ، وهي أرضُنا هذه.
الأمرُ الثَّاني: أنَّه تعالَى قال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وكان مُقْتَضى السِّياقِ إذا كانتِ الأرضُ هي الجنَّةَ أنْ يُقالَ: (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ)، فلا يَأْتي بالظَّاهِرِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ في هذا المكانِ لا مَعْنى له). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٥٠٦).
قال الواحِديُّ: (ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قال: يَعني الدُّنْيا تَصيرُ للمؤمنينَ من هذه الأمَّةِ، وهذا حُكمٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ بإظْهارِ الدِّينِ وقَهرِ الكافِرينَ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٢٨).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأرضِ هنا المقابِلةُ للسَّماءِ: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٥٠٦). =

أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها، فأينَ شِئْنا حَلَلْنا[1].

كما قال تعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

= وذكَر أنَّ (أل) هنا للعَهدِ، وأنَّ مَعنى الإيراثِ -على القولِ بأنَّها أرضُ الدُّنيا- هو ما يَسْتَولي عليه المسلِمونَ مِن أراضي الكُفَّارِ، وإيراثٌ آخَرُ: أنَّ وُجودَهم على الأرضِ بحقٍّ، ووجودَ الكُفَّارِ بغَيرِ حقٍّ، لكنَّ اللهَ أبْقاهُم لحِكْمةٍ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

واستَبعَدَ أبو حيَّانَ القولَ بأنَّها أرضُ الدُّنْيا، وقال الألوسيُّ: (ليس بشَيءٍ). يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قيل: معْنى وِراثةِ الجَنَّة: أنَّ أهلَها أخَذوا فيها المواضعَ التي كانت لأهلِ النار لو كانوا آمَنوا وأطاعوا اللهَ في الدُّنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، والعُليمي، ونسَبه القُرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧).

وقيل: معْنى (أَوْرَثَنَا): ملَّكَنا نَتَصَرَّفُ فيها كما نشاءُ، تَشبيهًا بحالِ الوارِثِ وتَصَرُّفِه فيما يَرِثُه. وممَّن اختار هذا المعنى: الخازنُ، وأبو حيَّانَ، والنَّسفيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٥).

قال البقاعيُّ: (جعَل حالَنا فيها في تَمامِ الملكِ، وعدَم التسبُّبِ في الحقيقةِ فيه حالَ الوارثِ الذي هو بعْدَ مَوروثِه، ولا شيءَ بعْدَه، ولا مُنازِعَ له). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٧٠).

وقيل غيرُ ذلك في سَببِ التعبيرِ بالإرثِ هنا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠).

((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[١].

﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

أي: فنِعْمَ ثَوابُ العامِلينَ بطاعةِ اللهِ في الدُّنيا: نَعيمُ الجنَّةِ في الآخِرةِ[٢].

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾.

أي: وتَرى يا مُحمَّدُ[٣] الملائِكةَ مُحيطينَ بعَرشِ الرَّحمنِ[٤].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٣) قال الألوسي: (الخِطابُ لسَيِّدِ المُخاطَبين صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجُوِّز أنْ يكونَ لكُلِّ مَن تَصِحُّ منه الرُّؤيةُ، كأنَّه قيل: وترَى -أيُّها الرَّائي- الملائِكةَ حافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ، أي: حولَ العَرشِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ إيذانًا بأنَّها رُؤيةُ دُنُوٍّ من العَرشِ وملائكتِه، وذلك تَكريمٌ له بأنْ يكونَ قدْ حَواه مَوكِبُ الملائكةِ الذين حَولَ العَرشِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٦٢).

قال البقاعيُّ: (فإدخالُ ﴿مِن﴾ يُفهِمُ أنَّهم مع كَثرتِهم إلى حَدٍّ لا يُحصيه إلَّا اللهُ: لا يَملؤونَ ما حَولَه!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٧١).

أي: يُنَزِّهون ربَّهم عن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتَعظيمًا(١).

كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وحَكَم اللهُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ(٢).

﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ويُقالُ: الحَمدُ للهِ تعالى وَحْدَه الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المُدَبِّرِ لجَميعِ الخلائِقِ(٣).

كما قال تعالَى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بيْنَ العبادِ بإدخالِ بعضِهم الجنَّةَ، وبعضِهم النَّارَ، وقيل: بيْنَ النَّبيينَ الذين جِيءَ بهم معَ الشهداءِ وبيْنَ أُممِهم بالحقِّ، وقيل: بيْنَ الملائكةِ بإقامتِهم في مَنازِلِهم على حسبِ درجاتِهم، والأوَّلُ أولَى). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٦).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ إغراءُ النُّفُوسِ على العَمَلِ بعَمَلِ أهلِ الجنَّة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تبيَّنَ له الفَرقُ العظيمُ والتَّبايُنُ الكبيرُ بيْنَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ عِندَه ما يَحُثُّه ويُزعِجُه إزعاجًا إلى العَمَلِ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ(١).

٢- حَرَّم اللهُ سُبحانَه الجنَّةَ على مَن في قَلبِه نَجاسةٌ وخُبثٌ، ولا يَدخُلُها إلَّا بعْد طِيبِه وطُهْرِه؛ فإنَّها دارُ الطَّيِّبينَ؛ ولهذا يُقالُ لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، أي: ادخُلوها بسَبَبِ طِيبِكم، والبِشارةُ عندَ الموتِ لهؤلاء دونَ غَيرِهم، كما قال تعالَى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ فالجنَّةُ لا يَدخُلُها خَبيثٌ، ولا مَن فيه شَيءٌ مِن الخُبْثِ؛ فمَن تَطهَّرَ في الدُّنيا، ولَقِيَ اللهَ طاهِرًا مِن نَجاساتِه؛ دخَلَها بغيرِ مُعَوِّقٍ، ومَن لم يَتطهَّرْ في الدُّنيا؛ فإنْ كانت نَجاستُه عَينيَّةً -كالكافِرِ- لم يَدخُلْها بحالٍ، وإنْ كانت نجاستُه كَسبيَّةً عارِضةً دَخَلها بعْدَما يَتطَهَّرُ في النَّارِ مِن تلك النَّجاسةِ، ثمَّ يَخرُجُ منها، حتَّى إنَّ أهلَ الإيمانِ إذا جازُوا الصِّراطَ حُبِسوا على قَنطرةٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُهَذَّبونَ ويُنَقَّونَ مِن بَقايا بَقِيَت عليهم، قَصَرَتْ بهم عن الجنَّةِ، ولم تُوجِبْ لهم دُخولَ النَّارِ، حتَّى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ فيه أنَّ التَّقْوى سَببٌ لدُخولِ الجنَّةِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَرتيبَ الحُكْمِ على الوَصفِ يدُلُّ على عِلِّيَّته؛ يعني: إذا رُتِّبَ الحُكْمُ على وَصْفٍ دَلَّ ذلك على أنَّ هذا الوصفَ هو عِلَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠٤).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٦).

الحُكْمِ، فالسِّياقُ إلى الجنَّةِ هو بسَببِ التَّقوَى؛ إذنْ: تُفيدُ الآيةُ أنَّ التَّقوى سَببٌ لدُخولِ الجنَّةِ؛ ويُؤيِّدُ هذا قولُه تعالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[1] [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ وكذا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧١]، هذه الآياتُ وَصَفَت مَصيرَ أهلِ الكُفرِ، ومَصيرَ المتَّقينَ يومَ الحَشرِ، وسكَتَت عن مَصيرِ أهلِ المعاصي الذين لم يَلتَحِقوا بالمتَّقين بالتَّوبةِ مِن الكبائرِ، وغُفرانِ الصَّغائرِ باجتِنابِ الكَبائرِ، وهذه عادةُ القُرآنِ في الإعراضِ عن وَصْفِ رِجالٍ مِن الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ بمَعصيةِ رَبِّهم إلَّا عندَ الاقتِضاءِ لِبَيانِ الأحكامِ؛ فإنَّ الكبائرَ مِن أمْرِ الجاهليَّةِ. فما كان لأهلِ الإسلامِ أنْ يَقَعوا فيها، فإذا وَقَعوا فيها فعليْهم بالتَّوبةِ، فإذا ماتُوا غيْرَ تائِبينَ فإنَّ اللهَ تعالَى يُحصِي لهم حَسَناتِ أعمالِهم، وطَيِّباتِ نَواياهم، فيُقاصُّهم بها إنْ شاء، ثُمَّ هُمْ فيما دونَ ذلك يَقترِبونَ مِن العِقابِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكُفرِ في وَفْرةِ المعاصي، فيُؤمَرُ بهم إلى النَّارِ، أو إلى الجنَّةِ، ومنهم أهلُ الأعرافِ[2].

٣- في قَولِه تعالَى عن الجنَّةِ: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وكذا عن النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]؛ دَليلٌ على أنَّ النَّارَ والجنَّةَ لهما أبوابٌ تُفتَحُ وتُغلَقُ، وأنَّ لكلٍّ منهما خَزَنةً، وهما الدَّارانِ الخالصتانِ اللَّتانِ لا يَدخُلُ فيهما إلَّا مَن استَحقَّهما؛ بخِلافِ سائرِ الأمكنةِ والدُّورِ[3].

٤- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

قال خَزَنَةُ أهْلِ الجنَّةِ لأهْلِها: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾، فبَدؤوهُم بالسَّلامِ المتضَمِّنِ للسَّلامةِ مِن كلِّ شَرٍّ ومَكْروهٍ؛ أي: سَلِمتُم فلا يَلحَقُكم بعْدَ اليومِ ما تكرَهونَ، ثمَّ قال لهم: ﴿ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾؛ أي: سَلامَتُكم ودُخولُها بطِيبِكم؛ فإنَّ اللهَ حرَّمَها إلَّا على الطَّيِّبينَ، فبَشَّروهم بالسَّلامةِ، والطِّيبِ، والدُّخولِ، والخُلودِ[١].

٥- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾، فالجنَّةُ دارُ الطَّيِّبينَ، لا يَدخُلُها إلَّا طيِّبٌ، وأمَّا النَّارُ فإنَّها دارُ الخُبثِ في الأقْوالِ، والأعْمالِ، والمآكِلِ، والمشارِبِ، ودارُ الخَبيثينَ؛ فاللهُ تعالَى يَجمَعُ الخَبيثَ بَعضَه إلى بَعضٍ، فيَركُمُه[٢] كما يُركَمُ الشَّيءُ لتَراكُبِ بَعضِه على بَعضٍ، ثمَّ يَجعَلُه في جَهنَّمَ معَ أهْلِه، فليْس فيها إلَّا خَبيثٌ.

ولَمَّا كان النَّاسُ على ثَلاثِ طبَقاتٍ: طيِّبٌ لا يَشينُه خَبيثٌ، وخَبيثٌ لا طيِّبَ فيه، وآخَرونَ فيهم خُبثٌ وطِيبٌ، دُورُهم ثَلاثةٌ: دارُ الطَّيِّبِ المحْضِ، ودارُ الخَبيثِ المحْضِ، وهاتانِ الدَّارانِ لا تَفْنَيانِ، ودارٌ لمَن معَه خُبثٌ وطِيبٌ، وهي الدَّارُ الَّتي تَفْنى، وهي دارُ العُصاةِ؛ فإنَّه لا يَبْقي في جَهنَّمَ مِن عُصاةِ المُوَحِّدينَ أحَدٌ؛ فإنَّه إذا عُذِّبوا بقَدْرِ جَزائِهم أُخرِجوا مِن النَّارِ فأُدخِلوا الجنَّةَ، ولا يَبْقى إلَّا دارُ الطِّيبِ المحْضِ، ودارُ الخُبثِ المحْضِ[٣].

٦- أنَّ أهلَ الجنَّةِ في مَنازِلِهم لا يُريدونَ غيْرَها؛ لقولِه تعالَى: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ ﴾، وهذا مِن تَمامِ النَّعيمِ؛ لأنَّ الإنسانَ لو تَطَلَّعَ إلى مَنازِلِ غيْرِه، لَرَأى أنَّه لم يَكْمُلْ له النَّعيمُ، يقولُ مثلًا: فلانٌ أحسنُ منِّي قصْرًا! فلانٌ أكثرُ منِّي مالًا! فيَتَنَغَّصُ عليه

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

(٢) رَكَم الشَّيءَ: إذا جَمَعه وألْقَى بعضَه على بعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٢٠).

النَّعيمُ، لكنْ إذا رأى أنَّه في المكانِ الذي يَشاؤُه، ولا يُريدُ التَّحَوُّلَ عنه؛ فإنَّ هذا مِن كَمالِ النَّعيمِ، قال اللهُ تعالَى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾(١) [الكهف: ١٠٨].

٧- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ بيانُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى بالجَزاءِ؛ حيثُ جَعَله أجْرًا، وكأنَّه أجرٌ مَفْروضٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أرادوا بـ«العامِلينَ» أنفُسَهم -أي: عامِلي الخَيرِ- وهذا مِن التَّصريحِ بالحَقائِقِ، وليس فيه عَيْبُ تَزكيةِ النَّفسِ؛ لأنَّ ذلك العالَمَ عالَمُ الحقائِقِ الكامِلةِ المجَرَّدةِ عن شَوبِ النَّقائِصِ(٣).

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ذكَرَ هنا أنَّ الملائِكةَ تَحُفُّ مِن حَولِ العَرشِ، وذكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ أنَّ له حَمَلةً، فقال: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وجَمَع في مَوضِعٍ ثالثٍ بيْنَ حَمَلتِه ومَن حَولَه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١١).

قال الألوسيُّ: (﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾: أي: يَتبوَّأُ كلٌّ منَّا في أيِّ مكانٍ أرادَه من جنَّتِه الواسِعةِ، لا أنَّ كلًّا منهم يَتبوَّأُ في أيِّ مكانٍ من مُطلَقِ الجنَّةِ، أو من جنَّاتِ غَيرِه المُعيَّنةِ لذلك الغَيرِ، فلا يُقالُ: إنَّه يَلزَمُ جَوازُ تَبوُّءِ الجَميعِ في مكانٍ واحدٍ وَحْدةً حَقيقةً، وهو مُحالٌ، أو أنْ يأخُذَ أحَدُهم جنَّةَ غَيرِه، وهو غَيرُ مُرادٍ.

وقيلَ: الكَلامُ على ظاهِرِه، ولكلٍّ منهم أنْ يَتبوَّأَ في أيِّ مكانٍ شاء من مُطلَقِ الجنَّةِ، ومن جنَّاتِ غَيرِه، إلَّا أنَّه لا يَشاءُ غَيْرَ مَكانِه؛ لسَلامةِ نفْسِه، وعِصْمةِ اللهِ تعالى له عن تلك المَشيئةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٣).

وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[1] [غافر: ٧].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ تعالَى يَختِمُ الأمورَ بالحَمدِ، كقَولِه تعالَى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وكقَولِه تعالَى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] [يونس: ١٠].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: إنَّ اللهَ تعالَى ابتَدأَ ذِكرَ الخَلقِ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في قَولِه سُبحانَه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وختَم بالحَمدِ في آخِرِ الأمرِ، وهو استِقرارُ الفَريقَينِ في مَنازِلِهم؛ فنبَّه بذلك على تَحميدِه في بِدايةِ كُلِّ أمرٍ وخاتِمتِه. واللهُ أعلَمُ بمُرادِه وأسرارِ كِتابِه[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ في قولِه: ﴿وَسِيقَ﴾ -بالنِّسبةِ لأهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ؛ إذ عُبِّرَ عن الذَّهابِ بالفَريقَينِ جَميعًا بلَفظٍ واحدٍ-: نَوعُ بَلاغةٍ دَقيقُ المسلَكِ؛ وهو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ بكلمةٍ واحدةٍ، فتكونُ تارةً دالَّةً على الهَوانِ والعِقابِ، ثمَّ يأْتي بها ثانيةً، فتكونُ دالَّةً على الإكرامِ وحُسْنِ الثَّوابِ، والمرادُ بسَوقِ أهلِ النَّارِ طَرْدُهم إليها بالهَوانِ

(١) يُنظر: ((الرسالة العرشية)) لابن تيمية (ص: ٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٥).

والعُنْفِ كما يُفعَلُ بالأَسارَى والخارجينَ على السُّلطانِ إذا سِيقوا إلى حَبْسٍ أو قتْلٍ. والمرادُ بسَوقِ أهْلِ الجنَّةِ مَساقُ إعزازٍ وتَشريفٍ؛ للإسراعِ بهم إلى دارِ الكَرامةِ، وقيل: سَوقُ مَراكِبِهم؛ لأنَّه لا يُذهَبُ بهم إلَّا راكبينَ، وحَثُّها إسراعًا إلى دارِ الكرامةِ والرِّضوانِ، كما يُفعَلُ بمَن يُشرَّفُ ويُكرَّمُ مِن الوافدينَ على بَعضِ الملوكِ؛ فشتَّانَ ما بيْنَ السَّوقينِ![1]

- وأيضًا اختيارُ لَفظِ (السَّوقِ)، وبناءُ الفِعلِ للمَفعولِ؛ لِلدَّلالةِ على عَظَمةِ الكِبْرياءِ والجَلالِ، ولِتُوافِقَ ما خُتِم به الكلامُ بما بُدِئَ به؛ ألَا تَرَى كيف قِيل: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؟ فكما أنَّ ذلك المَجيءَ لا يدُلُّ على فَضْلِهم وكَرامتِهم، بلْ على الكِبْرياءِ والجَلالِ، وكذلك هذا السَّوقُ. ويُمكِنُ أنْ يُجْرى على المشاكَلةِ؛ فإنَّه لَمَّا نُسِبَ السَّوقُ إلى الكفَّارِ، وانضمَّ معه مَقامُ الجَبروتِ والكِبْرياءِ، قِيل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال في أهلِ النَّارِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وقال هنا في أهلِ الجنَّة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بزِيادة الواوِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ أهلَ النَّارِ بمُجرَّدِ وُصولِهم إليها فُتِحَت لهمْ أبوابُها مِن غيرِ إنظارٍ ولا إمهالٍ، ولِيَكونَ فتْحُها في وُجوهِهم وعلى وُصولِهم أعظَمَ لِحَرِّها، وأشدَّ لِعَذابِها، وأمَّا الجنَّةُ؛ فإنَّها الدَّارُ العاليةُ الغاليةُ، التي لا يُوصَلُ إليها، ولا يَنالُها كلُّ أحدٍ إلَّا مَن أتَى بالوَسائلِ الموصِلةِ إليها، ومع ذلك فيَحتاجون لِدُخولِها لِشَفاعةِ أكرَمِ الشُّفعاءِ على اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥١).
وقد انتقَدَ الطِّيبيُّ هذا القولَ الثانيَ. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٧).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٨).

تعالَى؛ فلَمْ تُفتَحْ لهمْ بمُجرَّدِ ما وَصَلوا إليها، بلْ يَسْتشفِعون إلى اللهِ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى يَشفَعَ؛ فيُشفِّعُه اللهُ تعالَى[١]. وقيل: إنَّها واوُ الحالِ، أي: جاؤوها وقدْ فُتِحَت أبوابُها قبْلَ مَجيئِهم، بخِلافِ أبوابِ النَّارِ؛ فإنَّها إنَّما فُتِحَت عندَ مَجيئِهم، والسِّرُّ في ذلك: أنْ يَتعجَّلوا الفرَحَ والسُّرورَ إذا رأَوا الأبوابَ مُفتَّحةً، وأهلُ النَّارِ يَأْتونها وأبوابُها مُغلَقةٌ؛ لِيَكونَ أشدَّ لِحَرِّها، أو أنَّ الوقوفَ على البابِ المغلَقِ نَوعُ ذُلٍّ وهَوانٍ؛ فصِينَ أهْلُ الجنَّةِ عنه، أو أنَّ الكريمَ يُعجِّلُ المثوبةَ ويُؤخِّرُ العُقوبةَ، أو اعتُبِرَ في ذلك عادةُ دارِ الدُّنيا؛ لأنَّ عادةَ مَن في مَنازِلِها مِن الخدَمِ إذا بُشِّروا بقُدومِ أهْلِ المنازلِ؛ فتْحُ أبوابِها قبْلَ مَجيئِهم -استبشارًا وتطلُّعًا إليهم-، وعادةَ أهلِ الحُبوسِ إذا شُدِّدَ في أمْرِها؛ ألَّا تُفتَحَ أبوابُها إلَّا عندَ الدُّخولِ إليها أو الخروجِ[٢]. أو فُتِحتْ أبوابُها؛ إكرامًا لهم -قبْلَ وُصولِهم- إليها بنفْسِ الفتْحِ وبما يَخرُجُ إليهم مِن رائحتِها، ويرَوْنَ مِن زَهْرتِها وبَهْجتِها[٣]. وقيل غيرُ ذلك في زِيادةِ الواوِ[٤].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفُ مُسْتقبَلٍ مُتضمِّنٌ معْنى الشَّرْطِ، وجُملةُ ﴿جَآءُوهَا﴾ في مَحلِّ جَرٍّ بإضافةِ الظَّرْفِ إليها، وجَوابُها هنا مَحذوفٌ -على قوْلٍ-؛ لأنَّه في صِفَةِ أهْلِ الجنَّةِ؛ فدَلَّ بحَذْفِه على أنَّه شَيءٌ لا يُكتَنَهُ، ولا يُحِيطُ به الوصْفُ، كأنَّه قِيل: حصَلوا على النَّعيمِ المقيمِ الذي لا يَشوبُه التَّنغيصُ والتَّكديرُ، وإنَّما صار الحذْفُ في مِثلِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١، ٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٨).

(٤) ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٥٩).

أبلَغَ مِن الذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ لهم حِينئذٍ مِن فُنونِ الكراماتِ ما لا يَحدِقُ به نِطاقُ العباراتِ، فتَذهَبُ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذهَبٍ، ولو ذُكِرَ الجوابُ لَقصُرَ عن الوجْهِ الذي تَضمَّنَه البَيانُ[١]، فحُذِف؛ تَفخيمًا لِشأنِه وتَعظيمًا لقَدْرِه؛ كعادتِهم في حذْفِ الأجوبةِ[٢].

- وهذه الآياتُ السَّابقةُ مِن بابِ الجمْعِ معَ التَّقسيمِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠] جمَعَ الأنفُسَ كلَّها في حُكمِ تَوفيةِ أُجورِ الأعْمالِ صالحِها وسَيِّئِها. وقولَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وقولَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ إلى آخرِ الآياتِ؛ تَقسيمٌ لذلك الجمْعِ، وتَفصيلٌ لذلك المُجمَلِ، وقدْ أُوثِرَ فيهما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ على الكافرينَ والمتَّقين؛ لِيَدُلَّ على العُمومِ[٣].

- قولُه: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ عقَّبَ دُخولَها على الطِّيبِ بحَرفِ الفاءِ الَّذي يؤْذِنُ بأنَّه سَببٌ للدُّخولِ؛ أي: بسَببِ طِيبِكم، قيلَ لكُمْ: ادْخُلوها[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ...﴾ عطْفُ هذا الكلامِ يُؤذِنُ بأنَّ قولَهم ذلك غيْرُ جَوابٍ لِقَولِ الملائكةِ، بلْ حَمِدوا اللهَ على ما منَحَهم مِن النَّعيمِ الذي وَعَدَهم به، وإنَّما وعَدَهم به بعُنوانِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فلمَّا كانوا أصحابَ الأعمالِ الصَّالحةِ، جَعَلوا وَعْدَ العامِلينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٢٠).

للصَّالحاتِ وَعْدًا لهم؛ لِتَحقُّقِ المعلَّقِ عليه الوعدُ فيهم(١).

- قولُه: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ والأصلُ هو «فنِعْم أجْرُنا»، ولكنَّه قال: ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ تَرْغيبًا في الأعمالِ، وحثًّا على عدَمِ الاتِّكالِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِوَصفِ الملائكةِ المقرَّبينَ في ذلِك اليومِ. أو هو عَطْفٌ على ما قبْلَه مِن ذِكرِ أحوالِ يوْمِ القيامةِ التي عُطِف بعضُها على بعضٍ؛ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، أنَّ مِن جُملةِ تلك الأحوالِ حَفَّ الملائكةِ حوْلَ العرْشِ. والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيكونُ إيذانًا بأنَّها رُؤيةُ دُنوٍّ مِن العرْشِ ومَلائكتِه، وذلك تَكريمٌ له بأنْ يكونَ قدْ حَواهُ مَوكبُ الملائكةِ الذين حوْلَ العرْشِ(٣).

- وفي استِحضارِ اللهِ تعالَى بوَصْفِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ قُرْبَهم مِن العرْشِ تَرفيعٌ في مَقامِ العُبوديَّةِ الملازِمة للخلائقِ(٤).

- قولُه: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ تَأْكيدٌ لِجُملةِ ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] المتقدِّمةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ توكيدًا لِجُملةِ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةَ قولٍ آخَرَ لِقائلينَ مِن الملائكةِ والرُّسلِ وأهْلِ الجنَّةِ؛ فهو أعمُّ مِن القولِ المتقدِّمِ الذي هو قوْلُ المَسُوقينَ إلى الجنَّةِ مِن المتَّقينَ، فهذا قوْلُهم يَحمَدون اللهَ على عَدْلِ قَضائِه وجَميعِ صِفاتِ كَمالِه(١).

- قَولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حُذِفَ فاعِلُ القَولِ؛ إشعارًا بالعُمومِ، وأنَّ الكونَ كلَّه قال: «الحَمدُ للهِ ربِّ العالَمين»؛ لِمَا شاهَدوا مِن حِكمةِ الحَقِّ وعَدْلِه وفَضْلِه؛ فيَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ، والأبرارُ والفُجَّارُ، والإنسُ والجِنُّ، حتَّى أهلُ النَّارِ، قال الحسنُ: (لقدْ دخَلوا النَّارَ وإنَّ حمْدَه لَفي قُلوبِهم، ما وجَدوا عليه سبيلًا)(٢).

وقيل: لم يُبَيِّنْ أنَّ ذلك القائِلَ مَن هو؟! والمقصودُ مِن هذا الإبهامِ التَّنبيهُ على أنَّ خاتِمةَ كَلامِ العُقَلاءِ في الثَّناءِ على حَضرةِ الجَلالِ والكِبرياءِ ليْس إلَّا أنْ يَقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتَأكَّدَ هذا بقَولِه تعالَى في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣) [يونس: ١٠].

- والمَقْضيُّ بيْنهم إمَّا جميعُ العِبادِ، وإمَّا الملائكةُ بإقامتِهم في مَنازِلِهم على حسَبِ تَفاضُلِهم؛ فعلَى الأوَّلِ تَكريرُ الحمْدِ في قولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لإناطةِ معنًى زائدٍ به؛ لأنَّ الأوَّلَ للتَّفضلةِ بيْن الفريقينِ بحسَبِ الوعْدِ والوعيدِ، والسَّخطِ والرِّضوانِ، والثَّاني للتَّفرقةِ بيْنهما بحسَبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٢)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٤-٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨١).

الأبدانِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ، فتكونُ الآيةُ كالتَّتميم بالنِّسبةِ إلى الأُولى في إتمامِ القضاءِ، وعلى الثَّاني كالتَّكميلِ؛ لأنَّ ذلك القضاءَ في حقِّ بني آدَمَ، وهذا في حقِّ الملائكةِ[1].

- وقد تميَّزَ خِتامُ سُورةِ الزُّمَرِ بذِكرِ أحوالِ القِيامةِ والتَّحميدِ والتَّسبيحِ، كما تَميَّزَ بالجَزالةِ في اللَّفظِ، والمرادُ بالجَزالةِ كوْنُ اللَّفظِ مَتينًا قويًّا، على عُذوبةٍ في الفَمِ، وحَلاوةِ جَرْسِه في السَّمْعِ، ولو تأمَّلَ المتأمِّلُ قَوارعَ القُرآنِ عندَ ذِكرِ الحِسابِ والعذابِ، والميزانِ والصِّراطِ، وعندَ ذِكرِ الموتِ ومُفارَقةِ الدُّنيا، وما جَرى هذا المَجْرى؛ فإنَّه لا يَرى شيئًا مِن ذلك وَحْشِيَّ الألْفاظِ، ولا مُتوعِّرًا مُوغِلًا في الجَساوةِ والنُّبوِّ[2].



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ التَّاسعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ غافرِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٥٠).









الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠